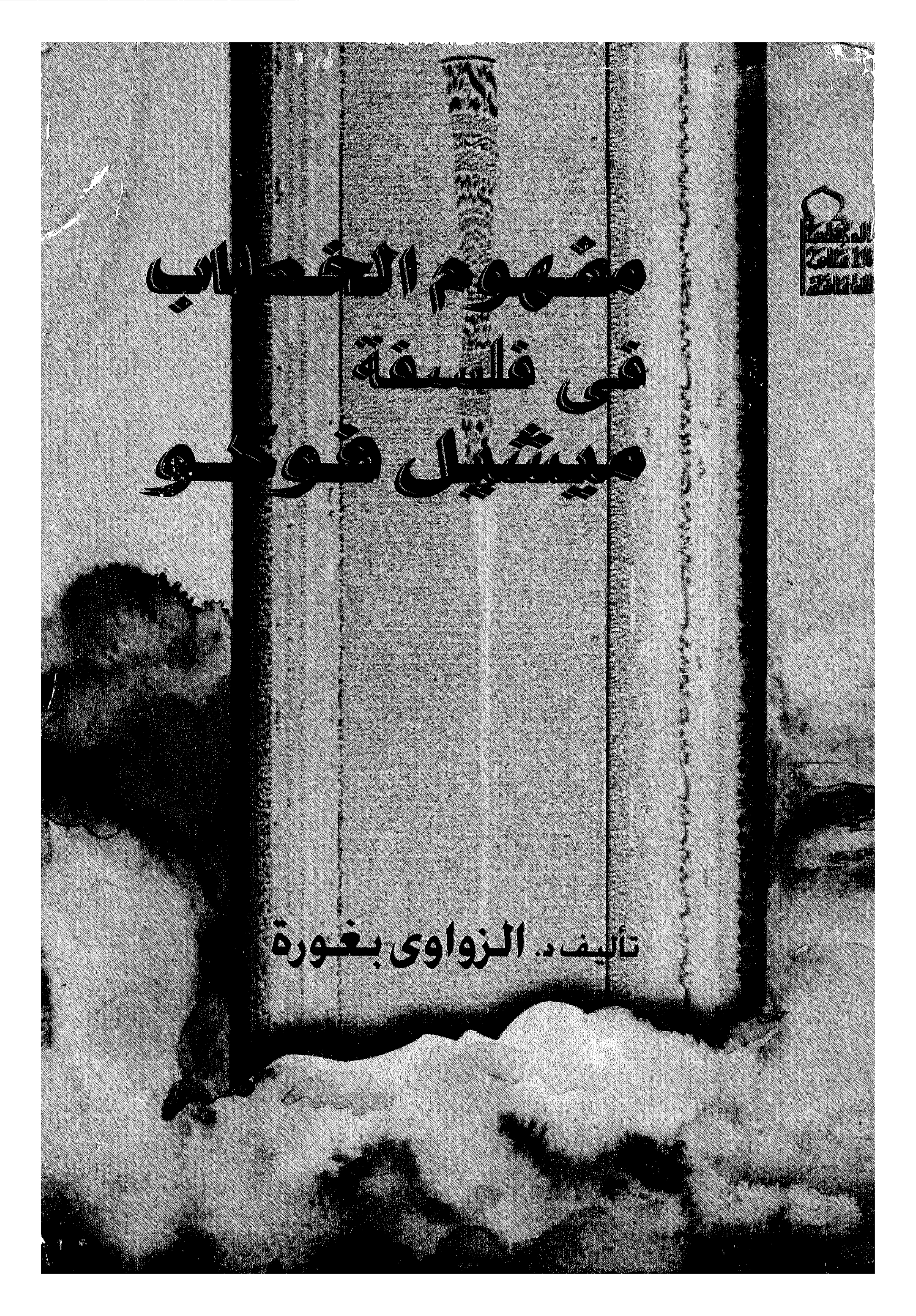

مفهوم الخطاب
فى فلسفة
ميشيل فوكو
تأليف د. الزواوى بغورة



مفهوم الخطاب
فى فلسفة ميشيل فوكو

د . الزواوى بغورة



٢٠٠٠



الإهداء :

إلى روح والديّ

محبة ووفاء

الزواوي



تصدير

يسعدني أن أصدِّر لقراء العربية ، وللمهتمين بالفكر الفلسفي المتعلق منه باللغة ، وللمتخصصين بوجه عام كتاب «مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو» للصديق العزيز الدكتور الزواوي بغورة ، وهو بحث رصين التزم صاحبه بالمنهجية المتبعة في مثل هذه الدراسات في الغرب ، ولاغرو فقد كان في أصلة رسالة دكتوراه تقدم بها الدكتور بغورة إلى جامعة باريس بفرنسا ، وحصل بها على أعلى تقدير (مشرف جداً) وبإشراف أحد المتخصصين في فلسفة اللغة وهو جاك بولان . وقد أضاف الباحث - فيما بعد - وقام بتعديلات مختلفة بحيث أضفى على البحث الأصلي مجمل خبرته في التدريس وقراءاته وتأملاته المستمرة في هذا المجال ، ليقدم لنا في الأخير عملاً شديد التميز ، يسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية ، التي لم تتعود بعد على دراسات متخصصة في فلسفة اللغة .

والكتاب في حد ذاته محاولة شاملة وجريئة لفهم ميشيل فوكو بشكل غير متجزيء ، وهو ما اتسمت به الدراسات السابقة على قلتها ، حيث حاولت أن تفهم فوكو من خلال كتاب واحد له ، فتركز على أحد الجوانب على حساب الجوانب الأخرى ، أو تجمد فوكو في مرحلة زمنية محددة فتفقد أعماله تلك الحيوية و التطور اللذين ميزاها ، خاصة عندما ننظر إليها بشكل متكامل ، وهو مايشوه العمل الأصلي ، ولعل هذا هو السبب عينه الذي جعلنا نرى تطبيقات عديدة ، ومتناقضة في واقعنا العربي الثقافي من محيطة إلى خليجه ، تدعى كل منها الإحالة على فوكو ، ولايظهر فيها وقد تم تعريبه وتأميمه ، بل وإقصاء حيوية وجدية أطروحاته ، فيصبح جامداً ، بارداً بل وتستخدم مقولاته في تبرير وإثبات ماكان يعن للمفكر ذاته - قبل البحث - تماشياً مع أيديولوجيته السياسية أو الدينية .. ومن هنا عرفنا في الدراسات العربية أكثر من فوكو واحد . وعلى الرغم من أننا مازلنا نجهل الكثير عن فوكو ، حتى في الدراسات الغربية نفسها ، والتي لم تستطيع بعد أن تضع يدها على ما تكشف أخيرا من أن هناك محاضرات وكتابات ومقالات لفوكو في دول عديدة ، وبالتالي كان هناك فوكو الامريكي ، والياباني والبرازيلي والألماني والإيطالي ، وكلها أعمال غير معروفة بعد

فى فرنسا ، ومازالت لم تجمع فى عمل واحد ولم تترجم . على الرغم من ذلك فالحق أن دراسة الدكتور بغورة تلك تخطت الدراسات السابقة عليها ، فى اللغة العربية حيث استطاعت التعامل مع أفكار وأطروحات ميشيل فوكو الأساسية من خلال تطورها عبر كتاباته المستمرة ، فلم تهمل ، بل ولم تخلط بين الأفكار الأساسية لفوكو ، وقد ارتفعت منهجيا عن هذا الخلط ، وسوء الفهم بمناقشة أفكاره داخل سياقات ومستويات محددة : اللغة ، والخطاب ، والعلاقات والمكانة . الأمر الذى جعله يضع يده على أهم ما يشكل لب أطروحات فوكو ، مستبعداً تلك الاجتهادات الجزئية السابقة التى أعلى أصحابها شأن ثنائيات من قبيل : التراث والآخر ، أو المعرفة والسلطة ، أو السلطة والأخلاق ، مقرراً أن «الخطاب فى التاريخ» ، هو موضوع فوكو المركزي . والحق أن الجزء الأولى وهو «الخطاب» يمكن أن يكون مفهوما ، بينما يفاجئنا الجزء الثانى وهو «التاريخ» باعتبار أن ما روّج عن فوكو منذ فترة طويلة يستبعد دائما مفهوما خاصا للتاريخ لدى فوكو باعتباره وسيلة لمقاربة مجمل الموضوعات الفلسفية (اللغوية ، والمعرفية والسياسية) مقاربة تاريخية .

كما أن إطلاع د. بغورة على أرشيف فوكو بباريس كان له أكبر الأثر فى إلقاء الضوء على بعض ماكنا نظنه جوانب معتمة في فكر هذا الفيلسوف الهام ، ولعلنا نلحظ من خلال قائمة المصادر والمراجع إلى أى مدى كان باحثنا أمينا عندما اعتمد فى دراسته تلك على ما يكاد يكون كل المادة العلمية الممكنة والمتوفرة حتى الآن عن فوكو خاصة هذا العمل الضخم «أقوال وكتابات» والذى اشرف عليه فرانسوا إيوالد ودانييل ديفير وظهر فى أربعة مجلدات ، تعدت صفحاتها الثلاثة آلاف صفحة ، وهى عبارة عن تجميع لكل المقالات والمقدمات ، وحتى اللقاءات الصحفية التى كتبها أو أجراها ميشيل فوكو أثناء حياته ، وصدرت فى الذكرى العاشرة لوفاة فوكو سنة ١٩٩٤ . وهذا ما يؤكد مصداقية ما توصل إليه : من أن «مفهوم الخطاب يعد مدخلاً ضرورياً لقراءة فلسفة فوكو ومقاربة فلسفية صالحة لمناقشة وتحليل القضايا الفكرية والثقافية» .

ود. الزواوى بغورة ليس جديداً على الساحة الثقافية المصرية إذ طالعنا دراساته وترجماته الجادة فى مجلتى «إبداع» و«أدب ونقد» القاهريتين ، إضافة إلى مساهماته العديدة والمتميزة فى المؤتمرات الفلسفية التى عقدت أخيراً بالقاهرة ، وهو أستاذ الفلسفة بمعهد الفلسفة بجامعة قسنطينة بالجزائر ، كما يشغل منصب رئيس المجلس العلمى لمعهد العلوم الاجتماعية بنفس الجامعة ويرأس تحرير مجلة «سرتا» للدارسات التاريخية والاجتماعية والفلسفية التى يصدرها المعهد وله كتب ودراسات أكاديمية متخصصة فى عديد من الدوريات العلمية والأكاديمية ، وهو متخصص فى الفكر الغربى المعاصر الذى بدأه برسالة للماجستير وكانت عن المنهج البنيوى ، عند كلود

ليفي شتراوس ، وبعدها في رسالته التي تشكل أصل هذا الكتاب الذي نصدره للقارىء العربي اليوم ، وهو إلى جانب حصوله على الدكتوراه من جامعة باريس ، فهو .. أيضا على دكتوراه الدولة من جامعة قسنطينة بالجزائر تحت اشراف الدكتور فت . التريكي .

وفي الأخير لا أقول أكثر من أن قراءة د.بغورة لميشيل فوكو قراءة شديدة الأمانة ، حاولت ألا تغيّب أي بعد من أبعاد فكره حيث وضعت كل جوانب أفكاره الأساسية أمام القارئ في اجتهاد حاول منذ السطر الأول ألا يكون مبسطا أو مختزلا أو مشوهاً أو متلاعباً بأفكار هذا الفيلسوف الذي مازالت له سطوة كبرى في مجال الدراسات الفلسفية الغربية ، ومازال خطابه يحوز سلطة على فلاسفة الغرب المعاصرين . وأكثر من ذلك يظل فوكو يمثل ظاهرة في الفكر العالمي ، حيث استطاعت أطروحاته أن تحدّث تحولات كبيرة في المجالات التي تصدى لها : في مجال الفلسفة والنقد الأدبي ، وعلم النفس ، والتاريخ السياسي والطب ، والحقوق ، وحقوق الاقليات ، بحيث أصبحت دراسة ميشيل فوكو ، ليست دراسة للفيلسوف بقدر ماهي دراسة لحقيقة واقعنا ، وحقيقة أنفسنا وتجاربنا وسلوكنا في الماضي والحاضر والمستقبل .

مجدى عبد الحافظ
القاهرة في ١٥/١٢/٩٨



مقدمة

موضوع هذه الدراسة، مفهوم الخطاب وعلاقاته ووظائفه و مكانته. لماذا ؟ لأننا نريد أن نبين هذا الجانب من فلسفة فوكو الذي لم يتم البحث فيه بعد، ولأن الموضوع في حد ذاته إشكال فلسفي يرتبط بالمسائل الجديدة التي تطرحها فلسفة اللغة.

وعليه حاولنا مناقشة اللغة في الفصل الأول، وبينا من خلال المحاور الثلاثة للفصل ، أن اللغة ارتبطت في فكر الفيلسوف بتجارب خاصة، عكست منظوره اللغوي القائم على أولوية اللغة وقدرتها على التجاوز والهدم والاختراق ، وهي قدرة أنطولوجية شكلت بديلا نظريا وفلسفيا لفكر الفيلسوف خلال حقبة زمنية كاملة .

إلا أن هذا الاهتمام باللغة لم يكن إلا مرحلة في فكرالفيلسوف تحول بعدها إلى مفهوم الخطاب وذلك لما يشكله من وسيلة إجرائية ملائمة لتحليل مختلف الموضوعات الفلسفية ، خاصة وأن هدفه الفلسفي لم يكن أبدا تحليل المعنى ووصف بنى اللغة ، وإنما دراسة الوظائف المختلفة للخطابات في التاريخ، أو ما يسميه بالوجود التراكمي للخطابات ووظائفها في التاريخ، من هنا لايمكن في نظره أن نفصل بين دراسة الخطاب ودراسة التاريخ .

إن هذه المسائل وغيرها كانت موضوع الفصل الثاني حيث حاولنا أن نبين بنية الخطاب ومنهجه ومكانته ، وذلك بإظهار أن الخطاب عند فوكو لا يقوم على أصول ألسنية أومنطقية ، وإنما يتشكل من وحدات ذرية هي المنطوقات ومن وحدات كبرى هي التشكيلات الخطابية والتى تشكل بدورها حقولا خطابية تحكمها قوانين التكوين والتحويل .

وعلى هذا الأساس يختلف تحليل الخطاب ، منهجيا ، عن تحليل الجملة في اللغة واللسانيات ، وعن تحليل القضية في المنطق ، ويتأسس على التحليل الأركيولوجي - الجنيالوجية ، وذلك من أجل الكشف على ندرته وخارجيته وتراكميته .

وهو بهذا الاعتبار يعد مفهوما إجرائيا يقيم علاقات إجرائية مع مختلف حقول المعرفة والسياسة والأخلاق . هذه العلاقات التي حاولنا مناقشتها في الفصل الثالث والرابع والخامس وذلك بتحليل علاقة الخطاب بالمعرفة والسلطة والذات .

وفي الفصل السادس والأخير حاولنا مناقشة الخطاب في بعده التاريخي والفلسفي فبينا مفهوم فوكو للتاريخ والفلسفة و خلصنا إلى أن التاريخ المقصود هو

تاريخ الحاضر وأن الفلسفة المعنية هي الفلسفة التي تكون مهمتها تشخيص الحاضر، وأن هاتيـــن المهمتين تلخصهما عبارة الأنطولوجية التاريخية التي تتميز بدراستها لتجارب تاريخية ذات بعد أنطولوجي ، عكست خطابا فلسفيا جديدا ،تميز عن سائر الخطابات الفلسفية المعاصرة .

وعلى هذا الأساس يكون مفهوم الخطاب ، في نظرنا ، وبالشكل الذي عرضناه في هذه الدراسة ، تعريفا ومنهجا وعلاقات ومكانة ، محاولة منهجية لتحليل مختلف الموضوعات التاريخية والثقافية .

لذلك أقدمنا على نشر هذا العمل المنهجي ' الذي نتمنى أن يمكن القاريء العربي من الاطلاع على بعض طرائق تحليل الخطاب مقارنة بالتحليل اللغوي كما هو سائد في الاتجاه الأنجلوسكسوني أو التأويل كما هو ممارس في المدرسة الألمانية .

الـزواوى بغـورة

قسنطينة ٢٠ أغسطس ١٩٩٨

مدخل :

أولا – تحديد المفهوم .

ثانيا – الدراسات السابقة .

ثالثا – الأطروحة ونقيض الأطروحة .

رابعا – الرد والتأسيس .

أولا- تحديد المفهوم

هذا البحث، دراسة لمفهوم إشكالي في الفلسفة المعاصرة، هو مفهوم الخطاب "Le Concept Du Discours"، وعند فيلسوف معاصر، مثير للبس والخلاف، هو الفيلسوف الفرنسي، ميشيل فوكو Michel Foucault ١٩٢٦ - ١٩٨٤ .

وقبل أن نبين الوجه الإشكالي في الخطاب، نحاول أن نحدد المعنى والغرض من استعمالنا لكلمة المفهوم، بدلا من غيرها، فلقد ترجم العرب الكلمة الفرنسية "Concept" بكلمات مختلفة، مثل : التصور، الأفهوم، المفهومة، المفهمة، والمفهوم[١] ولكل ترجمة أسبابها وحججها اللغوية والنحوية والصرفية، وقد استعملنا في بحثنا هذا كلمة المفهوم المتداولة والمستوفية للشروط اللغوية[٢]

إلا أن الكلمة موضع خلاف أيضا على مستوى المضمون والعناصر المشكلة لها، وهذا الخلاف معرفي وفلسفي، نجده في مختلف المدارس الفلسفية وعند جميع الفلاسفة. ويتمحور الخلاف حول أصل المفهوم وميدانه وعلاقته ووظيفته.

ولعل من بين أسباب الخلاف، صعوبة التمييز بين المفهوم والتصور "Représentation" والمقولة "Catégorie" وذلك لأن هذه الكلمات تشترك كلها في الإشارة إلى الفكرة العامة والمجردة.

ويعتبر "كانط «Kant» أول فيلسوف عرف المفهوم بحسب وظيفته وهي : (توحيد المتنوع في فكرة واحدة)[٣] وميز بين المفاهيم الخالصة والقبلية أو المقولات، مثل الوحدة والكثرة والسببية، والمفاهيم البعدية أو التجريبية. كما حاول "هيجل Hégel" إقامة المنطق الجدلي على المفهوم واعتباره قسما من أقسامه[٤]

١- مراد وهبة "مفهوم" في الموسوعة الفلسفية العربية "اشراف" معن زيادة "مركز الإنماء القومي. ص ص ٧٦٨ - ٧٦٩ .

٢ - نفس المرجع، ص ٧٧٠ .

٣ - Gerard Durozoi ،André Roussel, **Dictionnaire de Philosophie** ،ed. Nathan ، Paris 1990 ،p,p 69 - 70.

-Armond cuviller ،**Nouveau Vocabulaire Philosophique** ،ed. Armond Colin ، Paris ،1956 ،p.39.

٤ - هيجل، **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ، ١٩٨٣، ص ص ٨٩ - ١٠٨ .

وفي الفلسفة المعاصرة، وخاصة في الإبستيمولوجيا الفرنسية، نجد اهتماما خاصا بالمفهوم عند "باشلار Bachlard" و"بياجيه Piaget" و"كونغليم Cangulhem" و"التوسير Althusser"، هذا الأخير الذي ميز بين مختلف ميادين المفهوم والتصور والمقولة، فرأى أن التصور ميدانه الإيديولوجية، والمقولة ميدانها الفلسفة والمفهوم ميدانه العلم[٥] إن هذا التصنيف مبني على اعتبارات علمية وفلسفية وإيديولوجية خاصة بالماركسية، التي تؤكد على أن المفاهيم تغتني وتتطور، وأن وظيفتها انتقاء الأشياء التي تهمنا من وجهة نظر الممارسة والمعرفة[٦] .

كما أن هذا الاهتمام بالمفهوم مرده إلى الخصائص التي يتميز بها، مثل العمومية والتجريد والدقة والوظيفة، وخاصة من حيث استعماله ضمن سياقات خاصة. ومن هذه الخاصية الأخيرة نقارب موضوع بحثنا، وذلك بمساءلة مختلف وظائف مفهوم الخطاب، مستعينين بالتحليلات التي قدمها "جيل دلوز Gilles Deleuze" في هذا المجال، والذي يرى أن مهمة الفلسفة هي خلق وصناعة المفاهيم التي يجب أن تستجيب لمسائل حقيقية[٧] .

ولإبداع أو صناعة مفهوم معين، وجب بناء منطقة كاملة من المفاهيم، وذلك لأن المفهوم مركب دائما، فليس هنالك مفهوم بسيط، يتحدد بعنصر واحد، بل إن كل مفهوم يتشكل من مجموعة من العناصر، ومن مجموعة من العلاقات المختلفة، ولكن هذا لا يعني أن المفهوم، يتمتع بجميع العناصر وبجميع العلاقات.

ولكل مفهوم تاريخ، متعرج ومتشابك مع مسائل مختلفة، ومفاهيم متعددة، وعلاقات متنوعة تكون متفقة أو متقاطعة معه، أو مختلفة عنه. لذا فإن المفهوم لا يطرح مشكلة واحدة بل مشاكل متعددة، تجعلنا نمر من مسألة إلى مسألة أخرى ومن قضية إلى قضية أخرى ومن علاقة إلى علاقة أخرى ومن عالم إلى عالم آخر، إنه يجعل العناصر رغم اختلافها غير قابلة للانفصال.

وعلى الرغم من كونه غير مادي، إلا أنه يتجسد ويتحقق ويقول الحدث، إنه كيان

---

٥ – لوي التوسير ' **الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية** ' ترجمة وتقديم رضا الزواري ' مطبعة النجاح الجديدة ' الدار البيضاء ' ١٩٨٩ ' انظر المقدمة والفصل الاول ' وكذلك حواره في دراسات عربية العدد ٥٠ – ١٩٧١ بعنوان : **الفلسفة سلاحا ثوريا** .

٦ –روزنتال و يودين ' **الموسوعة الفلسفية** ' ترجمة ' سمير كرم ' دار الطليعة ' ١٩٨١ ' ص ٤٨٨ .

٧ – جيل دلوز و وفيلكس غتاري ' **ماهي الفلسفة** ' ترجمة د . جورج سعد ' دار عويدات الدولية . بيروت – باريس ١٩٩٣' المدخل .

وفعل تفكير، وهو الذي: (يمنع الفكر من أن يكون مجرد رأي أو مناقشة أو ثرثرة)[٨] إن هذا الطرح لمسألة المفهوم ، ووظيفته يتفق والمنحى الفلسفي العام لفوكو، الذي اهتم بالمفهوم وبوظيفة المفهوم، وعمل على إيجاد مفاهيم جديدة في الفلسفة، بدلا من النظريات[٩] .

وعلى هذا الأساس الفلسفي للمفهوم، نحاول مقاربة مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو، باعتباره مفهوما إشكاليا ، سواء من حيث العناصر المشكلة له، أو من حيث الوظائف التي يقوم بها ، أو العلاقات التي تربطه مع مختلف المفاهيم، أو من حيث مكانته في الفلسفة المعاصرة.

ولقد اعتمدنا في دراستنا لهذا الموضوع، على أعمال الفيلسوف المطبوعة منها والمخطوطة، والمجمعة بمركز "ميشيل فوكو" في مكتبة "السولشوار" بـ"باريس"[١٠] وكذلك مركز "الطاهر حداد" بـ"تونس"،التي جمعت أعماله التي قدمها وهو في تونس .

كما اعتمدنا على دراسات حول الفيلسوف، وهي على صنفين ، إما رسائل جامعية أو دراسات مستقلة، حاولنا قدر الإمكان، الاطلاع على دراسات الفلاسفة أمثال "دلوز"، "كونغليم"، "روورتي "Rorty"، "رايجسمان "Rajchman"، "هبرماس "Habermas"، "رابينوف ودريفوس "Dreyfus &Rabinov"، إضافة إلى الملتقيات التي ناقشت فكر الفيلسوف ، والتي تقام سنويا من طرف المركز الخاص بجمع أعماله.

وقبل أن نتعرض لمختلف الدراسات، ذات العلاقة بموضوعنا، نفضل الإشارة إلى مسألة الترجمة وإلى مختلف الترجمات العربية لإنتاج الفيلسوف، والتي حاولنا الاطلاع عليها ومقارنتها، سواء مع النص الأصلي أو مع مختلف النصوص المترجمة.

وفي هذا السياق إطلعنا على الترجمات التي صدرت عن مركز "الإنماء القومي" بـ"بيروت" ضمن مشروع "مطاع صفدي للينابيع" . وهي ترجمات جماعية وفردية تمت مراجعتها وتدقيقها والتقديم لها.

---

٨ – جيل دلوز ' حوار ' (**الفيلسوف المترحل ' علامل واحداث**)'ترجمة محمد ميلاد' في'**العرب والفكر العالمي**'

العددان ١٣ –١٤ ، ١٩٩١ ' ص ، ٢٠٧ .

٩ – Michel Foucault ,**THeatrum Philosophcum**, in , Critique , No 282, 1970 p. 897

(١٠) –كل الاحالات التي تحمل علامة (D) هي من المخطوطات التابعة للمركز والتي تم تحويلها مؤخرا إلى IMECG , Rue Bleue dans le éme arrondissment de Paris .

ولقد أصدر المركز الأعمال التالية: **الكلمات والأشياء، المراقبة والمعاقبة، إرادة المعرفة استعمال اللذات الاهتمام بالذات** ، إضافة إلى دراستين عن الفيلسوف. الأولى هي الدراسة المعروفة والمشهورة للكاتبين الأمريكيين "دريفوس ورابينوف" بعنوان "ميشيل فوكو، مسيرة فلسفية"، والثانية دراسة للفيلسوف الألماني "هبرماس" بعنوان "**كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل**".

إضافة إلى ترجمات متفرقة منها ترجمة "سالم يفوت" لـ **أركيولوجيا المعرفة**، ودراسة الفيلسوف "جيل دلوز" عن فوكو بعنوان "**المعرفة والسلطة**"، وترجمة عبد السلام بنعبد العال وأحمد السطاتي لـ:**نظام الخطاب** ونص **نيتشه ، فرويد، ماركس، ونيتشه،الجنيالوجيا والتاريخ** وجزء من **أركيولوجيا المعرفة** وآخر من **إرادة المعرفة**.

كما ترجم "محمد سبيلا" **نظام الخطاب** وحوار **الحقيقة والسلطة**، ودراستين عن الفيلسوف الأولى بعنوان "**نسق فوكو**" بقلم "برنار هنري ليفي"، والثانية "**دلالة الجنون في فكر ميشيل فوكو**" بقلم "جان لاكروا"، وترجم كذلك "هاشم صالح" نص **نظام الخطاب** وجزء من **أركيولوجيا المعرفة**، و"محمد ميلاد" **الدروس** وحوارا بعنوان فوكو **مخترق حدود الفلسفة**، و"حاتم علامة" نص **نيتشه، فرويد، ماركس** و"جورج أبي صالح" بحثين الأول حول **الفرد والسلطة** والثاني حول **نسابية الاخلاق**، و"أوعزيز" حوارا حول **مفهوم الأركيولوجيا** و"يوسف صادق" **ماهو عصر التنوير** ؟ وأخيرا قام فريق الترجمة بمجلة الفكر العربي المعاصر بترجمة نصين هما **الحقيقة والسلطة وما المؤلف**؟

إن ما يمكن ملاحظته حول مختلف هذه الترجمات، الهامة بدون شك والتي تمكن القارئ العربي من الإطلاع على نصوص الفيلسوف ' هو أن بعض هذه الترجمات، جماعية وتم مراجعتها وتدقيقها والتعليق عليها، وهي بذلك ترجمات مستوفية لشروط الأسلوب والمعنى، ولعل كتاب **الكلمات والأشياء** مثال نموذجي على هذه الترجمة التي قام بها الأساتذة وهم :"مطاع صفدي ، سالم يفوت، بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح، كمال أسطفان"، وشارك في المراجعة "جورج زيناتي" إضافة إلى مقدمة كتبها "مطاع صفدي" .

و هنالك ترجمات فردية مختلفة لنص واحد، هي عبارة عن اجتهادات ومحاولات، ميزتها أنها تلتقي مباشرة مع موضوع بحثنا مثل نص **نظام الخطاب** الذي ترجمه "عبد

السلام بنعبد العـال، أحمد السطاتي، محـمد سبيـلا، هاشم صـالح" ، ونفس الشيء ينطبق على نص الأركيولوجيا وبعض أجزائه المترجمة.

إن تعدد الترجمات لنص واحد، مكننا من المقارنة من جهة بين مختلف النصوص المترجمة ، وبينها وبين النص الأصلي للفيلسوف من جهة أخرى.وفي حالة اختلافنا مع هذه الترجمات، سواء في اللفظ أو في المعنى نشير إلى ذلك في مكانه .

إلا أنه وبالرغم من أهمية هذه النصوص المترجمة، فأنها مجرد جزء يسير من إنتاج الفيلسوف، والذي تطلب منا الاطلاع عليه في مجموعه، وفي لغته الأصلية، وترجمة النصوص ذات العلاقة ببحثنا. ولقد لزم علينا مضاعفة الجهد وخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار خصوصية أسلوب الفيلسوف في مرحلته الأولى وطريقة نحته للمصطلح الفلسفي، سواء في شكل المزاوجة بين المصطلحات أو في كيفية الاشتقاق، والذي يختلف من لغة إلى لغة، مثل ما تبين ذلك بعض المصطلحات الآتية:
Ennonciation, Ennoncibilité, Discursivité, Objectivation, Subjectiva-"
...tion, Gouvernementalité, Véridiction, Sexualité, Problimatisation
ورغم صعوبة أسلوب الفيلسوف، وارتباطه بأساليب أدبية وخاصة في أعماله الأولى والتي لم تترجم إلى العربية، فإننا حاولنا قراءتها وتحليلها ومناقشتها بطريقة تاريخية وموضوعية، راعينا قدر الإمكان خصوصيتها وسياقها التاريخي والاجتماعي ودلالتها الفلسفية، ومختلف التأويلات التي قامت حولها، وذلك بعرضها وفق المسألة المطروحة في كل فصل، واستخراج الفكرة المقصودة والتعليق عليها، ولم نحاول خلال بحثنا السعي وراء التصنيف والحكم إلا عند الضرورة.

ثانيا -الدراسات السابقة

من دون شك، فإن هنالك دراسات تناولت موضوع بحثنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، تفرض الأمانة العلمية والبحث التاريخي، ذكرها وإبداء الرأي حولها. هذه الدراسات تنقسم إلى قسمين: دراسات جامعية أكاديمية في شكل أطروحات علمية، ودراسات مستقلة عربية وغربية وهي على النحو الآتي :

أ- الدراسات العربية

١- الأطروحات

هنالك أطروحة دكتوراه للباحث المصري "جعفر عبد الوهاب" بعنوان:"البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو"، تناول الباحث في الفصل الأول من رسالته موضوع الخطاب، وحاول تطبيقه على بعض المسائل المعرفية التي أثارتها أعمال الفيلسوف السابقة عن **أركيولوجيا المعرفة**. ولقد قام الباحث بترديد الطرح العام للفيلسوف، وخاصة فكرة إيجاد إطار منهجي لمختلف محاولات فوكو السابقة، ولم يحاول الباحث استنتاج مفهوم للخطاب ولا لعلاقاته، وخاصة علاقته بالممارسات غير الخطابية، كما لم يتساءل الباحث عن الأعمال اللاحقة للفيلسوف، لذا رأينا في المحاولة مجرد ترديد وتجزيء. ترديد من حيث التعريف ' وتجزيء من حيث أن الباحث لم يدرس إلا الأعمال الأولى للفيلسوف[١١] .

٢- الدراسات المستقلة

اطلعنا على دراسة "محمد علي الكبسي" بعنوان "ميشال فوكو، تكنولوجيا الخطاب، تكنولوجيا السلطة، تكنولوجيا الجسد" وعلى الرغم من صغر حجم الدراسة (٨٣ صفحة من الحجم الصغير) إلا أنها تحمل أفكارا أساسية وخاصة فكرة أهمية الخطاب في فلسفة فوكو، واستعانته في ذلك بدراسة "جيل دلوز" . هذه الدراسة أهملت موضوع اللغة واللسانيات، وذهب الباحث إلى القول بلا أهمية الألسنية عند الفيلسوف، وهذا رأي لا يتفق وحقيقة الأبحاث التي قام بها فوكو حول اللغة والألسنية. والدراسة في مجملها مقتضبة ومحدودة، ولا تفي بالموضوع[١٢] .

١١ – عبد الوهاب جعفر ' **البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو**' دار المعارف . القاهرة' ١٩٨٩ .

١٢ – محمد علي الكبسي ' **ميشال فوكو ' تكنولوجيا الخطاب ' تكنولوجيا السلطة ' تكنولوجيا الجسد** ' دار سيراس للنشر . تونس ' ١٩٩٣ .

ب - الدراسات الغربية

١-الأطروحات

هنالك أطروحة دكتوراه لباحث عربي"محمد لعرسية"تحت إشراف الفيلسوف" دي سانتي" بعنوان "إبستيمية ، خطاب ، سلطة"، هي عبارة عن دراسة لثلاثة كتب من كتب الفيلسوف وهي: **الكلمات والأشياء، أركيولوجيا المعرفة، المراقبة المعاقبة**.

هذه الدراسة لم تتساءل عن الخطاب ولم تناقشه بشكل مستقل، كما لم تبحث في مختلف علاقاته، وإنما كانت دراسة لمراحل فكر الفيلسوف، عبر مفاهيم الإبستيمية، الخطاب، السلطة، ولم يكن الخطاب بهذه الصفة إلا مرحلة ، وهي فكرة ترددت في أكثر من دراسة وبحث[١٣] .

وهنالك أيضا رسالة صغيرة (Memaie) للتعمق في البحث "D.E.A" لباحث صيني، بعنوان " الخطاب عند فوكو" ناقش فيها مكانة الخطاب في **الكلمات والأشياء**، كما استعان ببعض مفاهيم **أركيولوجيا المعرفة ونظام الخطاب**. والمذكرة في عمومها متابعة لمفهوم الخطاب في العصر الكلاسيكي وليست مناقشة لمفهوم الخطاب في شموليته ومختلف علاقاته[١٤] .

٢ - الدراسات المستقلة

فيما يخص الدراسات المستقلة اطلعنا على دراسة الفيلسوف الألماني والأستاذ المختص في الفلسفة الفرنسية وخاصة في المدرسة البنيوية، ونعنى به" منفرد فرانك" Manfred Frank الذي نشر كتابا بعنوان "مابعد البنيوية" تناول فيه العديد من وجوه هذا التيار وخاصة ميشيل فوكو.هذا الفيلسوف قدم دراسة عن مفهوم الخطاب، في الملتقى الأول الذي نظم حول فوكو في "باريس" أيام ٩-١٠-١١ جانفي (يناير) ١٩٨٨، ناقش فيها الخلفية التاريخية لهذا المفهوم وخاصة علاقته بـ"ليفي ستراوس" Levi Strauss ولكنه لم يبين الفروقات ولا الإضافات، وإنما اقتصر على

---

١٣ -- Mohamed Mustapha Laarissa, **Epistimé** ،**Discours** ،**Pouvoir** chez Michel Foucault ،université de paris 1 - 1985 - 1986

١٤ -، Yu Qizhi ،**Discours chez Michel Foucault** ،université de provence 1988 - 1989 .

هذه الخلفية التاريخية في بلورة مفهوم الخطاب عند فوكو[١٥] .

أما الدراسة الأساسية في موضوع الخطاب، هي بدون شك الدراسة التي قام بها "دريفوس ورابينوف" بالتعاون مع فوكو، هذه الدراسة خصت قسمها الأول لما أسمته بـ"وهم الخطاب المستقل" وخلصت إلى أن الخطاب شكل مرحلة فلسفية فقط وأن الأركيولوجيا فشلت في بلورة طريقة لتحليل الخطابات، خاصة وأن فوكو ذاته اقترح تعديلا لهذه الطريقة وذلك بإضافة الجنيالوجيا.

---

١٥ -- Manfred Frank ،Sur le concepte du discours ،in ،Michel Foucault philo- sophe ،ed .Seuil, PP, 125 - 135, 1989.

ثالثا - الأطروحة ونقيض الأطروحة

إن هذه الأطروحة، أطروحة المرحلية والفشل ، هي الأطروحة الأساسية التي واجهتنا في مناقشة مفهوم الخطاب وذلك لأكثر من سبب ، ولعل أهم هذه الأسباب مشاركة فوكو، وإن بطريقة غير مباشرة في إعداد هذه الدراسة عبر مختلف الحوارات واللقاءات التي دارت بينه وبين المؤلفين، وموافقته على أن الخطاب والممارسة الخطابية يشكلان مرحلة فقط[١٦] .

كما اطلعنا على رأي المؤرخ "بول فاين "Paul Veyne – وهو صديق للفيلسوف – والذي يقر فيه أن فوكو لم يؤسس فلسفة في الخطاب، وأن الخطاب ليس مفهوما مركزيا، بل إن مفهوم الندرة هو الأساسي، والواقع أن الندرة ليست إلا صفة من صفات الخطاب والمنطوق[١٧] .

إن فكرة المرحلية ولا أهمية الخطاب، هي الفكرة الأساسية التي واجهتنا في بلورة إشكاليتنا ومناقشتها وتحليلها، بل وعلى نقيضها، طرحنا إشكاليتنا المتضمنة للعناصر المشكلة للخطاب ولمنهج الخطاب، ولعلاقات الخطاب ولمكانة الخطاب.

وما ساعدنا على هذا الطرح هو ما قرأناه في دراسة "دلوز" عن فوكو وخاصة تلك الفكرة التي أدلى بها لمحاوريه بقوله: (إن ما أثر في أكثر من سواه،هو نظريته الخاصة بالملفوظ، لأنها تنطوي على تصور للغة يعتبرها كلا غير متجانس، ومختل التوازن، وتتيح التفكير في صياغة نماذج جديدة من الملفوظات في كل الميادين)[١٨] .

إن هذه الفكرة، بقدر ما شجعتنا على مناقشة إشكاليتنا، بقدر ما فرضت علينا الاحتراس من التشيع لكل ما يساندها، ورفض كل ما يخالفها، ومناهضة كل ما يناقضها، لذلك حاولنا، أن نقدم في كل فصل من فصول علاقات الخطاب، عرضا لأفكار الفيلسوف، عرضا يفي بالسياق العام للأفكار وتدرجها وتتابعها، والإجابة على إشكاليتنا المركزية، والرد على فكرة مرحلية الخطاب ولا أهميته.

---

١٦ – دريفوس ورابينوف ' **ميشيل فوكو** ' **مسيرة فلسفية** ' ترجمة جورج ابي صالح ' مركز الانماء القومي (ب –ت) القسم الاول من ص ١١ الى ١٩ .

١٧ – Paul Veyne, Foucault Révolutionne l'histoire, in , Comment On Ecrit L'his-toire ,ed .Seuil , p.p. 203-242, 1978.

١٨ – جيل دلوز ' **حوار** ' مرجع سبق ذكره ' ص ٢١٦ .

رابعًا- الرد والتأسيس

يمكن صياغة الرد والتأسيس على النحو الآتي

(أ) مفهوم الخطاب ، ممارسة أو تفكيرا ، حاضر في مختلف أعمال الفيلسوف، ابتداء من **تاريخ الجنون** وخاصة في مقدمة كتابه الثاني **مولد العيادة**، حيث طرح لأول مرة ، مفهوم الخطاب وعلاقته بالتاريخ، ومعارضته لمبدئي التعليق والتأويل، وفي **الكلمات والأشياء** 'غطى مفهوم الخطاب مرحلة كاملة هي من أهم أقسام الكتاب، وهي مرحلة العصر الكلاسيكي.

وفي جوابه عن سؤالي مجلة " Esprit"و "Cahiers Pour L'Analyse" وهي الإجابة التي لم يهتم بها الباحثون كثيرا والتي تشكل في الحقيقة البداية المنهجية لبلورة مفهوم الخطاب، وخاصة علاقته بالتاريخ والمعرفة وتاريخ العلوم.إن هذه الإجابة شكلت المقدمة الحقيقية لكتابيه الرئيسيين حول الخطاب، وأعني بذلك **أركيولوجيا المعرفة ونظام الخطاب**. ناقش في الأول مفهوم الخطاب في ثلاثة فصول أساسية، تناولت الانتظامات الخطابية مثل وحدات الخطاب والتشكيلات الخطابية ومفهوم المنطوق ووظيفته وبعض خصائصه،كالندرة والخارجية والتراكم، وطريقة دراسة الخطاب أو الوصف الأركيولوجي، مع مدخل حول مفهوم التاريخ وخاتمة حول موقفه من البنيوية.

إن ما شد انتباهنا هو أن الفيلسوف وفي مختلف مراحل فكره لم يكرس لأي مفهوم من المفاهيم التي درسها، دراسة نظرية أو إطارا نظريا، ما عدا مفهوم الخطاب، وهذا في حد ذاته يبين الأهمية الخاصة لهذا المفهوم وهو الشيء الذي دعانا إلى التساؤل وطرح السؤال حوله وحول مكانته خاصة وأن جميع أعمال الفيلسوف تاريخية و تناقش موضوعات تاريخية، ماعدا **أركيولوجيا المعرفة** التي طرحت مسائل نظرية، هذه المسائل التي استكملها في كتابه الثاني الذي هو عبارة عن درسه الافتتاحي الذي ألقاه بـ"الكوليج دو فرانس" في ، ٢ديسمبر ١٩٧٠ والذي حمل عنوان **نظام الخطاب**، حيث بين فيه صفات أخرى للخطاب وخاصة سلطة الخطاب،وعلاقته بالمجتمع من خلال مختلف الإجراءات، كالإجراءات الخارجية التي تتضمن عمليات المنع والقسمة والرفض وإرادة المعرفة، أو الإجراءات الداخلية القائمة على التعليق والمؤلف والفروع العلمية، أو الإجراءات التوظيفية، التي تتكون من جمعيات الخطاب والمذاهب الدينية

والسياسية والفلسفية والتملك الاجتماعي للخطابات.

إن هذه الدراسات النظرية ونعني بها إجابته لسؤالي "Esprit"و"Cahiers Pour l'Anapyse وأركيولوجيا المعرفة ونظام الخطاب ومحاضرته عن المؤلف ودراسته عن التأويل عند نيتشه ، فرويد ماركس ، إضافة إلى مجموعة معتبره من الحوارات والدروس تشكل في مجموعها مادة نظرية هامة في تفكير وتنظير الخطاب .

إن هذا التفكير لم يتوقف عند هذه الدراسات بل نجده حاضراً ، تنظيرا وممارسة ، فى أعماله اللاحقه وخاصة فى الأعمال التى تشكل عند بعض الدراسين نقطة التحول ، ونعنى بها **المراقبة والمعاقبة وإرادة المعرفة** ، بحيث بين فى الأول وخاصة فى مقدمته التناوب الرائع بين المرئى والمنطوق من خلال وصفه لتعذيب «داميان» وتحليله للخطاب فى صورة علاقة القانون بالمؤسسات، وخاصة المؤسسة العقابية .

أما في الثاني فخص الخطاب بفصل كامل سماه بالمنهج، طور فيه بشكل رئيسي، مفهوم الخطاب من خلال مفهوم الإستراتيجية، وعبر عن تلك الفكرة الهامة والأساسية وهي ، أن في الخطاب تتمفصل المعرفة والسلطة.

و في أعماله الأخيرة، وخاصة في استعمال اللذات والاهتمام بالذات، هنالك عودة صريحة للاهتمام بالممارسات الخطابية من خلال نصوص الفلاسفة والأطباء، وهذا يعتبر تعديلا لبعض خصائص الخطاب، كما طرحها في **أركيولوجيا المعرفة**، هذا التعديل تناول مكانة النصوص ومؤلفها ومرجعيتها، ولكن لم تنفصل عن التحليلات الأركيولوجية، لسبب واحد وهي أنها تخضع لمبدأ في التحليل سماه بالمشكلية، والتي تجمع بين مختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية. إن هذا يعني أن مفهوم الخطاب ليس ثانويا ولا مرحليا.

(ب) إن التقسيم الذي يقترحه "دريفوس ورابينوف" لا يصمد أمام أعمال الفيلسوف ذاته، **فتاريخ الجنون في العصر الكلاسكي** مثلا، أو **مولد العيادة** ليس كتابا في الممارسات الخطابية فقط، بل شمل الممارسات غير الخطابية من خلال وصفه للمؤسسات والحياة الاقتصادية والمادية للمجتمع الأوروبي في العصر الحديث.

إن هذا الحضور هو الذي سيستغله الفيلسوف عندما يبدأ التفكير في السلطة في السبعينيات، لذلك لا يمكن لنا أن نوافق على تقسيم إنتاجه الفكري إلى مرحلة نظرية

وأخرى عملية، وإلى فترات تاريخية متقطعة، بل نظرنا إلى إنتاجه ككل متكامل وداخل هذا الكل قضايا أساسية عالجها وفق المراحل التاريخية والفلسفية التي مر بها.

(جـ) إن دراستنا للخطاب تبين أن هذا المفهوم إذا ما وضعناه في إطاره الصحيح، أي إطار التاريخ والفلسفة، وهو المساهمة الكبرى في نظرنا لميشال فوكو، هذا الوضع يبين أن الخطاب مفهوم ممارس ومنظر،مفهوم يغتني ويتطور ويشمل مختلف مراحل فكر الفيلسوف.

(د) من الناحية الصورية، يمكن لنا الرد على القائلين بالمرحلية بقلب الحجة والقول أن الممارسات هي السابقة على الخطاب، ودليلنا في ذلك **تاريخ الجنون ومولد العيادة**، أو القول إن بعد الممارسات غير الخطابية هنالك عودة للممارسات الخطابية من خلال تحليل النصوص، أو الاهتمام بما يسميه بقول الحق.

إن هذه الحجج وغيرها والتي حاولنا بسطها في متن البحث، لا يمكن لها أن تنكر أهمية الخطاب وتفكير الخطاب في مرحلة تاريخية من حياة الفيلسوف هي الستينيات، لكن هذا التفكير ليس فقط تفكيرا فيما سبق وكتبه بل تفكير كذلك فيما سيكتبه، وإن كان هذا التفكير خضع للكثير من الإضافات والتعديلات، وهذا يمثل في نظرنا ميزة الفيلسوف الذي يطور بحثه ويغنيه، خاصة وأن أعمال فوكو دراسات وبحوث لتجارب معينة لا تحاول تكرار نفسها ولا ترديد نتائجها ولا تطبيق نموذج معد سلفا.

وعلى هذا الأساس من الطرح سواء في معنى المفهوم أو في طريقة العمل أو في الإشكالية موضوع البحث والدراسة، أو في الخطة الموضوعة توصلنا إلى الفكرة الأساسية، وهي :

إن مفهوم الخطاب وبالشكل الذي عرضناه، وبالطريقة التي حددنا بها، مختلف عناصره ووظائفه وعلاقاته ومكانته، يعد مقاربة فلسفية صالحة، لقراءة فلسفة فوكو من جهة، واستخراج طريقة للبحث الفلسفي من جهة أخرى.مقاربة لا تشكل فقط إجابة لبعض أسئلة فلسفة اللغة، ولكنها إجابة لجملة من الأسئلة المعرفية والسياسية والأخلاقية.

كما تبين لنا هذه المقاربة أن الموضوعات الكبرى التي ناقشها فوكو وهي المعرفة و السلطة والأخلاق قد تم تحليلها بواسطة الخطاب الذي يتميز عن اللغة والنص والأثر

والفرع المعرفي وذلك ضمن مجالين أساسيين هما : التاريخ والفلسفة.

وهكذا، بعودتنا للكلمات ومساءلتها نكون -ربما- قدعدنا إلى الوظيفة الأولى للفلسفة بحسب "سقراط" وإلى أهمية وجدوى الكلمات ...

الفصل الأول

مفهوم اللغة

مقدمة .

المحور الأول – اللغة في البحث التاريخي .

المحور الثاني – اللغة في البحث الأدبي .

المحور الثالث – اللغة في البحث الفلسفى .



مقدمة

لم يخصص "ميشيل فوكو" كتابا مستقلا للغة، كما فعل بالنسبة للخطاب والسلطة والذات، وإن كان قد خصها بمكانة بينة داخل أعماله الفلسفية كما هو جلي في **مولد العيادة** حيث ناقش موضوع المكان، والموت، والنظرة، واللغة أو في **الكلمات والأشياء** حيث ربطها بإبستيمية كل عصر، أو في مقالاته الأدبية مثل **مدخل إلى الاختراق أو النحو العام واللسانيات** أو في حواراته ومقابلاته الصحفية، خاصة تلك المقابلة التي أجراها معه "ريمون بلور Rymond Bellour" ضمن "كتاب الآخرين" حيث بين فوكو مكانة اللغة في دراساته وعلاقته الشخصية بها وموقعها في الدراسات الفلسفية المعاصرة.

كما لم ينتبه الدارسون لفوكو إلى مكانة اللغة في أعماله، وخاصة الدارسون الذين تناولوا بالبحث مسألة الخطاب، فلا نجد مثلا أي تحليل للغة في كتاب "ميشيل فوكو : مسيرة فلسفية" تأليف "دريفوس ورابينوف" بالرغم من أن القسم الأول من الكتاب يناقش الخطاب والممارسة الخطابية، تحت عنوان "وهم الخطاب المستقل" كما لم نعثر في الأطروحات التي اطلعنا عليها، والتي قدمت حول هذا الموضوع في فرنسا على أي مناقشة لمسألة اللغة، فعلى سبيل المثال أطروحة السيد "محمد مصطفى لعرسية" حول "الإبستيمية، الخطاب، السلطة" في فلسفة ميشال فوكو والتي أشرف عليها الفيلسوف " جان توسان دوسانتيJean – ToussaInt Desanti" وبالرغم من أن الباحث خص القسم الثاني من رسالته لمناقشة الخطاب، إلا أنه لم يتساءل عن علاقة الخطاب باللغة، أو بفلسفة فوكو .

ونفس الشيء ينطبق على الدراسات العربية حول ميشيل فوكو، والتي استطعنا الاطلاع على بعض منها، مثل الدراسة التي كتبها الأستاذ " محمد علي الكبسي" بعنوان "ميشال فوكو : تكنولوجيا الخطاب، تكنولوجيا السلطة، تكنولوجيا السيطرة على الجسد"، فبالرغم من أنه يناقش مشكلة الخطاب في الفصل الأول إلا أنه لم يتعرض للعلاقة بين اللغة والخطاب، بل وأنكر اهتمام فوكو بالألسنية، وسنبين عكس هذا الرأي في العنصر الثالث من هذا الفصل .ونفس الشيء نجده عند الباحث "عبد الوهاب جعفر" في أطروحته حول "البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو" تحت إشراف الدكتور "محمد علي أبو ريان " هذه الأطروحة وإن كانت تناقش مشكلة الخطاب في فصلها الأول إلا أنها لا تتعرض لمسألة اللغة ، لا من قريب ولا من بعيد، بل تنهج

نهج ميشيل فوكو في مقدمة كتابه **أركيولوجيا المعرفة** حيث نجد مراجعة لأشكال الخطاب التي ناقشها في **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ومولد العيادة والكلمات والأشياء**، وما يقوم به الباحث لا يتعدى تلخيص هذه الكتب المذكورة.

وفي حدود علمنا واطلاعنا، فإننا لم نتوقف إلا على مذكرة واحدة، للباحثة "جوديت ريفال "Judith Revele بعنوان " الأدب والفلسفة في أعمال ميشيل فوكو" وهي مذكرة مقدمة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة " D.E.A" من معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس وتحت إشراف السيد " مارسال غوشيه "Marcel Gauchet وذلك سنة ١٩٩١ هذه المذكرة نشرت في شكل مقال وبعنوان مغاير هو : "تاريخ غياب:فوكو والأدب" وذلك بمجلة "LE DEBAT" العدد ٧٩ ، من سنة ١٩٩٤ ، هذه الدراسة تحمل أفكارا أولية عن مكانة اللغة في أعمال فوكو ولكنها تقتصر على مناقشة الأعمال الأدبية فقط، ولم تتعرض لمكانة اللغة في الأعمال الفلسفية الأخرى لميشيل فوكو. كما وجدنا في هذا السياق مقال لريمون بلور بعنوان "الإنسان، الكلمات" نشرها في مجلة "MAGASINE LITtERAIRE العدد ١٠١ ، من سنة ١٩٧٥، تعرض فيها لعلاقة اللغة بالإنسان والكينونة مركزا على الأعمال الأدبية، دون مناقشة عميقة لكبرى النصوص الفلسفية لميشيل فوكو .

وبناءا على ما سبق وجب طرح السؤال التالي، لماذا لم يناقش الباحثون موضوع اللغة كما ناقشوا موضوع الخطاب أو المعرفة أو السلطة أو الأخلاق ؟ إن الأمر يعود في نظرنا إلى كون اللغة لم تحتل - كما قلنا - مكانة مستقلة ضمن أعماله الأساسية، بل كانت تناقش ضمن باقي الموضوعات، ينطبق هذا الرأي خاصة على كتاب **مولد العيادة** كما ينطبق على **الكلمات والأشياء** والذي بالرغم من كونه يتعرض للغة من مقدمته إلى خاتمته، وبالرغم من أن اللغة حاضرة في كل حقبة من الحقب التي يناقشها الكتاب ونعني بذلك حقبة عصر النهضة والعصر الكلاسيكي والعصر الحديث، إلا أنها لم تثر أي مناقشة من تلك المناقشات التي أثارها الكتاب في فترة صدوره حول موضوعات المعرفة والتاريخ والإنسان، وربما لا نجد إلا إشارات عابرة لمسألة اللغة كما هو الحال في مقال السيد "موريس كرانستون "Maurice Crainston بعنوان " حقب ميشال فوكو" والصادر بمجلة " "Preuve العدد ٢٠٩ - ٢١٠ ، من سنة ١٩٦٨ حيث يرى أن كتاب الكلمات والأشياء هو كتاب في اللغة(١). ولكن بدون مناقشة عميقة للموضوع بل

Maurice Crainston ,Les"**Périodes de Michel Foucault**", In ,**Preuve** (١) N 209-210, 1968, p 65

مجرد عرض تاريخي للغة كماهو مطروح في **الكلمات والأشياء**.

هذا وإن المقالات أو الدراسات التي خصها فوكو للغة والتي نشرها في فترات متوازية مع صدور أعماله الكبرى، كانت تناقش اللغة في إطار أعمال أدبية أو شخصيات أدبية، خاصة تلك الشخصيات التي تأثر بها من مثل : "جورج بتاي George bataille" أو"موريس بلانشو Maurice Blanchot" أو " ريمون روسال Raymond Rousselle" وهي دراسات نشرت في حقبة محددة هي فترة الستينيات، وبالتحديد من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٧١، كما سنوضح ذلك في العنصر الثاني من هذا الفصل.

والواقع أن الخطاب ومسائله قد طغى على موضوع اللغة، واشتهر فوكو بآرائه حول الخطاب، أكثر من آرائه في اللغة وهذا يعود في نظرنا إلى سببين، السبب الأول يتعلق بمكانة الخطاب في الإنتاج العلمي والفلسفي لفوكو وظهوره في أعمال أساسية، في حين أن اللغة احتلت مكانا هامشيا وخلفيا من إنتاجه، رغم العديد من المقالات والتعليقات التي كتبها حول اللغة. والسبب الثاني يتعلق بالإبداع والتجديد، حيث أنه أبدع وجدد في مفهوم الخطاب، بل هنالك من يذهب إلى القول بأنه أسس نظرية في الخطاب، في حين أن موقفه من اللغة لا يتميز كثيرا عن موقف "نيتشه Nietzsche"و"هيدجر Heidgger" كما سنتعرض لذلك في نهاية هذا الفصل.

وفي اعتقادنا فإنه على الرغم من العلاقة الأساسية بين الخطاب واللغة فإن الخطاب احتل موقع الريادة في فكر الفيلسوف على حساب اللغة، وخاصة عندما غير من نظرته للغة واهتمامه بها وتحوله نحو موضوعات السلطة والجنس والأخلاق، هذا التحول الذي كان على حساب اللغة .وهو ما جعل العديد من الباحثين لا يهتمون بها، رغم أهميتها وعلاقتها الجوهرية بالخطاب كما سنبين ذلك .

إن غياب البحث في مسألة اللغة هو ما يبرر بصورة من الصور الخطة المقترحة سواء لدراسة الخطاب في فلسفة فوكو أو خطة هذا الفصل الذي قسمناه إلى ثلاثة عناصر، كل عنصر يهتم بناحية من نواحي اللغة، نتعرض في العنصر الأول لموقع اللغة في البحث التاريخي وخاصة في كتابي **تاريخ الجنون و مولد العيادة** ، وفي العنصر الثاني لمجموع الأعمال الأدبية التي نشرها، وأخيرا وفي العنصر الثالث لموقع اللغة في **الكلمات والأشياء** من الناحية الفلسفية، وبطبيعة الحال فإن هذا التقسيم منهجي، يخضع للضرورة المنهجية أكثر من أية ضرورة أخرى، إذ لا يمكن مثلا أن نسقط الصفة

التاريخية على كتاب **الكلمات والأشياء** أوالصفة الفلسفية على كتاب **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي** ومن أجل إبراز مكانة اللغة في أعمال فوكو فإننا مضطرون للقيام بالمتابعة التاريخية، على الرغم من أن هناك أعمالا سبقت تاريخ الجنون ونعني بها **المرض العقلي والشخصية** سنة ١٩٥٤ ومقدمة لكتاب "الحلم والوجود" والتي كتبها في نفس السنة ، والبحث الذي نشره سنة ١٩٥٧ بعنوان :**البحث النفسي وعلم النفس** في هذه الدراسات لا نجد أي أثر للغة، وهو الشيء نفسه الذي سنظهره فيما يتعلق بما بعد كتاب "نظام الخطاب" ١٩٧١ ، حيث توقف فوكو عن التفكيرفي اللغة، وغير طريقة عمله وميدان بحثه كما يقر هو بذلك، وكما تؤكد ذلك أيضا العديد من الدراسات التي تناولت هذه الحقبة من تفكير فوكو، وأعني بذلك انتقال فوكو من الاهتمام باللغة إلى الاهتمام بالخطاب والسلطة والذات وهو ما سنبينه في حينه .

أما الآن فإن ما يجب التصدي له فهو : ماهي مكانة اللغة في الإنتاج الفكري لفوكو؟ وما هو مفهومه للغة ؟ وما علاقتها بالخطاب موضوع بحثنا ؟ وما هي علاقتها بالمستويات الأخرى من فلسفته كمستوى المعرفة أو السلطة أو الذات ؟ وهل أن مفهومه للغة يشكل إتجاها من بين الإتجاهات الكبرى في فلسفة اللغة المعاصرة، ونعني بذلك الاتجاه التحليلي الأنجلوساكسوني والاتجاه التأويلي القاري ؟

إننا سنحاول الإجابة عن مختلف هذه الأسئلة من خلال العرض التاريخي والتحليل الموضوعي لأعمال ميشال فوكو مبتدئين بالبحث التاريخي .

يروي فوكو لـ"ريمون بلور" في إطار الحوار الذي أجراه معه، من أن هنالك حلما يتبعه ومنذ طفولته، حلم قراءة نص، ولكنه لا يستطيع تفكيك رموزه وإن استطاع قراءة بعض الكلمات فقط، فإنه لا يفتأ أن يشعر بالاختناق، وهكذا يستيقظ من هذا الحلم الذي يشبه الكابوس(٢) .

هذا الجانب الشخصي له دلالته وقيمته من جهة اهتمام فوكو باللغة وموقفه منها ، كما يبين الموقع الخفي الذي احتلته اللغة في أعماله في فترة الستينيات وخاصة في كتاب **الكلمات والأشياء** الذي يعتبر في نظرنا خلاصة لمختلف كتاباته في هذه المرحلة، هذه المكانة تظهر كذلك موقع اللغة في الدراسات الفلسفية المعاصرة، تحت تأثير المنطق الرياضي والألسنية وفلسفات التحليل والتأويل والتي ناقشها في كتابه المذكور، وهو ما يسمح لنا باستخراج موقفه من هذه المسألة في نهاية هذا الفصل . ولكن قبل هذا ما هي مكانة اللغة وما هو مفهومها في كتابي **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي** و **مولد العيادة**؟ .

يسجل فوكو أن الجنون على الصعيد الروحي والفلسفي قد حل في أواخر العصور الوسطى وبداية عصر النهضة محل البرص والموت، ذلك الشبح والخوف الذي عم أوروبا ، ومن هنا يشبه الجنون بـ:(حضور الموت -هنا)(٣) . هذا لا يعني أن الجنون قد عوض أو استبدل بالموت، بل أنه مجرد إلتواء أو إنحراف داخل نفس التخوف، إنه نفس ذلك المكان الذي يجمع بين الجنون والعدم .

ولكن ما سيلاحظه فوكو هو كون الجنون ومع بداية عصر النهضة، ستكون له أفضلية من نوع خاص، أفضلية تجعل منه : (تجربة في الحقل اللغوي،إنهاالتجربة التي كان يواجه الإنسان فيها حقيقته الأخلاقية)(٤) . من هذا النص، ومن هذه النقطة، تظهر تلك العلاقة التي سيناقشها فوكو، علاقة الجنون باللغة في عصر النهضة والعصر

---

(٢) Rymond Bellour ،Le Livre Des Autres) ،Entretien) ،ed. 10-18، 1978، p. 118

(٣) Michel Foucault,**Histoire De La Folie A L'Age Classique**, ed. Gallimard، Paris, 1972, p26

(٤) Michel Foucault ،**Histoire De La Folie A L'Age Classique**, p.39 .

الكلاسيكي والعصر الحديث، وهو نفس الشيء الذي سيعمد إليه لدراسة اللغة في **الكلمات والأشياء** كما أنه مع هذا النص تبدأ مختلف موضوعاته التي سيطورها في مختلف أعماله اللاحقة، نعني بذلك موضوعات الخطاب والمعرفة والسلطة والأخلاق.

إن الحقل اللغوي أواللغة التي يتحدث عنها في النص ليست لغة علم النفس أو الطب العقلي أو الطب أو القانون، وإنما هي لغة الجنون، تلك اللغة التي أعلن عنها بقوله أنه لا يريد : (إقامة تاريخ للغة (لغة الجنون عن طريق لغة الطب العقلي والنفسي) ولكن إقامة أركيولوجيا الصمت[٥] خاصة وأن الجنون سيخلد إلى الصمت في العصر الكلاسيكي وسيكون على ميشال فوكو العمل على دراسة أثريات هذا الصمت، ولكن قبل هذا كيف كان صوت الجنون في عصر النهضة وما هي لغته ؟ وماذا أصبحت وضعيته في العصر الكلاسيكي والعصر الحديث ؟

يقر فوكو بأن هنالك في عصر النهضة، أدبا غزيرا حول الجنون، وأن شخصية المجنون كانت حاضرة في الحياة الاجتماعية، وارتبطت بموضوعات أساسية كموضوع الحب والحكمة والحقيقة، ظهر هذا في أعمال أدباء وفنانين من أمثال "جيروم بوخ Jerôme Bosh" و"إيرازم Erasme" و"شكسبير Chaksper" و"سرفانتس Cer-vantes" وكانت هنالك نظرتان للجنون، نظرة تراجيدية شعرية وفنية، ونظرة نقدية عقلية وعلمية،والذي حدث مع بداية العصر الكلاسيكي هو تقدم النظرة النقدية على النظرة التراجيدية. ومن هنا يرى فوكو أن هنالك شيئا ما في الجنون قد تم إقصاؤه، وأن العصر الكلاسيكي بدأ بإهمال عنصر أساسي في تجربة الجنون، إنه ذلك الجانب التراجيدي، هذا الإهمال يرجعه إلى أحد أطروحاته الأساسية في الفلسفة وهي أن لكل ثقافة حدودا، تحدد بها الصالح من الفاسد، الخير من الشر، حدودا تعين السلوك والعمل والفكر، وفي هذا السياق فإن الفكر الأوروبي في العصر الكلاسيكي قد وضع حدودا بين العقل والجنون أو بين العقل واللاعقل" Raison/ "Déraison.

فمنذ اللحظة الديكارتية، تلك اللحظة التي فُصلت مجال العقل باعتباره مجال الحقيقة، ومجال الجنون باعتباره مجال الخطأ، منذ تلك اللحظة أصبح الجنون بلا لغة، ما دامت اللغة نابعة من العقل إذ :(كيف يمكن للجنون أن تكون له لغة، لغة حقيقية، مادامت الحقيقة نابعة من العقل، مادام العقل ينفي الجنون من دائرة الحقيقة)[٦] ورافق

---

(٥) . Ibid ,p.102

(٦) Jean La Croix,Panorama De La Philosophie Française Contempora-ine, ed. P.U.F, 1968, p228.

هذه اللغـة العقليـة لغة أخرى طبـية ونفسـية أو بتعبير آخر لغـة وضعيـة، مع نشوء المعتقلات والمحاجر والمعازل والمستشفيات.

ومعنى هذا أنه إذا كان للجنون في عصر النهضة لغته الخاصة به، تلك اللغة التي تعكسها الفنون والآداب والمسرح وكذلك ما كان يتمتع به من حضور وحرية داخل المجتمع فإنه في العصر الكلاسيكي أصبح تجربة داخل اللغة -اللغة العقلية أو اللغة النفسية أو اللغة الطبية أو لغة القانون- ومهمة فوكو هي تحليل هذه اللغة للكشف عن صوت الجنون . صحيح أن فوكو لا ينكر وجود نصوص في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحدثت عن الجنون، لكن ما يلاحظه هو أن حديثها كان على سبيل ضرب المثال، فلا وجود في العصر الكلاسيكي لأدب حول الجنون، لقد كان المجنون أبكم . لقد إنزوى وأبعد بعد إعلان "ديكارت "Descart: (ثم ماذا بعد ؟ إنهم مجانين)[٧] . ومنذ هذه اللحظة لم يبق للجنون إلا لغـة العقل والطب، تلك اللغـة الخارجيـة والبرانيـة، والتي ربطت الجنون بأشكال من الأمراض والحالات، والتي يصفها بدقة متناهية كعلاقة المجنون بالأحمق والمعتوه والأبله واللاعقل ، وبمختلف الأمراض النفسية كالسوداوية والوسواس والهوس والهذيان، وللتصنيفات التي أخضع لها مع باقي الفئات الاجتماعية المختلفة مثل الفقراء والبطالين والمرضى والمجرمين والشاذين جنسيا .

لقد تحول المجنون في العصر الكلاسيكي -في نظر فوكو- إلى دابة تخضع لجهاز كامل من الأمن والرقابة الإدارية وإلى العنف المنظم، من هنا ذلك التلازم الذي يناقشه فوكو في العديد من دراساته، ونعني بذلك علاقة المعرفة بالسلطة وتشكل الفرد الحديث.

إن هذه الوضعيات المختلفة للجنون هي ما سيطلق عليها فوكو في القسم الثاني من كتابه **تاريخ الجنون** أشكال الوعي وهي، الوعي النقدي والعملي والتحليلي، ويتميز الوعي النقدي عن باقي أشكال الوعي بارتباطه باللغة، لغة الهذيان، حيث: (أصبح الهذيان اللغة النهائية للجنون)[٨] إن هذه اللغة قاصرة على إدراك تجربة الجنون في كليتها ، لذلك يبقى هنالك شيء غائب ويبقى المجنون شيئا آخرا أو أنه الآخر بفعل التمييز والفصل والوعي.

وعندما يحلل الجهد العلمي للعصر الكلاسيكي وكيفية ربطه الجنون بالهذيان،

---

(٧) . Michel Foucault ,Histoire De La Folie A L'Age Classique, p.535

(٨) . Ibid ,p.252

نجد فوكو يستعمل باستمرار كلمتي الخطاب واللغة، بل نجد أن للغة المكانة الأولى، ذلك أن الجنون، وبالتدقيق تجربة الجنون تتجسد في لغة الهذيان. وتشكل البنية الأولى والأخيرة لتجربة الجنون، ويعني هذا أن تجربة الجنون في العصر الكلاسيكي تأخذ قيمتها ومعناها من اللغة يقول: (من الأفضل ترك الثقافة الكلاسيكية تشكل في بنيتها العامة، تجربتها الخاصة بالجنون، والتي تحمل نفس الدلالات في نظامها ومنطقهاالداخلي، فهنا أو هناك، في نظامها الكلامي أو في نظام مؤسساتها، في الخطاب أوفي القرار، في الكلمة أو في الأمر، في كل مكان حيث يوجد عنصر يحمل علامة، يمكن أن يؤخذ بالنسبة لنا قيمة لغوية(٩) .)

إن هذا النص يشير إلى تلك النقطة التي سبق وأن تعرضنا إليها، نقطة تجربة الجنون في اللغة، ولكن ما يضيفه هو التأكيد على شمولية اللغة في التجربة الكلاسيكية، حيث أصبح الجنون تجربة في اللغة داخل المؤسسة الطبية أوالإستشفائية، ولا يحتاج المرء للإشارة إلى دور ومكانة اللغة في تحليلات فوكو، هذه المكانة التي تظهر أكثر عندما يناقش علاقة الطبيب بالمريض في الفصل الرابع من القسم الثاني، وهي العلاقة التي سيعود إلى مناقشتها في كتاب **مولد العيادة** هذه المكانة تتضح أكثر مع جهود "فرويد Freud" والتحليل النفسي.

إن علم الأمراض العقلية كما تطور في المعازل لا يمكن له أن يدرك بواسطة ملاحظاته وتصنيفاته لغة الجنون، وهو ما سيكتشفه التحليل النفسي في العصر الحديث، وسيعطي أهمية كبرى للبعد اللغوي في تجربة الجنون .من هنا تبدأ جهود "فرويد" في العلاج بواسطة الكلام، لذا فإن أهم اكتشاف حققه هذا العالم هو أنه نظر إلى اللغة من حيث هي بنية الجنون نفسه.

ولكن "فرويد" في نظر فوكو قد أعلى كثيرا من شأن الطبيب، ومنحه قدرات خارقة، وإمكانيات استثنائية في العلاج، لذلك يربط فوكو هذا الاهتمام ببنية لغة الجنون من الناحية النفسية، وبذلك الأدب الجديد حول الجنون والذي سيعرفه العصر الحديث بدءا من رواية "ابن الأخ رامو" لـ"ديدرو Didrot" والذي تزامن مع الشعر الرومانسي ومع "هولدرلين HolderlIne" وبعد، بذلك التيار الفلسفي الذي أسسه "نيتشه". فمع حلول العصر الحديث يبعث الجنون من جديد، كما ستبعث اللغة في **الكلمات والأشياء** مع الفارق في كون الجنون يذهب وينتهي وتبقى اللغة،لذا سيركز

---

(٩) Ibid ,p.268.

فوكو كثيرا على خاصية أساسية من خواص اللغة ونعني بها خاصية الاختراق "Transgression" كما سنوضح ذلك في العنصر الثاني من هذا الفصل . هذه الصفة هي التي تسمح ببقاء اللغة لأنها تخترق الحدود ، وهكذا تعود لغة الجنون للظهور في العصر الحديث مع فارق بينها وبين لغة عصر النهضة، يقول فوكو : (...إذا كانت لغة الجنون في عصر النهضة لغة تراجيدية فإنها في العصر الحديث لغة غنائية، لقد نسي العصر الحديث الخطابات التراجيدية لعصر النهضة، حين كان الجنون يشكل تمزق العالم، ولقد عادت اللغة كانفجار غنائي...لغة تتحدث عن الحقيقة السرية للإنسان[١٠] .

إن هذه الحقيقة السرية جسدتها في نظره أعمال "هولدرلين" و"صاد "Sade و"نرفال "Nervelو"ارتو "Artaudو"بلانشو" و"بتاي" و"روسال" ومن خلال هذه الأعمال، أصبح الجنون يتحدث لغة ليست لغة الموت أو الحياة، وإنما يتحدث عن ذاته، وماذا يمكن له أن يحمل من معنى أو لامعنى.

وإذا أردنا أن نختصر الموضوع أكثر، نقول إنه إذا كان عصر النهضة قد أقام حوارا بين الجنون والعالم، فإن الحجر والعقل قد أسكت الجنون في العصر الكلاسيكي، وإ ذا لم يكن صمتا نهائيا ، مادامت لغة الهذيان حاضرة تؤكد الغياب، لأن الهذيان ليس جزءا من الحوار مع العقل، بل ليس لغة على الإطلاق، عند هذه النقطة تبدأ تجربة جديدة ، أسسها "فرويد" وذلك بالاستماع إلى تلك اللغة المنسية، لغة الجنون.

ومن خلال هذا العرض الموجز لمكانة اللغة في تحليل فوكو لتجربة الجنون في العصر الكلاسيكي، نصل إلى تلك النقطة التي تهم بحثنا والمتعلقة بمكانة اللغة. ومن الواضح والجلي أن اللغة عامة حاضرة في مختلف تحليلاته، وهذا الحضوريتميز بكونه، من جهة موضوع لمختلف التحليلات، ومن جهة أخرى أداة، هذا يعني أن اللغة ذات طابع مزدوج، فهي حقل لمختلف التحليلات ومقاربة معرفية وفلسفية، ولكن ماهي طبيعة هذه اللغة ؟

من الواضح ومن خلال هذا العرض أن فوكو يميل إلى نوع أدبي معين، وتصور معين، إنه يشيد ولو ضمنيا بلغة الجنون في عصر النهضة أو في العصر الحديث، ولكنه يصب كل إمكانياته المعرفية لنقد المعرفة الوضعية التي تأسست في العصر الكلاسيكي حول تجربة الجنون وحول اللغة الوضعية، ومن المعروف أن ميشال فوكو من المناهضين لعلم النفس بل إن العديد من الدارسين يرون في كتاب **تاريخ الجنون في العصر**

Michel Foucault ,Histoire De La Folie A L'Age Classique, p.270 . (١٠)

الكلاسيكي بداية لتلك الحركة التي عرفت في "بريطانيا" و"أمريكا" بمناهضة علم النفس والتحليل النفسي، لذلك نقول أن فوكو يشيد بتلك اللغة الشعرية كما هو الحال عند "ارتو" مثلا أو "نيتشه"، ومن هنا وكما يقول في مقاله عن "بتاي" فإن الخاصية الأساسية للغة هي خاصية التجاوز والهدم والاختراق، والجنون يحمل صفة هذه الخاصية من كونه اخترق تلك الحدود التي رسمتها له ثقافة العصر الكلاسيكي، وعاد من جديد في صور "نيتشه" أو "نرفال" أو" هولدرلين" ... وهذا يعني أن مكانة اللغة كما هي مطروحة في تاريخ الجنون تمتاز بكونها :

(أ) اختراقية تجاوزية ولا عقلانية جسدتها أعمال الفنانين والشعراء والفلاسفة اللاعقلانيين.

(ب) إن الجنون ولغته مرا بمراحل ثلاثة، هذه المراحل تقابلها نفس مراحل اللغة في **الكلمات والأشياء** فهي لغة التشابه في عصر النهضة ولغة التصوير في العصر الكلاسيكي، حيث سيحتل مكانها الخطاب، ثم تعود إلى الظهور من جديد في العصر الحديث مع "نيتشه" و"مالارميه "Malarme.

(جـ) اللغة في تاريخ الجنون حاضرة كأداة للتحليل من خلالها تتبع فوكو مختلف مفاهيم الجنون، وكموضوع فلسفي يترصد تجربة إنسانية فريدة، هي تجربة الجنون .

(د) هنالك -أخيرا- تلك العبارة التي يصف بها فوكو الجنون بـ"غياب الأثر" والتي رددها في الفصل الأخير من تاريخ الجنون وخصها بدراسة بعنوان :"الجنون، غياب الأثر" إننا نعلم الآن مصير هذه العبارة، ففي الملاحظة التي قدمها له "قوتييه "Gautier في مناقشة أطروحته من كونه، لا يفهم معنى الجنون بغياب الأثر، هذه الملاحظة سيعتمدها فوكو لاحقا ويعترف بأنها جملة قيلت بدون تبصر . ولذلك لم نشر إليها في تحليلنا للغة والجنون[١١]

إن مكانة اللغة وأهميتها تتأكد في كتابه الثاني **مولد العيادة، من أجل أركيولوجيا النظرة الطبية** ، هذا العمل الذي يعتبره العديد من الدارسين من الأعمال القريبة والمتأثرة بالنزعة البنيوية، وهذا راجع إلى مكانة اللغة والمفاهيم التي استعملها في تحليلاته كمفهوم العلامة ، والدال ، والمدلول ، والتزامن . وسوف نعود إلى هذه المسألة، مسألة علاقة ميشال فوكو بالبنيوية في نهاية هذا الفصل ، وأما ما يهمنا الآن ، فهو الإجابة على السؤال التالي : ما هو موقع اللغة في **مولد العيادة** ؟ يقول فوكو: (إن موضوع هذا الكتاب هو المكان ، أو الحيز، واللغة، والموت، والنظرة أوالرؤية)[١٢] .

---

(١١) Didier Eribon . **Michel Foucault 1926-1984** ed. Flammarion,1991, p.p.134-137.

(١٢) Michel Foucault .**Naissance De La Clinique,** ed. P.U.F, 3 ème éditions,1993. p.3.

يتعلق الأمر إذن بأربعة عناصر متشابكة ومترابطة لدراسة موضوع المرض في الطب الحديث، هذه العناصر حاضرة في نص الكتاب من أوله إلى آخره، ومن دون شك فإن العنصر الذي سينال اهتمامنا هو عنصر اللغة، دون إهمال لباقي العناصر التي ستجد مكانها في باقي الفصول .

إن السؤال الذي يطرحه فوكو على اللغة هو: (بدء من أية لحظة، وبأية تغيرات دلالية،وتركيبية،أصبحت اللغة خطابا علميا ؟)(١٣) هذا يعني أن فوكو يتحرك من نفس الموقع ومن نفس التساؤل، فإذا كان **تاريخ الجنون** يسائل اللغة النفسية والطبية والعقلية والقانونية، ليعرف تجربة الجنون، فإن **مولد العيادة** يسائل اللغة الطبية لمعرفة تجربة المرض والموت، ومن خلال هذا التساؤل تتشابك العلاقة بين اللغة والموت، بين اللغة والكينونة، بين اللغة والتناهي، والتي ستأخذ صيغتها الفلسفية في **الكلمات والأشياء** .

وإذا كانت كلمتا الخطاب واللغة متجاورتين في **تاريخ الجنون**، فإنهما حاضرتين بنفس الوضعية في **مولد العيادة والكلمات والأشياء** .وإن بدلالات مختلفة توضحها **أركيولوجيا المعرفة** وسنتوقف عندها في الفصل الخاص بالخطاب .

في **مولد العيادة** يتابع فوكو تلك النقلة التي حدثت للغة، من لغة طبيعية إلى خطاب علمي، هو خطاب الطب الحديث . حيث يرى أنه ومن أجل إدراك لحظة التحول هذه، يجب مساءلة شيء آخر غير المحتويات أو النماذج المنطقية يجب الإتجاه نحو تلك المنطقة: (حيث "الأشياء" و"الكلمات" لم تفترقا بعد، حيث مازالتا تنتميان إلى صنف اللغة، ككيفية للنظر والقول أو الكلام)(١٤) .

إننا هنا أمام إحدى المقدمات الفلسفية التي ستكون موضوع **الكلمات والأشياء**.تلك المقدمة التي تربط بين اللغة والمعرفة، وهنا في **مولد العيادة** يتم الربط بين القول والنظرة ضمن تجربة علمية هي التجربة الطبية. لذا يرى أن هنالك تحالفا بين الكلمات والأشياء وجد بين النظرة والقول، فالنظرة أداة علمية ووسيلة معرفية، تتطلب لغة عقلية أو خطابا علميا، والتجربة العيادية هي التي فتحت هذا المجال ، مجال النظرة والقول حول الفرد.

إن هذا الطرح الجديد، لدراسة اللغة في إطار العلاقة بين الكلمات والأشياء، بين النظرة والقول، سمح لفوكو بنقد الطريقة التأويلية القائمة على الشرح والتعليق، ذلك

---

(١٣) Ibid, p.07

(١٤) . Michel Foucault, Naissance De La Clinique p..070

التعليق القائم على مسلمة مفادها أن الكلمة فعل ترجمة، وأن اللغة تحمل دلالات رمزية ودينية،إن هذا الطرح يرفضه فوكو ويقترح دراسة التجربة الطبية في إطار دراسة العلامة، والدال والمدلول، والجمع بين : (البنية اللسانية للعلامة وبنية الحالة)[١٥] هذا الاقتراح ليس بعيدا -في الواقع- عن النزعة البنيوية وخاصة في صورتها اللسانية، التي تركز على شكل اللغة، ولا تهتم بمضمونها ولا بمعناها، ويتضح هذا في مناقشته لعلاقة العلامة "Le signe" بالعرض " "Symptome هذه العلاقة التي احتلت مكانة بارزة في الطب العيادي.

يعرف المرض في التجربة العيادية بواسطة أعراضه وعلاماته، فالعرض هو الذي يحدد المرض، في حين أن العلامة هي التي تعلن وتصف ما سيحدث. العرض يتخذ صورتين، صورة الدال " "Signifiantوصورة المدلول " "Signifie، فعندما يكون مدلولا ، يكون معناه في ذاته ، أما عندما يكون دالا فإنه يحتاج إلى من يدلل عليه، وهنا يتدخل الطبيب، بمعنى يحتاج إلى فعل التدليل، لذلك يصل فوكو إلى نتيجتين هما :

(أ) الأعراض تشكل طبقة أولية متراصة من الدال والمدلول، وهنا يكون العرض يشبه اللغة الحركية " "Langage d'action وهنا أيضا يستند فوكو على مفهوم "كونديياك "Candillac في كتابه " محاولة في أصل المعارف البشرية ."Essai sur l'origIne des connaissances humaInes »

(ب) تدخل الوعي ممثل بشخص الطبيب، الذي يحول العرض إلى علامة ويصبح العرض والعلامة يقولان نفس الشيء، إلا أن السؤال المطروح هو : ما الفرق بين العلامة والعرض ؟ يرى فوكو: (بين العلامة والعرض هنالك فرق حاسم، العلامة في ذاتها عرض إنما في حقيقتها الأصلية)[١٦]

فالكائن المرضي في كليته وحقيقته منطوقي "Ennonçable ودليل فوكو هو طب الأنواع الذي يقوم على التصنيف. فالجدول التصنيفي يعرض النظرة والكلمة وهما متجاورتان دائما، والمرض لا يوجد إلا في العنصر المرئي والمنطوقي .فما يظهر في الطب العيادي هو ما يقال فلا انفصال بين اللغة والشيء، بين العلامة والعرض، بين الكلمة والمرض[١٧] .

(١٥) Ibid, p.89 .

(١٦) Ibid, p.94.

(١٧) Ibid, p.108.

فـمـا هي إذن النظرة الطبـيـة؟ إنهـا النظرة التي تدرك، ولـكنهـا تدرك بواسـطة التركيب اللغوي، ومثاله في ذلك علاقة الطبيب بالمريض :

١- تبادل بين لحظة الكلام ولحظة الإدراك .

٢- هنالك الجهد من أجل تحديد شكل الترابط بين النظرة واللغة.

٣- ضرورة إيجاد نموذج لوصف كامل ومستغرق .

وهكذا تصبح اللغة ذات مهمة مضاعفة : (بقيـمتها الدقيقة والمضبوطة حيث تقيـم عـلاقة بين مـختـلف مستـويات النظرة والمنطوق وبالوصف حيث تقوم بوظيفة التسمية، وذلك بتمفصل كلامها الثابت والذي يسمح بالمقارنة والتعميم وجعل العنصر ضمن المجموعة)[١٨] .

على هذا الأساس من التحليل نفهم عبارات فـوكو الملغزة من مثـل "العين التي تتكلم" أو "هذه العين التي تتكلم ستكون خادمة الأشياء وسيدة الحقيقة" أو "إننا لا نرى المرئي إلا عندما نعـرف اللغـة" كل هذه العـبـارات تسـتند على أولوية وشـمـوليـة اللغة،ينطبق هذا على طب الأنواع أو الطب العـيـادي، حيث العلاقـة بين اللغة والمشـهد غير متوازنة .

ولكن فوكو في مناقشته لطب التشريح "L'Anatomie" يرى أن هذا الشكل قد انفصل عن المحمول اللساني، بحيث أنه يهتم بالأعضاء أكثر من اهتمامه بالتركيب القولي، ويشـيـر إلى الفـارق بين الطب العـــيـادي والطب التشـريحي بقـوله: (الطب العيادي لا يفرق بين العلامة والعرض، أما الطب التشريحي فإن العرض يمكن أن يكون أصمـا وطابعه الدلالي ينعدم)[١٩] وهكذا يمكننا أن نجمل أهم الأفكار حول اللغة في التجربة الطبية في النقاط التالية:

(أ) احتلت اللغة موقعا مركزيا في التجربة الطبيـة من حيث هي أداة للتحليل، وموضوع للمعرفة.

(ب) طبيعة هذه اللغة هو الطابع العلمي الوضعي، بل وحتى البنيوى من حيث اعتماده على العلامة والدال والمدلول والتزامن .

(جـ) ارتبطت اللغـة بالنظرة والمكان ولكنهـا ارتبطت كـذلك بالموت وهذه إحـدى الموضوعات الأساسية في فلسفة فوكو والتي سنبينها في نهاية هذا الفصل .

---

(١٨) Ibid p.114 .

(١٩) Michel Foucault ,Naissance de la clinique, p.163.

(د) يعتبر نص **مولد العيادة** من النصوص الفريدة في إنتاج فوكو التي لم تستخدم النصوص الأدبية كما هو الحال في باقي أعماله، ولكن وكما يشير إلى ذلك "لوك جيارد Luce Giard"فإن نشر كتاب ريمون روسال في نفس السنة،أي سنة ١٩٦٣ ، يحمل دلالة،خاصة إذا علمنا أن "روسال" أديب، وشاعر، ومريض، بل ومجنون، مات منتحرا .إن هذا الجمع يحمل دلالة من حيث التعبير ومن حيث الموضوع(٢٠) وهو ما سنوضحه في العنصر الموالي من هذا الفصل.

(هـ) يسمح لنا هذا العرض كذلك أن نقول مع مؤلفة كتاب "عصر البنيوية " أن فوكو درس : (هذه المعرفة من خلال التعارضات البنيوية، واضعا ديالكتيك المرض في موازاة ديالكتيك اللغة، وناظرا إلى العلاقة بين المرض وتقدمه من ناحية، وتشخيص الطبيب وعلاجه من ناحية،مدخلا في الاعتبار المنهاج العلاجي الذي يميز بين العلامات والأعراض)(٢١)

لقد استفاد فوكو من تحليلات "رولان بارط Roland Barthes" حول العلامة وهذا ما قربه من التحليلات البنيوية، إذ لا ينكر تحوله : (حوالي منتصف الستينيات من اهتمام بالممارسات الاجتماعية التي تؤلف الخطاب والمؤسسات إلى اهتمام شبه حصري بالممارسة اللسانية)(٢٢) وإذا لم يهتم فوكو كعادته بالأدب في **مولد العيادة** فإن نشر كتاب **ريمون روسال** في نفس السنة، كما سبق وأن قلنا يحمل دلالة ومغزى، وهو ما سنحلله في العنصر الموالي .

---

(٢٠) Luce Giarde, **Michel Foucault, Lire L'Oeuvre**,ed. Jerôme Millon Et Les Auteurs, Paris,1992, p.96

(٢١) اديث كيرزويل، **عصر البنيوية، من ليفي شتراوس إلى فوكو**، ترجمة، جابر عصفور، دار عيون. ط٢، ١٩٨٦، ص ٢١٩ .

٢٢ - دريفوس ورابينوف، ميشيل فوكو :مسيرة فلسفية، ترجمة، جورج أبي صالح، مراجعة، مطاع صفدي ، إنتاج ومنشورات.مركز الإنماء القومي،بدون تاريخ، ص ، ٧ .

المحور الثاني - اللغة في البحث الأدبي

لقد سبق وأن قلنا إن هذه الكتابات الأدبية لم يلتفت إليها الباحثون، ماعدا "ريفال" و"بلور"، الأولى بحثت علاقة اللغة بالأدب، والثاني درس علاقة اللغة بالإنسان ولكن لا أحد سبق له وأن ناقش اللغة في إطار المسار العام لفلسفة فوكو، ومن ضمنها -بطبيعة الحال- الكتابات الأدبية .

ونظرا لأهمية هذا الإنتاج الأدبي، سواء من حيث الكم إذ يقارب عددها الثلاثة والعشرين مقالة ودراسة، أو من حيث المدة الزمنية التي امتدت من سنة ١٩٦٢ تاريخ كتابة مقدمته عن أعمال "روسو "Rousseau إلى سنة ١٩٧١ تاريخ صدور كتابه **نظام الخطاب** وهي الفترة التي عرف فيها شهرة كبيرة سواء بأعماله أو بارتباطه بالنزعة البنيوية، أو بذلك الإتجاه الأدبي الذي احتل مكانة كبيرة في الأدب المعاصر، ونعني به "الأدب الجديد" أو "النقد الجديد" مع جماعة ومجلة " "Tel quel» أو من حيث قيمتها العلمية والفلسفية، والتي سيحاول التحليل أن يبرزها .

صحيح أننا لا نجد خلال هذه الفترة الأدبية إلا كتابا واحدا، عبارة عن دراسة للأديب السريالي **ريمون روسال**، وصحيح أيضا أن هذا العمل بقي في الظل، كما اعترف بذلك فوكو، ولكن -وفي نفس الوقت- اعترف بأنه من أقرب الكتب إليه وذلك لما تتمتع به شخصية هذا الأديب من سرية وفرادة وغرابة، لها علاقة بشخصية فوكو.

يقول عن هذا الكتاب:(إنه كتاب خاص ضمن أعمالي.وإني سعيد لأن أحدا لم يحاول أن يفسر،بأنني كتبت هذا الكتاب عن روسال، لأني كتبت كتابا عن الجنون،أو لأنني ساكتب عن تاريخ الجنسانية" "Sexualité » لم ينتبه أحد إلى هذا الكتاب وإني سعيد لذلك، إنه بيتي السري، قصة حب دامت بعض الوقت، لم يعلم بها أحد)[٢٣]

ولكن قبل هذا الكتاب - الذي سنعود إليه - وبعده نشر كما قلنا، عددا من المقالات، من المفيد أن نشير إلى بعض منها، وإن كنا سنستعين بهم جميعا، في تحليلنا لمفهوم اللغة عند فوكو، ومن بين هذه المقالات نذكر مثلا :

١- (" لا" الأب) : دراسة حول الشاعر الألماني "هولدرلين" ١٩٦٢ .

٢- (مدخل إلى الاختراق) : دراسة حول الكاتب والأديب الفرنسي "بتاي"١٩٦٣

٣- (الفكر الخارجي) : دراسة حول الأديب الفرنسي "بلانشو" ١٩٦٦ .

٤- (البنيوية والتحليل الأدبي) : محاضرة ألقاها بمركز الطاهر حداد، تونس، ١٩٦٧

Michel Foucault ،**Raymond Roussel**, ed. Gallimard,Paris, 1992 ،p.02. (٢٣)

٥- (النحو العام واللسانيات) : دراسة حول "بور رويال" ١٩٦٩ .

أمام هذه الدراسات، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكرها، نطرح الأسئلة التالية: كيف نفسر رغبة الكتابة الأدبية عند فوكو، واقترابه من مجموعة الأدب الجديد في إطار مجلة «Tel quel» والتي نشر فيها وأدار بعض ندواتها ؟ وكيف نفسر توقفه عن الكتابة الأدبية وتأسيسه سنة ١٩٧١ لـ" فريق الإعلام حول السجن" "G.I.P"؟ وكيف نفهم أخيرا الوضع المستقل نسبيا لعمله الأدبي مقارنة بكتابته النظرية، وماهي علاقته بالبنيوية ؟ .

سنعتمد التحليل التاريخي للإجابة عن هذه الأسئلة، مركزين بطبيعة الحال على الجانب اللغوي، ومرجئين الأدب إلى الفصل الخامس من هذا البحث وذلك في إطار النظرة الفنية والجمالية للفيلسوف.

منذ تعليقه على كتابي "روسو" : "الاعترافات" و"الحوارات" نلتقي ببوادر نظرته للغة، تلك البوادر القائمة بتفضيل الحوارات على الاعترافات، وهذا لما تتمتع به الحوارات من أسلوب، ذلك الأسلوب الذي يسمعنا صوتا آخر، ولغة مغايرة، إنها: (تتحدث عن الصمت باعتباره التجربة الأولى للحوارات، إنها تحاول بعث لغة داخل حيز حيث كل شيء صامت)[٢٤]

إن لغة الحوارات الصامتة تشبه لغة الجنون في العصر الكلاسيكي ولغة الهذيان، ولكن هذا الهذيان "اسم فاعل « Participe présent » وكنتيجة لهذه الصفة، فإن هذه :(اللغة تمتاز بالتجاوز والاختراق الخالص)[٢٥] بدءا من هذه المقدمة نلتقي لأول مرة بكلمة الاختراق، التي ستصبح جوهر المفهوم اللغوي عند فوكو.

هذه الخاصية يربطها دائما بالجنون، كما يظهر في تعليقه على دراسة "لبلانش Laplanche" للشاعر الألماني "هولدرلين" حيث نقرأ رفضه للمقاربة النفسية والتأويلية، التي يقوم بها الباحث للشاعر، ويرى أنه لفهم لغة الشاعر، يجب أخذها من منبعها، ومنبعها هنا هو الجنون، فـ(الأشكال الخرساء للجنون هي التي تشكل جوهر الشعر)[٢٦]

---

(٢٤) Michel Foucault ،Rousseau ،Juge De Jean Jacques, Librairie Arond Colin, Paris1968, p.10.

(٢٥) Ibid ، p.27.

(٢٦) Michel Foucault,Le"Non" Du Père,Hôlderlln,In,Critique,N42178,1962، p.175.

وفي سنة ١٩٦٣، أصدر دراسته الهامة عن الأديب "**ريمون روسال**" وقبل تحلي هذا العمل يجدر بنا أن نشير إلى ملاحظتين الأولى تتعلق بالتكوين الفلسفي لفوكو بحيث قطع في هذه الفترة مع الظواهرية نتيجة قراءته لـ"روسال" وذلك في حدود سنة ١٩٥٧، وهي نفس الفترة التي اكتشف فيها "نيتشه". والثانية أنه مع قراءة "روسال نقف عند الطابع المزدوج للكتابة عنده، فمن جهة يناقش خطابات نظرية كما هو الحال في **تاريخ الجنون، ومولد العيادة**، ومن جهة أخرى نجده يهتم باللغة وبالنصوص الأدبية ذات العلاقة بالإتجاه السريالي عامة. ومن هنا نفهم ذلك التزامن في نشر كتابي **مولد العيادة و ريمون روسال** في نفس السنة أي سنة ١٩٦٣[٢٧]

ولعل الناقد الأدبي "بيار ماشري « Pierre Machery » قد أدرك هذه النقطة عندما أشار في مقدمته لكتاب **ريمون روسال** أن **مولد العيادة** محاولة للإجابة على الشروط التاريخية التي سمحت بالتعرف على المريض واعتراف المريض، وارتباط ذلك بخطاب حول المرض والقواعد التي يخضع لها . ومن ذلك توصل فوكو إلى ربط اللغة بالموت وهما العنصران الأساسيان من بين العناصر الأربعة التي تشكل الكتاب، وهذا الربط سيشكل محورا أساسيا في كتابه عن "روسال" .

ومن دون شك فإن كل عمل "روسال" يقوم على تجربة « Experience » وهي من المفاهيم المركزية في فلسفته، وإنها لتجربة فريدة تلك التي أقامها "روسال"مع اللغة والأدب، مجاله المفضل، حيث الكتابة لا تعني الإثبات بل النفي، ولا الظهور بل الاختفاء، ولا الحضور بل الغياب، لماذا ؟ لأن اللغة ليست أداة للتعبير، يشكلها الإنسان ويطوعها كيف ما شاء، ولكنها المكان الذي يسكنه الإنسان، والمجال الذي من خلاله يظهر الأدب جانبه الذاتي .

عند هذه النقطة يلتقي تأويل فوكو لروسال بتصور "هيدجر" للغة والذي يقول حرفيا: (اللغة هي مسكن الوجود وفي مسكنها يسكن الإنسان، ومن يفكرون ومن يخلقون بالكلمات، هم حرس هذا المسكن)[٢٨] مع فارق في علاقة اللغة بالإنسان عند فوكو الذي يرى أن اللغة ليست فقط مكانا، بل مكانا فارغا من الإنسان وأشيائه، إنه المكان اللاإنساني وغير المحجوز بشكل كامل[٢٩]

Michel Foucault .**Structuralisme Et Post-Structuralisme**,In, (D.61), p.07 . (٢٧)

(٢٨) مجاهد عبد المنعم مجاهد ، **هيدجر راعي الوجود**، دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة، ١٩٨٣، ص،ص٢٧ - ٢٨ .

Michel Foucault .**Raymond Roussel** .p.18 . (٢٩)

من هذا الفهم تأتي في نظر فوكو خطورة اللغة وتردد وتخوف الغرب من التفكير في اللغة، لأن كل تفكير في اللغة هو تفكير في زوال الذات، وهي الفكرة التي سيطورها -كما هو معلوم- في **الكلمات والأشياء** ويتم التعبير عنها بـ"موت الإنسان" . وصفة الخطورة هذه نجدها عند "هيدجر" كذلك والذي يقول في تعليقه على الشاعر "هولدرلين": (كيف كانت اللغة أخطر النعم؟ إنها خطر الأخطار جميعا لأنها هي التي تبدأ بخلق إمكانية الخطر) أو عندما يقول : (اللغة هي التي تنشيء على هذا النحو إمكانية ضياع الوجود ، أي الخطر)[٣٠]

إن نص "روسال" يجمع بين اللغة والكتابة والجنون، والمرض والموت، وإن مكان اللغة عنده هو : (الفراغ الذي ينطق منه، والغياب الذي بواسطته يتواصل العمل بالجنون)[٣١] وكلماته دائما : (نشطة ومكسرة، ممتلئة وخالية من الإمكانية، إمكانية أن تكون هنالك لغة ثانية، هذه اللغة أو تلك، هنا أو هنالك، أو لا هذا ولا ذلك، ربما هنالك لغة ثالثة، أو لا شيء)[٣٢] إنها اللغة المضاعفة دائما ، تلك اللغة التي تبدأ من نقطة صغيرة، لتكبر وتصوغ صورا لا متناهية، حيث تنسج خيوطها بحركة مزدوجة، حركة تقدم وتراجع، تشبه الآلة الحربية، والتي يصفها فوكو بقوله: (الآلة اللغوية لروسال، آلة مضاعفة، لغة منطوقية منسجمة، تخفي لغة صماء مبعثرة ومكسرة ومهشمة)[٣٣]

إن هذه اللغة تحمل في حركتها التراجعية لغز الموت، والذي يجعلها تحمل طابع الكينونة، إنها ترتبط بالكائن وازدواجياته -وهو أحد عناوين فصول كتاب الكلمات والأشياء- بوحدته وانفصاله، إنها تأتي من تلك الزاوية المظلمة حيث تظهر أشياء وتختفي أشياء[٣٤] وهذه الفكرة نجدها عند "نيتشه" أعني ربط اللغة بالكينونة وهو ما يشير إليه فوكو في حواره مع "بلور" حيث يقول:(إنه نـــيتشـه -بواسطة الثقافة الألمانية- الذي اكتشف البعد الخاص للغة، ذلك البعد غير المتوازن، مع الإنسان...وهو الذي كان يقول حيث توجد العلامة يصمت الإنسان)[٣٥] وما يقوم به فوكو فيما بعد هو مجرد استخلاص للنتائج القصوى حيث يقول : (لا وجود لنظام مشترك بين الوجود

---

(٣٠) مجاهد عبد المنعم مجاهد، مرجع سبق ذكره، ص،ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣١) . Michel Foucault ،**Raymond Roussel**, p.205

(٣٢) . Ibid, p.20

(٣٣) . Ibid ،p.70.

(٣٤) . Ibid ،p.154

(٣٥) . Rymond Bellour ،**Le Livre Des Autres**, Op-Cit, p.24

واللغة، وذلك لسبب بسيط وهو أن اللغة نفسها تشكل نسق الوجود...)[٣٦] إنها نفس الفكرة التي سيرددها سنة ١٩٦٦ بعد صدور **الكلمات والأشياء**، لمجلة "-La Quin zaine Litteraire من أنه لم يعد يهتم بالمعنى وإنما بالنسق اللغوي كما هو الحال عند "ليفي ستراوس "Levi-Strauss"و"لكان (37) Lacan»

إن ما يهم فوكو في "روسال" ليس في كونه مجنونا تم معالجته من طرف الطبيب "جاني Janet"ولا لأنه حالة نفسية، ولكن لكونه يملك طابعا مزدوجا يجمع فيه بين الجنون والكتابة، وهي الحالة التي مر بها فوكو،[٣٨] وكما تقول "ريفال" فإن أهمية "روسال" ليس لكونه يمثل خطرا كفرد، ولكن لكونه يملك اللغة أو الكلمة الخطيرة، أو الآلة الحربية،[٣٩] فما أثار فوكو من لغة " روسال"هو ذلك الطابع الاختراقي للغة، اختراق المعيار والحد، وكون نص "روسال" نص مخيف ومهول، أكثر من الهذيان.

لذلك يتخذه فوكو نموذجا للكتابة كما تشير إلى ذلك ريفال بقولها : (إن نموذج روسال قد صبغ كل تعليقاته وطبقه في كل تحليلاته على جميع الذين تناولهم بالنقد والتعليق)[٤٠] وهذا ما نجده في مقاله عن "بتاي" والذي كتبه سنة ١٩٦٣ بعنوان "مدخل إلى الاختراق" حيث اللغة تمتاز بالتدمير والتجاوز والاختراق، وفيها يجد الاختراق مكانه وكينونته اللامحدودة، مادام الاختراق يتعلق بالحد وبتجاوزه : (فالاختراق يحمل الحد إلى حده النهائي، يقوده نحو ضياعه)[٤١]

كما نقف عند تمييز أساسي بين لغة خطابية " Langage Discursif" و"لغة غير خطابية" "Langage Non-Discursif" أو بين لغة جدلية ""Langage Dialectique ولغة غير جدلية " Langage non-dialictique". تبدأ اللغة غير الخطابية في الظهور بدءا من القرن التاسع عشر، أي مع "نيتشه" وقبله عند "صاد" و"هولدرلين" و"نرفال" وهي اللغة التي تعكسها أعمال "بتاي" القريبة من "نيتشه" ومن السرياليين، تلك اللغة الاختراقية التدميرية.

---

(٣٦) Michel Foucault ،**Raymond Roussel**, p.203.

(٣٧) Michel Foucault ،**Entretien** ،In. La **Quinzaine Littéraire**,N4505,1966, p.14.

(٣٨) Didier Eribon ،**Foucault, Michel** ،Op-Cit. p.43.

(٣٩) Judith Revel, **Litterature Et Philosophie Dans L'oeuvre De Michel Foucault**, Mémoire de D .E .A ،Ecole Des Hautes Etudes en, Sciences Sociales, p.30

(٤٠) Ibid ،p.32.

(٤١) Michel Foucault,**Preface A La Transgression**, In. **Critique**.Ns45 ،Aout-Sept.1963, p 755.

هذه الفكرة نقرؤها كذلك في مقاله عن "كلوسوفسكي "Kolossowski ومحاضرته عن الأدب واللغة سنة ١٩٦٤، أو في حواره عن الأدب الجديد، حيث يبين الفارق بين مفهومه للغة ومفهوم السرياليين لها، فهؤلاء ينظرون إلى اللغة باعتبارها أداة ومساحة للتفكير، لتفكير تجاربهم المطبوعة بالطابع النفسي والكوني أما هو وجماعة الأدب الجديد من أمثال "صولار "Solleres" و"الان روب غرييه -Alain Robbe griller" فيرون في اللغة التجاوز والاختراق ذلك أن الأدب ذاته قد تغير مفهومه إذ لم يعد يهتم بالمعنى والدلالة كما هو الحال عند "سارتر "Sartre أو"ميرلوبنتي « Merleau-ponte » ذلك الأدب الذي انتشر خلال الحرب العالمية الثانية والمسمى بالأدب الإنساني والذي أصبح، -مع النزعة الجديدة- يهتم بالعلامة، وذلك تحت تأثير البنيوي، وههنا يظهر شيء جديد، يتعلق باللغة له أهميته القصوى في مفهوم فوكو : (أعتقد شخصيا، أن الواقع لا وجود له، وأنه لا وجود إلا للغة، وأننا نتحدث من داخل اللغة)[٤٢]

هذه الفكرة سيعيدها في شكل رغبة وذلك في درسه الافتتاحي بالمعهد الفرنسي "College de France" سنة ١٩٧١ ، حيث يقول : (كنت أفضل أن أكون مغمورا بالكلمة بدل أن أتناول الكلمة متشوفا لتجاوز كل بداية ممكنة حيث أتخيل نفسي لحظة أتكلم وكأن صوتا ما يجاوزني هاتفا: يكفي أن أستطرد، أن ألاحق الجملة، أن أستوطنها دون أن يدري أحد وكأنما هي ماثلة تومئ إلي في لمح خاطف. أما عن البداية فلن تكون هنالك بداية، وبدل أن أكون ذلك الشخص الذي منه يأتي الخطاب، أفضل أن أكون فجوة رهيفة في مجراه العرضي، ونقطة اختفائه الممكنة)[٤٣] فاللغة هي المكان الأول، والمجال الذي يتحرك فيه الإنسان، إنها الواقع، ومن الواضح أن فوكو في هذه الفترة -كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك- أصبح يهتم فقط باللغة والخطاب وبالممارسات اللغوية والخطابية، ومن هنا اختزاله الواقع إلى لغة .

وفي سنة ١٩٦٦، نشر دراسة حول الأديب "بلانشو" بعنوان "الفكر الخارجي" أكد فيها أن اللغة تتجه دائما نحو الخارج، وأنها تنفلت من النموذج النمطي للخطاب. إنها تنفلت من حكم التمثيل الذي ساد في العصر الكلاسيكي، والذي حلله بشكل عميق في **الكلمات والأشياء**.

---

(٤٢) Michel Foucault, **Débat Sur le Roman** . In, Tel quel,No17, 1967, p.45.

٤٣ – ميشال فوكو ،**جنيالوجيا المعرفة** ، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العال، دارتوبقال. الدار البيضاء ، المغرب، ط١ ، ١٩٨٨، ص٥٠ .

إن اللغة عندما : (تخرج من ذاتها ، فإنها تكشف عن كينونتها الخاصة)[٤٤] وهو ما جعل الغرب يتردد في التفكير في اللغة، ذلك أن حضورها يغيب الذات، وهو ما أشار إليه "نيتشه" من كون الميتافيزيقا الغربية مسألة نحو " Grammaire"، أما في سنة ١٩٦٧ فقد أصدر دراستين هامتين، الأولى عن البنيوية والتحليل الأدبي، والثانية عن الألسنية والعلوم الاجتماعية، ونظرا لعلاقتهما بموقف فوكو من الألسنية والبنيوية، وهما النقطتان اللتان سنناقشهما فإننا نرجئ تحليلهما إلى حين، أما الآن فإننا سنحاول أن نستخلص أهم الأفكار عن اللغة بعد هذا العرض التاريخي .

إن الخلفية التاريخية لتصور فوكو اللغوي هي مجموعة الشعراء والفنانين والفلاسفة من أمثال "صاد" و"نرفال" و"هولدرلين" و"نيتشه" و"بتاي" و"بلانشو" أولئك الذين سيقول عنهم أن :(لغتهم الغريبة وكلماتهم الخطيرة تشكل "آلة حربية")[٤٥] فعلى عكس الخطاب واللغة الجدلية أو الخطابية، فإن اللغة لا تخضع للقانون إنها كالموت والجنون تجاوزية تدميرية واختراقية، وهو في استعانته باللغة أو بالأدب يحاول أن يخرج من الفلسفة ومن حدودها ، يقول : (إننا لا نخرج من الفلسفة ببقائنا داخلها ، لا ، بل بمعارضتها بنوع من الحماقة المندهشة. . .وبحكم أنني كنت جامعيا وأستاذ فلسفة فإن ما بقي من الخطاب، الخطاب الفلسفي، التقليدي كان يزعجني في العمل الذي قمت به حول الجنون، نجد هنا أثرا لهيجل، ولا يكفي بالضرورة للخروج من الفلسفة، إن نيتشه وبتاي وبلانشو مـــثلوا بالنسبة لي أساليب للخروج من الفلسفة)[٤٦]

ان هذا النص يبين ليس فقط تصور فوكو للغة وإنما الغاية من هذا التصور كما يبين موقفه من الفلسفة، وهو ما سنتناوله في الفصل السادس، إنه ذلك التصور الذي تقول عنه "ريفال" بأنه يعارض به "بورخس "Borges بـ"ديكارت"، الأدب بالبنيوية والفلسفة معا ، ذلك الأدب الذي يستعمله ضد فكره حتى يتجنب الانغلاق داخل خطاب بنيوي، أو داخل نزعة نفسية تحصر العمل الأدبي في المؤلف والنص والقارئ، إن ما يريده هو كسر الانغلاق.

---

(٤٤) Michel Foucault ,La pensée du dehors,In, Critique, No229, Juin 1966 ,p.525.

(٤٥) Judith Revel,Histoire D'une Disparition, "Foucault Et La Litterature", In, Débat, N4779 ,Mars -Avril , 1994, p.86

(٤٦) ميشال فوكو، حوار،فوكو مخترق حدود الفلسفة ، ترجمة، محمد ميلاد ، في، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد التاسع، ص١٦٠ .

واللغة هي التي تحقق هذه الغاية، فهي التي تقاوم سلطة التطبيع .وعليه يمكن القول أن فوكو في فترة الستينيات يتقاسمه خطان، خط أدبي يهتم باللغة وخط فلسفي يهتم بالخطاب. خط اللغة الرافض وخط الخطاب الرسمي المقرر. وفي هذه النقطة يقترب فوكو من البنيوية ويبتعد عنها في نفس الوقت، يقترب منها عندما يحلل الخطاب ويستعين ببعض أدواتها المنهجية، ويبتعد عنها عندما يفكر ، اللغة بهذا الشكل القريب من "نيتشه" و"هيدجر" والأدباء السرياليين، الشكل اللاعقلاني، الذي يربط اللغة بالموت ويعطيها الأولوية الوجودية عن الإنسان.

ويمكن أن نلخص هذا الشكل في النقاط التالية :

(أ) اللغة تمتاز بخاصية الاختراق، ولذا فهي أداة للمقاومة.

(ب) هذه الخاصية لها علاقة شخصية بفوكو وبتأويله لتاريخ أدبي معين، ولشخصيات أدبية وفلسفية معينة، ويعتبر "روسال" نموذجا لهذا التوجه .

(جـ) للغة طابع وجودي سابق عن الإنسان .إنها المكان الذي يفكر فيه الإنسان، ومن هنا خطورتها عليه، وخطورة أن يفكرها الإنسان .

(د) اللغة تختلف عن الخطاب، فهي تمتاز بالتعدي والتجاوز، بالخرق والتدمير والهدم، إنها آلة حربية، وبذلك فهي تساهم في تشكيل أدب الرفض، في حين أن الخطاب يعكس المعيارية والنظام والمؤسسة .

(هـ) هذا التصور للغة شكل مرحلة فكرية، من فلسفة فوكو لم يقتنع بجدواها ، بل انتقدها بقوله : (لكن يبدو لي أنها لم تكن سوى مرحلة... فقد لاحظت استعمال عدد من الموضوعات لـ"بلانشو" أو "بارت" بنوع من التمجيد الفائق الغنائية والعقلنة للأدب ، كبنية لغوية لا يمكن تحليلها إلا لذاتها ، وانطلاقا من ذاتها . ولم يكن التورط السياسي غائبا في هذا التمجيد الذي بفضله وقع التوصل إلى القول بأن الكتابة، في حد ذاتها ، كانت متحررة إلى هذا الحد من كل التحديدات وبأن عملية الكتابة هي تهديم في حد ذاتها ، وبأن للكاتب في ممارسته لهذه العملية ذاتها ، حقا في الهدم غير قابل للتقادم)(٤٧)

إن هذه الشهادة تبين ما سبق وأن قلناه بأن فوكو بعد ١٩٧١ غير طريقة عمله وميدان تفكيره وخاصة فيما يتعلق باللغة، هذا التغير لا يمكن فهمه في نظرنا بعيدا

(٤٧) ميشال فوكو ،حوار، **فوكو مخترق حدود الفلسفة** ،ص ١٥٨ .

عن أحداث ماي ١٩٦٨ والمسماة بالأحداث الطلابية، وانهيار الإيديولوجيا البنيوية وظهور ما سمي بعد ذلك بما بعد البنيوية .

وإذا كانت الخصائص السابقة محاولة للإجابة عن الأسئلة التي طرحناها فإن علاقته بالبنيوية ومنظوره الفلسفي للغة لم يتحدد بعد وهو ما سنعمل على تبيانه في العنصر الموالي من البحث .

المحور الثالث - اللغة في البحث الفلسفي

يعتبر كتاب **الكلمات والأشياء** خلاصة النظرة اللغوية والتتويج الفلسفي لها. إنه كتاب في اللغة[٤٨] يدرس العلاقة المعقدة بين الكلمات والأشياء[٤٩] ويعكس اهتمام فوكو بالمفهوم والنسق [٥٠] إنه محاولة كما يقول للإجابة عن ذلك الفضول الفكري الذي ينحصر في السؤال التالي : ما هي اللغة، وكيف الالتفاف حولها لإظهارها بذاتها وبكمالها ؟[٥١]

لذلك يصرح لـ"بلور" بضرورة طرح مشكلة كينونة اللغة كمهمة فلسفية،[٥٢] وإن الإجابة عن سؤال اللغة والكشف عن هذه المهمة لا يمكن دون ممارسة التحليل التاريخي عبر مختلف الحقب والعصور التاريخية الثلاثة التي يرسمها الكتاب، مبتدئين بـ :

أولا-اللغة في عصر النهضة

يعرف ميشال فوكو مجال بحثه وطريقة عمله بقوله :(التحليل لا ينتمي إلى تاريخ الأفكار أو تاريخ العلوم وإنما دراسة تجهد في العثور على المنطلق الذي كانت منه المعارف ممكنة، وحسب أي مدى من النظام تكونت المعرفة وعلى أية قبلية تاريخية وفي عنصر أي وضعية تمكنت أفكار من الظهور، وعلوم من التكون، وتجارب من الإنعكاس في الفلسفات، وعقلانيات من التشكل وربما كي تنفرط بعد ذلك وتتلاشى)[٥٣]

إن المجال المعرفي يتضمن مستويات أساسية تتعلق بالمنطلقات التاريخية الممكنة للمعارف، والنظام الذي يشكل هذه المعارف والقبلية التاريخية التي تتحكم في هذا

---

(٤٨) Maurice Crainston ,Op-Cit, p.65 .

(٤٩) Jacques Milhau, **Les Mots Et Les Choses,In,Cahiers Du Communisme.** No02. Fev, 1968, p.55.

(٥٠) Michel Foucault ,**Entretien** ,In, **La Quinzaine Littéraire**, p.15.Foucault

(٥١) ميشال فوكو ، الكلمات والأشياء، ترجمة، مطاع صفدي، د.سالم يفوت، د.بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح، كمال اسطفان، مراجعة جورج زيناتي ومطاع صفدي، مركز الإنماء القومي. ١٩٩٠ ، ص٢٥٥, انظر كذلك النص الاصلي :

- Les Mots et Choses ,une archeoligie des sciences humaines ,ed ,Gallimard ,1966 ,p , 315 .

(٥٢) Rymond Bellour ,**Le Livre Des Autres**, Op-cit, p. 42 .

(٥٣) ميشال فوكو، الكلمات والأشياء ، ص ٢٥ .

المنطلق وذلك النظام ، و تحديد وضعية ظهورها و اندثارها ، إنه مجال معرفي كانطي.

فاذا كان "كانط "يبحث في الشروط القبلية المعرفية الممكنة و الخالصة، فإن فوكو يبحث في الشروط القبلية التاريخية، هذه الشروط هي التي تظهرها الإبستمية أو إبستمية عصر من العصور، و تكشفها الأركيولوجيا :(إن ما نريد تبيانه هو الحقل المعرفي،الإبستيمية"« Epistéme » حيث المعارف منظورا إليها خارج أي معيار يستند إلى قيمتها العقلية أو إلى صورها الموضوعية...و بدلا من تاريخ بالمعنى التقليدي للكلمة، فإن ما نعنيه هو الأركيولوجيا Archeologie)[٥٤]

و على هذا الأساس الفلسفي و المعرفي، كيف نظرت الاركيولوجيا إلى اللغة عبر الحقب الثلاثة؟ و كيف حددت هذه الأركيولوجيا وضعية اللغة في عصر النهضة؟

يقول فوكو: (حتى نهاية القرن السادس عشر، لعب التشابه « Ressenbl-nuce » دور الباني في المعرفة الثقافية الغربية، فهو الذي قاد في جزء كبير تفسير النصوص وتأويلها ، وهو الذي نظم لعبة الرموز، وسمح بمعرفة الأشياء المرئية واللامرئية، وقاد فن تمثيلها وتصورها)[٥٥]

يعتبر التشابه المجال المعرفي لعصر النهضة أو إبستيميته وهذا نظرا لدوره المعرفي سواء في تفسير وشرح وتأويل النصوص أو الربط بين الكلمات والأشياء أو بين الرموز والعالم ، أو بين المرئي واللامرئي، لذلك يمتاز بالكلية والعمومية، ويظهر في أربعة أشكال هي : التوافق، والتنافس، والتعاطف، والتماثل، وسنعود إلى هذه الخصائص بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث والخاص بالخطاب والمعرفة.

في عصر النهضة - وكما يرى ذلك فوكو- ليس هنالك اختلاف بين العلامة والإشارة والكلمات، فكل شيء يخضع لـ:(لعبة الإشارة والشبيه، ولذلك فإن الطبيعة والكلمة يستطيعان أن يتقاطعا إلى مالا نهاية مشكلين لمن يعرف القراءة نصا كبيرا واحدا)[٥٦] من هنا نفهم تلك المكانة التي خصها عصر النهضة للكتابة والتي تعود أساسا إلى ذلك التشابك بين اللغة والأشياء بفعل التشابه، وهذا الإمتياز : (ساد كل عصر النهضة -وكان دون شك واحدا من الأحداث الكبرى في الثقافة الغربية- لقد

---

(٥٤) ميشيل فوكو " **الكلمات والاشياء** " ص ٢٥ .

(٥٥) نفس المصدر ص ٩٩ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ٥١ .

غدت طبيعة اللغة من الآن فصاعدا أن تكون مكتوبة)[٥٧]

إن هذا الامتياز يعود في الحقيقة إلى ذلك الحضور المكثف للنصوص الدينية، وإلى ذلك التصور الديني للغة، ذلك التصور الذي يرى : (إنما وضعه الله في العالم هو ، الكلمات المكتوبة، عندما فرض آدم على الحيوانات أسماءها الأولى، لم يفعل سوى أن قرأ هذه العلامات المرئية الصامتة، وقد عهدت الشريعة إلى ألواح مكتوبة لا إلى ذاكرة البشر، والكلمة الحقة يجب العثور عليها في كتاب)[٥٨]

ولذلك كانت المعرفة حتى عصر النهضة تقوم على نقل لغة إلى لغة، لغة الأشياء إلى لغة الكلمات، ولم تكن قائمة لا على الملاحظة ولا على البرهان، لماذا ؟ لأن : (العالم مغطى بشارات [أو علامات] يجب فك رموزها، وهذه الشارات التي تكشف عن تشابهات وأنساب، ليست هي نفسها سوى أشكال من التشابه. *لذا*، فأن تعرف ، سيكون أن تؤول، أن تذهب من العلامة المرئية إلى ما يقال عبرها، ويبقى بدونها، كلمة خرساء نائمة داخل الأشياء)[٥٩]

من هنا احتل التأويل والشرح مكانة أساسية في معرفة عصر النهضة، وسمح للغة من جهة : (بتدفق لا متناه، لا تكف عن النمو، وتصحيح نفسها، ودفع أشكالها المتتابعة إلى الأمام . وربما للمرة الأولى في الثقافة الغربية ينكشف هذا البعد المفتوح كلية للغة، ولا يمكنها أبدا أن تتوقف، لأنها ليست منغلقة أبدا في كلمة نهائية، ولم تكشف عن حقيقتها إلا في خطاب قادم ، مكرس بأكمله لقول ما سيقوله، ولكن هذا الخطاب نفسه لا يملك سلطة التوقف عند نفسه، وما يقوله، إنما يحسبه كما لو كان وعدا، سيورثه لخطاب آخر، إن مهمة الشرح حسب تحديدها، نفسه، لا يمكنها أن تكتمل...)[٦٠]

من هذه النقطة نتعرف على الخاصية الأساسية للغة في عصر النهضة، الخاصية التي تعطي قوة التفتح والتجدد واللاتناهي، قوة التشكل في خطاب وهو ما يحدد وضعيتها التي يصفها فوكو بقوله: (شيء غير شفاف، غامض، مغلق على نفسه، وهي تختلط هنا أو هناك بأشكال العالم، وتتشابك بها جيدا، [إنها تلعب] دور

---

(٥٧) نفس المصدر ، ص ٥٤ .

(٥٨) نفس المصدر ، ص ٥٥ .

(٥٩) نفس المصدر، ص ٥٠ .

(٦٠) نفس المصدر، ص ٨٦ .

المحتوى والشارة...إنها موضوعة في العالم، وهي تشكل جزءا منه، لأنه في آن واحد، الأشياء نفسها تخفي لغزها وتظهر كلغة، ولأن الكلمات تقدم نفسها للناس كأشياء يتوجب فك رموزها)[٦١]

إن اللغة في عصر النهضة شيء كباقي أشياء العالم، علامة من بين العلامات، جزء من العالم، ولكنها هي التي تعكس العالم وأشياؤه ، فالشيء لا يظهر إلا من خلال العلامة، تماما كالعرض لا يعرف إلا بالعلامة في الطب العيادي،وهي في نفس الوقت تعرض نفسها ، كرمز أو كعلامة، يجب تحليلها ، معنى هذا أن للغة طابع مزدوج، فهي شيء من بين أشياء العالم، وهي التي تعكس أشياء العالم. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام ، المجال الشكلي للعلامة، والمضمون الذي تدل عليه، والمتشابهات التي تربط العلامات بالأشياء المدلول عليها .

يقول فوكو: (وبالفعل، فإن اللغة توجد أولا ، في كيانها الخام البدائي...لكنها سرعان ما تتيح ولادة شكلين آخرين من الخطاب يحيطان بها من كل الجهات: فوقها الشرح الذي يستعيد المعطى في كلام جديد، ومن تحتها النص الذي يفترض الشرح أولويته المخفية تحت العلامات المرئية للجميع[٦٢]

لقد كانت العلامة عند الرواقيين تنقسم إلى دال ومدلول وظرف، وعند جماعة "بور رويال "Port royal إلى دال ومدلول، أما في عصر النهضة وحسب فوكو فتنقسم كما قلنا إلى المجال الذي هو شيء من بين أشياء العالم، ومضمون هو النص الأول، وعلاقة بين العلامة والشيء، وهو ما يتكفل به الشرح، ولذلك أقامت اللغة جملة من العلاقات الأساسية هي :

(أ) بين اللغة والعالم : (إن اللغات هي مع العالم على علاقة تماثل أكثر مما هي علاقة معنى)[٦٣] تنعكس هذه العلاقة في المشروع الموسوعي الذي أقيم في عصرالنهضة، وذلك ببناء نظام العالم نفسه بتسلسل الكلمات وبترتيبها في المكان، مثل ما هو الحال في مشروع "غريغوار "Gregoire في كتابه "Syntaxeon ١٦١٠

(ب) بين العلامة والكلمة : (بين العلامات والكلمات ليس هنالك الاختلاف القائم بين الملاحظة والسلطة المقبولة...ليس هنالك في كل مكان سوى لعبة

---

(٦١) فوكو ميشال ، الكلمات والأشياء ، ص ٥٢ .

(٦٢) نفس المصدر، ص ٥٨ .

(٦٣) نفس المصدر، ص ٥٤ .

واحدة، لعبة الإشارة والشبيه. ولذلك فإن الطبيعة والكلمة يستطيعان أن يتقاطعا إلى ما لا نهاية، مشكلين -لمن يعرف القراءة- نصا كبيرا واحدا)[٦٤] وهذه هي العلاقة الثلاثية التي تظهر فيها اللغة في عصر النهضة ، جامعة بين الشيء والنص والتشابه، ومن هنا كان التشابه هو الشكل لإبستيمية عصر النهضة، وكان منهجه هو التأويل والشرح.

(جـ) بين اللغة والكتابة : إن السائد في عصر النهضة هو القول بأن :(المكتوب قد سبق المنطوق دوما، في الطبيعة على وجه اليقين، وربما أيضا في معرفة البشر)[٦٥] ألم تكن الكلمة سر الله الذي أودعه في الطبيعة، والمذهب الباطني ظاهرة كتابة!

(د) بين المكتوب والمرئي : (تفسر أولوية الكتابة الحضور التوأم لشكلين لا ينفصلان في معرفة القرن السادس عشر، رغم تعارضهما الظاهر، ونقصد أولا عدم التمييز بين ما يرى وبين ما يقرأ، بين الملحوظ والمرئي، ومن ثمة تشكل طبقة واحدة وصقيلة تتقاطع فيها النظرة واللغة إلى ما لا نهاية)[٦٦] .

والمثال الذي يقدمه فوكو يخص التاريخ الطبيعي « Histoire Naturelle » حيث أنه إذا ما أريد وضع تاريخ لأحد الحيوانات، فإنه لا يتم الفصل بين مهمة عالم الطبيعة ومجمع المعلومات، وإنما يتم جمع ما شوهد وسمع وروي سواء من طرف الطبيعة أو البشر أو التقاليد أو الشعراء أو الرحالة...إلخ.

إن هذه الوضعية الخاصة باللغة في عصر النهضة، هي التي تمكننا من إقامة علاقة خاصة بين الجنون والأدب.

(هـ) بين اللغة والجنون : المجنون في نظر فوكو، وفي عصر النهضة حيث كان يتمتع بالحرية وبالكلمة -كما سبق القول إلى ذلك - هو كذلك :(إنسان التشابهات الوحشية...هو الشاعر الذي يعثر تحت الاختلافات المعروفة والمنتظرة كل يوم، على القرابات الغائرة للأشياء وتشابهاتها المبعثرة)[٦٧] إلا أن هناك فرق بينه وبين الشاعر، فالشاعر يعتمد المجاز أما المجنون

---

(٦٤) نفس المصدر ، ص ٥١ .

(٦٥) نفس المصدر، ص ٥٥ .

(٦٦) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٦٧) نفس المصدر ، ص ٦٤ .

فيجمع المعلومات: (إن الشاعر يجيء بالتشابه إلى الشارات [العلامات] في حين أن المجنون يشحن كل الشارات بتشابه ينتهي إلى محوها)(٦٨) .

ونتيجة لهذه الخصائص، أصبحت اللغة في عصر النهضة تجربة ثقافية شاملة، وليست فصلا من تاريخ اللغة، رغم وجودها بين النص والتأويل، بين الشيء والشبيه، إلا أنها تنتمي إلى نفس المجال الذي تنتمي إليه المعرفة : (إننا نرى أن تجربة اللغة تنتمي إلى الشبكة الأركيولوجية نفسها التي تنتمي إليها معرفة أشياء الطبيعة)(٦٩) هذه الشبكة التي يحددها مفهوم التشابه .

وبذلك تتحدد كينونة اللغة في عصر النهضة، بأبعادها الثلاثة التي تجمع بين المجال الشكلي، والمضمون ، والتشابه ، وتقيم علاقات تشابهية مع العالم والنص والمرئي، وتسمح للمجنون أن ينسج تشابهاته الوحشية، وللشاعر أن يقيم مجازاته المختلفة. ولكن هذه الوضعية تبدأ في الإختفاء بداية من القرن السابع عشر، حيث يبدأ العصر الكلاسيكي بمفهوم جديد للغة، وبوضعية مختلفة عن وضعية عصر النهضة، فكيف حدث هذا التحول أو الانتقال، وما هي الوضعية الجديدة للغة ؟ هذا ما نتعرف عليه في تحليلنا للعصر الكلاسيكي .

ثانيا- *اللغة في العصر الكلاسيكي*

كيف حدث الانتقال؟ أو كيف تمت القطيعة ؟ متى حدث ذلك بالضبط ؟ وما هي الإبستيمية الجديدة؟ إن هذه الأسئلة سنرجؤها إلى فصل المعرفة أين سنناقش مختلف العلاقات التي تربط بين اللغة والخطاب والمعرفة، ومفهوم المعرفة عند فوكو، أما الآن فإننا نشير فقط إلى أن عصر النهضة بدأ في الاختفاء ومعه إبستيميته، ولم يعد للتشابه أي دور معرفي، بل أصبح مرادفا للخطأ، ولم تعد اللغة جزءا من العالم، أو شيئا من بين أشياءه، بل اختفت في كلمة أخرى هي الخطاب .

يقول فوكو : (كان عصر النهضة قد توقف عند هذه الواقعة الخامة، من أن ثمة لغة: في سماكة العالم، هنالك حروف مكتوبة مختلطة بالأشياء، أو تجري تحتها، هنالك أحرف أولى من الكلمات موضوعة على المخطوطات أو على أوراق الكتب. وكل هذه العلامات الملحة كانت تستدعي لغة ثانية -لغة الشرح والتفسير- أما اللغة

(٦٨) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٦٩) نفس المصدر، ص،ص ٥٦ ، ٥٧ .

الكلاسيكية فليست موجودة، وإنما هي تعمل : فكل وجودها يحتل مكانه في دوره التمثيلي ويتحدد به بدقة، وينتهي إلى أن يستنفذ نفسه فيه)[٧٠] .

لقد حل التصوير أو التمثيل « Représentation » مكان التشابه، والخطاب مكان اللغة، وهي الآن تعمل داخله، ولم تعد كينونتها تتشكل من ثلاثة أقسام، بل من قسمين فقط هما : الدال والمدلول. وعليه تأسست مجموعة من العلاقات الجديدة على غرار علاقاتها في عصر النهضة، هذه العلاقات هي :

(أ) بين اللغة والفكر : ليست اللغة والفكر في العصر الكلاسيكي شيئين مختلفين، بل هما شيء واحد، فاللغة أصبحت تمثل الفكر، ولم تعد أثرا خارجيا أو تعبيرا عنه، بل هي نفسها الفكر: (اللغة تمثل الفكر، كما تتمثل الفكر نفسه...إنها ليست أثرا خارجيا وإنما هي نفسه)[٧١]

(ب) بين اللغة والنص : كان عصر النهضة يقرأ نصا كبيرا هو نص العالم، أو كان يقرأ في العالم الكلمات المنشورة فيه، وكانت اللغة تحمل طابعا مزدوجا ، شيء وعلامة، أما في العصر الكلاسيكي فإن اللغة تعود إلى ذاتها ، لم تعد تهتم إلا بعناصرها المحضة ، وهي المهمة التي سيتكفل بها النحو العام وجماعة "بور رويال".

(جـ) بين اللغة والنقد : من غير شك فإن العصر الكلاسيكي هو عصر النقد ، أو العصر الذي مورس فيه النقد على كافة أشكال المعرفة، ومنه على الدور التمثيلي للغة، يتجلى ذلك خاصة في محاولات "بيكون « Bacon » و"ديكارت" و"لوك « Locke » ويشير فوكو إلى ثلاث مستويات من هذا النقد هي:

١- المستوى الفكري : لقد استحال بناء علم أو فلسفة دون نقد الكلمات والعبارات الفكرية القديمة، ودون التنديد بالعبارات العامة، ومحاولة "بيكون" أو "ديكارت" دليل على ذلك .

٢- المستوى النحوي : مادامت اللغة قد أصبحت تهتم بذاتها ، لذا فإن النقد قد انصب على تحليل القيم الممثلة لتركيب المفردات وبناء الجمل وهو ما يجسده النحو العام .

---

(٧٠) ميشال فوكو، الكلمات و الأشياء، ص ٨٦ .

(٧١) نفس المصدر ص ٨٥ .

٣ - المستوى البياني : ويكون بتحليل العبارات ، وأنماط الخطاب، والقيم التعبيرية، وأصناف البيان من استعارة ومجاز، وكل هذه الأشكال البيانية تدرس في إطار العلاقة بين اللغة والتمثيل.

٤ - المستوى التأويلي : كانت المهمة الكبرى للغة في عصر النهضة هي التأويل والتفسير، ذلك التفسير الذي لا ينتهي، متخذا نصا أوليا، منه تتوالد نصوص لامتناهية، هذا التأويل لا ينتهي مع حلول اللغة في التمثيل، ولكنه سيغير شكل تعامله مع النص، يقول فوكو : (اشتغل تفسير النصوص الدينية بدءا من القرن السابع عشر بالمناهج النقدية : فلم يعد المقصود في الواقع أن نعيد ما سبق قوله في هذه النصوص، وإنما أن نحدد عبر أي الأشكال والصور، وباتباع أي نظام ولأي غايات تعبيرية، ولقول أية حقيقة، قال لنا الله خطابا معينا، أو خاطبنا به الأنبياء في الشكل الذي وصلنا)[٧٢] .

هذه الأسئلة سيجيب عليها "علم التفسير Exégése" و"علم التأويل Hermé-neutique" والتي سنعود إليها لاحقا في العصر الحديث، كما سنبين موقف ميشال فوكو من ذلك ، وخاصة تحليله للتأويل عند "نيتشه" و"ماركس "Marx" و"فرويد".

(د) بين اللغة والزمن : أقامت اللغة في عصر النهضة علاقة تعاقبية تسلسلية دينية مع الزمن، ولذا كانت اللغات الدينية هي اللغات الأصل ، كاللغة العبرية والسريالية والعربية، ثم جاءت اليونانية التي انحدرت منها القبطية والمصرية، أما اللاتينية فكان في توالدها الإيطالية والإسبانية والفرنسية، وأخيرا اللغة التوتونية التي اشتقت منها الألمانية والإنجليزية والفلمنكية . إنه لا يهم إن كان هذا التسلسل صحيح من الناحية التاريخية أم لا، فما يهم هو الفكرة المنهجية التي قامت عليها ونعني بها أن عصر النهضة نظر إلى اللغة في تسلسلها، ومن خلال اللغات الأم. ولكن ما تغير في العصر الكلاسيكي هو هذه النظرة بالذات، فلم تعد النظرة قائمة على التدرج والتعاقب والأصل، وإنما أصبح ينظر إلى : (النظام الداخلي والمكان الذي تحجزه للكلمات، تحدد كل لغة خصوصيتها .لا بمكانها في المجموعة التاريخية: إن الزمن هو بالنسبة للغة نمطها الداخلي وليس مكان

---

(٧٢) ميشال فوكو، الكلمات و الأشياء، ص ٨٧ .

ولادتها)[٧٣] لقد تغير الوضع، ولم يعد الأمر يتعلق بالمتابعة التاريخية الخارجية للغة، وإنما بالزمن الــداخلي للغة، ألسنا في عصر النحو العام ! لذلك لم يعد لتاريخ اللغات أي دور، بل أصبح عرضا وثانويا، كما لم يعد قانونا للغة كما هو الحال في عصر النهضة (وإذا كان بالنسبة للغات من زمن إيجابي، فلا يجب البحث عنه في الخارج من ناحية التاريخ وإنما في انتظام الكلمات في تجويف الكلام)[٧٤] هذه العلاقة الجديدة التي تقيمها اللغة مع الزمن والتاريخ مرتبطة بعلاقة أخرى جديدة، سبق وأن أشار إليها في مولد العيادة، إنها تلك العلاقة التي تربط اللغة بالمكان .

(هـ) بين اللغة والمكان : (إن التقدم في جذوره وكما حدد في القرن الثامن عشر ، ليس بحركة من داخل التاريخ، وإنما هو نتيجة لعلاقة أساسية بين المكان واللغة... إن اللغة تعطي للانقطاع الدائم للزمن استمرارية المكان ...)[٧٥] هذه الاستمرارية يجسدها الخطاب وموقع اللغة فيه وعلاقة ذلك بالتمثيل . لذلك كانت اللغة تحليل للفكر لا بتقسيمه إلى أجزائه وإنما بتأسيس عميق للنظام في المكان، إنه النظام الذي يطبع إبستيمية العصر الكلاسيكي .

(و) بين اللغة والعلامة : إن ما تغير فعلا، وشكل قطيعة مع عصر النهضة، هو نظام العلامة، إذ لم تعد العلامة في نظام الأشياء، بل أصبحت تسكن التمثيل أو التصوير، وهذا ما أدى إلى :

١- استبعاد قيام نظرية للدلالة، وذلك لغياب عنصر ثالث بين الدال والمدلول.

٢- اقتصر تحليل اللغة على العلامة، والعلامة اللفظية فقط، وهذا ما ساهم في تشكيل النحو العام، من "لانسلو "Lancelot" إلى " دي تراسي "Destutt de Tracy"

٣ -النظرية الثنائية للعلامة، نظرية الدال والمدلول لها علاقة مباشرة بنظرية التمثيل.فالدال والمدلول يمثل الواحد منهما الآخر وعند هذا المستوى يحدث التحول الكبير للغة، ذلك التحول الذي ينقلها إلى الخطاب .

(ى) من اللغة إلى الخطاب : قلنا إن اللغة في العصر الكلاسيكي لا توجد إلا وهي تعمل، داخل التمثيل، هذه الصفة تمكنها من التجسد في خطاب، لماذا ؟

---

(٧٣) نفس المصدر، ص ٩٩ .

(٧٤) نفس المصدر، ص ٩٤ .

(٧٥) نفس المصدر، نفس الصفحة .

يقول ميشال فوكو: (لأن الخطاب يربط بين أجزائه كما يربط التمثيل بين عناصره)[٧٦] لذلك كانت اللغة والفكر والتمثيل والخطاب شيء واحد، واتخذت نظرية اللغات، الخطاب وتحليل قيمه التمثيلية موضوعا لها، وأصبحت المهمة الرئيسية للخطاب الكلاسيكي: (إسناد اسم إلى الأشياء، وبفضل هذا الاسم يتم تسمية كينونتها وخلال قرنين من الزمن كان الخطاب الغربي المكان للأنطولوجيا)[٧٧] وعلى هذا الأساس أصبح للخطاب دورين (...حين كان يسمي كينونة كل تمثيل، بشكل عام، كان فلسفة: نظرية معرفة وتحليل أفكار، وحين كان يسند لكل شيء ممثل الاسم الملائم، ويوزع على كل حقل التمثيل شبكة لغة مصنوعة جيدا، كان علما-مدونة-)[٧٨]

سوف نعود إلى هذه المسائل المتعلقة بكينونة الخطاب وعلاقته بالفلسفة بعد أن نستعرض علاقة أخرى متعلقة بالمجال الجديد للنحو وتفاصيله .

(ء) النحو كمجال جديد للغة : يقول فوكو: (ههنا يقع هذا المجال المعرفي الجديد الذي أطلق عليه العصر الكلاسيكي النحو العام...إن النحو العام هو دراسة النظام اللفظى في علاقته مع التزامنية التي يقع عليها عبء تمثيلها)[٧٩] إن هذا المجال تجسده أعمال "بور رويال" هذه الجماعة التي اهتم بها فوكو كثيرا وكتب عنها مقالين سنعود إليهما في خاتمة هذا العنصر، وذلك لعلاقتهما بالبنيوية وهو نفس الاهتمام الذي أولاه عالم لغوي كبير في عصرنا وصاحب مدرسة كاملة ونعني به " نعام تشومسكي N, Chom-sky" ولكن من منظور مختلف ورأي مغاير. فماذا يقصد بالنحو ؟

هل يقصد به الإعراب مثلا أم النظام ؟ في نظر فوكو إن ما يجعل النحو قائما ليس الإعراب وإنما النظام باعتباره تحليلا للتمثيل، فالنظام هو الذي يفرض استخدام الإعراب ، فهنا تتضح تلك العلاقة التي أجلناها إلى فصل المعرفة، ونعني بها علاقة اللغة بالمعرفة مجسدة في النظام .

كما أن النحو العام ليس النحو المقارن كما هو شائع، فالنحو العام لا يقارن

(٧٦) نفس المصدر، ص ٩٦ .

(٧٧) نفس المصدر، ص ٩٧ .

(٧٨) نفس المصدر، ص ١١٥

(٧٩) نفس المصدر، ص ٨٨ .

اللغات المختلفة ، ولا يتخذها موضوعا له، ولا يستخدمها كمنهج، وإن عمومية النحو لا تعود إلى البحث في قواعد النحو ، وإنما إلى ما يحاول إظهاره من وظيفة تمثيلية للخطاب.

ومادام الخطاب كما قلنا، يقوم بنفس عملية التمثيل، أي الربط بين الأجزاء والأقسام، فإن :

(على النحو العام أن يدرس العمل التمثيلي للكلمات بعضها بالنسبة للبعض الآخر:

الأمر الذي يفترض تحليلا للعلاقة التي تربط الكلمات معا (نظرية الجملة وبشكل خاص الفعل) ثم تحليلا لمختلف أنماط الكلمات والطريقة التي تقطع بها التمثيل وتتمايز فيما بينها (نظرية التمفصل) ولكن بما أن الخطاب ليس مجرد مجموعة تمثيلية وإنما هو تمثيل مكرر يشير إلى تمثيل آخر...فإن على النحو العام أن يدرس الطريقة التي تسمى بها الكلمات ما تقوله، أولا في قيمتها البدائية (نظرية الأصل والجذر) ثم في قدرتها على الانزلاق والاتساع وإعادة التنظيم (نظرية الحيز البياني والاشتقاق)(٨٠)

إن هذا النص يبين بجلاء المجال الجديد للغة، وهو النحو العام، هذا المجال يتكون من أربع نظريات، هي : نظرية الجملة والفعل، ونظرية التمفصل، ونظرية الأصل، وأخيرا نظرية الحيز البياني، وسوف نقدم فكرة أولية عن كل نظرية، إذ ليس غرضنا التوقف عند التفاصيل اللغوية، بقدر ما تهدف إلى معرفة كينونة وموقع اللغة في العصر الكلاسيكي، وعليه فإننا سنركز فقط على الأفكار ذات العلاقة بهذا الهدف، ومن هنا فإننا نسأل عن معنى هذه النظريات في إطار الهدف العام للبحث، مبتدئين بـ:

١- نظرية الجملة والفعل : الجملة مقارنة باللغة كالتصور والتمثيل مقارنة بالفكر، فإذا ما تم تحليلها فإننا لا نجد الخطاب وإنما أجزاؤه . فالجملة تتكون من كلمات والكلمات ليست خطابا، لذلك فإن الجملة هي الوحدة الاساسية. لذا يرى فوكو أن الجملة في الفكر الكلاسيكي تبدأ حيثما يوجد الخطاب لا التعبير، أي حيثما توجد اللغة لا الكلمات . أما اللغة فإنها تبدأ مع الفعل، لا باعتباره يدل على الزمن (أرسطو) أو على العمل، بل ما يكون الفعل، فهو إما يؤكد أو ينفي، كما تذهب إلى ذلك جماعة "بور رويال" .

---

(٨٠) نفس المصدر، ص ٩٠ .

ومن هنا نصل إلى الموضوع الذي يهمنا ، وذلك عندما نعلم أهمية فعل "الكون" وعلاقته بمسألة الكينونة. إن جوهر اللغة كما يرى ذلك فوكو يقوم على فعل الكون، وفي العصر الكلاسيكي الذي امحت فيه اللغة كشيء من بين الأشياء، فإنها قد: (عقدت مع الكينونة علاقات جديدة أصعب فهما...فلا لغة بدون طريقة للتدليل على الكينونة، إنما بدون اللغة، لا وجود لفعل الكون، الذي ليس سوى جزء منها... [ومن هنا] فاللغة هي بكليتها خطاب، بفضل تلك القدرة الفريدة لكلمة تتجاوز نظام الإشارات لتبلغ كينونة ما هو مدلول عليه)[٨١] .

ولقد بين هذه المسألة، مسألة فعل الكون والكينونة جماعة "بور رويال" عندما أكدوا على أن فعل الكون لا يعني الإثبات باعتباره اسم كقولنا "نعم" ، وإنما إثبات الفكرة التي يؤمنها الفعل .من هنا لا يمكن فهم الكينونة خارج التمثيل، وفعل الكون خارج التصور أو التمثيل كذلك .

٢ - التمفصل : يبين التمفصل العلاقة بين الاسم والمسمى، الدال والمدلول، وشرط التسمية، والتعميم بالنسبة للخطاب، هذا التعميم يتم بطريقتين : الطريقة التي ينتقل فيها الاسم من الفرد إلى العام والطريقة التي يتحول فيها من الجوهر إلى الصفة، وعند التمفصل يصبح كل شيء خطاب .

٣- التعيين : يحدد التعيين العلاقة بين اللغة والطبيعة، وهذا طبقا لتحليلات فوكو لأعمال "دي تراسي" و"كونداياك" القائمة على مفهوم التسمية .هذه المسألة التي تعود إلى محاورة "قراطيل "Cratyle لـ"أفلاطون" والتي طرحت لأول مرة مشكلة التسمية ، هل هي توفيقية أم وقفية ؟ طبيعية أم اعتباطية؟ وفي العصر الكلاسيكي فإن تحليل أعمال "كونداياك" و"دي ستوت دي تراسي" تبين أن التعبير الحركي هو الذي يربط بين اللغة والطبيعة.

٤ - الاشتقاق : يرى فوكو أنه من الصعب إيجاد قاعدة للاشتقاق، فهي إما تعود لسهولة اللفظ أو للتقاليد والعادات، أو للأشكال البلاغية من مجاز واستعارة وغيرها...عند هذا المستوى من تحليل اللغة في العصر الكلاسيكي، يستنتج فوكو نتيجة أساسية وهي أن اللغة لم تعد تتكلم كما هو الحال في عصرنا عندما كانت شيئا من بين أشياء الطبيعة، وفي نفس الوقت تعبيرا عنه، وإنما أصبحت تحلل وهذا لعلاقتها المباشرة بالتمثيل والتسمية أو الاسم، وحوله ظهرت النظريات الأربعة للغة والتي تحدد

(٨١) ميشال فوكو، الكلمات و الأشياء ، ص ٩٦ .

مهمة الخطاب في العصر الكلاسيكي، باعتبارها مهمة إسناد اسم إلى الأشياء وبفضل هذا الاسم تسمية كينونتها .

ومن هنا يرى فوكو أن عمله كان يهدف إلى الإجابة عن سؤالين، سؤال يتعلق بنظرية العلامة، وسؤال يتعلق بالنظام التجريبي . ولقد توصل إلى نتيجة مغايرة لكل الدراسات التي بحثت في العصر الكلاسيكي، تلك الدراسات التي ترى فيه عصر مكننة الطبيعة، وتعميم الرياضيات، ورأى فيه هو أنه عصر يحتوي على ثلاث مجالات أساسية، هي النحو العام، والتاريخ الطبيعي وتحليل الثروات. وهذه المجالات تقوم على نظام معين للأشياء ليس بالتأكيد نظاما رياضيا ، وإنما تقوم على نسق العلامات "Système des signes" (٨٢)

ونتج عن هذا الوضع، أن الخطاب هو الموضوع المركزي في المعرفة الكلاسيكية وليس الإنسان، وأنه من أجل تأسيس علم للنحو أو نظام للثروات، لم يكن المطلوب معرفة الإنسان، وإنما معرفة الخطاب.لقد حل الخطاب محل اللغة والإنسان في العصر الكلاسيكي، كما حل الصمت أو لغة الهذيان، في التجربة الكلاسيكية بالنسبة للجنون .

إن مهمة الخطاب هي كما قلنا إسناد اسم للأشياء، وهذا نظرا لمكانة الاسم في الخطاب ولمكانة الخطاب في العصر الكلاسيكي تلك المكانة الأنطولوجية التي تمكنه من القيام بدورين : تسمية التمثيل حيث يصبح فلسفة (نظرية معرفة وتحليل أفكار) أو عندما يسند اسم لكل شيء ممثل، يصبح علما أو مدونة. وإذا كنا سنتوقف عند هذا الجانب الأول الفلسفي في نهاية الفصل ، فإننا نرجئ الجانب الثاني إلى فصل المعرفة.

ولكن قبل هذا سنتوقف عند ثلاثة نقاط متعلقة بهذا العنصر، الأولى تخص مكانة النحو العام وجماعة "بوررويال" في عمل فوكو ، والثانية تتعلق بوجهة نظر أخرى حول نفس الفترة ونفس الجماعة، ونعني بها وجهة نظر "تشومسكي" ، والنقطة الثالثة نبين فيها بعض أوجه النقد الموجهة لتأويل فوكو للعصر الكلاسيكي.

سبق وأن قلنا أن فوكو قد اهتم بالنحو العام وجماعة "بوررويال" ، هذا الاهتمام لا يعكسه فقط المكان الكبير المخصص لها في **الكلمات والأشياء** واتخاذها نموذجا للنظر اللغوي، بل وكذلك نجدها في دراستين فرعيتين، الأولى نشرها سنة ١٩٦٧ ، في مجلة "Langage " ضمن ملف خاص باللسانيات الفرنسية والنظريات النحوية، بعنوان

---

(٨٢) . Rymond Bellour .Le Livre Des Autres.Op-Cit, p.19

"النحو العام لبورروبال" أي بعد سنة من صدور كتاب **الكلمات والأشــياء**، والثانية مقدمة لكتاب "أرنولد ولانسلو Grammaire Générale :Lancelot" &Arnauld et Raisonnée"بعنوان **النحو العام واللسانيات** وذلك في سنة ١٩٦٩ ، وهي نفس السنة التي أصدر فيها كتاب **أركيولوجيا المعرفة** والخاص بالخطاب كما هو معروف.

إن أول ما نلاحظه على الدراستين كونهما دراسة واحدة، ليس فقط لأنهما تدرسان موضوعا واحدا وفترة واحدة، بل لأن الثانية مجرد إضافة للأولى تم ربطها بالألسنية الحديثة، فإذا كانت الدراسة الأولى عرض لنظرية النحو العام من خلال التمييز بين العقل والفكر والمنطق، وبين فن القول وفن التفكير، وبين نحو محايث يشكل بنية داخلية للقول ونحو وصفي للغة، وهو ما يشبه العلاقة بين الفكر والمنطق، وإذا كان النحو هو منطق القول ، فإن المنطق هو نحو الفكر، وكذلك نظرية الأصوات ونظرية أشكال الكلام، وغياب نظرية العلامة وتعويضها بنظريات التمثيل، القائمة على : التمثيل ....> الشيء ، ثم ، الشيء ....> التمثيل ، أو ، فكرة ....> [موضوع = فكرة ....> موضوع] وهو ما سمح للغة أن تتشكل في وحدة جديدة هي وحدة الخطاب(٨٣)

إن هذه الأفكار نجدها في الدراسة الثانية مقرونة بالألسنية، وهو ما تشير إليه المجلة من أن المقال كان قد كتب في إطار إعداد مقدمة كتاب "لانسلو وارنولد" في هذه المقدمة ، وهي الدراسة الثانية، يناقش فوكو أفكارا أساسية منها: النحو العام واللسانيات، والنضج البيداغوجي لـ"بورروبال"، العقل والتعميم، العلاقة بالمنطق، نظرية العلامة، خصوصية الكلمات والأشكال، وأخيرا ما بعد "بورروبال" .وإذا كانت هذه الأفكار ذات علاقة بموضوعنا فإن ما يهمنا أكثر هو العلاقة بالألسنية ونظرية العلامة وما بعد "بورروبال" .

يرى فوكو أن علم اللغة الحديث أو الألسنية لا ينفصل عن النحو العام، وأنه سواء تعلق الأمر بالنحو العام أوبمحاضرات "دي سوسير "De saussure فإن الموضوع واحد من حيث المرجعية، مرجعية نظرية العلامة وتحليل اللغة، كحالة خاصة ومعقدة. وهي (نفس المحاولة لتحديد شروط عمل اللغات، ونفس الأفضلية المعطاة للتنظيم، لتنظيم اللغات، ونفس الإرادة في تحليل النحو العام على أساس النظام أو النسق(٨٤) ألم يقل

---

(٨٣) Michel Foucault ,La Grammaire générale de port-royale, In.Langage, No7, Sept.1967,p 15.

(٨٤) Michel Foucault,Grammaire Génerale et Linguistique. In ,Arnauld &L.Ance-lot, Grammaire Générale et Raisonnée,ed. Republication Paulet, 1996 p.4.

"دي سوسير" إن اللغة مجرد نظام لا يعرف إلا نظامه الخاص، أولم يقل فوكو كذلك إن عمله في الكلمات والأشياء يخص المفهوم والنظام(٨٥)

يتساءل فوكو عن أوجه التشابه بين النحو العام واللسانيات، ويرفض اكتشاف صلة القرابة من نوع أن النحو العام مجرد حلقة في تاريخ الألسنية، وهنا يشير إلى محاولة "تشومسكي" لإقامة ألسنية تحويلية، وذلك من خلال قراءة نحو "بورروبال" ، تلك المحاولة التي ترى في النحو لا النظام، وإنما الإبداع أو بتعبير آخر الطابع الإبداعي للغة.

إن فوكو يرى أن ما لم يطوره النحو العام، هو نظرية العلامة، وأن حصر المسألة في الدال والمدلول،أوفي الاسم والمسمى،أوفي التمثيل---> الشيء، والشيء---> التمثيل. وغياب نظرية العلامة هو ما ستتكفل به الألسنية، وخاصة الألسنية البنيوية، ذلك المشروع الذي بدأه "دي سوسير" .

كما أن عمل "لانسلو -ارنولد" لا يشكل انقلابا في الدراسات الألسنية، ولكنه يعتبر تحول في المعرفة النحوية وتحليل جديد للغة،أو بتعبير آخر حيز إبستيمولوجي جديد .هذا الحيز الذي سيعرف في القرن التاسع عشر النحو المقارن وفقه اللغة، وبذلك يتم إعادة النظر في نظرية العلامة والتمثيل ، وعلاقة الشيء بالفكر .إنها المرحلة الثالثة في البحث اللغوي والذي عرفه العصر الحديث، ولكن وقبل أن نواصل هذا التحليل التاريخي، لنقارن تحليل فوكو للنحو العام بتحليل "تشومسكي" والذي يشير إليه فوكو في مقدمته.

على عكس فوكو ، يرى "تشومسكي" أن العصر الكلاسيكي هو عصر العبقرية، حيث (وضعت قواعد العلم المعاصر)(٨٦) وأصول الفلسفة العقلية مع "ديكارت"، وهو الشيء الذي ينظر إليه فوكو بكثير من الريبة والنقد. ومن هذا العنصر يستخرج "تشومسكي" نظريته اللغوية المسماة بـ"النحو التحويلي"، والقائمة على دراسة البنية العميقة، والبنية السطحية، والكفاية اللغوية، والأداء اللغوي، والوظيفة الإبداعية .هذه المعالم الكبرى للنظرية أطلق عليها اسم " اللسانيات الديكارتية" في إطار النحو التحويلي.

---

(٨٥) Michel Foucault .Entretien, In, La Quizaine Litteraire, p. 15

(٨٦) نعام تشومسكي ، اللغة والعقل، ترجمة، إبراهيم مشروح ومصطفى خلال، مطبعة دار توبقال للطباعة والنشر. مراكش، ١٩٩٣، ص ١٤ .

ولقد شكلت المدرسة الديكارتية، وجماعة "بورروريال" خلفية تاريخية ومعرفية لهذه النظرية، يقول :(لقد اتحدت الفلسفة العقلانية، التي اهتمت باللغة، بمختلف التطورات الأخرى المستقلة عن القرن السابع عشر، وأدت إلى قيام أول نظرية عامة، ذات دلالة تتعلق بالبنية اللغوية، أعني وجهة النظر العامة التي حصلت على تسمية "النحو الفلسفي" أو"النحو الكلي")(٨٧)

يشير "تشومسكي" إلى غياب الدراسات اللغوية حول هذه الجماعة، كما ينفي عنها فكرة أن تكون "بضعة من اللغة اللاتينية"، ويرى أن المفهوم المركزي في هذا النحو هو "النظام" ، كوحدة نحوية، وهو ما أشار إليه فوكو. ومن الغريب أن "تشومسكي" لا يشير إلى فوكو في كتابه *"اللغة والعقل"* والذي صدر سنة ١٩٧٢، ويعود إلى طبعة سنة ١٩٦٧ ويتأسف لعدم اهتمام الباحثين-كما قلنا- بهذا العمل الرائد. ويرى أن عمل "بورروريال" تحقيق لما ذهب إليه في نظريته النحوية، وهو ما لا يوافق عليه فوكو.

وإذا كان "تشومسكي" يرى أن : (العلاقة القائمة بين نظرية بورروريال واللسانسيات البنيوية والوصفية المعاصرة واضحة إلى حد ما، وتتحدد هذه العلاقة في تحليل ما أسميته بالبنية السطحية، وفي الخصائص الصورية الظاهرة في الإشارة وفي المركبات والوحدات التي يمكن أن يتم صوغها بدقة بفضل تقنيات عملية التقطيع والتصنيف)(٨٨) فإن فوكو لا يصرح بذلك مشيرا إلى أن النقص النظري في ميدان العلامة والطابع الثنائي للدال والمدلول ، وهو ما سمح بظهور فقه اللغة الذي يشيد به .

كما أنه إذا كان "تشومسكي" يوحد بين الجهد الفلسفي للنحو العام، والجهد العلمي للسانيات البنيوية، وهو ما قاله في محاضرته الأولى عن *العقل واللغة* بأنه : (يمكننا أن نصف اللسانيات المعاصرة بأنها علم يهتم بالوقائع المفصلة، ونصف النحو الفلسفي بأنه يهتم بدوره بالتعميم المجرد، لقد آن الأوان، في نظري، لكي نوحد هذين التيارين الأساسيين ونبلور تركيبا خالصا يجمع نتائج وخلاصات كل منهما)(٨٩) فإن فوكو يميز ويفرق بين جهود الألسنية الحديثة وجهود النحو العام وحدوده الإبستيمولوجية . إن هذه المقارنة المختصرة بين فوكو و"تشومسكي" تسمح لنا بمناقشة النقطة الثالثة المتعلقة بأوجه النقد الموجه لعمل فوكو وتأويله للنحو العام.

---

(٨٧) تشومسكي ' نفس المرجع ، ص ٢٤ .

(٨٨) نفس المرجع ه ، ص ٣٠ .

(٨٩) نفس المرجع ، ص ،ص ٣٤ - ٣٥ .

يرى "ميشال غونتي-دارلي "Michel Ganthier-Darley في مقاله حول : "النحو العام ونحن" أن ميشال فوكو لا يدلل على الأسس التي اعتمدها في تصنيف النحو العام، كما يتساءل عن العينة التي يدرسها، إن كانت ممثلة أم لا من الناحية الإحصائية، وما هي المعايير التي اعتمدها في إعطاء حق الأفضلية للنحو العام؟(٩٠)

إن هذه الأسئلة وغيرها من مثل العلاقة بين التمثيل واللغة، وبين اللغة والفكر، وبين النحو والنظام،يسكت عنها نص **الكلمات والأشياء**، ويسمح بالقول -في نفس الوقت- بأن فوكو يقارب العصر الكلاسيكي بأدوات بنيوية لا يكشف عنها. فمثلا عندما يرى أن اللغة والفكر شيء واحد، تجسدا في خطاب لغوي، ألا يمكن أن نقول إنها نفس النظرة التي نجدها عند "ليفي-ستروس" من كون أن اللغة عقل له قوانينه التي لا يدركها حتى العقل.(٩١)

أليس القول بأن الميزة الأساسية للنحو العام تكمن في النظام، محاولة للتقرب من اللسانيات البنيوية، تلك اللسانيات التي تميزت عن باقي الدراسات اللغوية بقولها بالنظام ثم بالبنية؟ ثم ماذا يعني فوكو عندما يصرح في مقدمة كتاب **الكلمات والأشياء** من أن: (الأركيولوجيا العام إذ تتجه إلى مدى المعرفة العام، إلى تشكلاتها وإلى صيغة وجود الأشياء التي تظهر فيها، إنما تحدد أنساق التزامن، وكذلك سلسلة التحولات الضرورية والكافية لعصر، عتبة، وضعية جديدة)(٩٢) وإن اللغة في العصر الكلاسيكي كانت تزامنية من حيث اهتمامها بالنظام الداخلي للجملة.

وأخيرا ألا يعني إعطاء مكانة أنطولوجية للخطاب، هو بصورة من صور إعطاء الأولوية للغة على باقي الأشياء، أليست هذه الأولوية هي التي نجدها في التصور البنيوي ؟ إننا نعتقد أن تحليل فوكو يستند في بعض وجوهه على المفاهيم البنيوية وهو ما لم ينكره، كما سبق التطرق إلى ذلك في **مولد العيادة**، وهذا التحليل شكل مرحلة من مراحل عمله الفكري. كل هذا يسمح لنا بالقول بنسبية تحليلاته لهذه المرحلة وموقع اللغة فيها، وإن كان تحليله لا يتوقف عند هذه الفترة، بل يتعداها إلى الفترة الحديثة والمعاصرة ، وهو ما سنتناوله في العنصر الموالي .

---

(٩٠) Michel Ganthier-Darley, Michel Foucault.La Grammaire Genérale et Nous,(1) .In.Raison Présente No.100-1991 P 146 .

(٩١) Claude Levi-Strauss .La Pensée Sauvage .ed. Plon. 1962 .p.335.

(٩٢) ميشال فوكو ، الكلمات والأشياء، ص ٢٦ .

ثالثًا -اللغة في العصر الحديث

يبدأ العصر الحديث عندما يكف التمثيل عن أداء دوره المعرفي، والخطاب عن دوره اللغوي، ويحل محل النحو العام، فقه اللغة، من خلال منظومة الإعراب. يقول فوكو : (ولم تعد اللغة تتكون من تمثيليات فحسب، وأصوات تمثل بدورها تلك التمثيلات، وتنتظم فيما بينها انتظاما تستلزمه متطلبات التفكير وأشكال تسلسله، بل أضحت إلى جانب ذلك تتكون من عناصر تمثيلية، مجتمعة في منظومة، تفرض على الأصوات والمقاطع والجذور، نظاما ليس هو نظام التمثيل)[٩٣] إن هذا النظام الجديد الذي يتحدث عنه هو النظام الإعرابي في إطار النحو المقارن، وضمن مجال جديد هو مجال فقه اللغة.

لذا علينا أن نتساءل عن شبكة العلاقات الجديدة التي تقيمها اللغة بنظامها الجديد مع مختلف الموضوعات، ومن بينها نذكر :

(أ) انفصال اللغة عن التمثيل : كان التمثيل في العصر الكلاسيكي هو المحدد للنظام المعرفي واللغوي، وكان الخطاب هو المجال الذي يتحقق فيه، ولكن مع بداية العصر الحديث، وخاصة مع جهود "فرانز بوب "Franz Boppe بدأ يحدث تحول في اللغة كما حدث للاقتصاد والبيولوجيا، ذلك التحول الذي مس الكلمة من حيث أنها لم تعد تقوم على التمثيل وإنما تقوم على ذاتها، على بنيتها الصوتية والصرفية والإعرابية،أوبتعبير آخر إنها تقوم على نظامها النحوي .يقول فوكو : (فلكي تتمكن الكلمة من التعبير عما تعبر عنه، عليها أن تنخرط في نظام نحوي كلي يكون بالنسبة لها الأسبق والمحدد والأساس)[٩٤] إن هذا التحول يندرج في إطار التحول الكبير لإبستيمية العصر الحديث، تلك الإبستيمية التي قطعت مع إبستيمية العصر الكلاسيكي القائمة على التمثيل والخطاب. وهو ما يسميه فوكو بالانقلاب المعرفي للعصر الحديث، والذي سمح بظهور الاقتصاد السياسي والبيولوجيا وفقه اللغة.

(ب) خصائص اللغة في مرحلة فقه اللغة : تتصف اللغة أولا بطريقة ربط عناصرها الكلامية، في شكل تركيبي يشمل الأفعال والأسماء وكذلك

(٩٣) ميشال فوكو : **الكلمات والأشياء**، ص٢٠٣. .

(٩٤) نفس المصدر ص ٢٣٦ .

الأصوات لتؤلف جملا. كما تتصف اللغة ثانيا بنظامها الإعرابي الذي يحدد الجمل، وعليه فإن جميع اللغات تتساوى في الأهمية رغم اختلافها في طريقة التنظيم، ومن هنا نفهم ذلك الفضول المعرفي، واللغوي، الذي انطلق في القرن التاسع عشر إزاء اللغات النادرة والمختلفة، وهو ما حققه الكثير من المستشرقين، في دراساتهم اللغوية والفقهية، والذي شمل الكثير من لغات العالم، القديمة منهما والحديثة، المكتوبة منها والشفاهية، ومن هنا أيضا ندرك ذلك الاهتمام بالأدب الشعبي والمحلي، لأن اللغة لم تعد مع "راسك "Raske و"غريم "Grimme و"بوب" مجموعة من الكلمات فقط، بل هي مجموعة من الأصوات كذلك، أو بتعبير دقيق مجموعة من العناصر الصوتية، أي أن فقه اللغة انتبه إلى مستوى جديد في اللغة وهو مستوى الكلام، والذي سيعرف مع "دي سوسير" مكانته اللغوية والألسنية ويصبح لحظة محددة للغة، ويبعث من جديد إمكانية التفكير في العلامة .

يسمح هذا النظام الصوتي بظهور مناهج تصنيف الأصوات في اللغة، والشروط التي تفرض تغيرا في الصوت، وتلك التي تسمح بتحديد ثبات المتغيرات على مر التاريخ، وهو ما أدى إلى نشوء نظرية جديدة حول الجذر، خاصة بفقه اللغة، وهي النظرية القائلة بأن عناصر اللغة تنحصر داخل اللغة ذاتها، على عكس نظرية الجذر في النحو العام التي تبحث عن قاعدة عامة وكلية للجذر.

ولم تعد اللغة مرتبطة بالتمثيل، بل أصبحت مرتبطة بالذات ونشاطها من هنا أصبحت في علاقة مع الإرادة لا مع الفكر، ونجم عن ذلك نتيجتين :

١- ظهور الوظيفة التعبيرية للغة وخاصة مع "همبولت "Hymbolt، هذه الوظيفة لا يمكن ردها إلى التمثيل أو التصوير أو تقليد الأشياء بل إلى قدرتها على إيضاح وترجمة إرادة الناطقين بها.

٢- لا ترتبط اللغة بالمستوى العلمي فقط كما هو الحال في العصر الكلاسيكي، بل: (بواسطة روح الشعب الذي صنع هذه الحضارات وأنعشها والذي يمكنه أن يتعرف على نفسه فيها...ولم تعد اللغة مرتبطة بمعرفة الأشياء بل بحرية الإنسان. عندما نحدد قواعد النحو الداخلية نوثق بذلك عرى القرابة بين اللغة وبين مصير الإنسان الحر، لذلك كان لفقه اللغة أصداء سياسية عميقة طوال القرن التاسع عشر)[٩٥]

وهكذا تغير وضع اللغة في القرن التاسع عشر مقارنة بوضعها في العصر

(٩٥) ميشال فوكو ، **الكلمات والأشياء**، ص. ٢٤٣ .

الكلاسيكي، حيث أصبحت منطوية على نفسها، واكتسبت عمقا ذاتيا، كمل لم تعد تندرج ضمن مجال النحو العام، بل أصبحت تدرس ضمن إطار النحو المقارن والذي يعالج اللغات وفق تزامنية كاملة وخارج كل تسلسل زمني، وذلك بسبب تساوي اللغات من حيث الأهمية والقيمة. ونتج عن هذا الوضع الجديد للغة مهمات جديدة منها:

١- ضرورة تحييد وصقل لغة علمية موضوعية بعيدة عن الذاتية، وهو ما يعبر عليه الحلم الوضعي، بضرورة إيجاد لغة علمية وضعية.

٢- ضرورة البحث عن منطق جديد، يستند على مضامين الفكر الشمولي، وهو ما تحقق في المنطق الرمزي، بدءا من أعمال "جورج بول ."George Boole

٣ - ظهور مناهج جديدة للتأويل والتفسير، وهذا نظرا لكون الكلام استرجع كما يقول فوكو كثافته اللغزية التي كانت له في عصر النهضة وهو ما تجسده أعمال "ماركس" و"نيتشه" و"فرويد" .

(جـ) بين **اللغة والتأويل والتفسير** : إن هذه الخاصية الأخيرة تسمح لنا بربط العلاقة بين اللغة في عصر النهضة ووضعها في العصر الحديث ، مع الإجابة عن ذلك التساؤل الذي طرحناه عن وضع التأويل في العصر الكلاسيكي، والذي أرجأناه إلى العصر الحديث، حيث عرفت اللغة والكلام انبعاثا جديدا، واهتماما خاصا من طرف فوكو، خاصة في دراسته حول: **تقنيات التأويل عند ماركس ونيتشه وفرويد** وهو ما يسمح لنا بالتعرض -ولو بقليل من التفصيل- إلى وجهة نظره في هذا الموضوع.

ولكن قبل هذا ما هي أوجه الاختلاف والاتفاق بين تأويل وشرح عصر النهضة وتأويل وشرح العصر الحديث؟

يقول ميشال فوكو: (كان الشرح في القرن السادس عشر ينطلق من العالم (الأشياء والنصوص معا) نحو الكلمة المقروءة فيه..أما التفسير الذي تكون في القرن التاسع عشر فينطلق من البشر والله والمعارف...نحو الكلمات التي تجعل وجودهم ممكنا، وما يكشفه هذا التفسير ليس سيادة خطاب أولي، بل هو كوننا خاضعين سلفا، وقبل أي كلمة نتفوه بها، للغة، ومكبلين بها)[٩٦]

هنالك إذن علاقة معكوسة بين النص والقارئ، فإذا كان الشرح أو التأويل ينطلق

(٩٦) ميشال فوكو ، **الكلمات والأشياء**، ص ٢٤٩ .

من النصوص إلى المعاني في القرن السادس عشر أو في عصر النهضة، فإنه في القرن التاسع عشر ينطلق من الذات، من الإنسان نحو النص، وذلك لأن القراءة لا تهدف إلى الكشف عن نص أولي أو خطاب أساسي أو معنى عميق بل إلى كوننا نخضع سلفا للغة، و مكبلين بها، و هو ما أسميناه في خاتمة المرحلة الكلاسيكية بإعطاء اللغة الأولوية أو الأسبقية الوجودية عن الإنسان باقي الموضوعات، وأنها في العصر الحديث لها كذلك الأولوية الوجودية عن باقي الموضوعات، وهو ما حاول إثباته في محاضرته حول **تقنيات التأويل عند "ماركس" و"نيتشه" و"فرويد"** ، وهو ما سنحاول تبيانه وتوضيحه .

في سنة ١٩٦٧، ألقى فوكو محاضرة بعنوان : نيتشه، فرويد، ماركس، تعرض فيها لتقنيات التأويل عند هؤلاء الفلاسفة والعلماء، وكذلك إلى وضعية التأويل في القرن التاسع عشر، فماهو مفهومه لهذا التأويل، وماهي مكانته في فكره ؟

يندرج بحث ميشال فوكو في إطار مشروع طموح يخص إقامة موسوعة عامة لمختلف التقنيات التأويلية التي عرفها الفكر الغربي منذ الإغريق إلى يومنا هذا.

وفي نظره فإن لغة الثقافة الهندو-أوروبية تقوم على فكرتين أساسيتين، الأولى وهي: (الإعتقاد بأن اللغة لا تقول بالضبط ما تعنيه]والثانية [أنها تتجاوز صورتها اللفظية الصرفة. وأن هناك أشياء أخرى في العالم تتكلم دون أن تكون لغة)[٩٧]

هاتين الفكرتين مازالتا قائمتين إلى اليوم في الثقافة الغربية، وتمارس تأثيرهما على مختلف النظم التأويلية التي عرفها الفكر الغربي، ولكن فوكو يقتصر على منظومة التأويل في القرن التاسع عشر، بعد أن يقارنها بمنظومة التأويل في عصر النهضة، تلك المنظومة القائمة على التشابه ، والتي ذكرنا بعض تفاصيلها في العنصر الأول من هذا العرض، وكذلك إشارته إلى ترك التقنيات التأويلية في العصر الكلاسيكي .

وبعد هذا يحاول تحديد معالم التأويل في العصر الحديث معتمدا على ثلاثة نصوص أساسية وهي: نص الكتاب الأول من رأسمال لـ"ماركس" ، ونشأة الأخلاق لـ"نيتشه" وتفسير الأحلام لـ"فرويد". فماهي هذه المعالم ؟

١- يرى فوكو أن "ماركس" و"نيتشه و"فرويد" لم يضيفوا دلالات جديدة للعالم الغربي وإنما : (غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل وبدلوا الكيفية التي كان بإمكان الدليل أن يؤول بها)[٩٨] كيف؟ هنا يشير إلى أن العلامة أصبحت تحمل بعدا جديدا

(٩٧) ميشال فوكو ، **نيتشه، فرويد، ماركس**، ص ٣٣ .

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

هو بعد الأعماق، ولكن شريطة أن نفهم العمق بالمعنى الذي نجده عند "نيتشه" أي العمق الخارجي. وهذا المعنى من خصوصية فلسفة "نيتشه" القائمة على رفض الجوهر والـ والهوية كما يطرحها الفلاسفة .لذلك نقول إن التأويل هو : (حركة سطح يتزايد علوه بحيث يدع العمق ينكشف من فوقه شيئا فشيئا)[99] السطح بهذا المعنى له أهميته كذلك بالنسبة لـ"ماركس" و"فرويد".

٢ -يتصف التأويل في القرن التاسع عشر، باللاتناهي، وبكونه يظل تأويلا معلقا، فـ: (كلما أغرقنا في التأويل، نقترب في الوقت ذاته من منطقة شديدة الخطورة، لا يرد عندها التأويل على أعقابه فحسب، بل يختفي كتأويل محدثا معه اختفاء المؤول ذاته)[100] وعندما يصل التأويل إلى هذه العتبة، فإنه يحدث انفصال، أي شيء شبيه بتجربة الجنون.

٣- إذا كان التأويل لا ينتهي فهذا يعني أنه لا وجود لما يؤول ، فلا وجود لعنصر منه يبدأ التأويل، لماذا ؟ لأن كل العناصر هي في الحقيقة تأويل، وكل علامة هي تأويل لعلامات أخرى، وكل تأويل يستحوذ على تأويل سابق ويقلبه، وهكذا يستنتج أن التأويل سابق عن العلامة، وهو ميزة التأويل المعاصر أو ما أسماه بالطابع الأنطولوجي للغة.

٤- نتيجة لهذه الميزة، فإن الدليل أوالعلامة لم تعد بسيطة وبريئة وطيبة،بل معقدة وخبيثة وشريرة، إن العلامة بتعبير فوكو أصبحت تضمر نوعا من سوء النية هذا هو حال النقود عند "ماركس" والكلمات الأخلاقية عند "نيتشه"، لقد أصبحت العلامة قناع.

٥- إن خاصيتي اللاتناهي وإعادة التأول تؤديان إلى أن التأويل : (يكون دوما للمجهول الذي قام بالتأويل وأن التأويل يكون عليه دوما أن يؤول ذاته)[101] وأن ما يضمن حياة التأويل، هو أن لا نؤمن إلا بوجود تأويلات .

إن هذه الصور التي يرسمها فوكو للتأويل في القرن التاسع عشر قد لقيت اعتراضات أهمها تلك المتعلقة بـ"ماركس" والخاصة بقوله أن مهمة الفلسفة ليست التأويل وإنما التغيير، وكذلك تجاهله لتقنيات التأويل الديني، وتطورها التاريخي،

---

(٩٩) نفس المصدر ، ص ٣٦ .

(١٠٠) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(١٠١) نفس المصدر ، ص ٤١ .

خاصة ونحن نعرف أن المدرسة الألمانية مع "شلاير ماخر " قد فكرت هذه المسألة بعمق وتصور جديد وهو ما يدعو إلى التساؤل حول مفهوم التأويل عند فوكو مقارنة بفلسفة التأويل الألمانية. هذا التساؤل الذي لا نستطيع الإجابة عنه إلا بعد التطرق إلى الممارسات غير الخطابية، والتي حللها وفق منهجية التأويل النسابي، وذلك بعد تعديله لمنهجية التأويل الأركيولوجي.

(د) **بين اللغة والتشكيل- Formalisation**: سبق وأن أشرنا إلى مهمات اللغة في العصر الحديث وحصرناه في ثلاث مهمات هي : صقل لغة علمية، وإقامة منطق رياضي، وأخيرا إعادة بعث التأويل، وإذا كنا قد تحدثنا عن التأويل فإنه يجب الإشارة إلى مهمتي صقل اللغة العلمية وإقامة المنطق الرياضي بإيجاز، ذلك لأن فوكو لا يتطرق إليها إلا بإيجاز تحت عنوان "التشكيل" وهذه المهمة هدفها :(إيجاد منطق مستقل عن شتى ضروب النحو والمفردات والصيغ التركيبية والكلمات: منطق قادر على استنباط واستخدام الفكر الشمولي ويعمل على الذود عنها تجاه خصوصيات اللغة القائمة التي قد تحجبها)(١٠٢)

إن هذا المنطق هو المنطق الرمزي أو الرياضي الذي بدأبـ "جورج بول" وتأسس مع "فريجة "Frege"و"راسل "Russel"، فإذا كان التفسير والتأويل يقوم على تحليل الكلام، فإن التشكيل يقوم على السيطرة على الكلام، وكلاهما يشكلان صورة التحليل المعاصر. وعلى أساس هذا الطرح نفهم السؤال الذي طرحناه في إطار إشكاليتنا والمتعلق بموقف فوكو من التيارين الفلسفيين التحليلي والتأويلي.

فإذا كنا قد أشرنا إلى موقفه من التأويل، خاصة التأويل في القرن التاسع عشر، فإن موقفه من التحليل اللغوي والمنطقي سيظهر في الفصل الخاص بالخطاب ومفهوم المنطوق، وعلاقة ذلك بـ"أوستين "AustIne"، ولكن إذا ما طرح الاختيار بين التشكيل والتأويل فإن فوكو يفضل الحياد . يقول: (بالحقيقة، إن التمييز بين التفسير والتشكيل يلح اليوم ويسيطر علينا. لكنه لا يتصف بما يكفي من الدقة...والخيار الذي يفرضه لا يغوص إلى حد كاف في ثقافتنا)(١٠٣) إن هذا الحياد، مؤقت إذ أنه سيعدل من موقفه ويميل أكثر نحو التأويل.

---

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

(١٠٣) نفس المصدر، ص ٢٤٩ .

يستدرك فوكو ويرى أن كل من التأويل والتشكيل مجرد تقنيتين متضايفتين، صادرتين من الوضع الجديد للغة ، فكان: (من الضروري إما جعل اللغة شفافة عن أشكال المعرفة، وإما إغراقها في مضامين اللاوعي. وهو ما يفسر النحى المزدوج للقرن التاسع عشر صوب شكلانية الفكر، من جهة، وصوب استكشاف اللاوعي من جهة أخرى.أي باتجاه راسل أو فرويد)(١٠٤) وفي نظره فإن البنيوية والظواهرية تجد مكانتهما ضمن هذين التوجهين الكبيرين، وبطبيعة الحال فإن البنيوية تقترب من التحليل الرياضي والمنطقي مادامت لا تهتم بالمعنى، والظواهرية تقترب من التأويل، مادامت تبحث عن المعنى، وسنشير في خاتمة هذا الفصل إلى موقف فوكو من هذين الإتجاهين، وذلك بعد مناقشة العلاقة بين اللغة والألسنية .

(هـ) **بين اللغة والألسنية** : إن الألسنية قريبة من التشكيل من حيث كونها شكل من أشكال الوضعيات الخارجية بالنسبة للإنسان، هذه الوضعيات "Les Positivitées" التي سنعود إليها في فصلنا عن المعرفة والعلوم الإنسانية، من مثل الإتنولوجيا والتحليل النفسي .

لا يرى فوكو في الألسنية نموذجا للعلوم الإنسانية، كما كانت البيولوجيا أو الاقتصاد نموذجا لهذه العلوم في القرن التاسع عشر، بل يرى أن الألسنية تشكل : (منطلق قراءة أولية، فالأشياء من المنظور اللساني لا تدخل حيز الوجود إلا إذا كانت عناصر لمنظومة دالة. فالتحليل اللساني هو إدراك أكثر مما هو تفسير: أي أنه هو الذي يكون موضوعه نفسه)(١٠٥) ذلك أن الألسنية مجال معرفي قائم بنفسه حقق مجموعة من الشروط العلمية التي تصنفه مع باقي العلوم الدقيقة .لذلك فتحليلاتها تشكل معرفة قائمة وليس تأويلا لغويا مثل ما هو الحال في العلوم الإنسانية، وباعتبارها كذلك فإنها هي التي تشكل موضوعاتها .

كما أن الألسنية ومع ظهور مفهوم البنية، كعلاقة ثابتة بين مجموعة من العناصر، يجعل في نظر فوكو إمكانية طرح العلاقة بين العلوم الإنسانية واردة . وذلك لما تتمتع به البنية من خصائص معرفية، وهو ما يسمح بربط العلاقة بين العلوم الإنسانية والعلوم الشكلية والقبلية كما يقول. وسوف نعود بعد قليل لعلاقة الألسنية بالعلوم الإنسانية، بعد التوقف على الخاصية الثالثة للألسنية وهي : (إن أهمية الألسنية وتطبيقها على

---

(١٠٤) نفس المصدر، نفس الصفحة

(١٠٥) نفس المصدر ، ص ٣١٠ .

معرفة الإنسان تعيد بإلحاح لغزي طرح كينونة اللغة والتي سبق وأن رأينا مدى ارتباطها بالإشكاليات الأساسية في ثقافتنا. وهي إشكالية يزيدها ثقلا الاستعمال المتزايد للمقولات اللسانية، إذ يجب من الآن فصاعدا التساؤل عما يجب أن تكون عليه حتى تبنى هكذا ما لم يكن في ذاته مع ذلك كلاما ولا خطابا من أجل أن تتمفصل على الأشكال البحتة للمعرفة)(١٠٦)

ولقد وجد الجواب عند "نيتشه" و"مالارميه "Mallarmé وهو ما سنناقشه في النقطة الموالية بعد أن نتعرض كما قلنا لعلاقة الألسنية بالعلوم الإنسانية وعلاقة هذا التحليل بالبنيوية وموقف فوكو منها. ففي سنة ١٩٦٩، نشر فوكو مقالا في : المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية بعنوان **الألسنية والعلوم الاجتماعية** ، ناقش فيه علاقة الألسنية بالفلسفة عموما وبالعلوم الاجتماعية خصوصا. ذلك بعد تحليله لمجموعة من المسائل منها: أن الألسنية في صورتها الحديثة قد بلغت مع "دي سوسير" وأتباعه وكذلك في تطبيقات "ليفي ستراوس" مستوى العلمية، والذي يرجع إلى :

١ - تقنيات التشكيل وعلاقتها بالعلوم الاتصالية والإعلامية، وأخيرا علاقتها بالبيولوجيا والهندسة الوراثية...هذا يعني أن الألسنية بلغت مستوى من العلمية نقلت فيه العلوم الإنسانية من المعرفة التأويلية إلى المعرفة الشكلية، وهكذا أصبحت الألسنية علما حقيقيا أو دقيقا.

٢- بما أن الألسنية قد حققت مستوى من العلمية، فإنها أصبحت نموذجا للعلوم الإنسانية مثل ما هو حاصل في تحليل الأساطير والتحليل الأدبي وعلم الاجتماع .

٣ -يرى فوكو أن العلاقة بين الألسنية والعلوم الاجتماعية ليست جديدة، كما نتصور عادة، وخاصة تحت تأثير الألسنية البنيوية، بل إن هذه العلاقة تعود إلى القرن الثامن عشر ، عندما صنف "دالمبير "D'Alembert موسوعته على الشكل اللغوي، كما يمكن الإشارة إلى نص "شلايجل "Schelegel الذي كتبه سنة ١٨٠٧ ،حول اللغة وحكمة الهنود حيث حلل المجتمع والدين والفلسفة عند الهنود ، على أساس لغوي. كما يجب التذكير بأعمال "دوميزل "Dumézil والذي لم يكن لساني وإنما متخصص في فقه اللغة، والذي أعاد بناء تشكيل بنية المجتمع والدين لبعض المجتمعات الهندو-أوروبية انطلاقا من التحليل الفيلولوجي أو الفقهي . وعليه يستنتج فوكو أن العلاقة ليست جديدة بين اللغة والعلوم الاجتماعية، وكذلك الانفصال بين اللغة وباقي

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٣١٠ .

العلوم الاجتماعية[١٠٧] وإنما تعود العلاقة إلى أيام "راسك" و"شلايجل" و"غريم" الذين أسسوا مجال فقه اللغة بخطوطه العامة ومناهج تحليلية وتطبيقات حققت نتائج قيمة .

إن الجديد هو أن الألسنية تقدم للعلوم الاجتماعية إمكانية معرفية أو إبستيمولوجية مختلفة عن تلك التي عرفتها إلى حد الآن، وهذا يعني أن الانفصال بين اللغة والعلوم الاجتماعية كان واقعا، وما حصل الآن هو تغير في الشكل، في شكل الانفصال، وبشكل جديد أيضا أصبحت الألسنية نموذجا للعلوم الاجتماعية .

وهكذا ظهرت إلى الوجود علاقة الألسنية البنيوية بالعلوم الاجتماعية، تلك العلاقة القائمة لا على أساس المعطيات الإمبريقية " "Empirique والذرية " "Atomiqueمثل : (الجذور، الإعراب، الكلمات) وإنما على أساس المنظومة النسقية بين العناصر. وهنا تطرح مسألتين: الأولى متعلقة بحدودالعلاقات التي يمكن للألسنية أن تقيمها مع باقي المجالات، والثانية بين هذه العلاقات والعلاقات المنطقية، أي العلاقة بين التحليل الألسني والتحليل المنطقي، وهذه العلاقة تعيد طرح ذلك المشكل الذي أشرنا إليه سابقا والمتعلق بمسألة التشكيل والتأويل، كما يطرح مشكلة العلاقة بين التحليل المنطقي والواقع.

إن هذه المكانة المعرفية الجديدة للألسنية، هي التي جعلت فوكو يرفض مختلف المقاربات من نوع مقاربات "تشومسكي" القائمة على التحليل الديكارتي للغة والنحو العام لجماعة "بورروبال" والتي ترى في اللغة ترجمة للفكر . هذه المقاربات تتجاهل في نظر فوكو، واقعة أساسية، وهي أن اللغة شكل من أشكال التواصل ، ومن هنا أقامت علاقات جديدة من نوع باعث ومستقبل ورسالة، ومجموعة من العلامات والقواعد التي تبنى عليها تلك الرسائل.

وهكذا، أو وعلى هذا الأساس انفصلت الألسنية عن نظريات التمثيل والتحليل النفسي لتنتمي إلى التحليل الإعلامي. ومن هنا نفهم سر الاختلاف بين فوكو و"تشومسكي" الذي تعرضنا إليه في العنصر السابق من هذا الفصل، وهو ما يبين من جهة أخرى علاقة فوكو بالألسنية البنيوية .

إن خصوصية التحليل الألسني في نظر فوكو ينبع من كونه ينتمي إلى التشكيل الرياضي، وهذا نظرا لعلاقته بنظرية الإعلام والتواصل، والتي تحلل مختلف القواعد

(١٠٧) Michel Foucault ,Linguistique Et Sciences Sociales ,In ,Revue Tunisienne des Sciences Sociales ,No19, Dec.1969, p,249

والرسائل المتبادلة " Messages,Codes" وهكذا تتحدد العلاقة الجديدة بين الألسنية والعلوم الاجتماعية على أساس تحليل مجمل القواعد والرسائل الاجتماعية .

إلا أن هنالك مشكلة عادة ما يطرحها الباحثون الاجتماعيون، وهي مشكلة التاريخ مقارنة بالألسنية التي تعتمد التزامن والوصف، فإذا كان صحيحا أن الألسنية البنيوية تعتمد على التزامن، فإن هذا في نظر فوكو لا يجعلها مناهضة أو مضادة للتاريخ . بل بالعكس فإن العلاقة بين التاريخ والتزامن في الألسنية تتحدد فقط بصورة مغايرة، شريطة أن لا نفهم من التاريخ التسلسل فقط بل التسلسل والتزامن في نفس الوقت، كما أن تحليلات الألسنيين ليست تحليلات للثبات، بل هي تحليلات لشروط التحول(١٠٨)

إن هذا يعني أن فوكو يرفض ذلك النقد المشهور الذي يعارض التحليل البنيوي والتحليل التاريخي، وخاصة أنه يرى أن الألسنية لا تحلل اللغة فقط وإنما الخطاب كذلك وهنا سر دفاعه عن الألسنية في صورتها البنيوية،وكذلك علاقة مفهومه للخطاب بالألسنية كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا الفصل(١٠٩)

يقول فوكو : (وفي الخلاصة نستطيع القول، أن الألسنية تتمفصل مع العلوم الإنسانية والاجتماعية في بنية إبيستيمولوجية خاصة، تسمح بإظهار العلاقات المنطقية النابعة من الواقع، كما تسمح أيضا بإظهار الطابع الشمولي لظواهر الاتصال ... وتناقش ما يمكن تسميته بالإنتاجات الخطابية(Productions Discursives)(١١٠)

وبهذا القول تنتمي الألسنية البنيوية إلى تقنيات التشكيل كما قلنا ، وتكون البنيوية صورة من صور التشكيل الرياضي، وتجد مكانتها ضمن هذا التحليل الذي بدأ منذ القرن التاسع عشر، أي منذ انبعاث فقه اللغة والمنطق الرمزي، في حين أن الظواهرية تنتمي إلى التحليل التأويلي والتفسيري ، وذلك في بحثها عن المعنى والدلالة رغم أنها وجدت نفسها عاجزة عن تفكير اللغة(١١١)

ولكن، ومرة أخرى، ومن أجل فهم موقف فوكو من هذين التيارين الكبيرين للتحليل المعاصر، سنحاول أن ننظر في بعض النصوص ذات العلاقة بالمسألة، وخاصة

(١٠٨) . Michel Foucault ،**Linguistique et Sciences Sociales**, p.253

(١٠٩) . Ibid ،p.255

(١١٠) . Ibid ،même page

(١١١) Judith Revel ،**Litterature et Philosophie Dans L'Oeuvre De Michel Foucault** ،Op-Cit ،p 24

تلك النصوص المتعلقة بالبنيوية. صحيح أنه اتخذ موقفا حياديا كما بين ذلك في **الكلمات والأشياء** وقال أنهما شكلان أساسين للتحليل في الثقافة المعاصرة، ولكن ما إن نواصل التحليل حتى نتوقف عند موقفه الجديد من الموضوع.

إن هذا الموقف يظهر من خلال مفهومه للبنيوية، كما ظهر سابقا موقفه من التأويل في تحليله لـ"ماركس" و"نيتشه" و"فرويد" ، واعتماده التأويل النسابي في الممارسات غير الخطابية . ولذا علينا أن نتساءل عن هذا الموقف ونبينه كما فعلنا بالنسبة للتأويل.

في سنة ١٩٦٧، أي سنة بعد نشر كتاب **الكلمات والأشياء**، ألقى محاضرة بنادي "الطاهر حداد" بتونس تحت عنوان : **البنيوية والتحليل الأدبي**، تعرض فيها إلى مسائل النقد الأدبي الجديد وعلاقته بالبنيوية، وما يهمنا من هذا هو مفهوم فوكو للبنيوية، فماهو هذا المفهوم ؟ وماهي علاقته بموضوعنا ؟

يرى فوكو أنه من الصعب إعطاء مفهوم موحد للبنيوية، وذلك لأنها تجمع اتجاهات ومباحث وطرائق مختلفة، إنها :(مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة " Document"، بمعنى مجمل العلامات وآثار الإنسان التي تركها خلفه، والتي مازال يتركها إلى يومنا هذا)(١١٢)

وما يجب البحث عليه هو النظام أو النسق الذي يحدد هذه الوثائق كوثائق، وهو ما يمكن إيجاده في مبحث يمكن أن نسميه " Deixologie"، وللألسنية المكانة المركزية في هذا التحليل الوثائقي، ذلك أن اللغة هي الصورة الأكثر عمومية والتي تظهر فيه الوثيقة . والبنيوية لم تفعل إلا الكشف عن هذا الموضوع(١١٣) لذا عليها أن تختفي لتترك مكانها للتحليل "الدياكسولوجي" وهو التحليل الذي سنجده في **أركيولوجيا المعرفة** باسم التحليل الخطابي ، القائم على وصف المنطوق .وهكذا وكما يقول فإننا نصل إلى نتيجة مؤداها : (إن تحليل الخطاب لا يكون فقط بكلمات لسانية، كما أنه ليس حالة داخل اللغة... الخطاب شيء يتجاوز بالضرورة اللغة)(١١٤)

وهذا يعني أن وصف المنطوقات " Ennoncés"تتم بطرائق مختلفة سنعمل على

---

(١١٢) Michel Foucault,**Structuralisme et Analyse Litteraire**,In,Les **Cahiers de Tunisie**, No 149 - 150, 1989 ,p.24.

(١١٣) Ibid ,p 28.

(١١٤) Michel Foucault,Structuralisme et Analyse Litteraire, p.39 .

توضيحها في الفصل الثاني من هذا البحث والخاص بالخطاب . إلا أن السؤال الواجب طرحه في هذا السياق هو : لماذا يرى فوكو أن وصف الخطاب يتم بأدوات غير لسانية، وخاصة في صيغتها البنيوية ؟

إن الجواب على هذا السؤال في نظرنا يكمن في موقف فوكو من طبيعة اللغة في الألسنية البنيوية، يقول: (لا يمكن لي أن أكون بنيويا ، وذلك لأن البنيوية تضع الشروط الصورية لظهور المعنى، متخذة من أسبقية اللغة نقطة انطلاق...ومن هنا لا يمكن لي أن أكون بنيويا ، وذلك لأني لا أهتم لا بالمعنى ولا بالشروط التي تظهر المعنى، ولكن بشروط تحول أو توقف المعنى، الشروط التي ينتفي فيها المعنى ليظهر شيء جديد)(١١٥)

أي أن ما يهتم به فوكو هو مختلف الكيفيات التي يعمل بها الخطاب، في حقبة تاريخية معينة أو بتعبير آخر، كيف يشتغل خطاب معين في مرحلة معينة، ولا يهتم بمعنى الخطاب، لذلك يرى أن البنيوية ما زالت تطرح مشكلة المعنى، وهو ما يجعله يختلف عنها ، ليؤسس منظورا لغويا خاصا به، منظورا يقوم على فهم معين للغة والخطاب وهو ما سيحاول هذا البحث الإجابة عنه.ولذلك كله نفهم تصريحه من أنه: (لم يكن أبدا بنيويا)(١١٦) ومن كونه إذا ما قورن بالتحليل المنطقي أو البنيوي فإنه احتل موقعا ثالثا يصفه بالغفل أو بالمجهول "Anonyme" (١١٧)

إذا كنا قد قدمنا بعض العناصر التي تسمح بتعيين موقفه، خاصة مناقشتنا لمفهومي التأويل والتشكيل وانتقاله إلى التحليلات ذات الطابع التأويلي النسابي، فيمرحلة ما بعد الخطاب، أي مرحلة الممارسات غير الخطابية، والتي فكر فيها مسائل السلطة والذات، وهو ما ذهب إليه "دريفوس" و"رابينوف" في كتابهما "ميشال فوكو : مسيرة فلسفية" ، فإن موقفه النهائي من علاقة اللغة والخطاب والعلاقة بين التحليل التشكيلي والتأويلي لا يظهر إلا بعد مناقشة الخطاب، ولكن قبل هذا يجب مناقشة علاقة اللغة بالفلسفة وهو ما سنعمل على توضيحة وتحليله في خاتمة هذا البحث .

---

(١١٥) Micherl Foucault ,**Entretien Avec Paolo Caruso, In** ,**Conversazion** ,Con, Levi-Strauss ,Foucault ,Lacane, Traduit par ,Christian Azzerinilan ,Mursia, 1969 ,p.03.

(١١٦) Michel Foucault ,**Structuralisme et Post-Structuralisme**,In, (D.61), p.03.

(١١٧) Rymond Bellour, **Le Livre Des Autres**, Op-cit, p.118.

(و) **بين اللغة والفلسفة** : في العناصر السابقة لهذا الفصل لامسنا بطريقة مباشرة،أو غير مباشرة، علاقة الفلسفة باللغة، لامسناها عندما تحدثنا عن الجنون وعن الأدب، وعن الكينونة وفعل الكون، ولكن لم نطرح صيغة العلاقة بهذا الشكل المباشر، وذلك لأن اللغة بشكل عام، لم تصبح موضوعا فلسفيا إلا في عصرنا هذا، حيث أصبحت موضوع بحث خاص يسمى "فلسفة اللغة"، وكذلك لم ترتبط بالفلسفة في كتابات فوكو إلا في العصرالحديث وبالتحديد في القرن التاسع عشر ومع شخصية "فردريك نيتشه"، وعند هذه الشخصية يجد فوكو سنده النظري والتاريخي لمفهوم اللغة، وعلاقته بالفلسفة، فما هي طبيعة هذه العلاقة، وما هو مفهوم اللغة عنده؟

في الفصل التاسع من كتاب **الكلمات والأشياء**، نجد العنوان الفرعي يحمل اسم عودة اللغة، إن هذه التسمية لها دلالة تاريخية ذات علاقة بالجنون من حيث التقسيم، بحيث أن **تاريخ الجنون والكلمات والأشياء** ينقسمان إلى ثلاثة مراحل، تتميز المرحلة الأخيرة بعودة اللغة .

هذه العودة راجعة إلى عودة التفسير والتأويل والتشكيل وقيام فقه اللغة، وبذلك انتهى العصر الكلاسيكي وانتهى معه حضور الخطاب، ذلك أنه في العصر الحديث، وكما يقول فوكو :

(فلقد استعادت الكلمات في أوائل القرن التاسع عشر كثافتها اللغزيـــة القديمة ، لكنها لم تسترجعها لتلج مجددا العالم الذي كانت تسكنه في عصر النهضة، ولا لتختلط بالأشياء ضمن نظام شارات دائري. فمنذ أن انفصلت اللغة عن التمثيل، لم يبق لها وجود، وحتى يومنا الحاضر، إلا تحت شكل مبعثر فبالنسبة لعلماء فقه اللغة، تعتبر الكلمات كما لو كانت أشياء، كونها التاريخ، ووضعها في متناولنا، وبالنسبة لأولئك الذين يبغون التشكيل، على اللغة أن تتجرد من مضمونها الحسي لتبرز فقط قوالب الخـــطاب المقبولة كليا، وإن أردنا التفسير، غدت الكلمات نصا يجب تـهشيمه حتى يظهر جليا ذلك المعنى الآخر الذي تخفيه، ويحدث أخيرا أن تبرز اللغة لذاتها في فعل كتابة، لا يشير إلا إلى نفسه، ويفرض هذا التبعثر على اللغة، إن لم يكن امتيازا ، أقله مصيرا يبدو فريدا، إذا ما قـــورن بمصير العمل أو الحياة)(١١٨)

إن هذا النص-رغم طوله- له أهميـــة خاصـــة في الموضـوع الذي نحن بصـــدد

---

(١١٨) ميشال فوكو، **الكلمات والأشياء**، ص ٢٥٤ .

مناقشته، إنه نص يحدد طبيعة اللغة من حيث هي طبيعة مبعثرة، هذا التبعثر يعود إلى ظهور فقه اللغة والتأويل والتشكيل والأدب، حيث يعمل كل عنصر بطريقته الخاصة على بعثرة اللغة، يعمل التأويل على تحليل النصوص، وتفكيكها من أجل الوصول إلى المعرفة، ويعمل التشكيل على صقل لغة علمية ورياضية مجردة من المحسوسات، كما يعمل فقه اللغة على إدخال الكلمات في تاريخية تقضي على دور التمثيل والخطاب، وتؤسس لعلاقات الجوار والوفاق والقرابة مع باقي اللغات، كما يعمل الأدب أخيرا على إحالة اللغة من :(الصرف والنحو إلى سلطة التكلم المجردة حيث يلتقي كينونة الكلمات المتسلطة والوحشية(غير المدجنة)وترتبط من جديد بالكتابة كما في عصر النهضة)(١١٩)

إن الطابع المبعثر للغة هو الذي جعل الفلسفة لا تهتم باللغة في القرن التاسع عشر لولا ذلك الاستثناء الذي نجده عند "نيتشه" بحيث يعتبر أول من قرب : (المهمة الفلسفية من حدود التفكير الجذري في اللغة)(١٢٠)

هذه المهمة التي يتخذها فوكو منطلقا لتفكيره في اللغة، فهو يرى أن "نيتشه" هو الذي جعل من فقه اللغة والفلسفة حيزا لتفكير اللغة بشكل جذري، وخاصة عندما طرح سؤال : من المتكلم؟ وأجابه "مالارميه" أن المتكلم هو :(الكلمة في وحدتها، في تذبذبها الهش)(١٢١) ومن هنا طرحت مسألتين أساسيتين متعلقتين باللغة والإنسان معا ونعني بهما مسألتي الكينونة، والتناهي.

سبق وأن أشار فوكو إلى فعل الكينونة في تحليله لنحو "بور رويال" ولكنه لم يربطه بالإنسان، وذلك لأنه إذا كان التمثيل هو الذي يحدد إبستيمية العصر الكلاسيكي، فإن ما يحدد إبستيمية العصر الحديث هو الإنسان، لقد حل الإنسان محل الخطاب، وفي هذا الوضع الجديد كيف تنسج اللغة علاقتها بالإنسان ؟

يقول فوكو: (الإنسان خاضع للعمل والحياة واللغة. فهي التي تحدد وجوده الواقعي، فلا يمكن الوصول إليه إلا من خلال كلامه، جسده، والسلع التي يصنعها -كما لو أنها هي أولا (أو هي فقط ربما)- التي تمسك بالحقيقة، بينما لا يكتشف الإنسان نفسه حين يفكر، إلا بصورة كائن هو ، في الأعماق الموجودة حتما وراء تفكيره، والسابقة له قطعا، حي ووسيلة إنتاج، وحامل كلمات وجدت قبله)(١٢٢)

---

(١١٩) نفس المصدر، ص ٢٥٠ .

(١٢٠) نفس المصدر ، ص ٢٥٩ .

(١٢١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٢٢) نفس المصدر، ص ٢٦١ .

وهذا يعني أن اللغة تحاصر الإنسان، وتتمتع بأسبقية وجودية عليه، إنها تعني تلك الفكرة التي قالها "نيتشه" من كون الإنسان مغمور بالعلامات، ومن أن البعد اللغوي لا يتساوى مع البعد الإنساني، إنه هو الذي قال لنا حيث توجد العلامات لا يوجد الإنسان،وحيث ما تتكلم اللغة أو العلامة، يصمت الإنسان[١٢٣]

وعلى هذا الأساس ترتبط اللغة بالتناهي وبالإنسان ، وتظهر تلك الصيغة التي أثارت جدلا كبيرا في أوساط المثقفين، ونعني بها صيغة " موت الإنسان"، وذلك لأن كينونة الإنسان وكينونة اللغة في الثقافة الغربية لم تستطيعا التعايش أو الانفصال، بل كانتا متنافرتين إلا أن العودة القوية للغة في العصر الحديث، وإمكاناتها الجديدة أكدت أن : (الإنسان نهائي وأنه حين يبلغ ذروة كل كلام ممكن، لا يصل إلى صميم ذاته بل إلى حافة ما يحده، في تلك المنطقة حيث يهيمن الموت، وينطفئ الفكر، وحيث الوعد بالأصل يتراجع إلى ما لا نهاية)[١٢٤]

إن هذه الوضعية التي بلغها الإنسان تعكسها تجارب "أرتو" و"روسال" و"بلانشو" و"بتاي" والتجربة السريالية عموما، وعودة اللغة القوي يؤدي إلى اختفاء الإنسان أو إلى زواله، صحيح أن الإبستيمية الحديثة سمحت بظهور الإنسان عندما تبعثرت اللغة، ولكنها الآن وبفعل الألسنية والتشكيل المنطقي والتأويل فإنها تلملم أوصالها ، ومادامت تعلن عودتها الجديدة ألا يتوجب على الإنسان أن يعود إلى عدمه الهادئ الذي حجرته فيه في الماضي وحدة الخطاب المسلطة في العصر الحديث، وباختصار وكما يقول : (كان الإنسان صورة بين نمطين مختلفين لكينونة اللغة، أوأنه لم يتكون بالأحرى إلا بعد أن تحررت اللغة من التمثيل والذي كانت محصورة بداخله فتبعثرت: لقد ركب الإنسان صورته في فجوات اللغة المقطعة الأوصال، ليست هذه بالطبع تأكيدات، بل هي على الأكثر أسئلة لا يمكن الإجابة عليها، بل يجب أن تترك معلقة حيث تطرح، مع العلم أن إمكانية طرحها تفتح دون شك أفق فكر مستقبلي)[١٢٥]

وإذا كانت كينونة اللغة قد مرت -كما يصفها فوكو- بهذه المراحل الثلاثة الكبرى، مرحلة التشابه في عصر النهضة، ومرحلة الخطاب في العصر الكلاسيكي،ومرحلة الإنسان في العصر الحديث، حيث تبعثرت وظهر مفهوم الإنسان،

---

(١٢٣) Rymond Bellour .Le Livre des Autres, Op-Cit, p.24.

(١٢٤) نفس المصدر، ص ٣١١ .

(١٢٥) نفس المصدر، ص ٣١٣ .

وما إن عادت حتى اختفى أو عاد إلى عدمه القديم، وإذا كانت الصورة بهذا الشكل كما يرسمها كتاب **الكلمات والأشياء**، فلماذا هي ليست تأكيدات وإنما مجرد أسئلة ؟ لماذا لا يملك فوكو أجوبة عن أسئلته ؟

يرى "جون بران فيال «Jean-Parain vial» أن هدف كتاب **الكلمات والأشياء**، هو أن يعلن نهاية الإبستيمية الحديثة، من أجل التساؤل حول كينونة اللغة، أو على الأقل عن الوحدة الضائعة للغة، وهو يعترف بأنه لا يملك جوابا عن سؤاله، وهذا مخالف للعلم .فما الجدوى من فلسفة لكينونة اللغة، إذا لم نكن نعرف معنى هذا الكائن، ولا ماهية اللغة، ولا أصل هذه المفاهيم ؟(١٢٦)

وإن الربط الذي يقيمه فوكو بين الكائن اللغوي والكائن البشري لا يدخل في إطار العلوم الإنسانية بقدر ما يدخل في إطار الفلسفة، لذلك فإن طرح السؤال من يتكلم لا علاقة له باللغة النسقية أو بالألسنية، ذلك أن اللغة ليست موضوعا وإنما أداة ووسيلة في يد الإنسان.

لذلك نستطيع القول أن فوكو تتقاسمه نظرتان، نظرة علمية تستفيد من الإنجازات العلمية في العلوم الطبيعية والإنسانية، ونظرة فلسفية لاعقلانية تفكر موضوعات علمية مثلما هو الحال في موضوع اللغة والإنسان . ومن هنا نعتقد أن تساؤلات "ميشال دي سارتو "Michel de Certeau-وهو من المقربين لفوكو- تحمل دلالة نقدية أساسية، وخاصة عندما يرى أن كتاب **الكلمات والأشياء** يريد أن يقول الحقيقة عن اللغة، ولكنها حقيقة ليست في علاقة مع أي حد من الحدود، وفي غياب كامل لأي التزام من الفيلسوف يرى في تعاقب اللغة تأكيدا لنظرته الشمولية الفلسفية(١٢٧)

وخاصة تلك النظرة التي ترى أن الإنسان تهيمن عليه اللغة، وأنها سابقة عليه وجوديا، تشكله أو تفككه كيفما شاءت .هذه النظرة التي نجد جذورها في الواقع عند "ليفي ستراوس" و"لكان" من حيث أن اللغة عقل له قوانين لا يدركها حتى العقل ذاته. هنا يكمن الطابع الفلسفي المحض لهذه النظرة التي تقول بالأسبقية الوجودية للغة عن باقي الأشكال الأخرى، وهنا أيضا تكمن تلك النظرة البنيوية للغة التي تقوم بدور الإعلاء للغة على حساب الإنسان.

---

(١٢٦) Jean -Parain Vial .In,**Analyses Structurales Et Idéologie Structuraliste**,ed. Privat 1969 ,p.193.

(١٢٧) Michel De Certau,**Les Sciences Humaines Et La Mort De L'Homme In**.**Etude**, Mars1967 ,p 360

هذه النظرة التي تجسدت في مختلف الحقب التاريخية التي درسها فوكو سواء في عصر النهضة، حيث ناقش مسألة التشابه، وحيث كانت اللغة شيء من بين أشياء الطبيعة ، ورمز من بين رموزه، فهي الشيء ولغته، من هنا طابعها اللامتناهي، والذي عكسه التفسير والتأويل، وكينونتها الثلاثية القائمة على المجال الشكلي والمضمون والمتشابهات، وارتبطت بجملة من الموضوعات ، كعلاقتها بالعالم، والكتابة، والمرئي، والجنون .

أوفي الحقبة الكلاسيكية،حيث تختفي وراء مقولتي التمثيل والخطاب،وخاصة مع أعمال جماعة "بورروريال" أو النحو العام، والتي شكلت كينونة جديدة للغة تقوم على العلاقة المباشرة بين الدال والمدلول، وترتبط بموضوعات عديدة، مثل علاقتها بالفكر، والنص، والخطاب ، ونتج عن هذا أن العصر الكلاسيكي هو عصر الخطاب والعلامة، وليس عصر الإنسان والعلم، كما هو شائع في معظم الدراسات التي تناولت هذه الفترة .

وأخيرا في العصر الحديث حيث تبعثرت بفعل التشكيل والتأويل وفقه اللغة، ليظهر الإنسان، ولكن ما إن تعود اللغة مع بداية القرن، حتى يختفي الإنسان وتبقى تسجل حضورها اللغزى، هذا الحضور اللغزى كيف نسميه، وكيف نحدده بعد هذا العرض.

ليس سهلا تصنيف وتسمية عمل فوكو وهو الذي يرفض التسمية والتصنيف، ولكن وبالرغم من هذا ، فإننا سنحاول إيجاد موقع لمحاولته، وهو ما يتطلبه البحث العلمي، مركزين على بعض النقاط التي حاولنا تحليلها في هذا الفصل، ومن بينها :

(أ) ارتبطت اللغة في فكر فوكو بتجارب خاصة، كتجربة الجنون، والمرض، والموت، والأدب والإنسان، هذه التجارب عكست منظوره اللغوي القائم على أولوية اللغة وقدرتها على التجاوز والاختراق والهدم، وهي قدرة أنطولوجية، جعلت منها بديلا نظريا وفلسفيا ، خلال حقبة زمنية كاملة .

(ب) هذا التصور الفلسفي للغة يستند على خلفية فلسفية وأدبية تجد نموذجها في أعمال "نيتشه" و"هيدجر" و"بتاي" و"بلانشو" وخاصة "روسال" ، كما تستفيد من التطورات العلمية للغة، وخاصة في صورتها البنيوية، وذلك بتعميم اللغة على مختلف القضايا الفكرية.

(جـ) إن هذا التصور الفلسفي طبقه على الفكر الحديث ابتداء من عصر النهضة وانتهاء بالقرن العشرين، هذا التطبيق يعكس في نظرنا مستويات ثلاثة

هي: المستوى الذاتي والأدبي، والمستوى العلمي التاريخي، والمستوى الفلسفي، حيث ارتبطت اللغة بقضايا فلسفية كالتناهي، والكينونة، وخاصة الإنسان، وفي هذه النقطة ظهرت خصوصية فوكو مقارنة بـ"نيتشه" و"هيدجر" وبالتيارين الكبيرين التأويلي والتشكيلي.

(د) يصنف فوكو عادة ضمن التيار البنيوي ولكن -وكما حللنا ذلك - يصعب إلحاقه بهذا التيار، كما يصنفه "اندري جاكوب "André Jacob [١٢٨] ضمن التيار الخطابي، أو كما يصنف نفسه ضمن البحث الأركيولوجي، فماهو الاسم الجامع لهذا العمل ؟

يصعب إطلاق اسم جامع على هذا العمل الذي جمع بين تصور للغة قائم على الاختراق، وتحليل للخطابات النظرية، وبين منهجية أركيولوجية في مرحلة، وجنيالوجية في مرحلة أخرى، وهو ما سنبينه في الممارسات غير الخطابية. وأخيرا يصعب إعطاء اسم لهذا العمل مالم تناقش مسألة الخطاب، والممارسات الخطابية، ولكن بإمكاننا أن نسمي هذا العمل -إنطلاقا من هذه المحاولة التي يعكسها الفصل-بالبحث الأركيولوجي للغة،أو بفلسفة لغوية قائمة على الأركيولوجيا.

الأركيولوجيا باعتبارها تعمتد على تحليل الشروط التاريخية القبلية للغة، وهو ما عكسته أبحاثه عن لغة الجنون، ولغة المرض، ولغة الإنسان. هذه الأركيولوجيا التي وقفت عند الطابع الاختراقي للغة الذي يؤمن لها الحياة والتجاوز، ويعطيها الأولوية الأنطولوجية عن باقي الظواهر، ويجعل منها أداة، بل وحلا لمختلف المشكلات.

ولكن- وكما قلنا- فإن هذه النظرة لا تكتمل إلا بمناقشة مسائل الخطاب، والممارسات الخطابية وغير الخطابية، وهي موضوع فصولنا القادمة .

---

(١٢٨) Andé Jacob ,Points De Vues Sur Le Langage, ed. Klincksieck,1969, p.201.

الفصل الثانى

مفهوم الخطاب

مقدمة .

المحور الاول – تعريف الخطاب .

المحور الثاني – منهج الخطاب .

المحور الثالث – سلطة الخطاب .



مقدمة

على عكس اللغـة، فـإن فـوكـو قـد خص الخطاب بكتـابين أسـاسـيين، هـمـا : **أركيولوجيا المعرفة** سنة ١٩٦٩م ، **ونظام الخطاب** سنة ١٩٧١م، وبدراستين الأولى إجابة عن سؤال طرحتـه مـجلة " Esprit" سنة ١٩٦٨م، والثانيـة إجابة كذلك لحلقـة الإبستيمولوجيا نشرها في مجلة " Cahiers pour l'Analyse"سنة ١٩٦٨م، إضافة إلى محاضرة عن مفهوم المؤلف ألقاها في "الجمعية الفرنسية للفلسفة " سنة ١٩٦٩م .

وعلى عكس الدراسات حول اللغة أيضا، فإننا نجد دراسات كثيرة حول الخطاب، لكنها تشترك كلها في ميزة واحدة وهي أنها نظرت إلى الخطاب كمرحلة من مراحل تفكير فوكو، ولم تدرسه كمفهوم كلي يشمل كل فلسفته، وربما يشذ عن هذا الحكم "محمد علي الكبيسي" الذي استند على تحليل "جيل دلوز "Gille deleuze وبين شمولية مفهوم الخطاب، إلا أن محاولته كانت مقتضبة ومختصرة[١] .

وما تهدف إليه محاولتنا، هو إظهار الطابع الكلي للخطاب في فلسفة فوكو، وذلك بدراسة مفهوم الخطاب ومنهج الخطاب وسلطة الخطاب، ومختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية. وقبل أن نتناول هذه النقاط بالتحليل والتعليق والنقد، يجب أن نشير إلى مسألتين، الأولى متعلقة بالترجمة والثانية متعلقة بالمصطلح، فكيف ترجم مصطلح الخطاب، وماهو أصله اللغوي والألسني والفلسفي ؟

ترجمت الكلمة الفرنسية " Discours" إلى العربية بمفردات من مثل : "المقال"، "الحديث"، "النص" و"الخطاب"، مثلما نجد ذلك في محاولة "علي حرب" في الموسوعة الفلسفية العربية، حيث اعتمد كلمة المقال وهذا لاعتبارات عديدة، منها : أن الترجمات العربية القديمة نسبيا استعملت كلمة المقال، مثل ما هو الحال في ترجمة كتاب "ديكارت": "مقال في المنهج"، وليس "خطاب في المنهج"، كما أن كلمة الخطاب ينفرد بها في نظره كتاب المغرب العربي على عكس كتاب المشرق، وأنه شائع في الدراسات الإيديولوجية أكثر منه في الدراسات العلمية والفلسفية، ولكنه يستدرك فيقول إن هذه

---

(١) ينطبق هذا الكلام على محاولة "دريفوس"و"رابينوف" في كتابهما : **ميشال فوكو : مسيرة فلسفية** ، حيث ناقش في القسم الأول مسألة "وهم الخطاب". وكذلك على رسالة الدكتوراه لـ"محمد مصطفى لعراسي" الذي درس الخطاب كحلقة وسطى بين **الإبستيمية والسلطة** ، أما محاولة "عبد الوهاب جعفر" :**البنيوية بين العلم** والفلسفة، عند **ميشال فوكو** فإنها تعيد وبكثير من اللبس مدخل أركيولوجيا المعرفة للفيلسوف.

الترجمة مجرد اقتراح[٢] ذلك أن هنالك من المشارقة من يستعمل كلمة "الخطاب" مثل "محمد حافظ ذياب" في كتابه : " سيد قطب، الخطاب والإيديولوجيا ، والذي يشير إلى أن مصطلح الخطاب قد تبناه ملتقى "ابن رشيق" بالجزائر في ماي ١٩٨٠ ، وشاع : (في الأدبيات العربية أفضل من "الحديث " أو "القول"، وأشمل من "المقال" وهو مقولة من مقولات علم المنطق)[٣]

لذا نفضل استعماله في هذه الدراسة بدلا من المقال أو غيره من الكلمات، و"علي حرب" نفسه نجده يستعمل كلمة خطاب في معرض حديثه عن: "النقد الكانطي : بحث في شروط الإمكان يتناسى شروط إمكانه "[٤]

ولعل الباحث التونسي "المختار الفجاري" قد قدم محاولة تأصيلية لمصطلح الخطاب، وذلك في دراسته : " تأصيل الخطاب في الثقافة العربية"[٥] حيث رجع في هذا التأصيل إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولسان العرب لـ "ابن منظور" وتوصل إلى أن التأصيل يكون بتحديد : (مختلف معاني الكلمات المؤلفة من هذه المادة/الأصل: مادة: (خ.ط.ب) ولبيان ذلك تكون المعاجم العربية وكتب اللغة والفكر والأدب القديمة، هي المرشحة لذلك، خاصة القرآن الكريم، ولسان العرب[٦] وبالعودة إلى هذه الأصول، توصل الباحث إلى استخلاص أهم معاني كلمة الخطاب، والتي تقابلها في اللغة الفرنسية كلمة "Discours"، ومن هذه المعاني الأساسية :

١- (الشأن، والغرض، والدلالة على ذلك في هذه المادة يختص به المصدر المشتق منها، (خطب) بسكون الطاء)[٧] والخطب تردد في القرآن الكريم خمس مرات موزعة على خمس سور. ففي سورة "يوسف عليه السلام" يقول الله تعالى : ﴿ قال ما خطبكن

(٢) أنظر مادة مقال، في، **الموسوعة الفلسفية العربية**، المجلد الأول، (**الاصطلاحات والمفاهيم**)، معهد الإنماء العربي. ط ١، ١٩٨٦، ص ٧٧٣ .

(٣) محمد حافظ ذياب ، **سيد قطب**، الخطاب **والإيديولوجيا** ، دار موفم للنشر، ١٩٩١، ص،ص،٠٧ - ٠٨ .

(٤) علي حرب ، **النقد الكانطي** : بحث **في شروط الإمكان يتناسى شروط إمكانه**، في، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، مركز الإنماء القومي. ١٩٩٣ ، العددان ١٠٠ - ١٠١ .

(٥) المختار الفجاري، تأصيل الخطاب في الثقافة العربية، في، مجلة، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي. ١٩٩٣ ، العددان ١٠٠-١٠١ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٩ .

(٧) نفس المرجع ، ص. ٣٠ .

إذ راودتن يوسف عن نفسه] (٨) وفي سورة "القصص" سأل "موسى عليه السلام" لما ورد ماء مدين، المرأتين اللتين وجدهما تذودان عن السقي فقال: [ما خطبكما] (٩)

٢- (كلام حامل لشأن أو غرض : والدلالة على ذلك في هذه المادة تشترك فيها الأفعال : خطب وخاطب، والمصادر المشتقة منها) (١٠) وفي لسان العرب : (يقال خطب فلان إلى فلان فخاطبه أي أجابه، والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام(...) واسم الكلام الخطبة(...) والخطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب) (١١)

وفي القرآن الكريم، ذكر الفعل "خاطب" مرتين في كل من سورتي : "الفرقان" و"هود"، وهو يقصد مجرد الكلام، كقوله تعالى: [واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون] (١٢) كما وردت الكلمة في سورة "ص" مع إضافة شيء جديد وهو النفوذ والسلطة، وذلك في قوله تعالى : [وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب] (١٣) وهو المعنى الثالث لكلمة خطاب .

٣- إن هذا المعنى الثالث يعني إنجاز الشأن والغرض، ففي حديث الحجاج : (أمن أهل المحاشد والمخاطب...أراد أنت من الذين يخطبون الناس ويحثونهم على الخروج والإجتماع للفتن) (١٤) فللخطاب إذن قدرة تعبوية، وسلطة مؤثرة على السامعين، لذا فهو يقترن دائما بالسلطة وهو ما سنوضحه في المحور الثالث من هذا الفصل.

وإذا كنا قد عرضنا التأصيل العربي لكلمة الخطاب، فإن التحليل العلمي يفرض علينا النظر في الأصل الأجنبي للكلمة، خاصة ونحن سنناقش فكرا غربيا ، وبالتحديد فكرا فرنسيا من خلال فوكو، فماهو أصل ومضمون كلمة الخطاب في اللغة الفرنسية ؟

كلمة " Discours" أصلها اللاتيني هو : "Discursus وفعلها : "Discurure"

---

(٨) **القرآن الكريم** ، **سورة يوسف**، الآية ٥١ .

(٩) **القرآن الكريم** ، **سورة القصص**، الآية ٢٣ .

(١٠) المختار الفجاري ، **تأصيل الخطاب في الثقافة العربية**، مرجع سبق ذكره، ص. ٣١ .

(١١) **ابن منظور** ، **لسان العرب** ، حققه، عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمدالشاذلي، ج ٢٠ ، دار المعارف. مصر ، القاهرة،بدون تاريخ، ص،ص. ١١٩٤ - ١١٩٥ .

(١٢) **القرآن الكريم** ، **سورة هود** ، الآية ٣٧ .

(١٣) **القرآن الكريم** ، **سورة ص** ، الآية ٢٠ .

(١٤) المختار الفجاري ، نفس المرجع ، نفس الصفحة .

والذي يعني: "الجري هنا وهنالك"[١٥] كما أن كلمة الخطاب تعبر عن "الجدل -Dialec tique"و"العقل أو النظام «Logos» وهو ما نجده عند "أفلاطون" والأفلاطونية عموما[١٦] وقبل أن نستعرض هذا المعنى الفلسفي نشير إلى معناه الألسني و مكانته في الدراسات الألسنية .

يثير مصطلح الخطاب في الألسنية الكثير من اللبس، فهو يحتل مكانة خارج الثنائيات المعروفة في الألسنية، من مثل ثنائية اللغة والكلام، والنظام والعملية، والكفاءة والقدرة، والألسنيون الأوائل أمثال : "دي سوسير" و"هلمسلف "Helmslef و " جاكبسون "لم يتحدثوا عن الخطاب، وإنما نجد أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات الألسنية هو :"بيسونس "Buyssens سنة ١٩٤٣[١٧] والذي رأى أن الخطاب يمكن أن يكون موضوع نظرية ألسنية، ومن هنا ضرورة تأسيس ألسنية خطابية، وهي اليوم فرع أساسي في التداولية "Pragmatique"[١٨] كما أن علماء العلامة "Les Seméoticiens" يميزون بين الكفاءة السردية للعلامة والكفاءة الخطابية كما هو الحال عند "غريماس" "Greimas".

إلا أن النقلة الألسنية الكبيرة لمسائل الخطاب نجدها عند "بنفنست "Benveniste الذي حاول تجاوز الإطار الشكلي للألسنية البنيوية وذلك بطرحه لمسائل الوظيفة ودور الفاعل المتكلم في العملية المنطوقية، وخلص إلى القول إلى أن الكلمة تشكل نقطة فصل في ميداني اللغة، وهما : النظام الشكلي القائم على العلامة والوحدة، والنظام التواصلي أو الخطابي، القائم بين الوحدة والخطاب، وهما معا يشكلان نظام الدلالة في اللغة[١٩]

---

(١٥) Manfred Frank ،**Sur le Concept De Discours Chez Foucault, In, Michel Foucault philosophe** ،ed. Seuil, 1989، p 125 .

(١٦) André Glucksmann ،Compte Rendu des discutions.Ibid, p.135.

(١٧) Encyclopedie Philosophique Universelle, **Les Notions Philosophiques** ، ed. P.U.F, tome1, p.655 .

(١٨) Jacques Polain ،**L'Histoire De La Pragmatique Et Sa Leçon Philosophique**, ed. Peter Lang ،1990 ، p.19 .

(١٩) Bronckart J.P ،**Théories Des Langages** ،Une Introduction Critique ، ed. Pierre Mardaga Editeur ،Bruxelle 1976, 4 ،eme Partie ،**Chapitre 10** p.p 297-306

وهنالك توجـه كـامـل في فـرنسـا يسـمى بتـحليل الخطاب "-Analyse du Dis cours"، ويظهر بأشكال مختلفة لخصها "شرودو "Charaudeau في أربع منظومات هي : المنظومـة المنطوقـيـة «Enonciatif»، والمنظومـة الحـجـاجـيـة "Argumentatif" والمنظومـة السـردية «Naratif» والمنظومـة الخطابيـة "Rhétorique"[٢٠] وكل هذه المنظومات تابعـة لكفاءة العـلامـة الألسنيـة . وتحليل الخطاب الذي هو مـيـزة المدرسـة الفرنسية، خاصة تحليل الخطاب السياسي، يجد أصله أو قاعدته في ذلك التمييز الذي أقامـه "دي سوسير" بين اللغة والكلام، الكلام الذي هو دراسة للتعبير الفردي، من هنا كان مـوضوع تحليل الخطاب دراسة العلاقة : (بين الذات المتكلمة وعملية إنتاج الجمل، أي (المنطوقية (Enonciation) أو علاقة الخطاب بالمجموعة الاجتماعية)[٢١].

كمـا يرتبط بأعمـال "ليـفي سـتـراوس" في تحليله للأساطير وهي أساس تحليلات فـوكـو للخطاب، كـمـا يؤكـد ذلك " منفـرد فـرانك Manfred Frank"[٢٢] فـ"ليـفي ستراوس" يرى أن بين مستوى اللغة والكلمة

هناك مـسـتـوى ثالث هو الخطاب، والأسطورة خطاب له: (بنيـة لسـانيـة تتكون من وحـدات هي الجـمـل)[٢٣] إن هذا الـتـوجـه نجـده كـذلك عـند "بارت" في دراسـتـه عن : "التحليل البنيوي للنص"، حيث يرى أن الخطاب يشكل مستوى أعلى من الجملة، فهو حدث لغوي، له وحداته وقواعده، ولسانيات خاصة به[٢٤] وهو ما لا يتفق وتوجه فوكو في دراسـة الخطاب، كـمـا أوضـحنا ذلك في الفـصـل الأول عندمـا قـارنا عـلاقـة اللغـة بالألسنية وعلوم الإنسان[٢٥]

ولكن للخطـاب جانب فلسـفي يجب الإشارة إليـه قبل مناقشـة آراء فوكو في هذا الموضوع، فمن المعروف أن الخطاب هو ما يظهره الكلام، و منذ السفسطائيين و"سقراط"

---

(٢٠) Encyclopédie Philosophique Universelle, Les Notions Philosophiques ,Op-Cit ,p .668 .

(٢١) Jean Dubois et Les Autres ,Dictionnaire de Linguistiques, ed. Larousse ,1973 , p,p. 32-33 .

(٢٢) Manfred Frank ,Sur le concept de discours chez Fuocault ,op-cit ,p .30.

(٢٣) Ibid, même page

(٢٤) Ibid, p.131 .

(٢٥) ينظر الفصل الأول من هذا البحث ' المحور الثالث .

انحصر الخطاب في حدود المعنى، وأصبحت مهمته تكمن في: (تخليص المعنى مما هو ظني ونسبي ومتغير، لأن طبيعته عقلية "لوغوس" فنكون إزاء حقل أو فضاء لا يقدم نفسه على أنه ثابت وكلي فحسب بقدر ما يقدم نفسه على أنه "نقي" و"ذو معنى")(٢٦) هذا المعنى نجده في التفسير الفلسفي للخطاب والقائم على النظام والمنطق، فالخطاب نظام من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة من القواعد المرتبة ترتيبا منطقيا فهو: (عملية ذهنية تنجز بواسطة عمليات أساسية ظرفية ودائمة)(٢٧)

وعلى هذا الأساس يعارض الفلاسفة المعرفة الخطابية بالمعرفة الحدسية، ويدمجون الخطابي في العقلاني، والخطاب في العقل، وذلك لما يتضمنه الخطاب، كما قلنا، من نظام، وترتيب، ومنطق . وفي الفلسفة القديمة، ومنذ "أفلاطون" هنالك محاولات للمماثلة بين الخطاب والعقل، حيث: (بذلت أول محاولة لضبط المقال (الخطاب) وعقلنته على قواعد تستمد من داخل الخطاب نفسه، أكثر مما تستمد من أصل خرافي أو وضعي يفرض بداهة على المقال، وهو ما اعتبر بداية تبلور المقال الفلسفي)(٢٨)

وفي عصر النهضة، يعتبر كتاب "ديكارت" : "مقال في المنهج"دليل على هذا التحول، وبداية للعقلانية الحديثة التي جعلت المعرفة تقوم على التطابق بين الموضوع والذات، وعلى التوافق بين الأشياء وتمثلاتها في الذهن، بحيث تصبح الحقيقة مقال الذات عن الأشياء.ومع "كانط" أصبحت الذات مرجع المقال أو الخطاب العلمي، إلا أن التحول الكبير ارتبط بظهور العلوم الإنسانية باعتبارها خطاب الإنسان وهو ما جسدته أعمال ميشال فوكو الذي يقول عنه "علي حرب": (إن الخطاب لم يعد طريقة للتعبير أو حديثا متساوقا، أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة، أو تجليا لذات واعية، تتأمل وتعرف وتعبر، وإنما أصبح إمكان وشرط وجود ونظام. أصبح حقلا تتمفصل فيه الذوات ومجموعة علاقات تجد فيها مرتكزا له . وهذا التحول الإبستيمولوجي في تناول أقاويل البشر يعتبر رائده المفكر الفرنسي ميشال فوكو، الذي هو أول من أنشأ نظرية في وصف المقال كميدان مستقل)(٢٩)

---

(٢٦) محمدعلي الكبسي ، **ميشال فوكو**، مرجع سبق ذكره، ص ٠٧ .

(٢٧) Andé Lalande, Vocabulaire Téchnique Et Critique De La Philosophie, ed. P.U.F ، 1972 ،p 237 .

(٢٨) علي حرب،مقال،في،الموسوعة الفلسفية العربية،مرجع سبق ذكره، ص ٧٧١ .

(٢٩) نفس المرجع ، ص ٧٧١ .

إن هذه المقدمة التاريخية والاصطلاحية تبين :

أولا -ارتباط الخطاب بالفلسفة والمنطق من حيث كونه : (عملية عقلية منظمة تنظيما منطقيا،أوعملية مركبة من سلسلة من العمليات العقلية الجزئية،أوتعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض)(٣٠)

ثانيا - أصبح الخطاب توجه في الدراسات الألسنية قائم بذاته، تعبر عنه أعمال "بنفنست" ومدرسة تحليل الخطاب الفرنسية .

ثالثا - إن ميشال فوكو الذي استند على هذه الخلفية الفكرية، وخاصة على أعمال "ليفي ستراوس" و"بنفنست" قد اختلف مفهومه للخطاب عن سابقيه، وهو ما سنحاول تحليله، فما هو إذن تعريف الخطاب عند فوكو؟ وما هي العناصر المشكلة لهذا التعريف ؟

المحور الأول - تعريف الخطاب

لتعريف الخطاب يجب التساؤل عن مضمونه ومكوناته، وخصائصه، ومتابعة تاريخية لاستعماله، وعلاقاته .

من الناحية التاريخية، نجد فوكو قد تحدث عن الخطاب، والممارسة الخطابية بدءا من تاريخ الجنون حيث يقر بأن : (التقليد الإنساني، قد نظر إلى الجنون باعتباره جزء من عالم الخطاب)(٣١) ويتم التعرف على الجنون كخطاب،أو كمعرفة خطابية، وهو ما يتماثل والاشتقاق الفلسفي للخطاب، كما أن الخطاب مجال للجنون، تعمل الأركيولوجيا على وصفه وتحليله(٣٢)

وهذا يعني أن كلمتي الخطاب والأركيولوجيا لا تظهر، كما يذهب إلى ذلك العديد من الباحثين، ابتداء من أركيولوجيا المعرفة وإنما هي سابقة عليه من جانبين، جانب الاستعمال والاصطلاح، وجانب الممارسة والتطبيق، كما سنبين ذلك في الفصول القادمة .

إن هذه الأسبقية من حيث الاستعمال الاصطلاحي، نجدها كذلك في مولد العيادة وخاصة في المقدمة، حيث يتحدث فوكو عن كيفية بناء الخطاب ومنهج تحليل الخطاب والتشكيلة الخطابية(٣٣)

---

(٣٠) جميل صليبا ، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية**، دارالكتاب اللبناني. بيروت، ودار الكتاب المصري. القاهرة، ١٩٧٨ ، ج. ٠١ ، ص ٢٠٤ .

(٣١) Michel Foucault ،**Histoire De La Folie A l'age Classique**, p.39.

(٣٢) Ibid, p.p. 203-265

(٣٣) Michel Foucault ،**Naissance de La Clinique** ،p.p.12 - 53

كما نجدها في الأعمال الأدبية، وخاصة في مقدمته عن الاختراق، حيث يقابل بين اللغة الخطابية واللغة غير الخطابية، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول(٣٤) .

ولعل أكبر مكانة يحتلها الخطاب في الدراسات السابقة عن **أركيولوجيا المعرفة** تظهر في **الكلمات والأشياء**، حيث يحتل الخطاب مكانة بارزة ويغطي فترة كبيرة، هي فترة العصر الكلاسيكي كما يشكل ثقافتها ومنطقها . فإذا كانت اللغة هي ميزة عصر النهضة، والإنسان ميزة عصر الحداثة، فإن الخطاب هو ميزة العصر الكلاسيكي. هذه الميزة تتأكد من خلال المهمة التي اضطلع بها الخطاب في العصر الكلاسيكي، حيث يقوم بـ(إسناد اسم إلى الأشياء، وبفضل هذا الاسم تسمية كينونتها. وخلال قرنين من الزمن كان الخطاب الغربي المكان للأنطولوجيا. وحين كان يسمي كينونة كل تمثيل (تصوير) بشكل عام، كان فلسفة: نظرية معرفة وتحليل أفكار. وحين كان يسند لكل شيء ممثل الاسم الملائم ويوزع على حقل التمثيل شبكة لغة مصنوعة جيدا، كان علما-مدونة-(مجموعة اصطلاحات وتصنيف)(٣٥)

وفي الكلمات والأشياء، طبق فوكو طريقته في تحليل مختلف الخطابات، وخاصة خطاب البيولوجيا والاقتصاد واللغة. كما طرح الإشكالية النظرية لمنهجيته، والقائمة على التساؤل عن كيفية تحليل الخطابات، سواء من جانب القواعد الداخلية، أو شروط الظهور(٣٦)

هذه الإشكالية ستكون محور المناقشة في كتابه المنهجي و النظري على السواء، ونعني به أركيولوجيا المعرفة، والذي يشكل مرحلة جديدة في فلسفته، سبقتها مجموعة من الممارسات الخطابية، ثم تلتها مرحلة التنظير، والتقعيد لهذه الممارسات، هذا التنظير هو الذي سيكون موضوع مناقشتنا في هذا الفصل. فما هو الخطاب إذن، وما هي خصائصه ومكوناته ؟

يعرف فوكو الخطاب بقوله: (...هو أحيانا يعني الميدان العام لمجموع المنطوقات (Enoncés) وأحيانا أخرى مجموعة متميزة من المنطوقات، وأحيانا ثالثة ممارسة لها

---

(٣٤) Michel Foucault ،**Préface à La Transgression**, p.758.

(٣٥) ميشال فوكو ، **الكلمات والأشياء**، ص. ١١٥ .

(٣٦) . Foucault Michel ،**Entretien**, In. **(D.227)** ،p18

قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد معين من المنطوقات وتشير إليها)[٣٧]

كما يعرفه في موضع آخر بقوله :(مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية، قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ..بل هو عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شروط وجودها)[٣٨]

من خلال هذين النصين، نتوقف على دلالة الخطاب عند فوكو، فهو مجموعة من المنطوقات،والمنطوقات هي الوحدة الأولية للخطاب،أو هي ذرة الخطاب، ولكن النصين يشيران إلى مجموعة من العناصر التي تتطلب التحليل، والتي يتوقف عليها تعريف الخطاب،ونعني بذلك، ميدان الخطاب، الممارسة الخطابية، التشكيلة الخطابية طريقة التحليل وقبل هذا كله،يجب التساؤل عن معنى المنطوق الذي هو أساس الخطاب، فماذا يعني فوكو بالمنطوق ؟

أولا - مفهوم المنطوق "Enoncé"

المنطوق ذرة الخطاب. وحدته الأولى وعنصره الأخير. يتماثل مع الجملة والقضية والفعل اللساني، ويختلف عليهم . يقول فوكو: (فقد استخدمت في مناسبات عديدة لفظ منطوق، إما لأشير به إلى عدد من المنطوقات...أو لأميزه عن تلك المجموعات التي أسميها الخطابات (مثل ما يتجزأ الجزء عن الكل) ويبدو المنطوق لأول وهلة كعنصر أخير، أو جزء لا يتجزأ، قابل لأن يستقل بذاته ويقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له...المنطوق أبسط جزء في الخطاب[٣٩]

يتضح من خلال هذا التعريف أن المنطوق جزء أساسي من الخطاب، فهو الوحدة الأولى للخطاب، وعلاقته بالخطاب كعلاقة الجزء بالكل، إلا أنه يتميز عن الخطاب في

---

(٣٧) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ترجمة، سالم يفوت، المركز الثقافي العربي. الدارالبيضاء، المغرب، ١٩٦٨، ص ٧٨ . كما يمكن العودة إلى النص الأصلي لفوكو :

.Archeologie du savoir" ",Ed. Gallimard ،١٩٦٩،p.106 - وهنا نشير إلى أننا نترجم كلمة " "Enoncéالمنطوق أو بالملفوظ، كما ذهب إلى ذلك بعض المترجمين العرب، بدلا من كلمة العبارة التي اعتمدها سالم يفوت والتي لا تؤدي المعنى المراد بها، في إطار تحليلات فوكو للخطاب.

(٣٨) نفس المصدر ، ص. ١١١ .

(٣٩) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص. ٧٨ .

كونه يستطيع أن يستقل بذاته، أي ليس مشروطا بالخطاب، كما أنه يقيم علاقات مختلفة من مثل ميدان الخطاب، التشكيلة الخطابية، والتحليل الخطابي .

المنطوق حدث "Evenement"، وحدث غريب: (المنطوق، بكل تأكيد، وبما لا يدع مجالا للشك، حدث غريب)[٤٠] فهو يرتبط بالكتابة والنطق، وبذلك يكون قابلا للتذكر والاسترجاع، مادام يدون و إنه عرضة للتكرار والتحول والتجديد. ومن هنا يتميز بصفة ثانية هي صفة المادية «Matérialité» مادام يتشكل في لغة ويدون في وثيقة ويرتبط بعلاقة خاصة مع الذات. على أنه يجب أن لا نفهم من الذات " "Sujet» ما اعتاد الفلاسفة بتسميته بهذا الاسم أي الشخص الفرد أو الوعي، أو مؤلف الصياغة، أو التشكيلة الخطابية، بل المقصود بالذات هو الوضعية التي يمكن أن يشغلها أفراد مختلفون[٤١]

ولكي نحلل بدقة مفهوم المنطوق، سنقارنه بمجموعة من المفاهيم ذات العلاقة المباشرة به وبخصوصيته، ومنها :

(أ) بين المنطوق واللغة : سبق أن تناولنا في الفصل الأول علاقة الخطاب باللغة، ولو على سبيل الإشارة والتنبيه، هذه العلاقة تمر حتما بعلاقة المنطوق باللغة، باعتبار أن المنطوق هو الوحدة الأولى للخطاب، لذلك يرى فوكو أن هنالك علاقة أساسية بين المنطوق واللغة. علاقة تشبه تلك العلاقة التي أقامها "دي سوسير" بين اللغة والكلام، ويحدد فوكو هذه العلاقة بقوله : (بدون منطوقات ليس ثمة لغة. لكن ليس كل منطوق شرط لوجود اللغة...فاللغة لا توجد إلا من حيث هي منظومة لبناء منطوقات ممكنة، إلا أنها ومن جانب آخر لا توجد إلا من حيث هي وصف... لمجموع المنطوقات الواقعة: فاللغة والمنطوق ليس لهما نفس المستوى في الوجود، ولا يستويان فيه)[٤٢]

إن اللغة والمنطوق يستلزم الواحد منهما الآخر. إلا أن العلاقة ليست متساوية، لا من حيث الوضع ولا من حيث الوجود.فالمنطوق ليس شرطا لوجود اللغة، مادام يمكن

---

(٤٠) نفس المصدر ، ص. ٢٨ .

(٤١) Hane Sluga ،Foucault à Berkley ،**L'Auteur Et Le Discours**, Traduit de l'anglais par, Jean-Francois,In ،**Critique**,1986, Ns96471-472, p.847.

(٤٢) مبشال فوكو ، حفريات المعرفة، ص. ٨٢ .

استبداله وإحلاله بغيره. ولكن اللغة في جميع الأحول تتكون من منظومة، أو من نسق من المنطوقات الممكنة، تماما كما يعرفها" دي سوسير" باعتبارها نظاما وأن منهجها وصفي محض[٤٣]

والفرق بين تصور فوكو و"دي سوسير" يكمن في مفهوم النظام، ففوكو يرى أن النظام المنطوقي مفتوح وحامل لإمكانية التجدد والتحاول، أما "دي سوسير" فيرى أن النظام مغلق وأن المنهج يقتضي وصف اللغة كما هي.

وخاصية النظام المفتوح أو الحامل للإمكانية، يرجع أساسا إلى مفهوم اللغة ذاتها عند فوكو، ذلك المفهوم المتميز بالاختراق والتجدد والتجاوز كما بينا ذلك في الفصل الأول. يقول فوكو: (اللغة يقطنها دوما، آخر، خارج، نائي، وبعيد، وفي جوفها يقبع الغياب)[٤٤] إن اللغة بهذه الخصوصية لا يمكن إلا أن تكون نظاما مفتوحا، أما المنطوق فهو الواقعة التاريخية، ما حدث وتحقق، إنه إذن ذلك العنصر من اللغة الذي يتشكل في صيغة وثيقة أو جملة أو قضية أو فعل لساني، وإن كان يتميز عنهم كما سنوضح ذلك .

(ب) بين المنطوق والإشارة : يساوي فوكو بين الإشارة أو العلامة، ويجعل من كل منطوق إشارة أو علامة، وتعتبر هذه العلاقة أحد المميزات الأساسية في مفهومه، والذي يقول عنه : (ينبغي القول أن ثمة منطوق كلما كنا أمام عدة إشارات متجاورة،ولم لا ،ربما ؟ كلما كنا أمام إشارة، وإشارة واحدة فقط، وبذلك تكون عتبة المنطوق هي عتبة وجود الإشارات)[٤٥] فسواء تعلق الأمر بمجموعة من الإشارات أوبإشارة واحدة، فإن العلاقة تبقى متساوية مع المنطوق الذي يعرفه إما كعنصر أوكمجموعة من العناصر، كوحدة، أو كمجموعة من الوحدات .لذلك يقول : (المنطوق وظيفة وجود تنتمي برمتها إلى الإشارات وانطلاقا منها واعتمادا عليها : نستطيع البت فيما بعد عن طريق التحليل أو الحدس، فيما إذا كان لتلك الإشارات معنى أم ليس

---

(٤٣) فرديناند دي سوسير ، دروس في **الألسنية العامة** ، ترجمة، محمد القرمادي، محمد الشاوش محمد عجينة، الدار ا لعربية للكتاب. ١٩٨٢ ، ص. ٤٣ .

(٤٤) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص. ١٠٦ .

(٤٥) نفس المصدر، ص ٨٢ .

لهـا...[٤٦] والسـؤال الذي يطرح هنا هو : هل المنطوق إشـارة ؟ وإذا كـان كذلك فلماذا لا يستعمل كلمة الإشارة بدلا من المنطوق ؟ الواقع أن المنطوق لايمكن أن يكون إلا إشارة مكتوبة أو ملفوظة، أمـا الإشـارة أو العلامـة، فأوسع وأكبرمن هذا، إنها تشمل الحياة الاجتماعية والطبيعية معا.

(جـ) بين **المنطوق والجملة** : المنطوق عنصر ضروري لتكوين الجمل، ولكنه لا يمكن تعريف المنطوق، من خلال الخصائص النحوية للجملة، ذلك لأنه يمكن لنا أن نصادف منطوقات حيثما يتعذر علينا العثور على جمل، وعليه فإن المنطوق هو : (بالنسبة للتحويل النحوي، مجموع العناصر اللسانية التي يمكننا أو لا يمكننا أن نتعرف فيها على صورة الجملة)[٤٧] ومثال فوكو في هذا هو الأحـرف الهـجـائيـة، أو الإسم أو الفـعل، فكل هذه المسـتـويات تشكل منطوقـات، ولكنهـا لا تشكل جمـلا، وإن كـانت أساسية لتشكيل الجملة، وهذا يعني أن المنطوق يمكن أن يكون أبسط من الجـملة، أو يعـادلهـا أو يساويها.

(د) بين **المنطوق والقضية** : القضيـة وحدة منطقيـة ، تتكون أساسا من صور وموضوع ومحمول ورابطة، وهي الموضوع المركزي للمنطق، ووحدته الأولى. تخضع إما للتحقيق أو للاستنباط . هذه القضية يربطها فوكو بالمنطوق، ويرى أن: (المقاييس التي تسمح بتحديد قضية ما، وبتمييز عدد آخر من القضايا داخل وحدة صيغة ما، وإظهار استقلالها واكتمالها لا تصلح لوصف الوحدة المتميزة للمنطوق)[٤٨] والمثال الذي يسوقه في هذا الشأن هو " لا واحد يعلم" و"حقيقة أنه لا واحد يعلم". من الناحية المنطقية يعتبر المثالين قضيتين غير مختلفتين، أما من الناحية المنطوقية فيختلفان من حيث السياق. والقضية التالية : "جبل الذهب يوجد في كاليفورنيا" قضية كاذبة منطقيا ، لكنها صحيحة منطوقيا في نظر فوكو، إذ يمكن أن تكون قضية واردة في نص روائي، وتحمل دلالة أو إشارة، ضمن سياق النص الروائي .

وإذا كانت القضية تتصف بالتجريد ، والجملة تخضع للتناقض، فإن المنطوق

---

(٤٦) نفس المصدر، ص،ص٨٢ - ٨٣ .

(٤٧) نفس المصدر ، ص،ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤٨) نفس المصدر، ص ٧٩ .

يتصف بالندرة، وفوق كل هذا فهو: (شرط سابق للجمل والقضايا، وهذه الأخيرة تفترض ضمنيا وجودها باعتبارها هي التي تشكل الكلمات والموضوعات)[٤٩] ولعل المثال النموذجي الذي يقدمه للتمييز بين الجملة والقضية والمنطوق هو المثال التالي: "إن الأفكار الخضراء التي لا لون لها، تنام نوما عميقا" إن هذا المثال يعتبر جملة لغوية، ولكنها جملة فاسدة المعنى، وقضية ولكنها متناقضة ولا تقبل التحقيق، ولكنها منطوق، لماذا ؟ لأن في نظر فوكو، رفض المثال على أساس أنه ليس جملة صحيحة أو ليس قضية صادقة، يستبعد جملة من الاحتمالات الممكنة، من مثل : أن المنطوق يعبر عن أضغاث أحلام أو مقطع من نص شعري، أو هذيان ناتج عن مؤثر مثل التخدير، أو رسالة شفرية .

هذه الاحتمالات يتضمنها فعل المنطوق، وتتنافى ومفهوم الجملة والقضية، وهذا ما يجعل من فوكو يختلف عن الألسنيين والمناطقة، ويحاول أن يؤسس توجها جديدا في الدراسات اللغوية والفلسفية، وهذا بالاعتماد على جهاز مفاهيمي خاص، لا يمكن فهمه دون مقارنته بمختلف التيارات الفلسفية والألسنية المعاصرة، وخاصة التيار الوضعي في الفلسفة والمنطق، والتيار البنيوي في الألسنية[٥٠]

ولكن ورغم اختلافه مع هذين التيارين، إلا أنه يقترب من التيار التحليلي للغة، وخاصة تيار مدرسة "أكسفورد" التي تهتم باللغة العادية، خصوصا أعمال "سيرل "Searle"و"أوستين «Austine» والمتمحورة حول نظرية أفعال الكلام «Speech act» أو "أفعال اللسان" وهو ما سنبينه في العنصر التالي :

(هـ) **بين المنطوق والفعل اللساني** : الفعل اللساني مصطلح ألسني، استعمل منذ العقد الثالث من القرن العشرين، إلا أن معناه الفلسفي من إبداع "أوستين"[٥١] وكما يقول "عادل فاخوري" : (يعتبر فيلسوف أكسفورد جون أوستين المؤسس لهذه النظرية. إنطلاقا من الفكرة بأن الوحدة الصغرى

---

(٤٩) جيل دلوز، **المعرفة والسلطة** ' مدخل لقراءة فوكو ' ترجمة سالم يفوت ' المركز الثقافي العربي ' الدار البيضاء المغرب ' ط١ ' ١٩٨٧ ' ص ١٩ . انظر النص الاصلي كذلك : – Foucault، ed Minuit، ١٩٨٦ ، p، ٢٢ .

(٥٠) ينظر الفصل الاول ' المحور الثالث .

(٥١) صلاح إسماعيل عبد الحق ، **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد** ، دار التنوير للطباعة والنشر. بيروت، لبنان، ١٩٩٣ ، ص. ١٨٤ .

للإتصال الإنساني ليست الجملة، ولا أية عبارة أخرى، بل هي إنجاز بعض أنماط من الأفعال...محاضرات أوستين التي جمعت تحت اسم ، كيف تصنع الأشياء بالكلمات عام ١٩٦٢ ، حثت الفيلسوف الأمريكي سورل على تطوير هذه النظرية)[٥٢]

ومضمون هذه النظرية يقوم على دراسة الفعل التعبيري والفعل الغرضي والفعل التأثيري[٥٣]

١- الفعل التعبيري ويعني جملة الأفعال الصوتية، والصرفية والتركيبية، والدلالية، حيث يقول: (إنني أسمي فعل (قول شيء ما) بالمعنى العادي التام، أداء للفعل التعبيري، واسمي دراسة المنطوقات حتى هذه النقطة، ومن هذه الجوانب باسم دراسة التعبيرات أو الوحدات التامة للكلام)[٥٤]

٢ - أما الفعل الغرضي فهو الفعل الذي يحدد الطريقة التي نستعمل بها التعبير، من مثل هل نسأل أم نجيب على السؤال؟ هل نعلن عن رأي أم قصد ؟ هل نضع تحديدا أم اتهاما أم نقدا ؟ ...إلخ[٥٥]

٣ - وأخيرا الفعل التأثيري وهو ما يحدثه المتكلم من تأثيرات معينة على مشاعر وأفكار المستمع كنتيجة لما يقول، وعلى سبيل المثال : (ربما يقنع شخصا معينا أن شيئا ما حقيقة واقعة، أو يحث شخصا معينا لأداء شيء ما، وهكذا يفعل المرء شيئا ما (عن طريق) القول)[٥٦] إن مضمون هذه النظرية، يشبه مفهوم فوكو للمنطوق، وخاصة في وحدته الأساسية الخاصة بفعل اللسان أو الكلام. لذلك يرى فوكو أن المنطوق وفعل اللسان فعل واحد، مع فارق بسيط، تبين فيمابعد عدم صوابيته، وهو أن مجموعة من الأفعال يمكن أن تشكل منطوقا مركبا، وهو ما اعترض عليه "سيرل"[٥٧]

يبين فوكو وجه العلاقة بين المنطوق والفعل اللساني، بقوله : (يمكننا الافتراض أن

---

(٥٢) عادل فاخوري ، نظرية **الأفعال الكلامية،في،الموسوعة الفلسفية العربية**، م ٠٢ ، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٣٠ .

(٥٣) صلاح إسماعيل عبد الحق ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

(٥٤) نفس المرجع، ص. ١٨٥ .

(٥٥) نفس المرجع، ص. ١٩٤ .

(٥٦) نفس المرجع ص. ٢٠٣ .

(٥٧) دريفوس ورابينوف، **ميشال فوكو : مسيرة فلسفية**، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥ .

تمييز المنطوقات يتبع ذات المقاييس في رصد أفعال الكلام أو اللسان، فكل فعل يتحقق داخل منطوق، وكل منطوق يسكنه من الداخل فعل من تلك الأفعال، فكلاهما يوجد الآخر ويوجد به، والعكس بالعكس)[٥٨] من خلال هذا النص، نلاحظ أن فوكو يساوي بين المنطوق وفعل الكلام، وأن الواحد منهما مشروط بالآخر. ولكنه يستدرك فيقول بأن (هذا النوع من الاقتران، لا يثبت أمام النقد). لماذا ؟ لأن ذلك يعود في نظره -وكما قلنا- إلى إمكانية جمع الأفعال اللسانية، مثل : القسم، والعهد، والموعظة، والعقد...إلخ. في منطوق مركب وهو ما اعترض عليه "سيرل" ولقد وافق فوكو على هذا الإعتراض واجاب "سيرل" في رسالة أوردها "دريفوس " في كتابه "فوكو، مسيرة فلسفية" بقوله :(فيما يختص بتحليل الأفعال الخطابية، أوافق تماما على ملاحظاتكم . فقد أخطأت في القول أن الملفوظات (المنطوقات) ليست أفعالا خطابية، لكنني أردت بـــقولي هذا أن أشدد على كوني أنظر إليها من زاوية مختلفة عن زاويتكم)[٥٩]

إن هذه الزاوية التي يتحدث عنها ، هي الزاوية الأركيولوجية، والوصف الأركيولوجي، في مقابل التحليل اللغوي الذي تقوم به "مدرسة أكسفورد"،خاصة وأن للمنطوق في نظر فوكو مهمات تاريخية ومعرفية وسياسية .

ولعل النقطة التي تستحق الإشارة هنا هي مرجعية المنطوق والتي ليست بالضرورة مرجعية القضية أو الجملة، فإذا كانت مرجعية القضية هي الصدق التجريبي أو النسقي، وإذا كان صدق الجملة في دلالتهاونحوها، فإن المنطوق قد تكون له هذه المرجعيات وقد لا تكون، وهذا نظرا لكونه نسق أو مجال للإمكانات، وهو ما يتميز به المستوى المنطوقي لتشكيلة خطابية معينة في مقابل المستوى النحوي للجمل، أو المستوى المنطقي للقضايا، ووصف هذا المستوى المنطوقي لا يكون بالتحقيق، وإنما بتحليل العلاقات بين المنطوقات .وهذا يعني أن علاقة القضية بالواقع أو بالنسق المنطقي، وعلاقة الجملة بالمعنى أو بالقواعد المنطقية، لا يمكن أن تكون نموذجا لعلاقة المنطوق بما يعبر عنه. ذلك أن المنطوق يحلل في إطار نسق المنطوقات، والذي تعبر عنه التشكيلة الخطابية، فماذا تعني التشكيلة الخطابية؟ وما هي علاقتها بالمنطوق والخطاب ؟

---

(٥٨) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص ٨١ .

(٥٩) دريفوس ورابينوف، **ميشال فوكو : مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره،أنظر الهامش، ص٤٥ . تاريخ الرسالة هو ١٥ أيار/ماي ١٩٧٩ .

ثانيا مفهوم التشكيلة الخطابية "Formation discursive"

عرفنا سابقا أن المنطوقات تشكل في مجموعها خطابا، وفي نفس الوقت تستطيع أن تستقل بذاتها، وأن تقيم علاقات مختلفة مع عناصر مغايرة، لذلك يتساءل فوكو عن كيفية وإمكانية معرفة أن مجموعة ما من المنطوقات تكون أو لا تكون خطابا؟ وكان جوابه بتحديد نظام القواعد، هذا النظام يعني به التشكيلة الخطابية[(٦٠)]

وعليه، فالتشكيلة الخطابية نظام منطوقي عام، هذا النظام يتكون من جملة من القواعد، كيف تم التوصل إليها ؟ وما هي ؟ يقول ميشال فوكو: (التشكيلة الخطابية...بالمعنى الدقيق، مجموعة من المنطوقات...ترتبط فيما بينها على مستوى المنطوقات)[(٦١)] فالتشكيلة الخطابية تتماثل إذن والخطاب من حيث التكون، فكلاهما يتشكلان من منطوقات، مع فارق أساسي هو أن التشكيلات الخطابية لا تتكون من منطوقات فردية فقط، بل من مجموعات منطوقية، (فالتشكيلة الخطابية هي المنظومة المنطوقية العامة التي تحكم مجموع الإنجازات اللفظية)[(٦٢)] كما أن استنباط أو تحليل التشكيلة الخطابية لا يكون من المنطوق، ولا العكس، وإنما يحاول فوكو أن يبين: (ميدان المنطوق ومبدأ اجتماعه والوحدات التاريخية الكبرى التي تكون تلك المنطوقات والمناهج التي تسمح بانتظامها)[(٦٣)] وهكذا نرى أن التشكيلة الخطابية ترتبط بمفهوم آخر هو ميدان الخطاب، وهو ما سنحدده لاحقا، بعد أن نتوقف على النتائج المباشرة، لتعريف التشكيلة الخطابية كمجموعة من المنطوقات.

ومن بين أهم النتائج التي ذكرها فوكو بالإستناد على هذا التعريف :

(أ) يخضع المنطوق والتشكيلة الخطابية لمنهج واحد في التحليل، هو المنهج الأركيولوجي.

(ب) مادام المنطوق ينتمي إلى التشكيلة الخطابية، فإن القواعد والقوانين الناظمة للتشكيلة الخطابية، تنطبق كذلك على المنطوق .

(جـ) الخطاب، ليس أكثر من مجموعة من المنطوقات تنتمي إلى تشكيلة خطابية، فهو عبارة : (عن عدد محصور من المنطوقات التي نستطيع تحديد شروط

---

(٦٠) Michel Foucault ،**L'Archéologie Du Savoir** ،ed. Gallimard, 1969 ،p. 95.

(٦١) ميشال فوكو ، حفريات المعرفة، ص ١٠٩ .

(٦٢) نفس المصدر، ص ١١٠ .

(٦٣) نفس المصدر، ص ١٠٨ .

وجودها[٦٤] ومعنى هذا أن الخطاب وحدة أكبر من المنطوق، ولكنه جزء من التشكيلة الخطابية.

١٠د) والنتيجة الأخيرة التي يصل إليها فوكو تتعلق بمفهوم جديد وأساسي في مفهوم الخطاب، وهو مفهوم الممارسة الخطابية « Pratique Discursif » التي ترتبط بوظيفة المنطوق داخل التشكيلة الخطابية وتحدد علاقاته التاريخية والاجتماعية أو قواعده الموضوعية كما سنبين ذلك لاحقا . فالممارسة الخطابية ترتبط، إذن، بوظيفة المنطوق داخل التشكيلة الخطابية، وتحدد علاقته التاريخية والاجتماعية واللغوية، وكذلك قواعده الموضوعية .

ولكن قبل أن يحدد فوكو مفهوم التشكيلة الخطابية بالصورة التي عرضناها، وقبل أن يصل إلى تلك النتائج، استعمل ومارس مجموعة من الفروض، على مختلف أعماله السابقة عن **أركيولوجيا المعرفة**. ففي البداية، ومن أجل حصر التشكيلة الخطابية، استعمل فرضية الموضوعات، حيث رأى أن مختلف المنطوقات تعود إلى موضوع واحد، مثل منطوقات علم النفس التي تعود إلى موضوع واحد هو الجنون، ولكن المشكل الذي واجهه هو : معرفة ما إذا كانت وحدة الخطاب قد تشكلت بفضل الفضاء الذي ترتسم فيه موضوعات وتتحول باستمرار من شكل آخر، بدل القول بأنها وحدة تجد أساسها فقط، في استمرار ذات الموضوع وتميزه. وهو المشكل الذي واجهه في **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي** ، لذا فإن وحدة: (الخطاب المتعلق بالجنون لا تبنى على موضوع الجنون، أو على نشأة أفق وحيد للموضوعية. بل إن ثمة قواعد هي التي تسمح في فترة ما بإمكان ظهور الموضوعات[٦٥]

هذه القاعدة هي التي يسميها فوكو بقاعدة التوزع والتبعثر، ولكن قبل أن يصل إلى هذا التحديد استعمل فرضية ثانية وهذا في عمله الثاني والمسمى **بمولد العيادة**، حيث نظر إلى المنطوقات من حيث شكلها ونمط تسلسلها، و(لكنني انتهيت إلى ضرورة التخلي عن هذا الاعتقاد الذي انطلقت منه، والإقرار بأن الخطاب العيادي بقدر ما يستند أساسا إلى المنطوقات الوضعية، كان ينطلق كذلك من مجموعة من الفرضيات حول الحياة والموت، ومن إختيارات أخلاقية وقرارات علاجية...وأن مجموع

---

(٦٤) نفس المصدر، ص ١١١ .

(٦٥) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص ٣٥ .

المنطوقات الوضعية لا يصح عزلها عن سائر المجموعات الأخرى)[٦٦] لذا وجب في نظره إبراز تواجد منطوقات مبعثرة ومتباينة .

وأخيرا فإن الفرض الثالث والرابع طبقه في **الكلمات والأشياء**، وفحواهما أن المنطوق يتحدد بنظام المفاهيم ، كالنحو مثلا، أو بوصف تسلسل المنطوقات، كما هو الحال في البيولوجيا وفكرة التطور. ولكن كل هذه الفروض تخلى عنها وانتقدها واستبدلها بضرورة وصف تبعثر وتوزع وتباين المنطوقات . ذلك فإن الوصف، وصف التشكيلة الخطابية ، لا يعمد إلى رصدوحدة الموضوعات، ولا إلى تسلسلها ، ولا إلى وصف نظامها، بل إنه يعمد :(إلى وصف أنظمة التبعثر)[٦٧]

هذا النظام، نظام التبعثر، هو الذي يحقق التشكيلة الخطابية، يقول فوكو : (حينما نتمكن من إثبات منظومة تبعثر ما من هذا النوع داخل عدد معين من العبارات، وعندما نقف على شكل من أشكال الانتظام...بين الموضوعات، وأنواع التعبير والتصورات والاختيارات الفكرية، سوف نقول من باب الاصطلاح إننا أمام تشكيلة خطابية)[٦٨] هذا التحقيق، يستند إلى جملة من القواعد، يسميها بقواعد التشكيلة الخطابية وهي : (الشروط التي تخضع لها عناصر ذلك التوزع(الموضوعات، أوجه التعبير وصيغه، المفاهيم، الاختيارات الفكرية) فقواعد التشكيلة هي شروط الوجود (وكذلك التواجد والاحتفاظ والتحوير والاختفاء) داخل توزع خطابي معطى)[٦٩] فما هي هذه القواعد ؟

يرى فوكو أن القواعد التي تحدد شروط وجود تشكيلة خطابية هي :

(أ) قاعدة الانبثاق، أو كيفية ظهور الموضوعات في المكان. مثل ما هو الحال في **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**، حيث ناقش موضوع الجنون، بناءا على أشكال ظهوره في المعزل والمستشفى'و بتعبير آخر، وصف المساحات التي تنبثق منها الموضوعات، هذه المساحات تختلف باختلاف المجتمعات والعصور وأشكال الخطاب[٧٠]

---

(٦٦) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٦٧) نفس المصدر ' ص ٣٧ .

(٦٨) نفس المصدر ' نفس الصفحة .

(٦٩) نفس المصدر ص ٣٨ .

(٧٠) نفس المصدر' ص ٤٠ .

(ب) قاعدة التعيين والترتيب، وهي القاعدة التي طبقها في **مولد العيادة**، حيث بين مختلف مراتب الخطاب الطبي، وتميزه عن الخطابات الأخرى .

(جـ) قاعدة التمييز والفرز، وهي القاعدة التي تسمح بظهور خطاب معين في التاريخ، كما تبين خصائصه واختلافه أو تماثله مع خطابات أوتغايره عنها.

والملاحظ أن هذه القواعد، هي نفسها الفروض التي أتينا على ذكرها سابقا، والتي استعملها لدراسة مختلف التشكيلات الخطابية، والتي رأى أنها لا تفي بالتحليل، لذلك يرى أن القاعدة الأساسية التي تتحكم في كل التشكيلات الخطابية هي:

(د) قاعدة التبعثر والتوزع، فالخطاب والتشكيلة الخطابية لا يتميزان بما لهما من موضوع متميز، ومتعين ومرتب، بل بتلك الكيفية التي يطبعها التبعثر [٧١]

ولقد سبق لنا ،في الفصل الأول، أن حللنا الطابع الجديد للغة في العصر الحديث، ذلك الطابع المتميز بالتبعثر والذي جسده فقه اللغة، وأعمال "نيتشه" و"مالارميه" . وهو ما يبين، مرة أخرى علاقة اللغة بالخطاب، من حيث الوجود والهوية، رغم اختلافهما في الوظيفة والرؤية . فشرط وجود الخطاب والتشكيلة الخطابية هو تبعثرهما .

يقول ميشال فوكو: (تعريف مجموعة ما من المنطوقات-[خطابات أوتشكيلات خطابية] في خصوصيتها وفرديتها، يقوم، ويا للمفارقة والعجب، على وصف تبعثر تلك الموضوعات، وإدراك الشقوق والفجوات التي تفصلها...إنه يقوم بعبارة موجزة، على صياغة قانون توزعها)[٧٢].

وهكذا، فإن المطلوب في نظره، هو أن يبين نظام توزع المنطوقات والخطابات والتشكيلات الخطابية، والذي لا يمكن أن يكون خارج منهج الوصف الأركيولوجي، والذي يحدد كذلك كيفية ارتباطها ومختلف علاقاتها، وهو ما سنبينه لاحقا، ذلك أن التشكيلة الخطابية ترتبط بمجموعة أخرى من المفاهيم، من الضروري توضيحها، قبل مناقشة مشكلات المنهج، ومن بينها:

ثالثا - الميدان الخطابي Champ Discursif[٧٣]

لا يعني الميدان الخطابي عند فوكو ما تعودنا عليه في الدراسات الإبستيمولوجية، مثل ميدان العلوم الإنسانية أو الطبيعية أو الصورية، كما لايعني عنده وحدتي الكتاب

---

(٧١) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٣٣ .

أو الأثر "L'Oeuvre" بل هو : (ميدان رحب ويمكننا في تعريفه القول بأنه يتكون من مجموع المنطوقات الفعلية (المكتوبة أو المنطوقة) في تبعثرها كأحداث وفي اختلاف مستوياتها)(٧٣) هذه المجموعة تتميز بكونها متناهية ومتحققة ومنتظمة، هذا التنظيم يظهر في أشكال ثلاثة هي :

(أ) شكل التتالي والتعاقب والترتيب بين المجموعات المنطوقية، كالمجموعة النحوية، أو الاقتصادية أو البيولوجية .

(ب) أشكال التواجد وهي التي تحدد شكل حضور المنطوقات، والعلاقات فيما بينها، كما هو الحال في مختلف منطوقات تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي .

(جـ) طرق التدخل أو منهجية العمل المطبقة على المنطوقات، وهي ليست واحدة بالنسبة لجميع التشكيلات الخطابية.

ولكن السؤال الذي يطرح هو الفرق بين التشكيلة الخطابية وميدان الخطاب، ذلك أن كلاهما يتشكل من مجموعة من المنطوقات، وهو ما يتماثل والخطاب بشكل عام. فهل نعتبر هذه المفاهيم مجرد أشكال لمضمون واحد، أم أن هنالك فروقات بين هذه المستويات ؟

الواقع، ليس سهلا أن ندقق في مفاهيم فوكو، فهو يقر في أكثر من صفحة من صفحات أركيولوجيا المعرفة عدم دقة مفاهيمه، بل ولبسها وغموضها، لذلك يرفض إدعاء بناء نظرية في الخطاب، وللتدقيق في هذه المفاهيم نرى وجوب إن الخطاب هو عموما، مجموعة من المنطوقات، سواء كانت هذه المنطوقات مكتوبة أو ملفوظة، أما التشكيلة الخطابية فتتكون من منظومة من المنطوقات،أي المقارنة بينها. مجموعات تحكمها قواعد، أما ميدان الخطاب فيتشكل أساسا من منطوقات فعلية، ويختلف عن التشكيلة الخطابية من حيث الحجم، ذلك أنه ميدان رحب أوسع من التشكيلة الخطابية. قد يغطي علما من العلوم، أو مجموعة من العلوم المتحققة تاريخيا، لذلك فإن ميدان الخطاب هو المنطوقات الفعلية، أو المنطوقات كأحداث تاريخية.

لذلك يرى فوكو أن ميدان الخطاب يتشكل من منطوقات فعلية، أو من أحداث خطابية، بمعنى منطوقات تاريخية(٧٤) وهو ما يميزه عن التشكيلة الخطابية، ولكن رغم

(٧٣) نفس المصدر، ص ٣٢ .

(٧٤) Michel Foucault,**Réponse à Une Question**, In,**Esprit**, no371. Mai, 1968, p,p. 862-863 .

هذا فإن مفهوم الخطاب لا يتضح دون مناقشة مفاهيم أخرى لها علاقة به، مثل مفهوم منظومة التكوين .

رابعا- منظومة التكوين «Système de Formation»

المقصود بمنظومة التكوين تلك : (المجموعة المعقدة من العلاقات والروابط التي تقوم بعمل قاعدة، إنها هي التي تقرر ما كان يجب أن يرتبط بعلاقة ما داخل ممارسة خطابية معينة، كي تستطيع هذه الأخيرة أن تشير إلى هذا الموضوع أو ذاك ... أو تنظم هذه الإستراتيجية أو تلك).(٧٥)

إن أهمية منظومة التكوين تعود إلى مختلف علاقاتها التي تقيمها مع الممارسات الخطابية، والإستراتيجية الخطابية، الأولى تحدد علاقة الخطاب أوالمنطوق أو التشكيلة الخطابية بالواقع، وهي النقطة التي ناقشها وأثارها الكثير من الماركسيين، والثانية تحدد أفق الخطاب وخصوصية التشكيلة الخطابية، ولكن أهمية منظومة التكوين تعود إلى مضمونها ذاته، حيث تتميز بكونها :

(أ) إن المنظومة لا تعني التجاور أو التواجد أو التفاعل مع عناصرمختلفة سواء كانت خطابية أو غير خطابية، نصوص أو مؤسسات، بل المقصود بالمنظومة هو: (الربط العلائقي من طرف الممارسة الخطابية).(٧٦)

(ب) المنظومة التكوينية ليست إطارا ثابتا ولا شكلا ساكنا، يفرض نفسه على الخطاب، بل : (منظومات تكمن في الخطاب ذاته...أو توجد بالأحرى ... على حدوده، في النقطة التي تتحدد فيها القواعد الخصوصية التي تجعله موجودا على النحو الذي هو عليه).(٧٧)

وهذه المنظومة تظهر أولا على مستوى العناصر المركبة في علاقات، وثانيا على مستوى الممارسات الخطابية، حيث ترتبط مختلف ميادين الخطاب، وثالثا فإن ما يتناوله فوكو بالتحليل ليست الحالة النهائية للخطاب، بل منظومات التكوين، أي مختلف العلاقات الخطابية: (فنحن إذن لا نسعى إلى الانتقال من النص إلى التفكير، ومن الكلام إلى الصمت، ومن الخارج إلى الداخل، ومن التبعثر المكاني إلى حدس اللحظة، ومن التعدد السطحي الواحد العميق، بل نريد البقاء في مستوى الخطاب).(٧٨)

---

(٧٥) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص،ص ٧١ - ٧٢ .

(٧٦) نفس المصدر، ص ٧٠ .

(٧٧) نفس المصدر ، ص ٧١ .

(٧٨) نفس المصدر ، ص،ص ٧٣ - ٧٤ .

إن صعوبة تعيين هذا الموقف وغموضه، هو الذي جعل العديد من الباحثين يصنفون فوكو تارة في التيار البنيوي، وأخرى في التيار التحليلي اللغوي، أو في التيار الماركسي، هذا اللبس الذي سنحاول توضيحه في المحور الثاني من هذا الفصل الخاص بالمنهج، حيث سنقارن موقفه المنهجي بكبرى التيارات المنهجية في الفلسفة المعاصرة .(٧٩)

ولكن وقبل هذا فإن تحليل منظومة التكوين، وكذلك مفهوم الخطاب عموما، لا يكتمل دون مناقشة مفهومي الممارسة الخطابية والإستراتيجية الخطابية، فماذا يعني فوكو بهذين المفهومين؟

خامسا - مفهوم الممارسة الخطابية "Pratique Discursive"

ارتبط مفهوم الممارسة الخطابية في عرضنا بتعريف الخطاب ومنظومة التكوين، فماذا يعني فوكو بهذا المفهوم، وماهو مضمونه ؟ وكيف نفهم صيغة أن الخطاب ممارسة ؟ يعرف الممارسة الخطابية بقوله : (هي مجموعة من القوعد الموضوعية والتاريخية المعينة ' والمحددة دوما في الزمان والمكان ' والتي حددت في فترة زمنية بعينها ' وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني).(٨٠)

بناء على هذا التعريف يرى" لكور "Lecourt أن مفهوم الممارسة من المفاهيم الأساسية في تحليلات فوكو، ونقطة فاصلة في علاقته بالبنيوية والتحليلات اللغوية، وذلك لأن ما يعنيه فوكو بكلمة الممارسة ليس نشاط لذات، بل الوجود الموضوعي والمادي لبعض القواعد التي تحكم في الذات عندما ترتبط بالخطاب.(٨١) وهو ما

---

(٧٩) ينظر على سبيل المثال : كتاب دريفوس ورابينوف، **ميشال فوكو، مسيرة فلسفية**، خاصة القسم الأول ،وكذلك مقال :- Cappalle et Gardin,Discours Du Pouvoir et Pouvoir(s) Du Discours,In,La Pensée,no209, 1980 وكذلك مقال :

Dominique Lecourt, Sur L'Archeologie Du Savoir In **La Pensée** no152, 19

وأيضا كتاب :

Richard Michel et Skrzypezak jean François **Penseurs Pour** Aujourd'**hui , ed., Chronique Sociales , Lyon , 1985**

-حيث نجد أن دريفوس يؤكد على الطابع البنيوي لتحليلات فوكو، أما لكور وغاردن فيؤكدان على الطابع الماركسي وكذلك تأثره بالمدرسة التحليلية، أما ريشارد فيؤكد على الطابع المستقل لمحاولة فوكو.

(٨٠) ميشال فوكو ' **حفريات المعرفة** ' ص ١١٣ .

(٨١) Dominique Lecourt ،Sur L'Archeologie du savoir ، Op - cit ،p75.

يوضحه تعريف فوكو الذي يقول :(ما ندعوه بالممارسة الخطابية، ليس بالإمكان الخلط بينها وبين العملية المنطوقية...ولا بينها وبين نشاط العقل...أو بينها وبين مقدرة الشخص على الكلام، حينما يركب جملا نحوية، بل هي مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوما في الزمان والمكان، والتي حددت في فترة زمانية بعينها، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لسان معطى، شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية)[٨٢] إذن تتحدد الممارسة الخطابية بثلاثة أوجه، وهي :

(أ) إن الممارسة الخطابية لا تحيل إلى الذات ولا إلى العملية التعبيرية ولا إلى المقدرة الشخصية.

(ب) وبما أنها كذلك ، فإنها قواعد موضوعية وتاريخية معينة ومحددة في زمان ومكان معينين.

(جـ) هذه القواعد الموضوعية هي التي تحدد الوظيفة المنطوقية أو الخطابية، وعليه فإن الممارسة الخطابية تتعلق بالخطاب ووظيفته، على العكس الممارسات "غير الخطابية "Pratique Non-Discursive والتي تتعلق بالمؤسسات والحياة الاجتماعية والاقتصادية .أو كما يقول فإن : الممارسة الخطابية تعنى بالخطاب، أما الممارسات غير الخطابية فتعنى بالنواحي المادية)[٨٣]وهي: (حقل مؤسساتي ومجموع أحداث وممارسات وقرارات سياسية وتسلسل سياقات اقتصادية)[٨٤]

وعلى أساس هذا التمييز، لايمكن لنا تصنيف فوكو ضمن المنظور البنيوي للخطاب، مادام يفرق بين ممارسات خطابية، تهتم بوظيفة الخطاب، وممارسات غير خطابية، تهتم بالحياة المادية وبالمجتمع، وإذا كان فوكو لا يقيم العلاقة بين الممارسة الخطابية وغير الخطابية على أساس السبب والنتيجة، فإنه يرى أن الوصف الأركيولوجي يصف أشكال ظهور الخطاب، وانبثاقه، وكذلك مختلف علاقاته، التي يرى أنها تتكون من علاقات أولية والتي يمكن وصفها داخل المؤسسات والتقنيات والتشكيلات الاجتماعية وغيرها وعلاقات خطابية لا توجد داخل الخطاب، بما أنها لا

(٨٢) ميشيل فوكو ' **حفريات المعرفة** ' ص ١١١ .

(٨٣) Michel Foucault ,Entretien, "Michel Foucault Explique Son Dernier Livre" ,In ,Magazine Littéraire ,no28 ,1969 , p 18

(٨٤) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص ١٥١ .

ترتبط بالألفاظ ولا بالجمل ولا بالقضايا، كما أنها ليست خارج الخطاب، بما أنه ينكر فكرة السببية والأسبقية، وإنما توجد :(إذا صح القول عند حدود الخطاب : فهي التي تمنحه الموضوعات التي يتحدث عنها... فالعلاقات الخطابية لا تميز اللغة التي يستخدمها الخطاب، ولا تميز الظروف التي ينتشر فيها كخطاب، بل تميز الخطاب ذاته من حيث هو ممارسة)(٨٥)

وعلى هذا الأساس يرى "لكور" أن المقولة المركزية في مفهوم فوكو للخطاب، هي مقولة الممارسة، ومن هنا ' أيضا ' نفهم نعت "دريفوس" و"رابينوف" لمنهجية فوكو بمنهجية وصف مختلف الأشكال التاريخية للممارسة الخطابية، ومن هنا أيضا نفهم التسمية المقترحة من طرفهما، وهي نظرية الممارسة الخطابية لا نظرية الخطاب ' مادام فوكو يصف أشكالا مختلفة من الممارسات الخطابية وغير الخطابية ' كالممارسات المعرفية والممارسات السلطوية(٨٦)

سادسا - مفهوم الإستراتيجية " "Stratégie

يرتبط مفهوم الخطاب والتشكيلة الخطابية -أخيرا- بمفهوم الإستراتيجية الذي يعرفه فوكو بقوله :(ويكون بمستطاعنا إظهار تشكيلة خطابية ما، في فرديتها وخصوصيتها إذا تمكنا من تحديد منظومة تكون مختلف الإستراتيجيات الموجودة بها، بعبارة أفضل، إذا كان بمقدورنا إبراز الإستراتيجيات...عن مجموعة ثابتة من العلاقات)(٨٧)

كما يحدد علاقة الخطاب بالإستراتيجية بقوله :(وتلزم الإشارة إلى أن الإستراتيجيات موصوفة على هذا النحو، لا تجد موقعها الأصلي بعيدا عن الخطاب، في الغور الأبكم والصامت لاختيار أولي وأساسي في نفس الوقت)(٨٨)

ومن خلال هذين النصين نتوقف على دلالة الإستراتيجية وأهميتها في تحليل الخطاب، وارتباطها بما يسميه فوكو بالإختيارات النظرية، أو المنهجية للتحليل، هذه الخيارات هي: (أساليب مسطرة...للشروع في توظيف إمكانيات الخطاب واستثمارها)(٨٩)

---

(٨٥) نفس المصدر، ص ٤٤.

(٨٦) دريفوس ورابينوف ' **ميشيل فوكو ' مسيرة فلسفية** ' مرجع سبق ذكره ص ٧٠ .

(٨٧) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص ٦٧ .

(٨٨) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٨٩) نفس المصدر ، ص ٦٨ .

إن هذا التوظيف أو الاستثمار لا يكون خارج إرادة المعرفة والسلطة، وهو ما يربط تحليل الخطاب بالممارسات غير الخطابية، كما يشير إلى ذلك "دريفوس ورابينوف"من كون فوكو سيطور مفهومه للإستراتيجية في مؤلفاته اللاحقة والخاصة بمسائل السلطة والذات، وأنه لا يبقى حبيس الاختيارات النظرية والمعرفية، وهو ما سيسمح له : (بتوسيع خصائص الإستراتيجيات ودورها، وكذلك التعرف إلى طابعها الجوهري، بأن يطرح أخيرا موضوعات التأثير النسبي للممارسات الخطابية وغير الخطابية، وبأن يحل بعض التناقضات الخفية والكامنة في (الأركيولوجيا)[٩٠].

إن هذا التوسيع في مفهوم الإستراتيجية، هو ما سنبينه في فصلي، السلطة والذات ، وكذلك الجمع المنهجي بين الأركيولوجيا والجنيولوجيا، وهو ما سنوضحه في محور، منهج تحليل الخطاب .

وفي الأخير نستطيع القول أنه، وعلى الرغم من صعوبة تعيين مفهوم وموقف فوكو من الخطاب بدقة، وهو ما أشار إليه العديد من الباحثين، مثل :"منفرد فرانك"[٩١] ، والتي لا يمكن لنا تجاهلها رغم محاولتنا في استجلاء الموقف والمفهوم معا ، ولكن نستطيع القول أن :

(أ) الخطاب يشكل مجموعة من المنطوقات، هذه المجموعة هي أساس التشكيلات الخطابية، والتي تشكل ميادين الخطاب، وتكون محكوم بمنظومات التكوين .

(ب) لا يمكن لنا فصل مفهوم الخطاب عن مفهوم اللغة، رغم الفارق الأساسي بينهما. فإذا كانت الخطابات مجموعات منطوقية متناهية، فإن اللغة نظام مفتوح ومحكوم بالإختراق والتجاوز، وإذا كانت اللغة تاريخيا تحققت في عصر النهضة وبعد غيابها في العصر الكلاسيكي، تعود في عصر الحداثة بطابع التبعثر، فإن الخطاب يشكل مرحلة وسطى، ويتجسد في العصر الكلاسيكي.

(جـ) الخطاب والمنطوق والتشكيلة الخطابية، يتنافى وما تعودنا على تسميته في إطار تاريخ الفكر بالنص والأثر والقضية والجملة والمجال العلمي أو الفرع العلمي، فهذه المفاهيم كلها في نظر فوكو لها علاقة بوهم الأفكار الإتصالية، وما يريد تأسيسه هو تاريخ القطائع، والانفصالات، لذلك اعتمد على مفهوم الخطاب كحدث تاريخي يطبعه الانفصال والقطيعة.

---

(٩٠) دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ،مسيرة فلسفية**، مرجع سبق ذكره، ص ٧٣ .

(٩١) ManfredFrank ،**Qu'est-ce Que Le Néo-Structuralisme** ? Traduit de l'Allemand par Chrietian Berner ،ed ، Cerf 1990 p 124 .

(د) إن المفهوم الخاص بالخطاب لايمكن لنا اشتقاقه مباشرة من الألسنية أو التحليل الخطابي أو فلسفة التحليل، ولكن وفي نفس الوقت، لا يمكن لنا فصله عن مجمل الحوارات والمناقشات والأسئلة المطروحة في هذا الميدان والتي كانت موضوع تفكير فوكو، وإن بطريقة مختلفة وبمفاهيم مغايرة .

(هـ) هذه الطريقة تظهر في كثير من الموضوعات مثل : موضوعة مرجعية المنطوق،التي لا تحيل لا إلى النحو ولا إلى المنطق بل إلى المجال الخطابي والممارسة الخطابية، التي يتم وصفها بمنهجية خاصة، أطلق عليها في البداية اسم "الأركيولوجيا" ثم أضاف لها "الجنيالوجيا" ، وهو ما سنناقشه في المحور الموالي .

المحور الثاني - منهج الخطاب

يروي "لكور" أن ميشال فوكو قد كتب أول مرة أركيولوجيا المعرفة في صيغة مقدمة لكتاب **الكلمات والأشياء**، ولكنه عندما عرضها على "كونغليم "Cangulhem و"هيبوليت "Hyppolite، طلبا منه تأجيل نشرها، من أجل إثرائها وتطويرها ثم نشرها في صيغة كتاب منهجي مستقل، وهو ما حصل فعلا. ففي هذه الفترة نجده يصرح للجريدة التونسية " "La Presse بأنه بصدد تحضير عمل منهجي، يتعلق بأشكال اللغة والخطاب، في الثقافة الغربية[٩٢]

إن هذه الواقعة تبين من جهة، حجم المشاكل النظرية التي طرحتها أعماله التطبيقية، وخاصة **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ومولد العيادة والكلمات والأشياء** ، ومن جهة أخرى، ضرورة تأسيس إطار منهجي ونظري لهذه الأعمال، وهو ما حاولت أركيولوجيا المعرفة مواجهته وإقامته وتأسيسه .فما هو هذا المنهج؟ وما هي خطواته ومبادؤه ؟ وما هي علاقته بالمناهج الفلسفية الكبرى؟ وأخيرا ما هي مختلف التعديلات التي أدخلها على هذا المنهج في سياق أعماله وأبحاثه الجديدة ؟[٩٣]

في تعريفنا للخطاب، واجهتنا، وفي أكثر من موضع، مشكلة تحليل الخطاب، وذلك لعلاقة المنهج بالخطاب وخصوصيتهما. هذه العلاقة والخصوصيه هي ما

(٩٢) François Dosse,**Histoire du structuralisme**,ed. La Découverte,Tome1,1991, p.297. -وكذلك Foucault Michel ،**La Philosophie Structuraliste Permet De Diagnostiquer Ce Qu'est Aujourd'hui** ،In ،**La Presse (Tunis)** ،du 12 avril 1967، p.03.

(٩٣) حول مفهوم المنهج وعلاقته بالمسائل الإبستيمولوجية والمنطقية، ينظر : رسالتنا التي تقدمنا بها لنيل شهادة الماجستير بعنوان : **المنهج البنيوي عند "ليفي ستراوس" و"غودلييه" و"صباغ"** ، دراسة تحليلية نقدية ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة ١٩٨٩، ، الفصل الثالث، المحور الأول.

سنسعى لتحليلها في النقاط التالية :

أولا- مفهوم المنهج : أطلق فوكو اسم "الأركيولوجيا" على منهجه، وهو اسم ظهر لأول مرة في **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**، وكان **مولد العيادة** يحمل في طبعته الأولى عنوانا فرعيا هو **أركيولوجيا النظرة الطبية** وكذلك كان الحال في **الكلمات والأشياء** حيث حمل عنوانا فرعيا هو أركيولوجيا العلوم الإنسانية فماذا تعني هذه الكلمة وماهي دلالتها عند فوكو؟[(٩٤)]

من المعلوم أن الأركيولوجيا فرع علمي يدرس الحضارات القديمة، من حيث آثارها المادية والثقافية، ويعتمد على طرائق مختلفة في البحث والتنقيب، وفوكو يستخدم هذه التسمية، ولكن بمضمون مغاير، صرح لجريدة " Le Monde" سنة ١٩٦٩: (لقد استعملت هذا اللفظ للدلالة على وصف الوثيقة [الأرشيف] ولم أقصد به مطلقا اكتشاف بداية، أو الكشف عن عظام رميمة)[(٩٥)]

إن هذا التصريح يتضمن عنصرين أساسيين هما : الوصف كطريقة والأرشيف كموضوع. وهو ما نجده في كتاب **أركيولوجيا المعرفة**، مع تحديد لمضمون الطريقة وأهداف الوصف، يقول :(بإمكاننا استنادا إلى قانون الألفاظ...أن نطلق على تلك الأبحاث اسم حفريات أركيولوجياوهو لفظ لايتضمن أي محاولة للجري واللهث وراء البدايات، كما لايقترن التحليل بأي تنقيب أوسبر جيولوجي،بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصف، هدف استنطاق الماقبل في مستوى وجوده، وفي مستوى الوظيفة المنطوقية التي تمارس عليه، والتشكيلة الخطابية التي ينتسب إليها... فالأركيولوجيا تصف الخطابات كممارسات محددة في عنصر الأرشيف ."Archive)[(٩٦)]

إن هذا التعريف يضيف للوصف والأرشيف، مفاهيم أساسية تتعلق بالمنهج مثل

---

(٩٤) حول ذكر كلمة أركيولوجيا في **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**، ينظر الصفحة ٢٦٥ على سبيل المثال .أما عن الترجمة فقد فضلنا الإبقاء على المصطلح الأصلي وهو معتمد عند مطاع صفدي في مختلف مقدماته لأعمال ميشال فوكو وعند الطاهر وعزيز في مقاله **بالمناظرة** وهي مجلة فصلية تعنى بالمفاهيم والمناهج . بدلا من كلمتي "أثريات" أو"حفريات" كما هو في ترجمة سالم يفوت.

(٩٥) ميشال فوكو ، **مفهوم الاركيولوجيا** ، ترجمة، الطاهر وعزيز،في، مجلة "**المناظرة**" ، مجلة فصلية تعنى بالمناهج، تصدرعن شركة بابل،للطباعة والنشر.الرباط،المغرب، السنة الثانية، العدد ٤ . ماي ١٩٩١ ، ص. ١٢٨ .

(٩٦) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص ١٢٦ يستعمل سالم يفوت كلمة "نظام الاحتفاظ والظهور لترجمة كلمة أرشيف.أما نحن فقد أبقينا على الكلمة الأجنبية، لتداولها ودلالتها دون حاجة لترجمتها.

التحليل، وبموضوع المنهج كالخطاب، والتشكيلات الخطابية، وبمبادئ للمنهج مثل رفض البحث في الأصول، أو التنقيب الجيولوجي، والعمل على استنطاق الماقبل لوجود المنطوقات، ووظيفة التشكيلات الخطابية، وبكلمة وصف الممارسات الخطابية، في شكل انتظامها وظهورها.

والسؤال الذي يطرح هو:هل الأرشيف يساوي الخطاب أم لايساويه ؟ وبأي معنى؟ وهل المنهج يقوم على التحليل،أم على الوصف ، أم على كليهما ؟

سبق وأن عرفنا الخطاب بمجموع المنطوقات، هذه المنطوقات تنتظم لتكون التشكيلات الخطابية، فماذا يعني فوكو بالأرشيف ؟ يقول :(أعني بالأرشيف أولا جملة الأشياء التي قيلت في ثقافة ما ، وعني الناس بحفظها ، وارتفع قدرها عندهم، واستعملوها من جديد، ووقع تكرارها وتحريرها ، وباختصار: كل هاته المجموعة المنطوقية التي صنفها الناس واستغلوها في تقنياتهم ومؤسساتهم، ونسجوا سداها من وجودهم وتاريخهم)[٩٧]

ولكن ماذا تعني جملة الأشياء التي قيلت؟ هل هي نصوص ووثائق ، أم منطوقات خطابية لها قواعدها ؟ يرى فوكو أن الأرشيف لا يعني النصوص فقط"Textes"، ولا الوثائق "Documents"، ولكن جملة القواعد المحددة في ثقافة ما . لظهور أو ضياع المنطوقات. فالمنطوقات هي الوحدات المركزية للأركيولوجيا ، في صورتها المادية والوضعية. لذلك فهي أحداث خطابية، وليست وثائق لها معنى خفي أو قواعد بنائية، إنها آثار ونصب " "monuments بالمعنى الذي يعطيه "كونغليم" لهذا اللفظ[٩٨]

وعليه، فموضوع الأركيولوجيا ليس اللغة، وإنما الأرشيف، أي الوجود المتراكم للخطابات، فالأركيولوجيا كما يقول فوكو: (ليست جيولوجيا (أي تحليل للطبقات الأرضية) ولا جنيالوجيا (أي وصف للبدايات والتواريخ) وإنما هي تحليل للخطابات في صيغة أرشيف)[٩٩]

فالأرشيف إذن، هو موضوع الأركيولوجيا والتحليل الأركيولوجي، باعتباره ممارسة

---

(٩٧) نفس المصدر ' ص ١٢٨ .

(٩٨) Michel Foucault ،Réponse Au Cercle D'Epistémologie, p.19.

(٩٩) Raymond Bellourd, Le Livre Des Autres,Op-Cit, p. 117

خطابية لها قواعدها وشروطها ومبادؤها في وصف الخطابات وتشكلها وتحولها، وشروط ظهورها وتراكمها وتسلسلها، وأشكال وجودها وانبثاقها أو تلاشيها وضياعها. بمعنى أن المجال الأساسي للتحليل الأركيولوجي، هو التاريخ، على أن لا نفهم من التاريخ ما اعتاد على تسميته بهذا الاسم المؤرخون والفلاسفة، لأن لفوكو وجهة نظر خاصة، سنحللها في الفصل السادس من هذا البحث .

أما ما يجب تحليله الآن، فهو قواعد ومبادئ هذا المنهج، الذي يعتمد التحليل ليصف مختلف موضوعاته. فالوصف إذن، هدف يجب تحقيقه، أو بتعبير فوكو، أفق للبحث، يقول :(من هنا يبرز مشروع وصف الأحداث الخطابية كافق للبحث في الوحدات التي تتشكل فيه. وهو وصف يتميز بكيفية واضحة عن تحليل اللغة)[١٠٠] ولتحقيق هذا الهدف، أو لتجسيد هذا الأفق، يعمد فوكو إلى التحليل، كطريقة لوصف أحداث الخطاب، فماهي قواعد ومبادئ هذا التحليل ؟

ثانيا - مبادئ المنهج

للكشف عن المنطوق، يرى فوكو ضرورة الإلغاء المنهجي للوحدات الجاهزة، التي ألف تاريخ الفكر استعمالها، مثل وحدة الكتاب أو العمل الأدبي أو العلمي، أو الفروع العلمية، والنظر إلى المنطوق كحدث منفصل ومتميز، قابل للتذكر والتكرار، ويخضع لمختلف أشكال التدوين، ولا يرتبط بالمواقف التي سبب حدوثها، ولكن بمختلف المنطوقات التي سبقته أو التي تلحق به.

فتميز المنطوق لا يعني عزله، بل (يعني أننا نريد أن نبيح لأنفسنا وصف مجموع العلاقات داخله وخارجه)[١٠١] أي مختلف الممارسات الخطابية، وغير الخطابية. ولكي يتم الوصف، يجب في نظر فوكو، التقدم بخطوة أخرى، هي ضرورة أخذ قرارات حاسمة، للتمكن من انتقاء: (منطقة أولية نعرضها للتحليل، ونعيد تنظيمها عند الاقتضاء... اختيار ميدان تتعدد علاقاته، وتتكاثر، وتكون نسبيا سهلة الوصف)[١٠٢] مثل ميدان العلوم الإنسانية، وموضوع كموضوع الجنون أوالطب، أو النحو في العصر الكلاسيكي...إلخ.

والغاية من خطوتي التمييز والانتقاء، هي الكشف عن: (ذلك التواجد بين

---

(١٠٠) ميشال فوكو، **حفريات المعرفة**، ص ٢٦ .

(١٠١) نفس المصدر، ص،ص ٢٨ - ٢٩ .

(١٠٢) نفس المصدر، ص ٢٩ .

منطوقات مبعثرة ومتباينة، وذلك النظام الذي يحكم توزعها)[١٠٣] و بعبارةأخرى، ضرورة الكشف عن أنظمة التبعثر التي تتحكم في المنطوقات أو الخطابات، أو أرشيف حقبة تاريخية ما ، هذه الغاية وإن كانت تتحقق بخطوتين عمليتين، إلا أنها تستند على جملة من المبادئ المنهجية، التي يقوم عليها التحليل الأركيولوجي، وهي:

(أ) حدود وأشكال التقرير "Decibilité"ويتعلق الأمر بمعرفة ما يمكن الكلام فيه، ومن أي شيء يتشكل ميدان خطاب معين ؟ ما هو نمط الخطاب الذي تم توجيهه نحو ميدان ما من ميادين الخطاب؟...إلخ .

(ب) حدود وأشكال الاحتفاظ "Conservation"؛ وذلك بمعرفة ما هي المنطوقات الموجهة نحو الاختفاء، والتي يجب الاحتفاظ بها، وتثبيتها في ذاكرة الإنسان ، بمختلف الطرق البيداغوجية والتعليمية؟ وما هي المنطوقات الممنوعة والمقصية؟...إلخ.

(جـ) حدود وأشكال الذاكرة"Mémoire"؛ كما تظهر في التشكيلات الخطابية. ويكون ذلك بالتساؤل عن المنطوقات المقبولة، أو التي حازت على القبول والموافقة، والمنطوقات المرفوضة، وعن تلك التي تم إهمالها وتهميشها، والتي تم إبعادها باعتبارها غريبة، وما هو نمط العلاقة القائمة بين نظام المنطوقات الحاضرة والمنطوقات الماضية ؟

(د) حدود وأشكال التنشيط " "Réactivation، إنه من بين مختلف خطابات الحقب التاريخية، والثقافات المغايرة أو الأجنبية، نسأل ماهي المنطوقات التي نحتفظ بها، والتي نقيمها والتي نحاول إعادة تأسيسها وتكوينها ؟ وكيف نطورها ونحولها بالاعتماد على "التعليق "Commentaire أو"التفسير "Exégése أو"التحليل "Analyse، وماهو الدور الذي نمنحه لهذه المنطوقات بأن تقوم به؟

(هـ) حدود وأشكال التملك "Appropriation"؛ وهنا يجب التساؤل عن الأفراد أوالجماعات أو الطبقات التي تنظم إلى خطاب ما ؟ وكيف تتحدد الطبيعة القانونية بين الخطاب ومن يمتلكه ؟ كيف تتحدد العلاقة بين الخطاب والمؤلف ؟ كيف تحدث مختلف الصراعات بين الطبقات والأمم والجماعات اللسانية والعرقية من أجل امتلاك الخطاب ؟[١٠٤]

على هذه الأسس أو المبادئ تتضح تحليلات ميشال فوكو وتميزها عن غيرها، سواء

(١٠٣) نفس المصدر ، ص٣٤ .

(104) Michel Foucault ،Réponse A Une Question. p.p. 859-860

في الفلسفة أو في اللسانيات أو في التاريخ، إنه لا يتساءل عن التسلسل التاريخي ولا عن معاني النصوص، ولكنه يتساءل عن شروط ظهور الخطابات في التاريخ . ممايتنتج عنه :

١ - تحليل الخطاب كنصب أو أثر، ووصف هيئته الخاصة.

٢ - البحث في الخطاب عن شروط وجوده، وليس عن قواعد بنائه، كما يفعل البنيويون.

٣ - إرجاع الخطاب إلى الممارسات الخطابية أو إلى الميدان العملي الخاص به، وليس إلى الفكر أو الروح أو الذات المبدعة[١٠٥]

وهذا يعني أن قواعد ومبادئ تحليل الخطاب عند فوكو، لا تحلل نظام اللغة، ولا القواعد الشكلية للبناء، لأنه لا يهتم لا بصدق الخطابات ولا بمعقوليتها، وإنما ينصب التحليل على الأحداث، وعلى قوانين وجود المنطوقات، وعلى ما يجعلها ممكنة، وما لا يجعل غيرها ممكنة، وعلاقتها بالأحداث الخطابية أو غير الخطابية[١٠٦]

وعليه كان سؤال فوكو المركزي هو كيفية تفرد الخطابات "Individualisation des discours"، ولكي يحقق هذا الهدف، رفض طريقة البحث التاريخي المتعالي " L'Historico-transcendentale" أو البحث في العلة الأولى والمحرك الأول للتاريخ.كما رفض الطريقة التجريبية " Emperique" أوالنفسية " Psychologique" أي البحث في الذات المؤسسة. لماذا ؟ لأنه في نظره، تبدو الطريقة الأولى تحصيل حاصل، أما الثانية، فشكلية وغير مهمة. ولذا وجب اعتماد مقاييس أو معايير أساسية للإجابة على تفرد الخطابات، هذه المعايير هي :

ثالثا - معايير الخطاب

(أ) **معيار التكوين** - Formation: ويعني أن خطابا كخطاب الاقتصاد السياسي لا يتفرد بناءا على وحدة موضوعاته، ولا على أساس بنيته الشكلية، ولا على انسجام مفاهيمه، ولا على اختيارات نظرية أو فلسفية، ولكن على أساس قواعد تكون هذه الموضوعات، فلوجود تشكيلة خطابية متفردة، يجب تحديد قواعد تكوينها.

(ب) **معيار التحول** - Transformation: لا يمكن الحديث عن وحدة خطابية،

---

(١٠٥) . Ibid, p.860

(١٠٦) . Ibid ،p.p 858-859

كـالتـاريخ الطبيـعي، مـا لم نحـدد الشـروط التي توفـرت في لحظة مـا لموضوعاته ونظرياته ومفاهيمه وتشكلها وتحولها في التاريخ .

(جـ) **معيار الترابط- Correlation**: نقول أن الطب العـيادي تشكيلة خطابية مستقلة، إذا استطعنا أن نحدد مختلف علاقاته بالخطابات الأخرى، كالخطاب البيولوجي والكيماوي، أو بغير الخطابات ، كالمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، والظروف الاقتصادية والسياسية، أي تحديد العلاقات الخطابية وغير الخطابية(١٠٧)

رابعا-مبادئ الخطاب : إن مختلف الطرق والمبادئ التي أتينا على ذكرها تحكمها مبادىء التحليل الأركيولوجي ، وهي :

(أ) **الندرة** " Rareté": تدعي النصوص الكلية والوفرة والامتلاء والثراء، وهذا بسبب وفرة وكثافة المدلول بالنسبة للدال .أما تحليل المنطوقات والتشكيلات الخطابية، فتسعى إلى سن قانون الندرة، وهذا القانون يتخذ عدة أوجه، منها أن الكل لا يقال أبدا ، ومنها أن العبارات تدرس في الحد الذي يفصلها عما لم يقال .بمعنى تعيين وتحديد منظومة حضور محصورة. فالتشكيلة الخطابية ليست كلية متنامية ذات ديناميكية أوسكون خاصين بها ، بل هي توزع للتبعثرات والتوزعات والفراغات والفجوات والحدود والتقطعات، وليس ثمة نص خفي، هذا يعني أن لا وجود للوفرة.

إن ندرة المنطوقات تمنع إقامة التأويلات، والبحث عن المعنى الخفي، وعما لم يتم قوله، لذلك يوجه :

(تحليل التشكيلات الخطابية عنايته صوب الندرة ذاتها ، متخذا منها موضوعا صريحا ، محاولا تحديد منظومته الفريدة، ومحللا في نفس الوقت ظهور بعض التأويلات. ذلك أن التأويل هو محاولة لمواجهة الندرة والنقص والانفصال الذي يعتري المنطوق. على عكس التحليل الأركيولوجي الذي لا يتوقف عند حدود ذلك النقص وتلك الندرة . وعلى هذا الأساس لا يصبح الخطاب ثروة لامتناهية، وكنزا لا ينفذ ، بل ثروة متناهية ومحدودة ومرغوبة، لها قوانين ظهورها وأيضا شروط تملكها واستثمارها)(١٠٨)

(ب) **الخارجية** " Extériorité": وتعني النظر إلى المنطوق أو الخطاب من حيث

---

(١٠٧) Ibid p.p. 852-853

(١٠٨) ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص،ص ١١٣ - ١١٤ .

انتظامه الخارجي، ذلك أن منهجية تاريخ الفكر تقوم على دراسة الوثيقة من الخارج والداخل، قصد الكشف عن مضمونها ودلالتها وانتظامها ومعناها، أما التحليل الأركيولوجي فإنه ينظر إلى الخطاب في شكل انتظامه الخارجي، قصد استعادة المنطوقات في حالة تبعثرها الخالص، وقصد الإمساك بانبجاسها وظهورها المباغت، واستكشاف تأثيرها كحدث. يتعلق الأمر إذن باستكشاف الخارج الذي تتوزع فيه الأحداث المنطوقية. وتتطلب هذه المهمة أن ننظر إلى المنطوقات كأحداث خطابية ليست ناتجة عن شيء، بل كميدان للممارسة قائم بذاته، كما لايتطلب هذا التحليل إرجاع الخطاب أو المنطوق إلى الذات، بل يجب أن نصفه :

(كحقل مجهول الهوية Anonyme وغفل من الاسم، يحدد انتظامه المكان الذي يمكن للذوات أن تشغله [كما يستلزم هذا التحليل عدم النظر إلى الخطاب على أنه يخضع لزمانية الوعي أو بإرجاعه إلى الكجيتو] لماذا ؟ لأنه تحليل لا يطرح مسألة من يتكلم ومن يتجلى أو يختفي في ما يقال، بل هو تحليل يجد مكانه في مستوى الأقوال المبنية للمجهول، أي مجموع الأشياء المقولة والعلاقات والإنتظامات والتغييرات التي نستطيع معاينتها والميدان المشترك الذي تشير بعض أشكاله وبعض تقطعاته إلى المكانة الفردية لذات متكلمة، والتي هي أشكال وتقاطعات يمكن أن يطلق عليها اسم مؤلف)(١٠٩)

على أن لانفهم من كلمة مؤلف ما اعتاد التاريخ الفكري على تسميته بهذا الاسم، ذلك أن لفوكو وجهة نظر خاصة في هذا الموضوع سنناقشها في المحور الثالث من هذا الفصل .

(جـ) **التراكم** " Cumul": الخاصية الثالثة للتحليل الأركيولوجي، هو رصد الأشكال النوعية للتراكم . ذلك أن الأرشيف ذاته هو تحليل لأشكال تراكم الخطابات، كما سبق التنبيه إليه، وليس تجميعا محايدا للوثائق. وعليه فإن تحليل صور التراكم: (يتطلب النظر إلى المنطوقات من حيث هي أثر مستمر، يتخلف ويبقى بعد زوال باعثه وسببه، واستمرار ذاك، ليس استمرارا مصدره إمكانية استرجاع الباعث الماضي الذي أحدث الصياغة وإحياؤه من جديد)(١١٠)

(١٠٩) نفس المصدر، ص،ص ١١٥ - ١١٦ .

(١١٠) نفس المصدر، ص،ص ١١٧ - ١١٨ .

ومعنى المحافظة عند فوكو ليس ارتكازها على الذاكرة أو الذات، بل إلى قواعد مادية كالكتاب وبعض المؤسسات كالمكتبات أو خزانة الكتب، وبعض الصيغ القانونية التي تنظم الأرشيف. كما أن التراكم يتطلب النظر إلى المنطوقات في صورها التجميعية، إذ يختلف تجميع المنطوقات الرياضية، عن المنطوقات الدينية أو القانونية، وهذا يعني أن ليس هناك نمطا واحدا لتجميع المنطوقات ينتج عنه مباشرة التكديس والتراكم أو التجاور، بل إن لكل شكل من أشكال المنطوقات طرقه في التجميع والتراكم، وهو ما يكشف عنه التحليل الأركيولوجي. والميزة الأخيرة للتراكم ، هو ضرورة الأخذ بعين الاعتبار مختلف ظواهر التجميع، فكل منطوق يفترض حقلا من العناصر السابقة عليه، كما يتحدد موقعه بالنسبة إليه، لكن له القدرة على تنظيم تلك العناصر وتوزيعها حسب علاقات جديدة .

(د) **القبلي التاريخي** " L'Apériori-Historique": في تعريفنا السابق للأركيولوجيا، قلنا إنها لا تعني بالبحث في الأصول ولا التنقيب والسبر، بل تبحث في الماقبل في مستواه الوجودي، إن هذا البحث هو ما يسميه فوكو بالما قبل التاريخي، على عكس الماقبل المتعالي عند "كانط" ، بمعنى أن القبلي التاريخي، ليس شرطا لصحة الأحكام، بل شرطا لوجود المنطوقات.

يقول فوكو : (فلا يعنيني في شيء أن أكتشف ما يجعل من قول ما قولا صحيحا، أو ما يسمح بإمكانه، بقدر ما يعنيني إبراز شروط انبثاق المنطوقات، وقانون تواجدها مع منطوقات أخرى، والشكل النوعي لنمط وجودها، والمبادئ التي تستمر وفقها في البقاء وتتغير وتندثر)(١١١)

إن القبلي التاريخي هو البحث في الأسباب التاريخية لظهور الخطابات، ولا علاقة له بالمسائل المنطقية أو المعرفية، بل غايته أن يكشف على أن الخطاب له تاريخ نوعي خاص به . فالقبلي التاريخي يختلف كلية عن القبلي الصوري. إن هذه الخصائص الأساسية للتحليل الأركيولوجي هي التي تميزه عن مختلف المناهج الفلسفية والألسنية والتاريخية، والتي ناقشها فوكو في معرض تمييزه للمنهج الأركيولوجي، وهو ما يتطلب توضيحه وإجراء مقارنة بينها وبينه .

---

(١١١) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص.ص ١٢٢ - ١٢٣ .

خامسا-بين المنهج الأركيولوجي والمناهج التاريخية والألسنية والفلسفية:

(أ) بين المنهج الأركيولوجي ومنهج تاريخ الأفكار :

يرى فوكو أن: (تاريخ الأفكار، فرع معرفي يتناول البدايات والنهايات، ويهتم بوصف ألوان الإتصال المبهمة، وألوان العودة، وبإعادة إنشاء التطورات الخطية المتعاقبة للتاريخ)(١١٢) أما التحليل الأركيولوجي فيتناول الانقطاعات والانفصالات، ولا يهتم بالبدايات ولا بالنهايات وإنما بأشكال الظهور والاندثار: (فالأركيولوجيا تخل مطلق عن تاريخ الأفكار، ورفض منهجي لمسلماته وطرقه، ومحاولة لإقامة تاريخ آخر لما قاله البشر)(١١٣)

إن هذا التاريخ الآخر والمغاير،يسميه فوكو بتاريخ الحاضر وهو الذي سيكون موضوع مناقشتنا في الفصل السادس من هذا البحث، وفيه نبين بالتفصيل مفهوم فوكو للتاريخ، وعلاقته بمدرسة الحوليات الفرنسية والتاريخ الجديد، وعلاقة ذلك كله بتحليل الخطاب وتميزه، عن باقي المناهج الفلسفية والألسنية.

وإجمالا فإن الأركيولوجيا تعتمد على مفاهيم أربعة هي : مفهوم الحادث، ومفهوم السلسلة ومفهوم الاطراد ومفهوم شرط الإمكان، هذه المفاهيم تتعارض ومفاهيم تاريخ الأفكار، وكما يقول : (يتعارض الحادث مع الخلق والإبداع، وتتعارض السلسلة مع الوحدة، والاطراد يتعارض مع الطرافة (الأصالة) وشرط الإمكان يتعارض مع الدلالة.)(١١٤)

إن هذا يعني أا المنهج الأركيولوجي يتعارض كلية ومنهج تاريخ الفكر، سواء في الموضوع أو في طرق التحليل، أو في المفاهيم والأهداف، يقول فوكو: (وصف الخطاب يتعارض ومنهجية تاريخ الفكر...فتحليل الفكر هو دوما وباستمرار تحليل يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي، يبحث عما وراء الخطاب. أما تحليل الخطاب فيتجه وجهة أخرى مغايرة،همه الأساسي هو التعامل مع المنطوق كشيء قائم بذاته، لا يحيل إلى مستوى آخر...وتميزه كحدث لا أصول له، وتحديد شروط وجوده)(١١٥)

(١١٢) نفس المصدر،ص ١٣١ .

(١١٣) نفس المصدر، ص. ١٣٢ .

(١١٤) ميشال فوكو ، **جنيالوجيا المعرفة** ، ترجمة، أحمد السطاتي،عبد السلام بنعبد العال،دارتوبقال للنشر. الدارالبيضاء،المغرب، ط ٠١ ، ١٩٨٨ ، ص ٢٣ .

(١١٥) ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص ٢٨ .

إن هذا التعارض هو ما يميز منهجية فوكو في دراسة الخطاب، سواء في التاريخ أو الفلسفة أو الألسنية، وهو ما أدى ببعض الدارسين إلى طرح فرضية الخط الثالث في الدراسات اللغوية، وهو الخط الأركيولوجي مقارنة بالخط التحليلي أو الشكلي، والخط التأويلي أو الألسني.هذه الفرضية التي نحاول اختبارها ومناقشتها في مختلف فصول هذا البحث(١١٦)

(ب) بين الأركيولوجيا وتحليل اللغة : سبق وأن عرفنا في الفصل الأول، تعارض مفهوم اللغة عند فوكو، وتقنيتين أو منهجيتين أساسيتين هما: التشكيل أوالتحليل المنطقي للغة، والتأويل، كما ناقشنا مفهوم المنطوق مقارنة بالقضية المنطقية، ورأينا أنه سواء تعلق الأمر باللغة أو بالمنطوق فإن مفهوم فوكو مختلف،وإن كان ناتجا عن هذه المناقشة ومتأثرا إلى حد كبير بالإشكاليات التي تتحكم في هذا الميدان الفلسفي، فهل المنهج الأركيولوجي يختلف أو يتفق و تحليل اللغة منطقيا ؟

يقول فوكو :(إذا كان السؤال الذي يطرحه تحليل اللغة بصدد الحادثة الخطابية، يتعلق بالقواعد التي وفقها ينشأ هذا المنطوق المحدد. هذه القواعد قد تسمح بنشأة منطوقات أخرى مماثلة، فإن وصف أحداث الخطاب يطرح سؤالا مغايرا، يتخذ الصيغة التالية، ما الذي يجعل منطوقا ما يظهر، دون أن يظهرمنطوقا آخر بدلا عنه)(١١٧)

إن هذا يعني أن الإشكالية التي يطرحها التحليل اللغوي تختلف عن إشكالية التحليل الأركيولوجي، فالأولى إشكالية منطقية صورية، أما الثانية فإشكالية تاريخية واقعية. مرجعية الأولى هي التطابق مع الواقع أو التناسق المنطقي، أما الثانية فتحددها الممارسة الخطابية وغير الخطابية. وعلى الرغم من اعتماد فوكو على المنطوق كوحدة لتحليل الخطاب،وهو ما يتماثل في خصائصه والفعل اللساني أوالخطابي عند "أوستين" أو" سيرل"، إلا أن منهج تحليله لهذه الوحدة الأساسية؛ يختلف كلية عن تحليل اللغة .

يقول فوكو :(إن تحليل المنطوقات لايزعم أنه وصف شامل، جامع ومانع للغة أو لما قيل، بل يتخذ موقعه ومكانه داخل سمك وكثافة الإنجازات اللفظية...فهو لا يسعى خاصة إلى أن يقوم مقام التحليل المنطقي للقضايا)(١١٨) فلا يهتم التحليل الأركيولوجي باللغة في ذاتها، ولا بأشكال بنائها، و لا بمنطقها الداخلي، بل غايته

(١١٦). François Dosse ، Histoire du Structuralisme, p.302

(١١٧) نفس المصدر، ص ٢٧ .

(١١٨) نفس المصدر، ص ١٠٣ .

وصف أحداث الخطاب في ماديتها ووضعيتها والتساؤل عن شروطها التاريخية وعلاقتها بالأحداث الخطابية المماثلة لها أو المغايرة لها من الأحداث غيرالخطابية. لذلك نقول أن التحليل الأركيولوجي تحليل تاريخي بالدرجة الأولى على عكس التحليل اللغوي الذي هو تحليل منطقي أساسا.

وعليه، يتميز التحليل الأركيولوجي للخطاب، عن التحليل اللغوي والمنطقي رغم اعتماده على وحدات لغوية كالمنطوق والخطاب، ورغم استناده على الإشكالية اللغوية التي تميز الفلسفة المعاصرة. ويعتبر التحليل الأركيولوجي بهذا المعنى محاولة لتأسيس طريقة جديدة في التعامل مع اللغة والخطاب، تعاملا جديدا ومختلفا عن التعامل المنطقي، إلا أن هذا التحليل لا يتضح دون مناقشة علاقته بمناهج التأويل والتحليل الألسني.

(جـ) **بين الأركيولوجيا والتأويل** : في الفصل الأول من هذا البحث تعرضنا إلى التأويل في نقطتين : نقطة العلاقة بينه وبين اللغة، ونقطة مفهوم فوكو للتأويل بناءا على دراسة أعمال "ماركس" و"فرويد" و"نيتشه"، فما هو الجديد في علاقته بالأركيولوجيا ؟

يقول: (إن التأويل أسلوب من أساليب الكلام بمناسبة النقص ورغما عنه. أما تحليل التشكيلات الخطابية فيعني البحث عن قانون ذلك النقص،قياس وتحديد صورته النوعية)[١١٩] لا تهتم إذن الأركيولوجيا بالمعنى ولا تبحث في باطن الخطاب ولا خلف اللغة، إنها تتوقف على حرفية الخطاب، عكس التأويل الذي يبحث في باطن الخطاب، مسائلا المعنى والمضمون، والفكرة المستترة وراء اللفظ.

يسعى التحليل الأركيولوجي إلى سن قانون ندرة المنطوقات، وتراكمها وخارجيتها، أما التأويل فيجعل من الخطاب ثروة لا متناهية وكنزا لا يفنى وفيضا من المعاني والدلالات وإحالة إلى ذات مؤسسة ومبدعة تحاول الكشف عن أسرار الخطاب، وإظهار ما هو خفي، وما وراء الألفاظ، في حين أن التحليل الأركيولوجي يصف الأشياء التي قيلت من حيث هي كذلك وكيفية ظهورها أو تجليها، وهذا يعني أنه تحليل تاريخي، يهتم باللغة الفعلية الجلية والواضحة للعيان.

ولعل "جيل دلوز" قد توقف على خصوصية المنهج الأركيولوجي مقارنة بالمنهج

---

(١١٩) نفس المصدر ، ص ١١٥ .

الشكلي والتأويلي، وهذا بقوله : (تتعارض الأركيولوجيا وتقنيتين أساسيتين، تستخدمان حتى الآن من طرف "الوثائقيين": التشكيل والتأويل. وغالبا ما ينتقل الوثائقيون من هذه التقنية إلى تلك أو العكس، أو يعتمدونهما معا في ذات الوقت... أما فوكو فيحمل لواء مشروع مخالف أتم الإختلاف: الإكتفاء بمجرد كتابة ما قيل، والوقوف عندها كوضعية للقول أو للمنطوق)(١٢٠)

وعلى هذا الأساس نستطيع القول أن فوكو مع أركيولوجيا المعرفة يقطع مع منهج التحليل المنطقي ومنهج التأويل، رغم محاولته تفكير التأويل بشكل مغاير، هذا التفكير الذي سيتأكد بما يسمى بـ"فشل الأركيولوجيا المنهجي" كما يقول "دريفوس" والذي يفرض على فوكو العودة من جديد إلى "نيتشه" وإلى شكل من أشكال التأويل سنوضحه لا حقا، بعد أن نتعرض لعلاقة التحليل الأركيولوجي بالتحليل الألسني.

(د) **بين الأركيولوجيا والتحليل الألسني** : يتعارض أخيرا التحليل الأركيولوجي مع التحليل الألسني، وخاصة في صورته البنيوية. يقول فوكو: (على خلاف ما يسمى التحليل البنيوي، فإني لا أهتم بالإمكانيات الشكلية للأنساق، كاللغة، ولكني أهتم بوجود الخطابات كأحداث لها وظائف وعلاقات وآثار)(١٢١)

فالتحليل الأركيولوجي يتعارض وكل تحليل قاموسي أو دلالي، بنائي أو غير بنائي، للخطابات أو الجمل، أو النصوص، إنه يهتم بالخطابات كممارسات لها قواعد ظهورها وانبثاقها، واختفائها واضمحلالها. ولكن هنالك تحليل ألسني يتقارب والتحليل الأركيولوجي، ويتعلق الأمر بالتحليل الألسني التوزيعي، كما تجسده أعمال المدرسة التوزيعية الأمريكية، وخاصة أعمال "بلومفيلد "Bloomfield و"هاريس "Harris التي ترفض التحليلات القائمةعلى العقلية والقصدية والتقليد، والتأثير والتأثر، أي كل الأشكال التاريخية للوحدة والتواصل(١٢٢)

على أن أصالة فوكو كما يقول "دلوز" واستنادا على "ايولد "Ewald تكمن : (في الكيفية التي حدد بها من جانبه المتون والمجاميع: إنه لا يحددها تبعا لتواترات أو ثوابت لسانية، أو عن طريق الصفات الشخصية لأولئك الذين يتكلمون أو يكتبون

---

(١٢٠) جيل دلوز ، المعرفة والسلطة، مرجع سبق ذكره ص،ص ٢١ - ٢٢ .

(١٢١) Rymond Bellourd ،Le Livre des Autres ،Op-cit ،p. 117 .

(١٢٢) Francois dosse ،Histoire du structuralisme ، op-cit ،p 304

[فهذه المجاميع والمتون] خطابات بلا مرجع، وأن الوثائقي غالبا ما يتحاشى الاستشهاد بالأسماء اللامعة)[١٢٣]

إن الأركيولوجي لا يختار الجمل أو القضايا أو المنطوقات بناء على بنيتها اللغوية، ولا على أساس الذات المؤلفة لها، بل على الوظيفة التي تضطلع بها، داخل مجموع ما: كنظام الحجر في مستشفيات الأمراض العقلية أو في السجون أو على كرسي الاعتراف. فهل يمكننا القول مع "محمد علي الكردي" أن: (مفهوم الأركيولوجيا كما بلوره ميشال فوكو بصدد تحليله لضروب ومستويات محددة من الممارسات الخطابية، ما كان ليبرز إلى الوجود إلا من خلال المنهجية العامة للغة التي أسستها البنيوية؟)[١٢٤]

لا يمكننا إنكار الجوانب البنيوية في منهجية فوكو الأركيولوجية وخاصة موقفه من الذات ومن التاريخ بمعناه الاتصالي ' ولكن جديد فوكو يتمثل في تفكيره مسائل اللغة والتاريخ، بصيغ الخطاب والممارسة الخطابية وأشكال ظهور الخطابات...فالأركيولوجيا بنظرنا محاولة لتأسيس خط ثالث في التفكير الفلسفي، بين الخط الشكلي والخط التأويلي، محاولة أرست قواعد ومبادئ للتحليل ' وتصور لموضوعات البحث ذات طبيعة تاريخية بالدرجة الأولى .

إن هذا الخط يلخصه النص التالي :(لا ينبغي وصف مجموع المنطوقات، ككلية مغلقة ذات دلالات وافرة، بل كصورة تتخللها الفجوات ويطبعها التناثر، ينبغي وصفه لا بإحالته إلى ...فكرة تجول بذهن إحدى الذوات، بل وصف تبعثره الخارجي...من أجل اكتشاف أشكال التراكم النوعية...ولا يعني الخروج بتأويل...بل إنشاء ما أدعوه وضعية " Positivité")[١٢٥]

هذه الوضعية التي تعني الوقوف الحرفي عند الخطابات، أو الإنجازات اللفظية والنظر في أشكال ظهورها وتحولها واختفائها، دون إرجاعها إلى ذات مؤسسة، أو معنى باطني أو نسق منطقي أو بنية لغوية، بل تحليلها على مستوى وجودها، وفي إطار علاقتها بمختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية. إن هذه الملامح الكبرى

---

(١٢٣) جيل دلوز ' المعرفة والسلطة ' مرجع سبق ذكره ' ص ٢٣ .

(١٢٤) محمد علي الكردي ' نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو ' دار المعرفة الجامعية ' (ب - ت) ص ١٤٧ .

(١٢٥) ميشال فوكو ' **حفريات المعرفة** ' ص ١١٩ .

تشكل خصائص التحليل الأركيولوجي للخطاب، ولكن -وكما هو معروف- فقد عدل فوكو من طريقته في التحليل بدءا من **نظام الخطاب**، فماهي الدواعي وراء هذا التعديل وما هو جديده المنهجي ؟

سادسا- من المنهج الأركيولوجي إلى المنهج الجنيالوجي : يمكن تحديد الدواعي التي تقف وراء التعديل المنهجي، بعاملين أساسيين: عامل علمي، يتعلق بجملة المشاكل العلمية التي لم تستطع الأركيولوجيا مواجهتها، وخاصة مشكلة المعنى. وعامل تاريخي يتعلق بأحداث ١٩٦٨، وما حملته من قضايا ومسائل، خاصة قضية السلطة بجميع أشكالها ،والتي عجزت الأركيولوجيا على مناقشتها، وذلك بسبب انغلاقها في الوصف المحض للخطابات، كأحداث تاريخية، إذ لم يكن لها هدف آخر غير هدف الوصف والتحليل بعيدا عن كل تفسير أو تأويل .

إن هذا العجز أو القصور هو ما تحاول "الجنيالوجيا "Généalogie تجاوزه، وهو ما عبر عنه فوكو في درسه الافتتاحي بـ"الكوليج دي فرانس "Collége de France في ٢٠ ديسمبر ١٩٧٢، قائلا :

(على هذا النحو يجب أن ينشا بين الوصف النقدي والوصف الجنيالوجي نوع من التناوب والتآزر والتكامل. إن الجانب النقدي من التحليل يهتم بمنظومات تغليف الخطاب وتلفيفه، كما يحاول أن يضع يده على مبادئ الترتيب والتطفيف المتصلة به ولنقل من باب التلاعب بالكلام أنه يطبق وقاحة مطبقة في حين أن الجانب الجنيالوجي من التحليل يهتم بسلاسل الصياغة الفعلية للخطاب : إنه يحاول وضع اليد على سلطة الإثبات وأنا لا أعني بسلطة الإثبات تلك السلطة التي تتعارض مع سلطة الأفكار، بل أقصد سلطة إنشاء ميادين من الموضوعات يمكن بصددها أن نثبت أوننفي قضايا صادقة وأخرى كاذبة)(١٢٦)

إن تحليل هذا النص يستلزم الوقوف على دلالة الجنيالوجيا عند فوكو، وعلاقتها

---

(١٢٦) ميشال فوكو ، **نظام الخطاب، في،جنيالوجيا المعرفة** ، ترجمة أحمد السطاتي، وعبد السلام بنعبد العال، دارتوبقال. الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨، ص، ٨٩ . وكذلك ترجمة د.محمد سبيلا، الصادر عن دار التنوير، ١٩٨٤، ص ٤٤ . وانظر كذلك النص الأصلي :

L'ordre Du Discours ed Gallimard 1971 p 71- ، اما في ما يخص ترجمة الجنيالوجيا فقد أبقينا على المصطلح الأجنبي كما هو مستعمل عند مطاع صفدي وأحمد السطاتي بدلا من كلمتي "نسابية أونشوئية" .

بـ"نيتشه" ثم خصوصيتها المنهجية في تحليل الخطاب، مقارنة بالأركيولوجيا، وأخيرا الموضوعات التي ستتجسد فيها هذه المنهجية.

في اليونانية، يعني الفعل ""Généalogein سرد الأصول. ويفترض هذا السرد معرفة بمعنى وقيمة الجماعات العائلية، التي تشكل المجتمع . وفي القرن التاسع عشر، أعطى "شارل داروين" لهذه الكلمة معنى محددا، وهذا في إطار نظريته حول " أصل الأنواع" ، كما أنها -وفي نفس الفترة-اكتسبت معنا فلسفيا، وذلك مع "فردريك نيتشه" في كتابه "جنيالوجيا الأخلاق" . وبهذا أصبحت الجنيالوجيا تحمل معنيين مختلفين، لكنهما متكاملين، فهي تعني من جهة البحث في الأصول، ومن جهة أخرى البحث في التطور والرقي(١٢٧)

إن هذا المعنى ينعكس في ثلاث مجالات أساسية، الأولى في مجال التاريخ والمجتمع، ويعني بالبحث في أنساب العائلات، والثاني في مجال البيولوجيا ويعنى بالبحث في مجال الأنواع والكائنات الحية، والثالث في مجال الفلسفة، ويعنى بالبحث في أصل الأحكام الأخلاقية . وهو ما يعنينا في موضوعنا، وذلك لعلاقته بـ"نيتشه" وعلاقة "نيتشه" بفوكو.

لقد كان السؤال المركزي، الذي انطلق منه "نيتشه" هو :تحت أية ظروف أو شروط يخلق الإنسان أحكامه القيمية المتعلقة بالخير والشر، وما هي قيمة هذه الأحكام ؟أو كما يقول : (في أية شروط عمد الإنسان إلى اختراع مقياسي الخير والشر، هذين بغية استعمالهما في حياته. وما هي قيمة هذين المقياسين بحد ذاتهما؟ هل أديا حتى الآن إلى عرقلة تطور البشرية أم إلى تعزيز هذا التطور؟ هل هما عارض من عوارض البؤس والفقر الروحي والإنحطاط ؟ أم أنهما ينمان، بالعكس، عن الغبطة والقوة والعزم على العيش والشجاعة والثقة بالمستقبل وبالحياة ؟)(١٢٨)

إن الإجابة على هذه الإشكالية، كانت تتطلب -في نظر نيتشه- البحث التاريخي بالمعنى الجنيالوجي، أي تفكيك ما كان يسميه بالنص الهيروغليفي، هذا التحليل التاريخي، الذي كان موضوع مناقشة فوكو، في ثلاثة مناسبات أساسية،كتب لها نصوصا أساسية لفهم فكره ومنهجه.

---

(١٢٧) Encyclopédie Philosophique Universelle, Les Notions Philosophiques, ed. P.U.F ، 1990، p.p 4401-4405 .

(١٢٨) فردريك نيتشه ، **أصل الأخلاق وفصلها، تعريب** ، حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط ١٠ ، ١٩٨١ ، ص ١١ .

وهذه النصوص هي : **نيتشه، فرويد ، ماركس** الذي صدر سنة ١٩٦٧، والخاص بالتأويل، والذي تحدثنا عنه في الفصل الأول، والنص الثاني نشره سنة ١٩٧١، بعنوان : **نيتشه، الجنيالوجيا والتاريخ**، وفي نفس السنة، وبمناسبة اعتلائه كرسي "الأنساق الفكرية " بـ"الكوليج دي فرانس" ، ناقش نصوص "نيتشه" ، واقترح التكامل بين الجنيالوجيا والأركيولوجيا.

لسنا في حاجة، إلى تأكيد وتوضيح علاقة فوكو بـ"نيتشه"، مادام لا يخفي ولا ينكر هذه العلاقة، بل يصرح بأن علاقته بـ"نيتشه" تعود إلى سنة ١٩٥٣، وأنه مجرد"نيتشوي"، كما أن العديد من الباحثين قد توقفوا عند هذه العلاقة، وخاصة "رونو و فري "Renaut-Ferry في كتابهما : "فكر ٦٨"[١٢٩]

وما يعنينا من هذه العلاقة في بحثنا، هو الجانب المنهجي والفلسفي، وهو ما سنحاول مناقشته، بالإستناد خاصة إلى "نص:١٩٧١"، مادام قد سبق لنا مناقشة "نص ١٩٦٧". لذلك نتساءل عن جديد الجنيالوجيا مقارنة بالأركيولوجيا ؟

قلنا سابقا، أن الأركيولوجيا تتعارض والجنيالوجيا التي تبحث في الأصول والبدايات والتوابع، فما هو إذا المعنى الذي يعطيه فوكو للجنيالوجيا ؟

يرى فوكو، استنادا إلى "نيتشه" أن الجنيالوجيا، تعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل، فالأصل الأسمى عبارة عن فائض ميتافيزيقي، ولذلك ينتقد "نيتشه" مختلف معاني الأصل، من معنى خلافة الإنسان إلى معنى السقطة، وسيادة الإنسان، بدليل المنشأ الإلهي، مرورا بالأصل، بمعنى موطن الحقيقة.

ذلك أن وراء كل حقيقة :(مهما تكن راهنة ومقيسة، كثرة كاثرة من الأخطاء، فلا يصدقن أحد أن الحقيقة تبقى حقيقة، ونحن نرفع عنها الحجاب، فلدينا من التجارب المعيشة ما يكفي لإقناعنا بهذا الأمر)[١٣٠] وبدل البحث في الأصل، تعمل الجنيالوجيا على تعيين البدايات: (لن تتأتى لنا إذن جنيالوجيا القيم والأخلاق والزهد والمعرفة من طريق البحث في الأصل والإهمال لكل مراحل التاريخ، بل من باب الوقوف الطويل والمتأني عند البدايات، البدايات بكل تفاصيلها واتفاقاتها، والاهتمام الدقيق بقبحها

---

(١٢٩) Didier Eribon ،Michel Foucault,(1926-1984) ed. Flamarion ،p.72.وكذلك
– :Ferry Luc –Renaut Alain, La Pensée ، Essai sur l'Anti-Hummanisme Contemporain ،ed. وكذلك Gallimard, 1985p105.

(١٣٠) ميشال فوكو ، **نيتشه، الجنيالوجيا والتاريخ**، في،جنيالوجيا المعرفة، ص ٥١ .

وسخفها وانتظار بزوغ طلعتها من غير أقنعة وبوجه الآخر)[١٣١]

وإن البحث عن البداية، يعني البحث في البدايات التي لاتدخل تحت الحصر، ولذلك فإن البحث الجنيالوجي هو البحث التاريخي، أو ما يسميه "نيتشه" بالحس التاريخي، أو الفعلي، وهو تاريخ مناهض لتاريخ المؤرخين والفلاسفة ولكل أشكال التاريخ الكلي .

ويتميز التاريخ الفعلي، بكونه لايستند إلى أي ثابت من الثوابت، لذلك فهو يقحم الانفصال وينفي الاتصال، يفتت ويفكك الهوية، بدل التأكيد على الاتصال والتراث، فالجنيالوجيا بتعبير "نيتشه" هي التاريخ من حيث هو سخرية مدبرة. فالهوية مثلا محاكاة ساخرة، ذلك أن التعدد يقطنها ونفوس عدة تتنازع داخلها، والمنظومات تتعارض فيها، ويقهر بعضها بعضا.

وفي نظر فوكو، فإن الباحث الجنيالوجي، هو مشخص وفاحص للعلاقات بين مجالات ثلاثة، هي : السلطة والمعرفة والجسد، في المجتمع الحديث، وهذا التشخيص يعتمد على جملة من المبادئ منها:

١- الجنيالوجيا تتنافى والطريقة التاريخية التقليدية.

٢- الجنيالوجيا لاتبحث في الجوهر الثابت، ولا في القوانين الأساسية، ولا عن الغائيات الماورائية، بل تبين الانقطاعات والفواصل .

٣- لا تهتم بالتطور أو التقدم، بل تبين التكرار، كما لا تهتم بالعمق بل بالسطح، بالتفاصيل الصغيرة، وبالانتقالات عديمة الشأن.

٤- (...فإذا كان على المفسر أن يتجه بنفسه إلى العمق كالنقاب، أو الحفار، فإن حركة التفسير الجنيالوجي هي بالعكس، حركة جزء ناتئ، مرتفع أكثر فأكثر، يجعل العمق ينتشر فوقه بوضوح متزايد)[١٣٢]

فعكس التأويل الذي يبحث في الأعماق، تقوم الجنيالوجيا تماما كالأركيولوجيا، على السطح، أي تحليل الخطاب كما هو، ولا يعني السطح، السطحية أو عدم الجدية وإنما تغيير المنظور فقط، فعند فوكو، توجد رؤية عميقة في كل شيء، شريطة أن نراعي المسافة الملائمة ونختار جيدا زاوية النظر.أو كما يقول "نيتشه" :(إن المعاني العميقة

---

(١٣١) نفس المصدر، ص ٥٢ .

(١٣٢) نفس المصدر، ص ٣٦ .

والخفية، وقمم الحقيقة المتعذرة البلوغ، وبواطن الشعور الغامضة هي بدع صرف. ويمكن أن يحمل شعار الجنيالوجيا النقش التالي: لنكافح ضد العمق والغائية والداخلية، كما يمكن أن تحمل رايتها العبارة التالية: لنحترس من الاعتقاد بالهويات التاريخية، فهي ليست سوى أقنعة لصالح الوحدة، فالحقيقة الأعمق التي من شأن الباحث الجنيالوجي الكشف عنها هي سر كون الأشياء بلا جوهر أو كون جوهرها قد تكون تدريجيا انطلاقا من أشكال كانت غريبة عنها)(١٣٣)

والفارق بين "نيتشه" وفوكو يكمن في هذا التأويل أو التفسير، ففي الوقت الذي يرجعه "نيتشه" إلى الإنسان و إلى الحوافز السيكولوجية ، فإن فوكو يدمجه في إستراتيجيات المعرفة والسلطة، ولا ينسبه إلى بطل معين أو إنسان معين ، يقول: (إن أحدا غير مسؤول عن انبثاق معين، لا أحد يستطيع أن يفتخر به، وهو يحدث دوما في الفرجة)(١٣٤)

بمعنى أن ميزان القوى هو الذي يفعل فعله داخل موقف تاريخي معين. ومن مهمات الجنيالوجيا أن تظهر أن الجسد غارق مباشرة في الميدان السياسي، وأن علاقات السلطة تخترقه، وأن المعرفة متورطة في الصراع الدنيء لعلاقات الهيمنة، وهذه هي الموضوعات الكبرى -السلطة والجسد- التي سيحللها فوكو بالاستناد إلى الجنيالوجيا، وبالتناوب مع الأركيولوجيا.

وكما يقول "دريفوس و رابينوف" فإنه :(عندما نحلل قضايا معينة، فإننا سنركز على المركز الذي تحتله داخل الصيغة الخطابية، وهذه هي وظيفة الأركيولوجيا...وما إن ينجز عمل الأركيولوجيا حتى يصير بوسع الباحث الجنيالوجي أن يتساءل عن ماهية الدور التاريخي والسياسي الذي تلعبه العلوم التي يدرسها)(١٣٥)

إن هذا الجمع بين الأركيولوجيا، هو ما يسميانه -دريفوس ورابينوف- بالتحليلية التفسيرية، أي الموقف الذي يتجاوز المنهجية التأويلية، وهو ما أشرنا إليه في الفصل الأول بميل فوكو نحو التأويل، هذا الميل الذي تأكد من جهة الاعتماد المنهجي على الجنيالوجيا، ومن جهة الاعتماد على منظور المعنى والجدية، وهو ما تعكسه أعماله الخاصة بالسلطة والجسد، أو الذات.

---

(١٣٣) ميشال فوكو ، **نيتشه، الجنيالوجيا والتاريخ**، ص ١٤٣ .

(١٣٤) نفس المصدر ، ص ٥٣ .

(١٣٥) دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية**، مرجع سبق ذكره، ص. ١٠٨ .

فما تضيفه الجنيالوجيا للأركيولوجيا، هو مسائل المعنى بالاستناد إلى مفهوم القوة، أو كما يقول "مطاع صفدي" :(ولقد كانت الجنيالوجيا النيتشوية إعادة بحث عما يشكل المعنى ويبني القيمة في كل شيء وكل علاقة.فكشف القوة باعتبارها هي الحامل الحقيقي للمعنى)[١٣٦]

وكان مفهوم فوكو للسلطة يعكس هذا المعنى، إذ هي مجموع علاقات قوة في وضع إستراتيجي معين. كما أضافت الجنيالوجيا للأركيولوجيا مفهوما لتاريخ لا يقوم على الوصف المحض للخطابات، ولكن على إدراك وظائفها وأهدافها ومعانيها، فالجينيالوجيا لا :(تريد القبض على الأفكار مجسدة، بل تريد رسم--->تصوير الأفكار وهي تشتغل، وشغلها المتواضع ليس هو ترميز ما يخفى وراءها، أو يعلو فوقها، ولكنه هو---> حيزها بالذات)[١٣٧]

وعليه، فإن علاقة الأركيولوجيا بالجنيالوجيا، وإن بدت تكاملية، فإن الجنيالوجيا ما فتئت تبتعد عن الأركيولوجيا، وتناقش موضوعات السلطة والذات في المجتمع الحديث، وتقيم ما يسميه فوكو لاحقا بتاريخ الحاضر، وهو ما سنناقشه في مكانه . ورغم أن فوكو يعلن أن مشاريعه المستقبلية ستتقاسمها المنهجية الأركيولوجية والجنيالوجية، إلا أن المتفحص، يستنتج أن الأركيولوجيا تنتمي أكثر إلى مرحلة الممارسات الخطابية، مرحلة الجنون والعقل والطب واللغة، أكثر من انتمائها إلى مرحلة الممارسات غير الخطابية الخاصة بالسلطة والجسد، والتي ستعالجها الجنيالوجيا .

وفي هذا السياق، فإن نظام الخطاب، يشكل نقطة تحول كبير في فلسفة فوكو، سواء من حيث المنهج، أو من حيث الموضوعات، أو من حيث تصور الخطاب ذاته، حيث نتوقف على دلالة جديدة لهذا المفهوم، ألا وهي : دلالة سلطة الخطاب ، فماذا يعني بهذه السلطة ؟

المحور الثالث - سلطة الخطاب

لقد قال ميشال فوكو في **أركيولوجيا المعرفة** مايلي :(وعلى هذا النحو لا يبقى الخطاب، كما اعتقد الموقف التفسيري، كنزا مليئا لا ينفذ...بل إنه سيغدو ثروة متناهية، ومحدودة ومرغوبة ومفيدة لها قوانين ظهورها، وأيضا شروط تملكها، واستثمارها. ثروة تطرح بالتالي، ما إن تظهر إلى الوجود...مسألة السلطة، ثروة هي

(١٣٦) مطاع صفدي،نقد العقل الغربي:الحداثة ما بعد الحداثة،مركز الإنماء القومي ص١٤٢ .

(١٣٧) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

بطبيعتها موضوع صراع، صراع سياسي)[١٣٨]

وفي الاشتقاق اللغوي لمصطلح الخطاب، توقفنا في المعنى الثالث على دلالة السلطة في الخطاب، وذلك مصداقا لقوله تعالى: }وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب[١٣٩] ومعنى الآية، أن الله سبحانه وتعالى مكن "النبي داوود عليه السلام" من: (السلطة الكافية التي ضمنها خطابه لاستمرار حكمه في الأرض[١٤٠]

وعليه فالخطاب سلطة، يكشف على هذا المعنى السفسطائيون مثلا، الذين اعتمدوا اللغة والخطابة في مختلف مجادلاتهم وتعاليمهم، وكذلك رجال السياسة والسلطة، إذ لا تخلو سياسة أو سلطة، من خطاب .ومنذ القدم لرتبط الخطاب بالسلطة وارتبطت السلطة بالخطاب، ولكن ما يهمنا هو : كيف فهم فوكو هذا الارتباط؟ هل يشكل الخطاب في ذاته سلطة قائمة كسلطة اللغة؟ أم أن سلطته مقرونة بالمؤسسة أو بالذات أو بقوى سياسية معينة؟ هل نقول كما قال "دريفوس" و"رابينوف" أن فوكو يزعم أن :(ثقافتنا تنزع إلى تحويل نسبة متزايدة باستمرار،من أفعالنا الخطابية العادية،إلى أفعال خطابية جادة، وهو يرى في هذه النزعة التعبير عن إرادة في الحقيقة، تستمر في التوطد والتجذر وفي فرض نفسها أكثر فأكثر)[١٤١]

أم نتساءل كما تساءل "الكبيسي": (هل نقول إن الخطاب سلطة أم أن نقول أن ما وضعه فوكو ليس الخطاب، بقدر ما هو مضمونه المتمثل في الممارسة السلطوية)[١٤٢] بمعنى أن مرحلة الخطاب ما هي إلا تطبيق غير مباشر لمفهوم السلطة.

أم أننا نأخذ برأي "شيريدان « Sheridan » القائل بأن فوكو اكتشف في **نظام الخطاب** سلطة الخطاب، وعليه غير منظوره المنهجي[١٤٣]

كيف نفهم ما قاله فوكو في **إرادة المعرفة** : (ففي الخطاب بالذات، يحدث أن تتمفصل السلطة والمعرفة. ولهذا السبب عينه، ينبغي أن نتصور الخطاب، كمجموعة

---

(١٣٨) ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، ص ١١٥ .

(١٣٩) القرآن الكريم ، سورة "ص" الآية ٢٠ .

(١٤٠) االمختارالفجاري ، **تأصيل الخطاب في الثقافة العربية**، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

(١٤١) دريفوس ورابينوف،ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية، مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

(١٤٢) محمد علي الكبسي ، ميشال فوكو،مرجع سبق ذكره ص ٤٢ .

(١٤٣) Alain Sheridan ،Discours, Sexualité et Pouvoir, Initiation à Michel Foucault, ed. Pierre Mardaga Editeur, Bruxelle ،1980 ، p.142

أجزاء غير متصلة وظيفتها التكتيكية غير متماثلة ولا ثابتة .بصورة أدق يجب أن لا نتخيل عالما لخطاب مقسما بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض... بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في إستراتيجيات مختلفة: الخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه أيضا يلغمها، يفجرها، يجعلها هزيلة، ويسمح بإلغائها)(١٤٤)

ومن دون شك، فإن قراءة هؤلاء لنصوص فوكو، فيها جوانب من الصحة، ولكنها قراءة تبقى قاصرة في نظرنا عن إدراك الطابع الكلي لمفهوم الخطاب، والاقتصار على إرجاعه إلى مرحلة معينة من مراحل تكون مفهوم الخطاب في فلسفته.

إننا نرى أنه لا يمكن أن نفصل مثلا، وبشكل نهائي في نص كنص تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي بين خطاب الجنون وسلطة هذا الخطاب والسلط المناهضة له، سواء كانت مناهضة علمية أو سياسية، وهو ما يمكن قوله حول **مولد العيادة** أو **الكلمات والأشياء** ،حيث تعتبر المعرفة الكلاسيكية نتاج سلطة الخطاب' أو **إرادة المعرفة** حيث يتم تقصي مختلف منطوقات الجنس وسلطتها.

إن الفصل الذي يمكن الحديث عنه هو فصل منهجي، ولكن في إطار نظرة تكاملية، تناقش الخطاب في مختلف مستوياته، اللغوية والمعرفية والسياسية والأخلاقية، مستويات تعكس مفهومه وامتداداته وعلاقاته بحقول وممارسات معرفية وسلطوية وأخلاقية، وهو ما يشير إليه فوكو في **إرادة المعرفة**، وهو المعنى الذي نتحدث عنه ونحاول مناقشته وتحليله، وإظهاره كما فعلنا في المحاور السابقة، أو كما سنحاول في هذا المحور الذي سنركز فيه على تحليل سلطة الخطاب، من جهة علاقة الخطاب بالسياسة ، ومن جهة سلطة الخطاب وعلاقته بالسلطة .

أولا- بين الخطاب والممارسة السياسية : لم يهتم الباحثون الذين تناولوا بالدراسة مفهوم الخطاب، بالطابع المزدوج للسؤال الذي طرحته مجلة " Esprit" على فوكو في ماي ١٩٦٨ ، بل اقتصروا على النظر في المسائل المعرفية والتي طورها في دراستين مستقلتين، هما : **الإجابة إلى حلقة الإبستيمية وأركيولوجيا المعرفة**، تاركين ذلك التساؤل حول علاقة خطاب فوكو بالسياسة، وهو ما يشكل المستوى الثاني من تساؤل المجلة المذكورة.

(١٤٤) ميشال فوكو ، إرادة المعرفة، ترجمة، جورج أبي صالح، مراجعة وتقديم، مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي.بيروت ، ١٩٩٠، ص،ص ١٠٨-١٠٩ . انظر كذلك النص الاصلي :

-La volonté de Savoir ،ed ،Gallimard ،1976 ، p ،133.

لقد كان سؤال المجلة يتمحور ليس فقط على مفهوم القطيعة والنظام، في دراسة تاريخ الأفكار، بل على نتائج هذا الاستعمال من الناحية السياسية، وهو ما حاول تقديمه في القسم الثاني من جوابه، متخذا من خطاب الطب مثالا على ذلك.

يرى فوكو أن التساؤل حول علاقة الخطاب بالممارسة السياسية، يتطلب جانبين من التحليل، من جهة، ضرورة تحليل مختلف العمليات النقدية التي يقوم بها خطاب ما في ميدان خطابي معين.ومن جهة أخرى، حقل التحليلات ومجال الموضوعات التي يحاول الخطاب إظهارها وتفصلها مع سياسة ما، أو ممارسة سياسية تقدمية.

بالنسبة للجانب الأول النقدي، يتطلب إقامة جملة من العمليات التي يلخصها في :

(أ) إقامة حدود على عكس التاريخ التقليدي الذي يبقى حقلا لا متناهيا وغير محدود، مع إبعاد المسلمة التأويلية، ومسلمة الذات المؤسسة، ومسلمة الأصل.

(ب) محو التعارضات الشكلية من مثل القديم والجديد، الأصيل والمعاصر، التقليد والإبداع، الثبات والتغير، وإقامة حقل التحليلات التفارقية .

(جـ) إلغاء الفروع العلمية المعترف بها، مثل تاريخ الفكر، وتاريخ العلوم، وغيرها، وتحليل الخطابات في شروط تكونها، وتحولها ومختلف علاقاتها.

هذه بعض العمليات النقدية، والتي سبق وأن أشرنا إليها في المحورين السابقين، والتي تبين وتظهر الخطاب، وتؤسس في نفس الوقت استقلاليته وسلطته، وتحقق هدفا أساسيا، هو إقامة تاريخ عام "Histoire Générale" للخطابات، بدلا من تاريخ كلي "Histoire Globale"، تاريخ يتأسس على وصف خصوصية الممارسات الخطابية. وفي إطار هذا التاريخ العام، يمكن إقامة ما يسميه فوكو بالتحليل التاريخي للممارسات الخطابية[١٤٥]

أما الجانب الثاني، فيتطلب في نظره، دراسة علاقة هذه الخطابات في فرادتها وخصوصيتها بالممارسات السياسية، وذلك بدراسة شروط ووظائف الخطابات العلمية، مع العلم أن فوكو لا يدرس خطابات العلوم الدقيقة كالرياضيات أو الفيزياء، وإنما خطابات العلوم الأقل علمية، كالطب والاقتصاد، أو بصفة عامة خطاب العلوم الإنسانية .

---

(١٤٥) Michel Foucault , Réponse à une Question, p.p 861-862-864

إن دراسة الخطاب العيادي الذي ميز الطب في بداية القرن التاسع عشر،يبين أن هنالك علاقة بين هذا الشكل من الخطاب العلمي وظهور بعض الأحداث السياسية، والتي يجملها في حدث الثورة الفرنسية، والذي يتطلب تحليلا لمضمونه، يقوم على دراسة المارسة السياسية والخطاب الطبي، لا على أساس التغير الذي حدث في وعي الناس، وطريقة إدراكهم للأشياء، بل على أساس أن المارسة السياسية: (حولت شروط ظهور الخطابات أو حولت طريقة وجود الخطاب الطبي)(١٤٦)

وهذا بناءا على جملة من الإجراءات، منها: تعيين الذين لهم الحق في امتلاك وإدارة الخطاب الطبي "الأطباء والتقنيون"، تقسيم جديد لموضوعات الطب بتطبيق سلم جديد للملاحظات، وظائف اجتماعية جديدة للمستشفى، أنماط جديدة للتسجيل والحفظ والتوزيع، للخطاب الطبي . وأخيرا وظائف جديدة للخطاب الطبي في نظام المراقبة الإدارية والسياسية للشعب.

وعلى أساس هذا التحليل، يمكن أن نحدد مختلف العلاقات بين الخطاب والممارسة السياسية، وتعيين جزئيات هذه العلاقة، والدور الذي تلعبه الممارسة السياسية في خطاب علمي معين، وكيف تنعكس هذه العلاقات على مجالات أخرى من الحياة الاجتماعية، وبتعبير دقيق، تعيين وضعية الخطابات " "Positivité des Discours.

إن هذه المقاربة المعرفية الجديدة التي يقترحها فوكو لدراسة علاقة الخطاب، بالممارسة السياسية، نستطيع القول عنها، أنها مقاربة تبعده عن المفهوم المثالي للممارسة الخطابية، وتؤسس إمكانية إقامة ألسنية اجتماعية «Sociolinguistiques» تدرس علاقة المنطوقات الطبية مثلا، بمجال اجتماعي هو المستشفى(١٤٧)

ولكن هذا المنحى الاجتماعي للخطاب، سيعرف تغيرا في نظام الخطاب، بحيث يتم التركيز على سلطة الخطاب، وعلى مختلف أشكال الرقابة والمنع التي تقيمها السلطة أو المجتمع على الخطاب، خاصة وأن الخطاب لا يصبح أداة في يد السلطة أو نصا يعكس أهداف السلطة، بل يشكل في ذاته سلطة، كما هو واضح مثلا، في نص الأركيولوجيا، الذي ثبتناه في مقدمة هذا المحور.إن سلطة الخطاب قادرة على مناهضة وإقصاء أو إقامة السلطة، وهو ما يعبر عنه بوضوح نص **إرادة المعرفة** كما سبق وأن

---

(١٤٦) Michel Foucault, **Réponse à une Question**, p. p 861-862-864.

(١٤٧) Daniel Coppalle , Bernard Gardin ,**Discours du Pouvoir et Pouvoir(s) du Discours**, in ,La Pensée , No209,1980, p. 154

أشرنا إليه، ولذا لايمكن فهم مختلف جوانب المسألة دون تحليل عميق للنظام والآليات التي تتحكم في الخطاب، وإلى البديل الذي يقترحه لدراسة السلطة وسلطة الخطاب.

ثانيا-بين السلطة وسلطة الخطاب : يبدأ **نظام الخطاب** برسم ذلك التخوف من الخطاب، ذلك التخوف الذي يعكس في الحقيقة سلطة وقوة الخطاب، وهو تخوف تبديه الذات أو الرغبة أو المؤسسة أو السلطة على السواء، تجاه ما يشكله الخطاب: (في حقيقته المادية، كشيء منطوق أو مكتوب، التخوف تجاه هذا الوجود العابر المتجه إلى الإمحاء بدون شك، لكن خلال مدة لا نتحكم نحن فيها، التخوف من أن نحس بأن تحت هذه الحركة، التي هي مع ذلك حركة يومية ورمادية، سلطا أو أخطارا لا نتصورها جيدا، التخوف من توقع وجود صراعات وانتصارات وجروح وسيطرات وعبوديات عبر الكثير من الكلمات، التي قلص استعمالها منذ زمن طويل، من فضاضتها)[(١٤٨)]

إن الخطاب سلطة مادية، تملك القوة والقدرة، وتتضمن مخاطر ومخاوف وتحمل صراعات وما تسفر عنه من انتصارات وهزائم، من تحرير واستعبادات، سلطة تعبر الذات والمؤسسة على السواء، وتؤسس وجودها المستقل، هذا الوجود الذي يخيف الذوات، والمؤسسات، والمجتمعات، لذا يسعى المجتمع، وخاصة المجتمع الغربى . كما يشير إلى ذلك فوكو إلى فرض أشكال مختلفة لمراقبة الخطاب وسلطته. يقول فوكو : (أفترض أن إنتاج الخطاب في كل مجتمع، هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومنتقى ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته، ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة)[(١٤٩)]

إن مختلف الإجراءات والآليات التي يقيمها المجتمع والذات، لمراقبة الخطاب، تهدف إلى تحقيق هدف واحد وأساسي، هو الحد من سلطة الخطاب، وما يثيره من مخاوف وأخطار، هذه الآليات والإجراءات يصنفها فوكو في مجموعات ثلاث، تتفرع عنها إجراءات فرعية، نجملها فيمايلي :

(أ) الإجراءات الخارجية: تتشكل هذه الإجراءات الخارجية من عمليات المنع والقسمة والرفض وإرادة المعرفة .

١-عملية المنع : تظهر هذه العملية في كوننا لا نملك الحق في قول كل شيء، ولا

---

(١٤٨) ميشال فوكو ، **نظام الخطاب**، ترجمة محمد سبيلا، ص ٠٨ .

(١٤٩) نفس المصدر، ص ٠٩ .

قول أي شيء، في أي ظرف من الظروف، فهنالك موضوعات ممنوعة، كالجنس مثلا، وهنالك طقوس لكل ظرف، والامتيازات التي تملكها الذات المتحدثة.إن أشكال المنع هذه تظهر خاصة في موضوعات الجنس والسياسة.لذلك يستنتج أنه وبالرغم من أن: (الخطاب في ظاهره شيء بسيط، لكن أشكال المنع التي تلحقه، تكشف باكرا وبسرعة عن ارتباطه بالرغبة وبالسلطة)[(١٥٠)]

٢-عملية القسمة والرفض: تتجسد هذه العملية في التعارض بين العقل والجنون والذي درسه فوكو بتفصيل وعمق نادرين، أظهر فيه أن خطاب المجنون كان يعتبر إما خطابا فارغا ولا قيمة له ولا يمتلك أية حقيقة أو أهمية أو أن له قدرات غريبة، كالجهر بحقيقة مخفية أو التنبؤ بالمستقبل. وفي كل الأحوال، فقد كان خطاب الأحمق الموقع الذي تمارس فيه عملية القسمة والرفض.

٣-إرادة المعرفة والحقيقة : وهي العملية الثالثة التي تبين ماهو حقيقي وما هو خاطئ، داخل خطاب معين أو ثقافة معينة. وهنا يرسم فوكو لوحة تاريخية للفكر الغربي، بدء من اليونان حتى العصر الحديث، لوحة يصف فيها مختلف الأشكال التي تظهر فيها إرادة الحقيقة، ومختلف التوزيعات التي تقيمها بين ما هو صحيح وماهو خاطئ، بين خطاب العقل الأفلاطوني، وخطاب السوفسطائيين، بين خطاب عصر النهضة القائم على القياس والتصنيف، وخطاب العصور الوسطى الغيبي.إنها آلية واحدة، آلية إرادة الحقيقة، آلية سلطوية بالأساس، حاول بعض المفكرين والفنانين مناهضتها، من أمثال "نيتشه" و"ارتو" و"بتاي".

(ب) الإجراءات الداخلية : إذا كانت الإجراءات الأولى خارجية تراقب الخطاب من الخارج، فإن فوكو يحلل مجموعة أخرى داخلية، تخص الخطاب ذاته، وهي التي تمارس مراقبتها الخاصة: (إجراءات تعمل بالأحرى على شكل مبادئ للتصنيف والتنظيم والتوزيع، كما لو أن الأمر يتعلق هذه المرة بالتحكم في بعد آخر من أبعاد الخطاب: بعد الحدث والصدفة)[(١٥١)] وهي :

١-التعليق : كل ثقافة في نظر فوكو إلا ولها نصوص أساسية، تقوم بقراءتها وتأويلها وإعادة قراءتها، سواء تعلق الأمر بنصوص قانونية أو دينية أو أدبية، نصوص أولية يتم التعليق عليها دائما.فهنالك إذن نصوص أساسية وأخرى ثانوية، وإذا كانت

---

(١٥٠) نفس المصدر ص ١٠ .

(١٥١) ميشال فوكو، **نظام الخطاب** ، ص،ص ١٦ - ١٧ .

العلاقة بينهما غير ثابتة ولا مطلقة، فإن المؤكد هو وجود تفاوت بين التعليق والنص المعلق عليه، مثلما هو الحال عليه في النص الأدبي.

إن هذا التفاوت يحقق وظيفتين،فهو من جهة يسمح بتشكيل خطابات جديدة، ومن جهة أخرى فإنه لا يقول سوى ما كان منطوقا به بصمت ففي النص الأول، يتعين عليه أن يقول لأول مرة ما كان قد قيل من قبل، وأن يكرر بلا ملل مالم يكن قد قيل أبدا.وهو بهذه الوظيفة يحد من صدفة الخطاب كحدث.

٢-المؤلف : سبق لفوكو أن ناقش هذا الموضوع في دراسة خاصة بعنوان : **ما المؤلف** سنة ١٩٦٩، وفي **أركيولوجيا المعرفة ونظام الخطاب**، وفي كل مرة يحاول أن يبرهن على أن المهم ليس المؤلف وإنما الخطاب، متخذا من بعض نصوص "بيكيت" شعارا له، ومقرا بموت المؤلف كما مات الإنسان وانتهت الذات.

لذلك حاول في **الكلمات والاشياء** أن يحلل تشكيلات خطابية، دون العودة إلى مؤلفيها، رغم استعماله لبعض الأسماء.وفكرة إنكار المؤلف عند فوكو، تعود إلى كونها تشكل: (اللحظة القوية للفردنة في تاريخ الفكر والمعارف والآداب، وفي تاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم)[١٥٢]

إن هذه اللحظة يناقشها من الناحية التاريخية والوظيفية، حيث يرسم مختلف التطورات التي لحقت بمفهوم المؤلف، وبالوظائف التي يقوم بها، والهدف من وراء هذا التحليل هو التخلي عن فكرة المؤلف، والعودة مباشرة إلى الخطابات. لماذا؟

لأنه توجد خطابات بدون مؤلفين، كالأحاديث اليومية، والمراسيم والعقود، والخطابات العلمية التي لم تعد تسند إلى مؤلف بعينه، بالرغم من أنه قبل القرن السابع عشر، كانت الاكتشافات العلمية تسند إلى مؤلفين، ولكن الوضع قد تغير منذ ذلك التاريخ .أما الخطابات الأدبية والفلسفية فمازالت تعتمد هذه الصيغة، صيغة المؤلف .هذا الاعتماد في نظر فوكو يتجاهل الوظائف الاجتماعية للمؤلف، وتورطه في شبكة العلاقات الاجتماعية. صحيح أنه من العبث إنكار الفرد الكاتب المبدع، لكن المؤلف يحقق وظيفة اجتماعية، هدفها الحد من سلطة الخطاب، بواسطة لعبة الهوية، التي تتخذ شكل الفردية وشكل الأنا.

وموقف فوكو من المؤلف، قريب من موقف "بارط" الذي أعلن عن: " موت

---

(١٥٢) ميشال فوكو، **ما المؤلف** ؟ ، ترجمة فريق الترجمة بمجلة **الفكر العربي المعاصر**، العددان ٦ – ٧ ، ١٩٨٠ ، ص ١١٦ .

المؤلف" باسم النص. حيث يرى أن المؤلف شخصية حديثة النشأة، ووليدة المجتمع الغربي، وبالرغم من كونها جديدة، إلا أن بعض الكتاب حاولوا خلخلتها، أمثال "مالارميه" الذي دعا إلى إحلال اللغة محل من كان، يعد مالكها. (فاللغة في رأيه كما في رأينا [رأي بارط] هي التي تتكلم وليس المؤلف، أن أكتب معناه أن أبلغ، عن طريق محو أولي شخصي...تلك النقطة التي لا تعمل فيها إلا اللغة،وليس "أنا")(١٥٣)

ومن دون شك، فإن الموقف من المؤلف سواء عند فوكو أو "بارط" أملته التأثيرات البنيوية ومفهومها للغة، وموقفها من الذات، ذلك الموقف الذي عبر عنه بقوة "ليفي ستراوس" ولقي استحسانا كبيرا عند فوكو.

٣-الفرع المعرفي : يعمل هذا الإجراء كذلك على الحد من سلطة الخطاب، وذلك بفرضه لمجموعة من المعايير، على انتماء القضايا إلى حقله، أو إبعادها عن مجاله، فهو يعكس بصورة من الصور إرادة الحقيقة.فلكي تنتمي قضية ما إلى فرع معرفي، فإنه :(يتعين عليها أن تسجل نفسها ضمن أفق نظري معين...وأن تستجيب لمتطلبات معقدة وثقيلة حتى تستطيع أن تنتمي إلى مجموع فرع معرفي ما، يتعين عليها أن تكون -و كما يقول كانغيليم- واقعة (ضمن الحقيقي)، قبل أن يستطيع القول بأنها حقيقية أو خاطئة)(١٥٤)

والمثال الذي يتخذه دليلا على هذا، هو نظرية الوراثة عند مندل «Mendel» الذي كان يقول الحقيقة، ويستخدم منهجا علميا في التحقيق، ولكن نظريته لم تلق القبول والموافقة، بل اعتمدت نظرية أخرى لا علمية ولا حقيقية هي نظرية شليدن "Schleiden"؛ لأنها كانت تندرج في الخطاب البيولوجي لعصره، ولأنها تجسدها إرادة الحقيقة، القائمة في تلك المرحلة.ومعنى هذا أنه لا يكفي قول الحقيقة كما هو الحال عند "مندل" وإنما لكي يتحقق الخطاب وجب أن يتوفر على إرادة الحقيقة، وعليه فإن إرادة الحقيقة والفرع المعرفي يشكلان معا مبدءا لمراقبة عملية إنتاج الخطاب. إن: (الفرع المعرفي مبدأ لمراقبة عملية إنتاج الخطاب، فهو يعين له حدودا بواسطة لعبة هوية تأخذ شكل بعث دائم للقواعد)(١٥٥)

---

(١٥٣) رولان بارط، **موت المؤلف**، في، **درس السميولوجيا**، ترجمة عبد السلام بنعبد العال، تقديم عبد الفتاح كيليطو،دار توبقال للنشر. الدار البيضاء، المغرب، ط ٢ ، ١٩٨٦، ص ٨٢ .

(١٥٤) ميشال فوكو، **نظام الخطاب** ص ٢٣ .

(١٥٥) نفس المصدر ، ص ٢٥ .

وعلى الرغم من أن المبادئ الثلاثة التي أتينا على ذكرها -التعليق، المؤلف، الفرع المعرفي- تقوم بدور المراقبة عن طريق لعبة الهوية، إلا أن هنالك اختلافات فيما بينها،
ـختلف عن المؤلف، من حيث الموضوعات المناهج وحقيقة أو خطأ
ـلال شبكة القواعد والتعريفات وهي منظومة مجهولة،
أن ترتبط بمؤلفها، على عكس التعليق الذي يبحث
ـ الأولي.
ـ عن المجموعتين السابقتين، ولا تبحث في آليات
ـ ولا في الحد من ظهوره، بل تحدد شروط استخدام
ـاد الذين يستخدمونه، ويمكن تسميتها بإجراءات

وظيف : يعرف فوكو هذه المجموعة بقوله: (في هذه
ـل من عدد الذوات المتكلمة، لن يدخل أحد في نظام
ـجيب لبعض المتطلبات، أو إذا لم يكن مؤهلا للقيام
ـــة أكبر: ليست كل مناطق الخطاب مفتوحة بنفس الدرجة، وقابلة للاختراق بنفس الدرجة: فبعضها محروس وممنوع علانية...في حين أن البعض الآخر يبدو مفتوحا تقريبا أمام كل الرياح...(156)

وتتكون هذه المجموعة من ثلاث إجراءات كبرى هي :

١- جمعيات الخطاب أو جماعات الخطاب "Sociétés de discours" مهمتها الحفاظ على الخطاب، وعلى تداوله في نطاق ضيق، وجعل مجاله مغلقا قدر الإمكان، كالأسرار التقنية أو التكنولوجية والعسكرية والاقتصادية.

٢ - المذاهب الدينية والسياسية والفلسفية "Doctrines" على عكس جمعيات الخطاب، يميل المذهب إلى الانتشار، والقاعدة الأساسية هي الاعتراف بنفس الحقائق، وهو ما يحقق الانتماء المذهبي.وأما ما يخالف المذهب فيعتبر بدعة لذلك تعتبر المذاهب شروط وحدود لتداول الخطاب وتعميم لوظائفه داخل المذهب الديني الفلسفي أو السياسي، وهدفه إخضاع الذوات والجماعات المنتمية لخطاب المذهب.

---

(١٥٦) ميشال فوكو ، **نظام الخطاب**، ص، ص ٢٥ - ٢٦ .

٣ - التملك الاجتماعي للخطابات "L'Appropriation Sociale des dis-cours": تعتبر التربية والتعليم الأداة الأساسية التي تمكن من امتلاك الخطاب، وأي نوع من أنواع الخطاب، إلا أنه وكما هو معروف، فإن المنظومة التربوية لا يمكن فصلها عن الإستراتيجية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمجتمع معين. وفي كل الأحوال فإن جماعات الخطاب والمذاهب والتربية هي الأشكال الأساسية الكبرى التي تحدد وظيفة الخطاب وتداوله وملكيته متعاونة مع المنظومة الخارجية والداخلية في مراقبة الخطاب والحد من سلطته .

وفي نظر فوكو، فإن تحرير الخطاب ومحو الخوف الذي يبعثه في الذات والمؤسسة، يتطلب :(اتخاذ قرارات ثلاثة يقاومها فكرنا اليومي، وهي تقابل المجموعات الثلاث من الوظائف التي ذكرتها منذ لحظة: إعادة النظر في إرادتنا للحقيقة، إعادة طابع الحدث للخطاب، وأخيرا رفع سيادة الدال).[١٥٧]

ثالثا-مبادئ تحرير الخطاب: بعد أن رصد مختلف الآليات التي تتحكم في الخطاب ' اقترح مجموعة من المبادىء المنهجية التي تحرر ' في نظره ' الخطاب وهي :

أ - **مبدأ القلب** :**Renversement** : ويعني التخلي عن مبدأ المؤلف والفرع المعرفي وإرادة المعرفة، والنظر في الخطاب كحدث.

ب - **مبدأ الانفصال أو عدم الاتصال** Discontinuité : ويعني دراسة الخطابات كممارسات غير متصلة أي متقطعة، واستبعاد مبدأ الاتصال والاستمرار الذي ثبته التاريخ التقليدي أو التاريخ الكلي .

جـ - **مبدأ الخصوصية** Spécificité: ويعني عدم إدراج الخطاب في دلالات ومعان مسبقة، أو أن إدخاله في لعبة التأويلات اللامتناهية، بل أن ننظر إليه كحدث متميز وكممارسة خاصة .

د - **مبدأ الخارجية** Extériorité: يجب دراسة الخطاب من حيث الظاهر دون البحث في المعنى الخفي أو الدلالة الباطنية، أي دراسة ما يظهر من الأحداث وما يرسم لها من حدود.

إن هذه المبادئ المنهجية وغيرها من المبادىء التي سبق وأن ناقشناها في المحور الثاني، هي التي ستتحكم في أعماله اللاحقة والمنصبة حول مسائل السلطة والجسد

---

(١٥٧) نفس المصدر ، ص ٣٤ .

والجنس والأخلاق . ومن دون شك فإن هذه المبادئ المنهجية والمهمات الفلسفية، تطرح العديد من المشاكل المعرفية والمنهجية، سنعود إليها في فصلنا السادس الذي سنخصصه لمناقشة الخطاب بين التاريخ والفلسفة.

إلا أن ما يثبته التحليل السابق هو أن الخطاب ليس أداة في يد السلطة، ولا انعكاسا لها فقط، بل يشكل سلطة في ذاته وهو ما يشير إليه نص **إرادة المعرفة** من كون الخطاب ليس مقسما إلى خطاب مقبول أو مرفوض، بل إن المعرفة والسلطة تتمفصل عن الخطاب، وأنه يجب النظر إلى الخطاب كمجموعة عناصر تعمل في إستراتيجيات مختلفة.

لذلك لا يمكن لنا أن نقول مع "دريفوس" و"رابينوف" أن هنالك فقط بعض الأفعال الخطابية التي تنزع إلى أن تكون ذات سلطة، لما تملكه من جدية، لماذا ؟ لأن الخطاب يشكل في مجموعه سلطة قائمة بذاتها ، وإن كانت منطوقاته تتفاوت من حيث القوة والقدرة.

ولا أن نوافق على تأويل "الكبسي" من كون الخطاب يشكل نظرية في السلطة بشكل غير مباشر وذلك للاختلاف النوعي بين الخطاب والسلطة، رغم إقرارنا أن هنالك عناصر أساسية تسمح بهذا التأويل، وخاصة هوية ومرجعية الخطاب ودخوله في استراتيجيات مختلفة، ولكن هذا لا يكفي في نظرنا للقول بأن مفهوم الخطاب تعبير غير مباشر عن السلطة، بل يشكل مرحلة أساسية لتحليل السلطة، ونعتقد أن وجه اللبس يعود إلى عدم التمييز بين سلطة الخطاب والسلطة، وهو ما سنبينه في الفصل الرابع من دراستنا.

كما لا يمكن أن نوافق على فهم "شريدان" القائل أن فوكو مع **نظام الخطاب** اكتشف مفهوم السلطة، لذلك غير منهجه لماذا ؟ لأننا نرى أن فوكو قد حلل دائما الخطابات في علاقتها بالسلطة، دون أن نزعم أن مفهومه للسلطة قد تشكل وتبلور بشكل نهائي، بل نقول إن هذه الدراسات كانت مقدمة تجريبية لمفهوم السلطة وسلطة الخطاب، الذي يظهر فعلا بشكل واضح في **نظام الخطاب**، حيث تمت دراسته داخل حقل استراتيجيات مختلفة وفي الوضعيات التي يحتلها .

لذلك فالخطاب بتعبير فوكو يشكل معركة، وليس انعكاسا أو تعبيرا عن السلطة. فيكفي أن نتكلم وأن نعبر وأن نستعمل كلمات، حتى نكتشف في هذا الفعل قوة، هي قوة وسلطة الخطاب. ولذلك فالخطاب بالنسبة لعلاقات القوى ليس مجالا للوصف بل

عملية، وإننا لنعلم أن هذه الصفات تشكل العناصر الأساسية لمفـــهوم السلطة.[١٥٨]

إن ما لم ينتبه إليه جل الباحثين في فلسفة فوكو، هو أن مفهوم الخطاب لا يمكن فصله عن مفهوم اللغة، وعن ذلك التمييز بين لغة جدلية ولغة غير جدلية، بين لغة خطابية وغير خطابية، حيث تمتاز اللغة غير الجدلية وغير الخطابية بالإختراق والتجاوز والتعدي، وبالطابع الوجودي، بينما اللغة الجدلية أو الخطابية أو الخطاب بصورة دقيقة يمتاز بتلك الخصائص التي حاولنا خلال هذا الفصل تحليلها، والتي تختلف عن مفهوم اللغة وإن كانت تلتقي معه في المرجع والطابع الوجودي، فاللغة والخطاب لا يمكن إرجاعهما إلى الذات أو إلى المؤسسة، بل يتميزان بوجود مغاير وهو ما سمح للبعض استنتاج العلاقة البنيوية في مفهومها للغة، ومفهوم فوكو للخطاب واللغة، مع فوارق أشرنا إليها في مكانها.

كما أن اللغة والخطاب يتميزان بالتبعثر، فإذا كانت وضعية اللغة بعد إمحاء الإنسان وضعية توصف بالتبعثر فإن هدف التحليل الأركيولوجي، هو أن يكشف عن تبعثر الخطابات.إلا أنه وعلى عكس اللغة التي ارتبطت عنده بتجارب شخصية وفنية، وأدبية، فإن الخطاب ارتبط بالدراسة العلمية، أو بلغة فوكو بالوضعية، لذا لا يجد أي حرج في أن يدرج في خانة الوضعيين، ألم يكن هدفه هو الكشف عن وضعية الخطابات؟ وعليه يمكن القول إنه عمل على :

أ - تأسيس مفهوم جديد للخطاب لا يقوم على أصول ألسنية أو منطقية، بل يتشكل أساسا من وحدات سماها بالمنطوقات، هذه المنطوقات تشكل منظومات منطوقية، تسمى بالتشكيلات الخطابية، هذه التشكيلات تكون دائما في حقل خطابي معين، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل.

ب - على هذا الأساس يختلف الخطاب عن الجملة والقضية، كما يختلف التحليل الخطابي عن تحليل اللغة والتحليل المنطقي، ذلك أن تحليل الخطاب يعتمد على الوصف الأركيولوجي والتحليل الجنيالوجي، من أجل الكشف عن ندرة وخارجية، وتراكم وقبلية الخطابات، أو بتعبير دقيق يقوم على التحليل التاريخي للخطابات.

جـ - لا تعود مرجعية الخطاب إلى الذات أو إلى المؤسسة أو إلى الصدق المنطقي أو إلى قواعد البناء النحوي، وإنما إلى الممارسة. الممارسة الخطابية وغير الخطابية على أن لا نفهم العلاقة بين الممارسات على أساس السبب والنتيجة، وإنما على أساس العلاقة التبادلية.

(١٥٨) Michel Foucault, La voix de son maître, In, (D.157) .

د - إن تحليل الخطاب على هذا النحو، كشف عن سلطته وقدرته وفي نفس الوقت عن الآليات التي تحكمه وتحد من سلطته، كآلية المنع والرفض والقسمة وإرادة المعرفة وأشكال التملك والتمذهب...إلخ.ولتحرير الخطابات من كل أصناف التأويلات والتحليلات الشكلية يقترح فوكو جملة من المبادئ ، كالخصوصية والقطيعة والخارجية...إلخ.

وبناء على هذه التحليلات نستطيع القول أن ميشال فوكو مع **أركيولوجيا المعرفة ونظام الخطاب** قد أسس المبادئ الأولية لاتجاه جديد في الدراسات اللغوية والتاريخية والفلسفية، إتجاه وجد قاعدته في مجمل الإشكاليات والقضايا التي ناقشتها الفلسفة التأويلية والفلسفة التحليلية، وفي تلك الأعمال التي حققها أستاذه "جورج دوميزل" والتي يشيد بها في خاتمة درسه بـ "الكوليج دي فرانس" قائلا: (وأعتقد أني مدين كثيرا للسيد دوميزيل، لأنه هو الذي حثني على العمل في سن كنت ما أزال أعتقد فيها بأن الكتابة مجرد متعة...إنه الذي علمني تحليل التفاعلات الداخلية للخطاب، بطريقة أخرى غير طرائق التفسير التقليدي، أو بواسطة طرائق الصورية اللسنية [اللسانية] وهو الذي علمني كيف أصف تحولات الخطاب، والعلاقات القائمة مع المؤسسة).[(١٥٩)]

إن الخطوط الكبرى لهذا التوجه، تلخصه المنهجية الأركيولوجية والجنيالوجية، وهو بذلك يعمق بحثه ويؤصل تجربته أكثر مما فعل في اللغة، ويحقق مفهوما جديدا للخطاب يعتبر أساسي في حقل فلسفة اللغة .

هذه المساهمة نجد لها أصداء وتأثيرات على الكثير من المحاولات الفلسفية واللغوية، سواء في فرنسا، مثل محاولة "بيشو "Pecheux و"منغنو Maingue-neau"وفي الوطن العربي عند "محمد أركون" أو "أدوارد سعيد"[(١٦٠)]. وعليه فإن القول بكلية الخطاب في فلسفة ميشال فوكو له ما يبرره، وهو ما ستحاول الفصول القادمة إبرازه سواء في المعرفة أو في السلطة أو في حقل الذات. ألم يقل فوكو إن في الخطاب يحدث أن تتمفصل المعرفة والسلطة، وإن الاعتراف خطاب الذات !

---

(١٥٩) ميشال فوكو، **نظام الخطاب**، ص ٤٥ .

(١٦٠) ينظر على سبيل المثال : Pecheux, **Analyse automatique du discours**, ed.- Dunod, 1969.Maingueneau, **Gnéses du discours**, ed. Pierre Mardaga 1984 وكذلك ، - محمد راكون ، **الفكر العربي** ، ترجمة عادل العوا ، ديوان المطبوعات الجزائرية وإدوارد **الاستشراق، (المعرفة، السلطة، الإنشاء.)**، ترجمة، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ .

الفصل الثالث

الخطاب والمعرفة

مقدمة .

المحور الأول – المعرفة بوصفها ممارسة خطابية .

المحور الثاني – خطاب المعرفة .

المحور الثالث – المعرفة والسلطة .



مقدمة :

في محاولتنا لدراسة الخطاب في الفصل الثاني، توقفنا بالممارسة الخطابية، وقلنا إن الممارسة الخطابية هي معيار الخطاب، بما ا ذات فاعلة ولا إلى واقع موضوعي، ولا إلى صيغة منطقية ولغوية، بل هي جملة القوانين الناظمة للخطاب، التي تحدد وظيفته وطبيعته التي تختلف عن النمط المنطقي أو الألسني، وذلك لارتباطها بالتاريخ وفصل موضوعاتها عن صيغة المؤلف أو الفرع العلمي، أي دراستها ضمن التشكيلة الخطابية.

والتشكيلة الخطابية تتكون من جملة العمليات التحويلية والقواعد البنائية التي أظهرتها الدراسات حول الجنون والمرض والعلوم الإنسانية، أي مختلف الممارسات الخطابية الخاصة أو المعرفية. ذلك أن المعرفة ليست أكثر من ممارسة خطابية خاصة تتحدد في إطار مجال معين وموضوعات معينة ذات طابع علمي[1] أو بتعبير آخر ليست المعرفة، أكثر من نظام الوضعيات الذي يظهر في مختلف التشكيلات الخطابية[2] وبذلك فإن المعرفة ترتبط بشكل أساسي بمفهوم الخطاب الذي يتكون أساسا من مفهوم التشكيلة الخطابية والممارسة الخطابية.

وعلى عكس ما يذهب إليه "هابرماز "Habermas" من أن فوكو يدرس العلاقة القائمة بين الخطابات والممارسات منذ تاريخ الجنون[3] فإننا نرى أن عمل فوكو سابق عن هذا التاريخ، ويعود إلى تلك الأعمال المختلفة حول علم النفس، كمقدمته لكتاب "بنسفنجر «Binswanger» عن "الحلم والوجود" أو كتابه عن **المرض العقلي والشخصية ١٩٥٤**، أو دراستيه عن: **علم النفس من ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠** وعن: **علم النفس في فرنسا ١٩٥٧** .

إن مختلف هذه الدراسات السابقة عن **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**،

---

(١) Michel Foucault ،**L'Archeologie du Savoir** ،p.32.

(٢) Michel Foucault ،**Réponse au Cercle d'Epistimologie**, In ،**Cahier pour L'Analyse** , No09 , p.238-968

وكذلك يمكن الاطلاع على: MichelFoucault, **Résumé des Cours**, (1970-1982) ،Julliard , 1989 p. p. 9-10

(٣) يورغين هابرماس، كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل، ترجمة جورج أبي صالح، في، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العددان ١٧ - ١٨ ، ١٩٩٢ ، ص ٧ .

تعكس اهتمام فوكو بخطاب علم النفس، وخاصة علم النفس المرضي . ولقد تجسد ذلك في تحضيره لشهادة الليسانس في علم النفس، وكذلك تدريسه له في مختلف الجامعات الفرنسية، كجامعة ليل " Lile" أو"كلارمونفيرون "Clerment-ferand أو غيرهما ، و كان يعتبرُ في الأوساط الجامعية أستاذا لعلم النفس حتى حدود١٩٦٨(٤)

إن هذا الاهتمام بعلم النفس يعود أساسا إلى حياته الشخصية، فمن المعروف عنه أنه كان مريضا ويعاني من اضطرابات نفسية، وأقدم على الانتحار أكثر من مرة، كما أدخل المستشفى . هكذا وربما بسبب مرضه النفسي تعلق منذ بداية حياته العلمية بعلم النفس والتحليل النفسي، وبالجنون والمرض وهذا منذ بداية الخمسينيات(٥)

لذا نرى من الضروري التساؤل عن طبيعة تلك الممارسات الخطابية السابقة عن **تاريخ الجنون**، وهذا من أجل استبعاد -كما تقول ريفال- فرضية الإبداع من عدم، والتجديد من فراغ، وكيف تشكل خطاب فوكو قبل أن يأخذ صيغته النهائية، وماهي العناصر التي استمرت في خطابه، وتلك التي قطع معها ؟ بمعنى تحقيق النظرة التاريخية للإنتاج الفكري لفوكو(٦) .

على هذا الأساس نرى ضرورة الإشارة إلى تلك الأعمال، والتي عادة ما يتم تجاهلها من طرف الباحثين والدارسين، وإذا كان صحيحا أن فوكو قد غير طريقته ورؤيته منذ صدور **تاريخ الجنون** ، إلا أن هذا لا يعد دليلا لتجاهل تلك الأعمال، خاصة وأن الموضوعات التي سيناقشها ستبقى حاضرة في دراساته اللاحقة.

ففي مقدمته **للحلم والوجود** يدرس أهمية الحلم في تكوين المعرفة، ويرى أن الحلم وسيلة من وسائل المعرفة، فالحلم ليس فقط موضوعا بل وسيلة معرفية، وهو في ذلك يعيد بعض أطروحات الظواهرية كما صاغها "هوسرل" وكذلك بعض التحليلات الوجودية التي تلتقي كلها عند "بنسفنجر" وهو ما جذبه إلى هذه الدراسة، كما تقول "جاكلين فاردو «Jacqueline Verdeaux» ذلك إن اكتشافه لعمل "بنسفجر" سيسمح له باكتشاف الواقع العميق للجنون، كما يساعده على الخروج من المعايير

---

(٤) Pierre Machery. **Présentation, Foucault/ Roussel/Foucault,** In, **Raymond Roussel**, Par Michel Foucault ،ed . Gallimard, 1992 p.04.

(٥) Didier Eribon ،**Michel Foucault(1926-1984)** ,Op-cit .p p. 63-64-65.

(٦) Judith Revel,**Sur L'Introduction à BINSWANGER(1954), In , Michel Foucault :Lire** l'oeuvre, sous la direction de Luce Giard, ed. Jerôme millon 1992 p 53

التقليدية للدراسات النفسية والطبية التي كانت تزاول بالمستشفيات، علما أن فوكو قد اشتغل كمساعد طبيب في مستشفى "Saint - Anne" وفي هذه السنوات ، سيكتشف نصوص "نيتشه"، وبذلك يستطيع أن يضع حدا لنظرته الفينومنولوجية والماركسية على السواء[٧]

ولكن قبل هذا، قام بدراسة حول علم النفس المرضي، صدرت في كتاب يحمل عنوان **المرض العقلي والشخصية** ، استعمل فيه بعض التحليلات الماركسية مثل علاقة المرض بالمجتمع، ومشكلة الاستلاب، وكما هو معلوم ، فلقد كان في هذه السنوات ، يناضل في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي. ولعل ما يثير انتباه الباحث أكثر، هو استعماله لأول مرة كلمة "الأركيولوجية" وهي الكلمة التي سيبقيها ويطورها في مختلف تحليلاته.

ومن بين الأفكار الأساسية التي دافع عليها في هذا الكتاب، فكرة مفادها أن دراسة علم النفس السوي «Normal» يجب أن تبدأ بالتساؤل عن المرض العقلي وعن الجنون. ولقد صاغ سؤاله على طريقة صياغة "نيتشه" إذ نجده يتساءل عن الظروف والملابسات التي من خلالها نتحدث عن المرض العقلي ونؤسس اتجاهه خطابا يحمل اسم المعرفة . وفي نظره فإن الإجابة على هذا التساؤل لا يمكن أن يكون خارج العلاقة التاريخية التي تجمع بين الإنسان الحقيقي والإنسان المجنون[٨]

يعني هذا أن التفكير حول الواقع الإنساني لا يكون إلا على أساس تاريخي، وعليه فبالرغم من أن الجنون شيء مغاير للمرض إلا أنه يقيم علاقة أساسية مع الحقيقة، ومن هنا نجده يتساءل عن الإطار أو الكيان أو المنزلة «Statut» العلمية والقانونية لكل من المرض والجنون، وفي هذا السياق يرى "بيار ما شري" أن الأمر لا يتعلق بشرح مفهوم المرض ، وإنما بدراسة الخطاب والممارسات الخطابية، وربطها بالشروط التاريخية، دون الوقوع في التحديد الواقعي أوالموضوعي أو الوضعي[٩]

لقد تساءل فوكو عن شروط ظهور المرض وكيف تمكنت الثقافة الغربية من إعطاء معنى الانحراف للمرض،وأن تستبعد المريض من كيانها.إن هذا التساؤل هو الذي سمح

---

(٧) Didier Eribon . **Michel Foucault (1926-1984)** Op-Cit , p.67.

(٨) Michel Foucault , **Maladie Mentale et Personnalité** .ed. P.U.F , 1954 p.62.

(٩) Pierre Machery ,**Aux Sources de "l'Histoire de la Folie" Une Rectification et Ses Limites** , in « **Critique** , No 471-742-1986 p.756.

له بمناقشة التشكل التاريخي للاغتراب، باعتباره ناتج عن الظروف الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية التي يقيمها الفرد مع محيطه ومع الآخرين .

وبهذا المعنى يكون الاغتراب شبيها بالجنون من حيث التصنيف بين السوي وغير السوي، بين الصحي والمرضي ، بين العقل والجنون، مع فارق أساسي، يظهر في الوضع الإبستيمولوجي،والتحويل الذي يدخله فوكو لمفهوم المرض العقلي باعتباره ليس حقيقة نفسية، وإنما حقيقة وجودية، وهي الفكرة التي حاول البرهنة عليها في **تاريخ الجنون** .

ومن هنا نستطيع القول إن الموضوعات التي ستشغل فكر فوكو، تجد خلفيتها النظرية وبداياتها في هذه الأعمال، وهي الفكرة التي نجدها عند "كرويزر" التي تقول: (من هنا تتابعت دراساته عن"الانحراف Déviance"؛ تلك الدراسات التي هي -في الوقت نفسه- تواريخ للعلاج النفسي وعلم النفس المرضي والطب والتاريخ الطبيعي والنحو وعلم اللغة والجريمة والجنس، وأخذت هذه الدراسات تتزايد تعقيدا وعمقا كلما مضى فوكو في دراسة أوجه الفكر والمجتمع)(١٠)

وعليه فإنه وبالرغم من تغيير فوكو لمنهجه من البحث الأركيولوجي إلى الدراسة الجنيالوجية ومن مفهوم المرض إلى مفهوم التجربة الجنونية والنظرة الطبية والإبستيمية والجريمة والجنس، فإن نفس الهاجس المعرفي والنظرة الفلسفية بقيتا مستمرتين في مختلف أعماله.

ولعل أهم شيء تجب الإشارة إليه، كما قلنا، هو استعماله لكلمة "الأركيولوجيا"حيث يقول في كتابه **المرض العقلي والشخصية** إن :(العصاب هو أركيولوجيا عفوية لليبدو)(١١) هذه الكلمة التي ستظهر من جديد في مختلف أعماله، وتكون موضوع منهج ورؤية فلسفية كما حللنا ذلك في الفصل السابق .

المحور الأول -المعرفة بوصفها ممارسة خطابية : "Pratique Discursive"

إن تلك البدايات تلتقي وتتفاعل عندما يذهب فوكو إلى السويد وعندما يكتشف أرشيف مكتبة "إيبسلا «Uppsala» حول تاريخ الطب ، والذي قام بجمعه الدكتور "إيريك ويلر Eric Weller" ، أرشيف يضم وثائق طبية تمتد من القرن السادس عشر

---

(١٠) اديث كيرزويل ، عصر البنيوية **"من ليفي ستراوس إلى فوكو "**، ترجمة جابر عصفور، مطبعة العيون. الدار البيضاء. ١٩٨٦ ط ٢ ص٢٠٨ .

(١١) Michel Foucault , **Maladie Mentale et Personnalite**, p.26.

إلى القرن العشرين، وبلغت ما يقرب الواحد والعشرين ألف وثيقة، تشتمل على رسائل ومخطوطات وكتب نادرة تخص تاريخ الطب(١٢)

على هذا الأرشيف يطرح فوكو سؤاله الفلسفي، بعيدا عن التحليلات النفسية، وهو : كيف تحدث العقل عن الجنون؟ أوكيف أمكن التحدث عن الجنون بلغة العقل؟ أو بتعبير آخر ما هو خطاب العقل عن الجنون؟ أو كما يسأل فوكو كيف تشكلت المعرفة عن الجنون ؟

إنه سؤال تاريخي فلسفي، يدخل في إطار ما يسميه بتاريخ الحاضر، سؤال يهتم بتحليل للشروط التاريخية لتشكل المعرفة، وهذا من خلال تقسيم تاريخي، يبدأ من عصر النهضة، مرورا بالعصر الكلاسيكي وانتهاء بالعصر الحديث، وهو تقسيم شمل مختلف أعماله الفلسفية. وعليه فإننا سنحاول تحليل مختلف المراحل الكبرى للممارسات الخطابية، مبتدئين **بتاريخ الجنون**، فما هي إذن المراحل الكبرى لهذا التاريخ ؟ وما هي مختلف التشكيلات الخطابية لهذه المعرفة ؟ وما هي طبيعة هذه الممارسة المعرفية؟

يعتبر كتاب **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**، إجابة على هذه الأسئلة ومناقشة عميقة لإشكالية مركزية ،هي إشكالية العقل والجنون، أو كيف شكل العقل خطابا عن الجنون، ولذلك نقول مع "هاشم صالح" أن التجربة الأركيولوجية طرحت : (مشكلة العقل في الصميم، وبالتالي مشكلة الجنون الذي يحيط بالعقل من كل جانب ويشكل جزء لا يتجزء منه، كما طرحت مشكلة المعرفة على مستواها العميق والجذري، وبينت الكيفية التي انبثقت عليها العلوم الإنسانية الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر)(١٣)

ولتحليل هذا البعد المعرفي ، سنعمد إلى مناقشة العلاقة بين العقل والجنون وما ترتب عنها من تأسيس لمعارف وضعية، ومؤسسات سياسية وإدارية، حسب المراحل الكبرى التي درسها فوكو، مبتدئين بعصر النهضة الذي لم يعرف تقابلا حادا بين العقل والجنون، ذلك أن المجنون كان حاضرا أمام العقل والمجتمع، ولم يتم إبعاده، ولكن ومع "إيرازم" والنزعة الإنسانية يتم الإمساك به وبالتدريج ضمن عالم الخطاب.

---

(١٢) Didier Eribon , **Michel Foucault** , Op-Cit , p.106.

(١٣) هاشم صالح ،**فوكو فيلسوف القاعة الثامنة**،في،**الكرمل**،مجلة فصلية ثقافية تصدر عن الإتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، العدد ١٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ .

فمثلا عند "مونتاني Montaigne ١٥٣٣ - ١٥٩٢" ما يزال الجنون يشكل نقطة حادة داخل العقل، وموقع متقدم، ولكن مع بداية العصر الكلاسيكي ١٦٤٠-١٧٩٣، ومع اللحظة الديكارتية [ديكارت ١٥٩٦-١٦٥٠] تطرح مسألة العقل التي تستبعد كل إمكانية لإقامة علاقة بين العقل واللاعقل، أو بين العقل والجنون، فالعقل مع "ديكارت " يستبعد الخطأ والوهم ولكنه لا يهتم أبدا بالجنون.

ذلك أن العقلانية التي أسسها "ديكارت" تفترض أن الجنون يبتدئ بالضبط عندما تضطرب فيها علاقة الإنسان مع الحقيقة.من هنا :(فالجنون لا يمكن أن يتحدث عنه إلا من الخارج، فقد عرف القرن السابع عشر خطابا عن الجنون، لا خطاب الجنون، إنه في حد ذاته (خطاب هذياني) أي خليط من العلم ومن الخوف)(١٤)

لقد تم تحديد الجنون وفقاللمفهوم الديكارتي للعقل والعقلانية، ولفهمه يجب العودة إلى عالم الخطاب وإلى التأملات الديكارتية باعتبارها خطاب العقل حول الجنون.يقول "ديكارت" في معرض استدلاله عن الفكر والعقل :(كيف أستطيع أن أنكر أن هاتين اليدين يداي، وهذا الجسم جسمي، اللهم إلا إذا أصبحت مثيلا لبعض المخبولين الذين اختلت أذهانهم وغشي عليها بسبب الأبخرة السوداء...فما ينفكون م ملوك في حين أنهم فقراء جدا...أو يتخيلون أنهم جرار ولهم أجساما من زجاج، الا إنهم مجانين ولن أكون أنا أقل منهم إسرافا وخبلا إذا اقتديت بهم ونسجت على منوالهم)(١٥)

لقد واجه "ديكارت" في بحثه المعرفي الحواس والحلم والوهم والجنون، ورأى أن استخدام العقل يستبعد كلية الجنون. وذلك لأن الجنون ليس فقط سببا مؤديا للشك كما هو الأمر في الخطأ والوهم والإحساس، بل أبعد من ذلك، يقول فوكو:(يستبعد ديكارت الجنون باسم الذات التي تشك والتي لم يعد بإمكانها الإرتداد إلى الجنون إلا إذا كان بإمكانها أن تتوقف عن التفكير أو عن الوجود)(١٦)

---

(١٤) جان لاكروا، **دلالة الجنون في فكر ميشال فوكو**، ترجمة، محمد سبيلا، ضمن كتاب **نظام الخطاب**، ص ٩٠ .

(١٥) رينيه ديكارت ، **التأملات في الفلسفة الأولى** ، ترجمة، عثمان أمين، مكتبة الأنجلوالمصرية. ١٩٥١ ، ص ٧١ .

(١٦) Michel Foucault . Histoire De La Folie A L'Age Classique ،p.58.

إن المنهج الديكارتي الذي يقوم على الشك الإرادي، يتضمن وجود الذات المفكرة، ويستبعد كلية إمكانية الإنزلاق إلى الجنون ويفترض استخدام العقل، الاستبعاد الكلي للجنون. من هنا يرى فوكو أن نص التأملات هو نص إقصائي، نص يستبعد بل وينفي أية إمكانيـة لتعـايش خطاب العـقل مع خطاب الجنون.فمن الممكن أن نلتقي بالحلم وبالخطإ وبالوهم ولكن لا يمكن أبدا أن نلتقي بالجنون. والسبب بسيط، إننا نفكر أو ذوات مفكرة. وهكذا شطب "ديكارت" بحركة واحدة على إحتمالية وإمكانية الجنون، ونفى المجنون من ساحة أية معرفة ممكنة، وبالتالي أصبح خطاب الجنون عبارة عن فراغ وعدم وظلام وجهل مطلق، وتعبير عن الحيوانية التامة .

ونتج عن هذا تشكل للعقل الغربي يقوم أساسا على نفي ليس المجنون فقط ولكن لكل ما يمثل الآخر، فالمجنون في نهاية الأمر هو الآخر، وهذا النفي سمح للعقل الغربي أن يعمق أكثر مفاهيمه وأن يبعد عن العقل والفكر أية احتمالية للجنون، إذ من الممكن أن يكون الإنسان مجنونا ولكن من المستحيل أن يجن العقل أو الفكر.

إن هذا التفسير أو التأويل الذي يعطيه فوكو لنص التأملات ولما يسميه باللحظة الديكارتية يرى فيه "دريدا "Derrida سذاجة وتبسيطا(١٧)، وهو ما دفع بفوكو للرد عليه في مقال مطول وصف فيه هذا النقد بالبيداغوجية والقصور والتعليمية والافتقار للدلالة الفلسفية(١٨)

لأن الجنون عند فوكو وفي مستواه الفلسفي لا يرتبط بمستوى التأملات واللحظة الديكارتية فحسب وإنما سيعرف مصيرا آخر مع "هيجل" الذي سيربطه بقضية الاستلاب وهو ما لم يستطع أن يدركه العقل الكلاسيكي والمعرفة الكلاسيكية على السواء.

إن "هيجل" هو الذي أدرك البعد الجديد للجنون، ورأى أن :(العلاج الحق ينبغي أن يقوم على أساس أن الجنون ليس فقدانا تاما للعقل، لا من ناحية الذكاء ولا من ناحية الإرادة والمسؤولية، بل هو مجرد اضطراب في النفس وتناقض في العقل، يحدث مثيله في الجسم، فالمرض الجسمي ليس فقدانا تاما للصحة بل هو تناقض يكتنفها، وأن هـــذا العلاج الإنساني للجنون إنما يفترض وجود العقل لدى المريض ويعتبره نقطة انطلاق أساسية)(١٩)

---

(١٧) Jacques Derrida , **L'Ecriture et La Difference**, ed. Seuil ، 1967 ، p.p.58-59.

(١٨) Michel Foucault . **Mon corps , Ce Papier , Ce Feu** . in , Paideia, 1971 .

(١٩) Michel Foucault, **Histoire De La Folie A L'Age Classique**, p.501.

إن هذا النص يبين الوضعية الجديدة للجنون وعلاقته بالعقل، فلم يعد الجنون خارج العقل، بل عاد إلى وضعه الأول كما هو في عصر النهضة، أي إلى داخل العقل، وأصبح لا يتناقض مع العقل، بل هو اضطراب فقط، أو بتعبير "هيجل" استيلاب وليس فقدانا للعقل .

إن هذا التحول الذي أصاب الخطاب في العصر الحديث، شمل في الواقع تحول آخر في المعرفة الطبية والنفسية، وكان رائده "فرويد" ولكن قبل أن نعرف هذا التحول يجب أن نتساءل عن المعرفة الطبية والنفسية، أو عن المعرفة الوضعية للجنون في العصر الكلاسيكي.

يرى فوكو أن الجنون في العصر الكلاسيكي بقي أخلاقيا ودينيا رغم المحاولات العلمية التي لم تتجاوز حدود تصنيف الأمراض النفسية، مثل تصنيف "دوبليبه Dau-blier" القائم على أن :

(أ) الجنون يتماثل والهذيان المصحوب بارتفاع في الحرارة. أو -ب- بالهوس والهذيان الثابت دون حرارة ودون التهاب في الدماغ.أو -جـ- بالسوداء التي تتصف بالهذيان المستمر والهادئ مع التركيز على شيء معين. أو -د- بالخبل وهو أدنى درجات الجنون خطورة .

وفي العصر الحديث عدل "بينال « Pinel » في مستشفي "بيساتر "Bicetre" و"سال باتريار « Salpatriere » طرائق العلاج واعتمد على :

(أ) الصمت والإصغاء والاستماع إلى المريض.

(ب) استخدام المرآة، إذ كان على المريض أن يكشف نفسه وأن يعترف بذاته ويتعرف عليها.

(جـ) المحاكمة، حيث كان يقوم بمحاكمة وهمية لبعض المرضى الذين يشعرون بالملاحقة والذنب وبالحاجة إلى التبرئة .

إن مختلف هذه الطرائق العلاجية، تعكس في نظر فوكو، بنية العلاقات الاجتماعية، وذلك لما تحمله من قيم وأحكام ولوازم أخلاقية ودينية واجتماعية بعيدة عن المعرفة العلمية. ومن هنا يرى ضرورة البحث في دهاء العقل الطبي الذي يعالج ويعاقب في نفس الوقت، خصوصا وأنه قد سمح بهذا الخلط بين العلاج والعقاب في عصر سمي بعصر العقل.

لقد كانت الأخلاق الدينية والعلاقات الأسرية،هي التي تحدد المجنون ·(ألم تقل

مدام (جوردان) لزوجها في (إحدى مسرحيات موليير) : إنك يا زوجي مصاب بالجنون، بسبب اتباعك للأهواء.) من هذا يستنتج فوكو :(إن معرفتنا العلمية والطبية للجنون إنما ترسو على قاعدة سابقة من الخبرة الأخلاقية للجنون)(٢٠)

وعلى هذا الأساس تم جمع وضم المجنون مع فئات اجتماعية متباينة ومختلفة، لقد تم جمعه مع الفاسق والعاهر والكافر والمجرم والفقير، فحتى المؤمن العاصي يحشر مع المجنون، مثل قصة السيد "برجودي Bergede" الذي قررت الكنيسة أن يعزل مثل بقية المجانين، وذلك لأن شغله الوحيد كان ينحصر في إقراض النقود، مقابل فوائد كبيرة مما لا يتناسب ومكانة رجل الدين .

ونفس الشيء كان يقوم به صاحب السلطان إزاء معارضيه، وهذا يعني أن الجنون ينبثق في نظر فوكو من حساسية اجتماعية أكثر من معرفة طبية، مثله مثل الجريمة والعهر والخطيئة، وكان دور الأطباء لايتجاوز التصنيف وإرجاع الأسباب إلى مصادر حسية تأثرا بـ "جون لوك" وغيره من الحسيين، في العصر الكلاسيكي.

أما في العصر الحديث مع "بينال" فإن الجنون يحلل على أرضية وضعية، وذلك بتحريره أولا من المعازل التي كان يقيد فيها في العصر الكلاسيكي، وثانيا بدراسته من الناحية النفسية، وهو ما يتناسب وظهور علم النفس المرضي.

إلا أن ما يشير إليه فوكو في إطار تفسيره للتاريخ، هو أن تحرير المجانين لم يكن نتيجة من نتائج الثورة الفرنسية، بل نتيجة لأزمة المعازل ذاتها، وعلم النفس المرضي انبثق من هذه الأزمة، يقول: (إن العزل قد تعرض لأزمات عنيفة هي التي كان لها الفضل في إظهار وتكوين ذلك الإحساس الجديد الذي كان مقابل ذلك ضخم من مزايا الطبيب المداوي ووصل بمنزلته تقريبا إلى درجة الأهمية(...) و[عليه] فإن التحليل النفسي لن يستطيع أبدا أن يسمع صوت اللاعقل معاصرا للثورة الفرنسية، أي أن النظرة الجديدة كانت ذات طابع سياسي بالدرجة الأولى)(٢١)

ومن هذا المعطى رأى أطباء أمثال "تنون "Tenon"و"كبنيس "Cabanis"ضرورة إعطاء الحرية للمجنون ولو داخل المستشفى، وهو نفس المبدأ الذي استعمل في التحليل النفسي، حيث أصبح الطبيب النفسي يظهر بمظهر الحكيم، كما تم التركيز على اللغة،

---

(٢٠) Michel Foucault , **Histoire De La Folie A L'age Classique** , p.106.

(٢١) Michel Foucault , Histoire De La Folie A L'Age Classique , p.418.

وهو الاكتشاف الكبير لـ"فرويد" . إلا أن ما يلاحظه فوكو هو أن لحظة علم النفس الوضعي، تبدأ بلحظة النفي، ذلك أن حقيقة الإنسان لا تنكشف إلا لحظة اختفائها في اللغة، أو أنها لا تظهر إلا بعد أن تصبح شيئا آخر مخالفا لذاتها، وعليه فإن مؤسسة الطب النفسي ليست بريئة تماما وليست طبية تماما :(إنها مؤسسة متورطة بشكل أو بآخر مع مؤسسات القمع الأخرى في المجتمع ومع الطبقة البورجوازية المهيمنة)[٢٢]

وإن المستشفى ليس فقط مؤسسة علاجية كما يوحي بذلك اسمها، بل هي مؤسسة بورجوازية، كما أن الطبيب الذي يلعب دور الحارس في العصر الكلاسيكي قد تحول في العصر الحديث إلى لعب دور الوسيط ليس فقط بين العقل والجنون، ولكن أيضا دور الحكيم والوصي على القانون الأخلاقي والقضائي.

إنه "فرويد" الذي قام فعلا بنزع :(الأساطير عن كل البنى الموجودة في المصحات النفسية، وحذف الصمت والنظرة، وألغى تشخيص الجنون عن طريق تحديقه في مرآة منظاره الخاص بالذات، وأخرس كل أصوات الإدانة، إلا أنه وفي مقابل ذلك ضخم من مزايا الطبيب المداوي ووصل بمنزلته تقريبا الى درجة الألوهية (...) وعليه فان التحليل النفسي لن يستطيع أن يفك ألغاز علامات الجنون)[٢٣]

وتعتبر هذه النتيجة الأخيرة، من أهم النتائج التي توصل إليها فوكو في دراسته للجنون، ومضمونها أن المعرفة العقلية أو الفلسفية والطبية أو الوضعية، لم تفهم ظاهرة الجنون، لذلك كانت مهمته ليست دراسة هذه المعارف أو تاريخها، وإنما دراسة الشروط القبلية التاريخية لهذه المعارف والخطابات، أو بتعبيره إقامة أركيولوجيا خطاب الجنون، وعليه نستطيع القول، أن تحليل فوكو لتجربة الجنون، يقوم أساسا على أن :

١ - تاريخ الجنون :(دراسة لما قبل تاريخ الطب العقلي والنفسي ولتاريخه البدئي، ويظهر لنا فيه نموذج الانتربولوجيا البنيوية، وذلك في آن معا، في الوسائل المستخدمة لتحليل الخطابات وفي الابتعاد المنهجي عن ثقافة فوكو الخاصة)[٢٤] أي الثقافة الأدبية المتمثلة خاصة في أعمال "بتاي" و"بلانشو" والميل أكثر إلى التحليلات البنيوية التي تأثر بها نتيجة قراءته لأعمال "دوميزل" و"ليفي ستراوس" .

---

(٢٢) هاشم صالح ، **فيلسوف القاعة الثامنة**، مرجع سبق ذكره ، ص١٨ .

(٢٣) Michel Foucault . **Histoire De La Folie A L'Age Classique** . p.529.

(٢٤) يورغن هابرماس، **كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل** ، مرجع سبق ذكره، ص ، ٥.

٢ - يتسع تاريخ العلوم عند فوكو ليشمل تاريخ العقلانية، فبقدر ما يدرس الجنون من خلال الأعمال الفنية والأدبية والفلسفية والعلمية،، بقدر ما يدرس العقل، لذلك فإن **تاريخ الجنون** بوجه من الأوجه هو دراسة نقدية للعقل الغربي .

٣ - لايحدد فوكو أبدا وبشكل نهائي ما يقصده بالجنون، إنه يدرسه فقط كتجربة ثقافية عرفتها أوروبا ، ولعل ما يسجل عليه هو كونه يتعامل دائما بكلمات غير محددة بشكل دقيق، كمفهوم اللغة، أو الخطاب، أو الجنون، أو الإنسان...إلخ.

٤ - يرى فوكو في علم النفس والتحليل النفسي شكلا من أشكال الاستبداد الذي يمارسه العقل على الجنون، ومن هنا تساؤله الاستنكاري عن كيفية الحديث عن الجنون بلغة العقل؟ ومناقشته لاحقا لمسألة المعرفة والسلطة.

٥- إن فوكو في تساؤله عن الجنون إنما يرسم في الواقع لوحة العقل وحدوده، فالأمر كما يقول "برنار هنري ليفي " يتعلق :(بعقل قائم لا انطلاقا من أساسه، بل قائم بالنسبة إلى ضفته)(٢٥) ومن هذا الموقع يبدي فوكو إفتتانا وتعاطفا كبيرين تجاه الجنون.ذلك أن الجنون ليس أكثر من شكل معرفي عجزت الثقافة الغربية سواء في العصر الكلاسيكي أو العصر الحديث، عن إدراكه.كما يكشف **تاريخ الجنون** عن انقسام المجتمع إلى الذات والآخر، إلى العادي والمرضي، إلى المألوف والغريب، إلى العاقل والمجنون، إلى الأساسي والمهمش، وتاريخ الجنون بهذا المعنى هو تاريخ المبعد والهوامش.

٦- تاريخ الجنون ليس بالتاكيد تاريخ التقدم العلمي. وفوكو يدافع عن (فكرة أن العلوم الإنسانية لم تيسر إلا قليلا قيام معرفة موضوعية للكائن البشري)[٢٥]

ولكنه وفي نفس الوقت لا يمكن فصله على المدرسة الإبستيمولوجية الفرنسية كماهو عند "باشلار" و"كونغليم" من حيث الاهتمام بتاريخ العلوم في فترة معينة وحقبة زمنية محددة، مع فارق أساسي هو أن دراسة فوكو لتاريخ العلوم، كعلم النفس والطب، لايفصله عن تاريخ الأدب والشعر والفن، من هنا نفهم حضور أسماء فنية وفلسفية وعلمية في نص فوكو.

٧- يرفض فوكو سلطة العقل العلمي والفلسفي على السواء، هذا الرفض هو الذي كان مصدر نقد بعض العلماء لإهمال فوكو للجانب الطبي وتركيزه على الجانب الثقافي والحضاري للأمراض العقلية. ونقده للديكارتية مثال وشاهد على رفضه للعقلانية كما

---

(٢٥) برنار هنري ليفي، **نسق فوكو**، في، **نظام الخطاب**، ترجمة، د.محمد سبيلا، ص٥٤ .

تطورت في التاريخ الغربي، ونقده للمعرفة الوضعية، وعلم النفس كان وراء ظهور الحركة المناهضة للتحليل النفسي في فرنسا وبريطانيا وأمريكا، وخاصة بعد أحداث ١٩٦٨ .

٨- إن ما يثير التساؤل فعلا هو أن فوكو لا يدرس الجنون من أجل أن يجد له العلاج، أو التعديل ولكن ليتخذه كمعيار، وكحقيقة اجتماعية أو وجودية في بعض الأحيان، هذا التوجه يسري على باقي أعماله، وهو ما انتبهت إليه "كيرزويل" بقولها أن فوكو :(ينظر إلى الانحراف بوصفه حقيقة اجتماعية ووظيفة معيارية، ويركز على الكيفية التي يتم بها معالجة الانحراف، كما يركز على القائمين بهذه المعالجة خلال حقب تاريخية متعددة)(٢٦)

٩- إن هذه الدراسة هي التي سمحت له بربط الجنون بمختلف الممارسات الخطابية كالممارسات الأدبية والفنية والقانونية، وأن لا يدرسها من خلال بنيتها اللغوية أو المنطقية، أو الدلالية، ولكن من خلال شروطها التاريخية، أو من خلال القبلي التاريخي الذي يسمح بظهور خطاب ما ، كخطاب الجنون .

١٠ - لا يمكن لنا ، أن نفصل دراسة فوكو عن بعض الدراسات التي ظهرت في بداية الخمسينيات، وخاصة الملف الذي أعدته مجلة " Esprit" عن الجنون سنة ١٩٥٢ ، وكذلك بعض مواقف الأدباء والشعراء، كموقف "ارتو" الذي رفض الطب النفسي منذ سنة ١٩٤٨ ، والذي أعلن أنه :(ضد الطب النفسي وضد المجتمع المريض، وطالب بالحق في الجنون، ويعتقد أن الطب النفسي بدعة أوجدها المجتمع البورجوازي للحفاظ على مؤسساته ضد الناس الأذكياء وذوي التفكير الشـــفاف.المجتمع هو المريض وهو الذي يدفع بالناس إلى الجنون)(٢٧)

ولكن فوكو كما هو معلوم، لم يتوقف عند ظاهرة الجنون فقط، بل درس مجموعة من الظواهر قريبة من الجنون، كدراسته للمرض في إطار تاريخ الطب وذلك في كتابه **مولد العيادة**. وبهذا المعنى، يعتبر هذا الكتاب استمرارية لتاريخ الجنون من حيث التباس الموضوع ونقلة نحو أعمال لاحقة، وخاصة **الكلمات والأشياء**، حيث قام بدراسة التاريخ الطبيعي والبيولوجيا والاقتصاد وكيفية تشكل العلوم الإنسانية.

---

(٢٦) إديث كيرزويل، **عصر البنيوية**، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٨ .

(٢٧) غسان يعقوب، **مادة جنون**،في،**الموسوعة الفلسفية العربية**،مرجع سبق ذكره، ص٣٣٩ .

لقد كان العنوان الفرعي عند صدور **مولد العيادة** سنة ١٩٣٦، هو : **أركيولوجيا النظرة الطبية**، ناقش فيه أربعة مفاهيم أساسية هي: مفهوم الرؤية أو النظرة، ومفهوم المكان أو الحيز، ومفهوم اللغة وأخيرا مفهوم الموت.وهذا من خلال سؤال أساسي هو: كيف تحولت الرؤية أو النظرة إلى معرفة؟ وكيف تحول المحسوس إلى منطوق وخطاب؟

وللإجابة على هذا السؤال قرأ فوكو الأرشيف الطبي للمرحلة الممتدة من سنة ١٧٨٠ إلى ١٨٢٠ . من هنا يرى وجوب قراءة كل شيء يتعلق بالموضوع، وأن يكون تحت تصرف الباحث الأرشيف العام للحقبة المدروسة، ذلك أن الأركيولوجيا ليست أكثر من العلم الذي يدرس الأرشيف[٢٨]

وبالإستناد على هذه المقاربة المنهجية، درس مجموع الممارسات الخطابية للطب الحديث، وأرجعها إلى ثلاثة أنواع هي : الطب التصنيفي والطب العيادي والطب التشريحي، فماهو المضمون المعرفي لهذه الأنواع المعرفية ؟

ساد العصر الكلاسيكي طب الأجناس أو طب التصنيف، وهو طب يقوم على تصنيف الأمراض بشكل هرمي وردها إلى أنواع وأجناس، وكانت القاعدة الطبية المعتمدة هي : لا تعالجوا أي مرض دون أن تتأكدوا من جنسه.

إنه طب لا يتعرض للأسباب والعلل. بل ينسج معرفته وفق نظام العالم.يقول "سيد نهام Sydenham":(إن من يلاحظ باهتمام بداية ظهور الحمى وما يصاحبها من أعراض، سيكون لديه من الأسباب ما يؤكد أن هذا المرض - من الجنس والنوع - (Espece) يقال عنه ما يقال عن جنس النبات، لأن جنس النبات ينمو ويتفتح ثم يذبل دائما على نفس الوتيرة)[٢٩] لقد كان المرض في نظر أطباء العصر الكلاسيكي جزء من الطبيعة، وكان على الطبيب أن يعرف بدايته ومرتبته وجنسه ونوعه، أي وضعه في لوحة ثابتة .

إلا أنه ومع نهاية القرن الثامن عشر، ستتكفل الدولة بتعيين الأطباء في مختلف الأقاليم، وتبدأ السلطة تتدخل في المسائل المتصلة بصحة الجمهور، ويكون هذا بداية ظهور الشكل الثاني من الطب وهو الطب العيادي، حيث ستصبح العيادة المكان الذي تتقاطع فيه النظرة بالمنطوق . ويتأسس طب على مفهوم النظرة أو الرؤية، نظرة مؤسسة وحاسبة ترتبط بقواعد المعرفة، وهذا على مستويين، مستوى البناء اللغوي للعلامات، ومستوى إدراك الحالة.

يقول "ديمورسي دلتر Demorcy - Delettere في كتابه " محاولة في التحليل

---

(٢٨) Rymond Bellour, Le Livre Des Autres, Op-Cit ،p.17.

(٢٩) Michel Foucault ،Naissance De La Clinique, p.6.

التطبيقي لتحسين علم الطب" :(إن جميع الأعراض يمكن أن تتحول إلى علامات لدى الطبيب الذي يتمتع بثقافة مكتملة ورفيعة) كما يقول "بينال":(ينبغي أن ينظر إلى المرض على أنه كل غير منقسم، من بدايته إلى نهايته، وينتظم في أعراض تتابع على فترات)(٣٠)

وعليه فإذا كان الطب التصنيفي يقيم قوائم الأجناس والأنواع، فإن الطب العيادي يبحث في التطابق بين الرؤية والكلام، والحقيقة الظاهرة للمرض.ذلك أن المرض في الطب العيادي لا وجود له إلا إذا كان مرئيا وبالتالي منطوقا، معنى هذا أن المرئي والمنطوقي يشكلان كينونة المرض. كما يتميز الطب العيادي بدراسة وإدراك الحالات وهو ما قام به "كبنيس" باقتراحه لطريقة دراسة الحالات، ومنها:

١ - حساب درجات اليقين، كحساب حمل المرأة وتقسيمه إلى ثمان درجات .

٢- الاستفادة من تكرار الحدوث.يقول "دوبل" :(يمكننا أن نعثر على أسس القوانين العامة للطبيعة وذلك بدراسة الظواهر المتكررة ويتأمل نظام علاقاتها وتتابعها المنتظم)(٣١) وهذا بالاعتماد على أكثر من ملاحظة وطريقة لدراسة نفس الظاهرة، فالرؤية الطبية تخضع للبناء الإحصائي، والإدراك ليس مجموعة من الأجناس، بل مجال من الأحداث.

٣- تطبيق مبدأ التماثل ' ذلك إن دراسة تركيب العناصر إنما تظهر صورا متماثلة وآنية تسمح بمقارنة أعراض أو أمراض متحدة في الهوية.

إن هذه الطرائق وغيرها تجد مكانتها في منطق "كوندياك" الذي أكد على دور الإحساس والتجربة، ومن المعروف أنه :(كان تلميذا للوك لكنه أكثر تشددا من معلمه.فانطلاقا من المشاهدة القائلة أن الإحساس هو مبدأ معارفنا، أراد أن يستخلص من هذه الواقعة تولد ملكاتنا...وكانت فلسفته المرشد لأكثر من عالم يطمح إلى أن يحبس نفسه في دائرة دراساته الخاصة)(٣٢)

---

(٣٠) Ibid , p.94

(٣١) Ibid . p.103.

(٣٢) جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة.بيروت، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ٥٠٧ .

وهذا ما يؤكده كذلك الطبيب "كبنيس" بقوله: (إن اليقين إنما يكمن في إحساسات الفنان، لا في مبادئ الفن)(٣٣) إلا أن الطب عرف مع "بيشا «Bichat» شكلا جديدا من الممارسة الطبية، وهو ما عرف بطب التشريح، وذلك من خلال أعماله حول : علم التشريح العام، ودراسة في الأنسجة، وهي الأعمال التي أرست المبادئ الأولية للمعرفة الطبية، وخاصة دعوته إلى فتح وتشريح الجثث، وهو العمل الذي كان ينكره ويمنعه الدين. وفي هذا السياق يقول "ألبرت "Albert في كتابه "تصنيف الأمراض" :(عندما امتد ضياء الفلسفة إلى آفاق الشعوب المتحضرة، أصبح من الممكن للنظرة الفاحصة أن تنتقل بين رفات جسم بلا حياة، كانت فريسة للدودفأصبحت منبعا لا ينضب للعديد من الحقائق النافعة)(٣٤)

فبالتشريح ودراسة الأعضاء والأنسجة يبدأ الطب الوضعي ويتغير مفهوم المرض، إذ لم :(يعد مجموعة من الأعراض تنتشر على سطح الجسد وترتبط فيما بينها بعلاقات تلازم أو تتابع يمكن أن يطبق عليها المنهج الإحصائي، إنه بالأحرى مجموعة من الصور والأشكال والأحداث التي تترابط مكونة سطحا جغرافيا يمكن أن يتفحصه الطبيب خطوة بخطوة)(٣٥)

لقد احتلت فكرة الموضع أو مكان المرض في الجسد مكان الريادة، وهذا ما يقوله "بويو": (لو كان في الطب بديهيات لكانت أولاها هذه القضية: لا وجود لمرض دون تحديد دقيق لموضعه في الجسد.وإذا قبلنا عكس هذه القضية كان علينا أن نقبل أن الوظائف توجد بلا أعضاء، وهو قول واضح بطلانه.إن تحديد مكان المرض في الجسم هو من أهم منجزات الطب الحديث)(٣٦)

إن هذه الفكرة مضاف لها فكرة أخرى أساسية في طب التشريح هي فكرة الموت، والتي كان ينظر لها في الطب الإكلينيكي على أنها نهاية للمرض والمريض على السواء، فإنها أصبحت في الطب التشريحي ينظر إليها على أنها وجود متعدد وموزع على مراحل زمنية مثل المرض. يقول "بيشا" :(إنه في حالة الوفاة الطبيعية، فإن الحياة الحيوانية هي التي تنطفئ أولا، وتبدأ بخمود في الحس، وكسل في وظائف المخ

Michel Foucault **Naissance De La Clinique**, p.122.(٣٣)

Ibid, p.126 (٣٤)

Ibid , p. 138(٣٥)

Ibid, p.146. (٣٦)

وضعف في القدرة على الحركة وتصلب في العضلات وشلل في الأمعاء وأخيرا توقف في القلب)[٣٧] لقد كان على الخطاب العلمي أن يمر بلحظة الموت كي يصبح علميا، كما لم يصبح الإنسان الغربي إنسان علم أو موضوع عالم إلا بعد انفتاحه على واقعة فنائه الخاص، أو إمحائه التام، وهكذا نشأت عن خبرة الجنون كل النظريات السيكولوجية، كما تولدت من تفسير الموت دراسة الطب الحديث الذي سيكون بداية لدراسة الإنسان الغربي باعتباره إنسان حي .وستتكفل بعض العلوم بنواحي أخرى مثل تكفل الاقتصاد بالإنسان العامل واللسانيات بالإنسان الناطق.

إن هذه المجالات الثلاثة هي التي ستكون القاعدة العلمية لظهور علوم الإنسان، وهو عنوان الكتاب المشهور الذي نشره سنة ١٩٦٦ بعنوان **الكلمات والأشياء : أركيولوجيا العلوم الإنسانية**. وهكذا فانه إذا كان **تاريخ الجنون ومولد العيادة** يشكلان خطابا حول الآخر المبعد والمهمش، فإن **الكلمات والأشياء** خطاب حول الذات وإنجازاتها العلمية والفكرية بدءا من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، وهي المرحلة التاريخية التي عرفت ظهور علوم الإنسان أو خطاب حول الإنسان يتشكل من مجموعة من التشكيلات الخطابية المقسمة إلى حقب تاريخية هي:

أولا- عصر النهضة :

يرى فوكو أن المعرفة في هذه الحقبة محكومة بالتشابه والنظرة الساذجة والدهشة أمام ظواهر العالم، لقد كانت عبارة عن : (خليط من الكلمات والأشياء يسبح في وسط كوني مقدس ومتشابك العناصر، كل عنصر فيه يسمح بالمرور إلى الكل، كما يسمح بالمرور إلى أي عنصر آخر، وهنا تتجلى ظاهرة المشاركة كما يظهرها التماثل)[٣٨]

لقد كانت المعرفة في عصر النهضة مقصورة على أن لا تعرف إلا ذات الشيء. وهذا نتيجة التشابه الذي يشكل إبستيمية هذه الحقبة، وهو ما عبر عنه فوكو بقوله: (حتى نهاية القرن السادس عشر، لعب التشابه دور الباني في المعرفة الثقافية الغربية، فهو الذي قاد في جزء كبير تفسير النصوص وتأويلها وهو الذي نظم لعب الرموز وسمح بمعرفة الأشياء المرئية واللامرئية وقاد فن تمثيلها وتصورها)[٣٩]

(٣٧) Ibide. p.145.

(٣٨) ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص٥٣ .

(٣٩) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

ظهر هذا التشابه في أربعة أشكال هي: التوافق مثل النفس والجسد، والمنافسة مثل الوجه والسماء، والتماثل والقياس مثل النجوم والسماء والعشب والأرض، والتعاطف أو التنافر الذي يسمح بتفسير التشابهات الثلاثة الأولى. كما يرتبط التشابه بالتواقيع، فلمعرفة التشابهات، يجب اكتشاف مختلف التوقيعات وفك رموزها، ذلك أن التواقيع تظهر العلاقة بين المرئي واللامرئي، فالتشابه هو اللامرئي والأشياء هي المرئية. وعلى هذا الأساس فإن: (معرفة القرن السادس عشر قد حكمت على نفسها بأن لا تعرف دوما سوى الشيء نفسه ولكن لا تعرفه إلا في نهاية لا يمكن بلوغها إطلاقا)[٤٠] إن هذه المعرفة تتكون من خليط من المعارف العقلية والسحرية، ومن تراث قديم . لذلك فإن بنيتها المعرفية هشة، يتقاطع فيها الماضي بالمستقبل ويغلب عليها التأويل نتيجة وضعية الإشارة أو العلامة، والعلاقة الذاهبة من الإشارة إلى الشيء.

من هنا كانت اللغة كما أوضحنا ذلك في الفصل الأول، هي الموضوع الأساسي في معرفة عصر النهضة، وهي ليست أكثر من نقل لغة إلى لغة، من لغة الأشياء إلى لغة الكلمات ، وهذا ما سمح بسيطرة التأويل على علوم عصر النهضة، هذه العلوم التي يتخذها فوكو مقدمة ومدخلا لدراسة الحقبة الثانية والأساسية من عمله الأساسي وهي :

ثانيا- *العصر الكلاسيكي*:

تمتد الحقبة الكلاسيكية من ١٦٦٠ إلى ١٨١٠، وتقطع مع إبستيمية عصر النهضة لتؤسس إبستيمية جديدة هي إبستيمية التمثيل أو التصوير، فمع بداية القرن السابع عشر يكف الفكر عن التحرك في إطار التشابه الذي يرتبط بالوهم، وذلك تحت تأثير نقد "بيكون" و"ديكارت".

لقد كان نقد "بيكون" نقدا تجريبيا لكل أشكال التشابه التي تعتبر من الأصنام الواجب تجاوزها لتأسيس معرفة علمية، وفي هذا يقول : (إن العقل الإنساني محمول بالطبع على أن يفترض في الأشياء نظاما وتشابها أكثر مما يجده فيها، في حين أن الطبيعة مليئة بالإستثناءات والإختلافات، إن العقل يرى الانسجام والاتفاق والتشابه في كل مكان)[٤١] أما نقد "ديكارت" فكان نقدا عقليا أحل في مكان التشابه مفهوم المقارنة التي تعني إما مقارنة القياس أو مقارنة النظام، مع إضافة فكرة التحليل.

---

(٤٠) نفس المصدر، ص ٤٩ .

(٤١) نفس المصدر ، ص ٦٥ .

وعلى هذا الأساس ظهرت إبستيمية العصر الكلاسيكي مقرونة بالرياضيات أو في علاقة بالرياضيات، وبقيت حتى نهاية القرن الثامن عشر ثابتة غير متحولة.ولقد أظهرت هذه العلاقة فكرتين أساسيتين، الأولى هي العلاقات بين الكائنات، والثانية هي القياس، مع تغليب لفكرة النظام، وبهذا التصور يصبح التحليل في نظر فوكو منهج كلي وعام. كما أن هنالك علاقة أخرى يقيمها التمثيل مع التصنيف الذي يسمح بظهور عدد من المجالات التجريبية، وهي: النحو العام وتحليل الثروات والتاريخ الطبيعي.هذه المجالات تكون في علاقة مع النظام والتي يسميها فوكو بالعلوم التجريبية القائمة على التصنيف على عكس ما كانت عليه في عصر النهضة في علاقة بالتأويل.

ومرة أخرى تكون اللحظة الديكارتية هي الفاصلة، فإذا كانت إقصائية بالنسبة للجنون فإنها تأسيسية بالنسبة للذات ومعارفها، وذلك للدور الذي ستلعبه الرياضيات الديكارتية في العصر الكلاسيكي واعتمادها كأداة للقياس والمقارنة بين الأشياء باعتبارها علما كونيا عاما للنظام، لكن هذا لا يعني بالنسبة لفوكو أن الميكانيكا الديكارتية أوالنيوتونية هي نموذج الإبستيمية في العصر الكلاسيكي،بل إن نموذجها هو النظام العام للعلامة والذي عرف مفهوم الخطاب. فالخطاب هو المقولة المركزية في المعرفة الكلاسيكية وذلك في إطار إبستيمية التمثيل كما بينا ذلك في الفصل الأول.

وعلى هذا الأساس المعرفي، ظهرت العلوم التجريبية وشكلت مختلف الممارسات الخطابية في العصر الكلاسيكي، في إطار علم عام للنظام، ممثلا بالرياضيات والتصنيف ونظرية العلامة. إن هذا العلم القائم على العقلانية الديكارتية، لا يشكل في نظر فوكو تجديدا ، بل يشكل قطيعة «Rupture» مع المعرفة السابقة، معرفة عصر النهضة القائمة على التشابه والمعتمدة على التأويل.

فما حدث في العصر الكلاسيكي هو ظهور مجال التجريبية، وكما يقول: (إن ما هو هام هو تكون في العصر الكلاسيكي لمجال من التجريبية لم يسبق له وجود حتى نهاية عصر النهضة والذي سينتهي-بدوره- إلى التلاشي، منذ بداية القرن التاسع عشر)[٤٢]

إن هذه الإبستيمية تتكون من مجالات ثلاثة هي : النحو العام والتاريخ الطبيعي وتحليل الثروات، وسوف نتعرض في تحليلنا إلى المجالين الأخيرين فقط، مادمنا قد حللنا المجال الأول في الفصل الأول من هذا البحث.

---

(٤٢) نفس المصدر ص ٨٠ .

أ- التاريخ الطبيعي :

إن السؤال المعرفي الذي يطرحه فوكو هو : كيف تمكن العصر الكلاسيكي من معرفة ميدان التاريخ الطبيعي، ذلك الميدان الذي صارت وحدته وبداهته تبدوان اليوم بعيدتين جدا وغير واضحتين؟

ينفي فوكو فكرة أن التاريخ الطبيعي حل محل الميكانيكا الديكارتية (فمن الممكن جدا -في نظره- أن ينشأ علم ما في أحضان علم آخر، أو من إخفاقه،أو حتى بمناسبة العوائق والمصاعب التي تعترضه، وفي الواقع فإن إمكان التاريخ الطبيعي الذي ظهر مع "راي "Raye"و"جونصطون "Jonston"و"كريسطوف كنوط Christophe Knaut"قد عاصر الديكارتية ولم يأت كنتيجة لإخفاقها)[٤٣]

معنى هذا أن نفس الإبستيمية كانت تتحكم في الميكانيكا الديكارتية والتاريخ الطبيعي، ففي سنة ١٦٥٧ نشر "جونصطون" كتابه عن :" التاريخ الطبيعي للحيوانات ذوات الأربع" واقترح "ليني "Linné» أن على كل :(فصل يتم فيه تناول حيوان بالدرس أن يتبع الخطوات التالية: الاسم، النظرية، الجنس، النوع، الصفات، الاستخدام، وأخيرا ما قيل فيه أو كتب عنه من أشعار وحكايات)[٤٤]

بهذا يكون التاريخ الطبيعي مجرد تسمية للمرئي ولما يتم ملاحظته، وهدف الرؤية أو الملاحظة هو التوقف على بنية الشيء، من هنا تأتي أهمية مقولة البنية في دراسة النباتات، ويقصد بها بنية وتركيب وائتلاف القطع المكونة للنبات.وهكذا ترتبط ومن جديد، فكرة الرؤية واللغة، كما ارتبطت في **مولد العيادة** وذلك لأن فوكو لا يفصل نظرية التاريخ الطبيعي عن نظرية اللغة. فالتاريخ الطبيعي معاصر وملازم لتحليل اللغة.

ب- تحليل الثروات :

يشكل تحليل الثروات المجال الثالث للتجريبية، ويتحدد بكونه: (عبارة عن مفاهيم القيمة والسعر والتجارة والتداول والريع والفائدة)[٤٥] ولقد تميز تحليل الثروات في الحقبة الكلاسيكية بظهور النزعة الماركنتيلية التي تركز على النقود وتقيم علاقة ضرورية بين الثروة والنقد. والفكرة الأساسية لهذا الإتجاه هي أنه ما من ثروة إلا وتقبل أن تقدر نقدا، مما يمكنها من الرواج والتداول.

---

(٤٣) نفس المصدر، ص ١٢٢ .

(٤٤) نفس المصدر، ص ١٢٣ .

(٤٥) نفس المصدر، ص ١٥٣ .

والثروة في الماركنتيلية هي التي تقبل قيم التمثيل، والنقد هو الذي يسمح بتمثيل الثروات . وكيفما (كانت المحددات والنتائج الاقتصادية الماركنتيلية فإن البحث في مستوى الإبستيمية التي أفرزت هذه الأخيرة، يجعلها تظهر لنا كمجهود متأني وطويل يرمي إلى إعطاء التفكير في الأسعار والنقد وجهة تقوده إلى تحليل التمثيلات)[٤٦]

وبالإضافة إلى النقد نجد في الماركنتيلية مفاهيم أخرى، يحللها فوكو بإسهاب مثل: مفهوم الرهن والسعر والقيمة والمبادلة...إلخ. هذه المفاهيم كلها ترتكز على نفس القاعدة الإبستيمولوجية للعصر الكلاسيكي، ألا وهي قاعدة التمثيل، وهي التي تسمح بظهور مجال التجريبية الذي يخضع لمبادئ النظام والتصنيف والعلامة ، ونتج عنه:

١ - إن شروط إمكان التاريخ الطبيعي ونظريات النقد التجارة...هي نفس شروط اللغة.

٢ - يتم البحث في المعرفة انطلاقا مما يعاصرها وليس بالبحث في التأثروالتأثير.

٣ - هذا التوجه سمح لفوكو من الاستنتاج التالي وهو أنه لا وجود لمفهوم الإنسان في المعرفة الكلاسيكية وأن ما يوجد في هذه المعرفة، هو مفهوم الخطاب وسلطة الخطاب الذي يمثل نظام الأشياء والعلامات[٤٧]

ثالثا-العصر الحديث:

إن هذه المعرفة ستعرف انقلابا جديدا في بداية العصر الحديث، تتأسس على إثره، إبستيمية جديدة، هي إبستيمية الإنسان والتي ستقطع مع إبستيمية التمثيل، فماهي تفاصيل هذه الإبستيمية الجديدة وماهي مجالاتها الجديدة؟

تتكون هذه الإبستيمية الجديدة من مجالات ثلاثة هي : فقه اللغة، والبيولوجيا، والاقتصاد السياسي، هذه المجالات لن تنشأ على أنقاض المجالات الثلاثة السابقة أي تحليل الثروات والتاريخ الطبيعي والنحو العام، كما كان الأمر بالنسبة لتاريخ الفكر وطرقه، بل نشأت في نظر فوكو :(حينما لم تكن هذه توجد، أي في المكان الذي

---

(٤٦) نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٤٧) Rymond Bellour , Le Livre Des Autres , p.141.

تركته شاغرا، في عمق الأخدود الذي كان يفصل بينهما كقطاعات نظرية ثلاثة، والذي كانت تملؤه ضوضاء الاتصال الأنطولوجي)[٤٨]

يعني هذا أن الإبستيمية نشأت على أساس القطيعة مع إبستيمية العصر الكلاسيكي.وهكذا فبالإضافة إلى مفهوم الإبستيمية يحتل مفهوم القطيعة أو الانفصال المكان المركزي في الممارسة المعرفية لفوكو، وفي فهمه للتاريخ عموما وتاريخ العلوم خصوصا. وبواسطة هذه القطيعة تنشأ إبستيمية العصر الحديث بمجالاتها المعرفية الجديدة، وإذا كنا قد تعرضنا في الفصل الأول من هذا البحث لمجال فقه اللغة، فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نفصل الأمر بعض الشيء في مجالي:

أ- **البيولوجيا:**

على عكس التاريخ الطبيعي الذي يقيم تصنيفا اتصاليا بين الكائنات، فإن المفهوم المركزي في البيولوجيا هو مفهوم الحياة، الذي لم تعرفه المعرفة الكلاسيكية، وعلى يد "لامارك" يتم إقصاء التاريخ الطبيعي لصالح البيولوجيا، فهو الذي أكد في الخطاب الذي افتتح به كتاب "النباتات الفرنسية" على وجود تعارض جذري بين منهجين في دراسة النباتات، منهج يروم تحديد الصنف مطبقا: (قواعد تحليل تسمح باكتشاف الجسم عن طريق لعبة منهجية بسيطة أساسها ثنائية الحضور والغياب(...) ومنهج يبغي اكتشاف علاقات التشابه الحقيقية، وذلك عن طريق الدراسة الدقيقة لتنظيم الأنواع)[٤٩]

يرى فوكو في هذا التمييز إيذانا بنهاية عهد التاريخ الطبيعي وبداية لعهد البيولوجيا، والسبب في ذلك يعود إلى المعنى الجديد الذي أصبح يحمله مفهوم التنظيم، وهو المعنى الذي أعطاه "كوفييه "Cuvier لهذا المفهوم المركزي في البيولوجيا والذي لم (يعد مجرد مؤشر إلى فئة أو صنف من الكائنات، لم يبق مجرد مؤشر إلى انقطاع أو انفصال في فضاء التصنيف، بل صار إلى جانب ذلك يحدد القانون الداخلي لبعض الكائنات، ذلك القانون الذي يسمح لبنية من بنياته أن تلعب دور السمة)[٥٠]

---

(٤٨) نفس المصدر ص ١٨١ .

(٤٩) ميشال فوكو، **الكلمات والأشياء**، ص ١٩٩ .

(٥٠) نفس المصدر ، ص. ٢٠٠ . من الواضح أننا اختصرنا بشدة مجالي " الاقتصاد السياسي" و" البيولوجيا" في هذه الحقبة، وذلك لأننا سنتعرض بقليل من التفصيل إلى العلوم الإنسانية، وهو المجال الذي لم تعرفه الإبستيميات السابقة.

وهكذا أو كنتيجة لهذا المعنى الجديد، أفلت الكائن الحي، في مرحلته الأولى، من القوانين العامة للكائن الواسع، وبذلك انحصر واستقل الكائن البيولوجي، وتأسس علم للحياة على يد "كوفييه".

ب- الاقتصاد:

مع "آدم سميث" و"ريكاردو" يتغير الحقل المعرفي الذي ساد في العصر الكلاسيكي تحت اسم "تحليل الثروات" ليحل محله الاقتصاد السياسي القائم على قاعدة العمل مع الفارق بين تحليلات "آدم سميث" و"ريكاردو" من حيث العلاقة بين العمل والإنتاج والندرة.

ومما تجب الإشارة إليه هو أن العمل في نظر فوكو لم يعرفه إلا الاقتصاد السياسي، كما أن الماركسية لم تحدث :(على المستوى العميق للمعرفة الغربية أي شق فعلي [فهي] في فكر القرن التاسع عشر كما السمكة في الماء: أي أنها تتوقف عن التنفس في أي موضع آخر)[٥١] ولعل هذا الحكم كان السبب في الكثير من الانتقادات التي قام بها اليساريون عموما والماركسيون خصوصا لكتاب **الكلمات والأشياء** .

ومن هذه المجالات الجديدة للمعرفة أو الإبستيمية الحديثة، نعني "فقه اللغة والبيولوجيا والاقتصاد السياسي" ، ظهرت العلوم الإنسانية أي :(تلك المجموعة من المعارف (لكن حتى هذه العبارة قد تكون أقوى مما يجب: لنقل بالأحرى، لنبقى دون تحيز، هذه المجموعة من الخطابات) التي موضوعها الإنسان بماله من خاصية تجريبية)[٥٢]

قلنا سابقا أن المعرفة الكلاسيكية لم تعرف مفهوم الإنسان وأن نظام التجريبية الذي كان سائدا يحكمه مفهوم الخطاب، ولكن مع الإبستيمية الحديثة ونظامها التجريبي يظهر مفهوم الإنسان، وعلى أساسه تظهر العلوم الإنسانية.هذه العلوم لم ترث حقلا معينا مرسوم المعالم بل ظهرت يوم : (فرض الإنسان نفسه في الثقافة الغربية باعتباره هو ما يجب التفكير به وهو ما يجب أن يعرف في آن معا)[٥٣]

إن هذا الظهور لم يكن خارج بعض الأسباب التاريخية منها مثلا، ضغط المجتمع الصناعي وميلاد علم النفس، وآثار الثورة الفرنسية على التوازنات الاجتماعية وبروز

---

(٥١) نفس المصدر، ص ٢٢٣.

(٥٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

(٥٣) نفس المصدر ص،ص٢٨٣ - ٢٨٤ .

علم الاجتماع، إضافة إلى ما طرأ على التوزيع الشامل لإبستيمية العصر الحديث، لذلك تعتبر العلوم الإنسانية مظهر من مظاهر: (التقدم الذي حققته العقلانية التجريبية في تاريخ الثقافة الأوروبية)[٥٤]

وهكذا عرفت الإبستيمية الحديثة ثلاث مجموعات لم تعرفها الإبستيميات السابقة وهي مجموعة العلوم الطبيعية ومجموعة العلوم التجريبية والفلسفة، أما العلوم الإنسانية فتجد مكانها :(في ثغرات تلك المعارف أو بالأحرى في المجال الذي تحدده أبعادها الثلاثة)[٥٥] وبهذا تمكنت العلوم الإنسانية بالاتصال بسائر أشكال المعرفة والعمل وفق نماذج رياضية وبيولوجية واقتصادية ولغوية أو فلسفية. من هذا الموقع والوضعية الإبستيمية، يصعب تحديد العلوم الإنسانية وتحديد موضعها وهو ما يفسر عدم ثباتها وعدم دقتها، واستنادها بشكل غير محدد إلى مجالات معرفية مختلفة، وكذلك طابعها الثانوي دوما والمشتق بالرغم من إدعائها الشمولية، إن هذه الملامح هي التي تؤدي إلى تعقيد التشكيل الإبستيمولوجي الذي تقع داخله.إن هذا التعقيد يظهر أكثر في اقترابها تارة من نموذج الرياضيات أو من نموذج التأويل، ومن خضوعها ليس للإنسان فقط الذي يشكلها بل إلى الإبستيمية: (العامة التي تفسح لها المكان، تستدعيها وتنشئها، سامحة لها بهذا بأن تكون الإنسان كموضوع لها)[٥٦]

إن هذه العلوم يظهرها التحليل الأركيولوجي على أنها تشكيلات خطابية لا يمكن أن تكون علوما، وما يجعلها ممكنة، ليس وضعيتها العلمية، بل علاقة الجوار التي تنسجها مع البيولوجيا وفقه اللغة والاقتصاد السياسي.من هنا يرى فوكو أن لا: (جدوى من القول أن (العلوم الإنسانية) هي علوم خاطئة، بل هي ليست علوما على الإطلاق، فالتشكيلات التي تحدد وضعيتها وتجذرها في الإبستيمية الحديثة تمنعها من أن تكون علوما (...) لقد كونت الثقافة الغربية، تحت اسم الإنسان، كائنا يجب عليه أن يكون، لجملة أسباب مترابطة، ميدانا وضعيا للمعرفة، ودون أن يكون بمقدوره موضوع علم)[٥٧]

إن هذا الموقف الجذري لفوكو من العلوم الإنسانية، مبني أساسا، على وضعية

---

(٥٤) نفس المصدر، ص ٢٨٤ .

(٥٥) نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص. ٢٩٨ .

(٥٧) نفس المصدر، ص ٣٠٠ .

العلوم الإنسانية داخل نظام معارف الإبستيمية الحديثة، والتجريبيات التي تقوم بدراسة الإنسان، من جهة العمل والحياة واللغة.حيث لم يكن الإنسان موضوع علم أبدا، بل ميدانا وضعيا للمعرفة. وعلى هذا الأساس تشكلت جملة من العلوم الإنسانية، منها:

(أ) علم النفس في علاقته بالبيولوجية والإنسان الحي.

(ب) علم الاجتماع في علاقته بالاقتصاد والإنسان المنتج .

(جـ) الآداب في علاقتها باللغة والإنسان الناطق.

إضافة إلى هذه العلوم، يفرد فوكو مكانا لعلوم إنسانية منها :

(أ) التاريخ الذي يعتبر علم القرن التاسع عشر، ينسج علاقة خاصة بالإنسان الحي والعامل والناطق ويحيله إلى كائن تاريخي. ومنه ظهرت التاريخية وتحليلية التناهي، مع الإشارة إلى مدرسة الحوليات الفرنسية.

(ب) التحليل النفسي وأهمية خطاب اللاوعي الذي يتكلم من خلال الوعي، والرغبة، وجهد "فرويد" في تأسيس هذا المنهج.

(جـ) الأنتربولوجيا وعلاقتها بالتاريخية وخاصة في صورتها البنيوية، وبالثقافة الغربية وكذلك بالعقل الغربي، الذي يقيم مختلف العلاقات مع سائر المجتمعات. وأهمية عمل " ليفي ستراوس" وخاصة ذلك التقابل الذي يقيمه بين الثقافة والطبيعة. إن التحليل النفسي والأنتولوجيا تلتقيان في نقطة اللاوعي:(لا لأنهما تبلغان في الإنسان ما يقع وراء وعيه، بل لأنهما تتوجهان خارج الإنسان، نحو ما يسمح بتكوين معرفة وضعية حول ما يقع داخل قطاع الوعي أو يفلت منه)[٥٨]

كما أنهما لا تهتمان بالإنسان، بل بما يشكل حدوده الخارجية، وبذلك يتفق فوكو مع "ليفي ستراوس" في قوله :(إنهما تذيبان الإنسان)[٥٩] وعليه-وهو الأساسي في عمل فوكو- ليس الإنسان : (أقدم وأثبت إشكالية طرحت ذاتها على المعرفة الإنسانية، فإن اعتمدنا تعاقبا ضيقا [في التاريخ] وتقطيعا جغرافيا ضيقا -أي الثقافة الأوروبية منذ القرن السادس عشر- يمكننا التأكيد أن الإنسان هو اختراع

(٥٨) نفس المصدر، ص ٣٠٨ .

(٥٩) نفس المصدر ، نفس الصفحة.

حديث فيها [...] الإنسان اختراع تظهر أركيولوجيا فكرنا بسهولة حداثة عهده.وربما نهايته القريبة)[٦٠]

إن هذا الاستنتاج النهائي الصعب والخطير، يفرض علينا تسجيل جملة من الملاحظات منها :

١- إن البحث المنهجي لفوكو ومن خلال **الكلمات والأشياء** يقلب التاريخ التقليدي رأسا على عقب، فهو يتجاوز الأحداث المتتابعة والمتسلسلة، ليؤسس حقبا منطوقية منفصلة، سمحت له بأن يميز في إطار تاريخ العلوم بين علوم طبيعية، وعلوم تجريبية، وفلسفة وعلوم إنسانية، تقع بين مفاصل هذه العلوم.

٢- إن هذا البحث الأركيولوجي في أساسه، يهدف إلى الكشف على الأرضية التي تقوم عليها المعارف في مختلف الحقب، أو بتعبير آخر على الإبستيمية التي تحكم في حقبة زمنية معينة مجمل الخطابات المعرفية، وذلك بدراستها تزامنيا وفي إطار علاقاتها المختلفة، دون الاهتمام بتحولاتها وتطوراتها أو تقدمها، بل بالوقوف على لحظات الانفصال والقطيعة، وعليه فإذا كانت القطيعة الأولى قد أقامت الخطاب فإن القطيعة الثانية قد أسست إمكانية ظهور الإنسان،ولكن وفي نفس الوقت إمكانية اختفائه، وفوكو في هذا يعيد ما قاله "ليفي ستراوس" في المدارات الحزينة من أن العالم بدأ بدون الإنسان وسينتهي بدونه[٦١]

٣- إن مشروع فوكو ذو طابع كانتي، يظهر ذلك في بحثه عن القبلي التاريخي لمختلف المعارف والعلوم، ويعبر عنه مفهوم الإبستيمية، لحقبة من الحقب التاريخية التي درسها.

٤- إن مجمل النتائج التي توصل إليها فوكو، وخاصة في قضيتي اللغة -كما بينا ذلك في الفصل الأول- والإنسان، لا يمكن فصلهما عن أسئلة ورؤية ونتائج "نيتشه"، وخاصة فكرة "موت الإنسان" التي تعتبر ترديد لمواقف "نيتشه" من الأخلاق والميتافيزيقا ، ولكن فوكو يحصرها في مجال تاريخ العلوم والعلوم الإنسانية، بعد أن طبعها بطابع البحث الأركيولوجي، المزود بجملة من المفاهيم الخاصة به مثل : الأركيولوجيا ، والإبستيمية، القطيعة، وغيرها من المفاهيم التي شكلت جهازه النظري والمنهجي والذي سنناقشها في المحور الموالي .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٣١٣ .

(٦١) Claude Levi-Strauss ,Triste Tropique, ed. plon ،1955 . p.447.

المحور الثاني - خطاب المعرفة :

نعني بخطاب المعرفة جملة المفاهيم التي استخدمها فوكو لتحليل مختلف الممارسات الخطابية. ومما لاشك فيه أن عرضنا السابق لمختلف أشكال الممارسات الخطابية، يطرح جملة من الإشكاليات أهمها في نظرنا، مشكلتين :

الأولى متعلقة بمضمون وحدود المفاهيم المستعملة من طرف فوكو، والثانية العلاقات المختلفة فيما بين تلك المفاهيم وتشكيله لخطاب معرفي خاص به، والذي يمكن أن نطلق عليه اسم "الخطاب الأركيولوجي للمعرفة"، فماهي هذه المفاهيم، وماهي مختلف علاقاتها ؟

لعل أول مفهوم يجب أن نتوقف عنده ومن جديد لنجلي معناه ونرسم حدوده ونضبط علاقاته هو:

أولا - الأركيولوجية : سبق وأن ناقشنا في الفصل الثاني هذا المفهوم باعتباره منهج لدراسة الأرشيف، فهل بقي بهذا المعنى وهل تثبت الممارسات الخطابية هذا التوجه ، أم أن له معاني أخرى لم نتوقف عندها وعلاقات أخرى لم نبرزها، مثل العلاقة بالإبستيمولوجيا والعلوم الإنسانية؟ وهل الأركيولوجيا فرع معرفي جديد أو نظرية معرفية جديدة؟

إن مجموع هذه الأسئلة تجد إجابتها في التحليل ومن جديد لمفهوم الأركيولوجيا. ففي تعريف لفوكو أدلى به لمجلة « Lettres Françaises » قال: (إن الأركيولوجيا لا تعني بالضبط فرع معرفي، ولكنها حقل ومجال لبحث، والتي يمكن تحديدها بما يلي : في كل مجتمع هنالك معارف وأفكار فلسفية ومعتقدات شعبية ومؤسسات سياسية وتجارية، كل هذه تؤدي إلى نوع من الإبستيمية المضمرة التي تنتمي إلى هذا المجتمع)[٦٢]

ومهمة الأركيولوجيا تكون وفق هذا التعريف هي الكشف عن الإبستيمية، وعليه فإن الأركيولوجيا نوع من التاريخ النقدي الذي يبحث في أشكال الفكر لحقبة تاريخية معينة وذلك بدراسة شروط إمكان قيام المعارف من الناحية التاريخية وبحسب النظام المعرفي الذي يظهر المعارف والعلوم والفلسفات.

---

(٦٢) Michel Foucault, **Entretien**. In, **Les Lettres Francaises** , p.13. repris in, Les Périodes de Michel Foucault ،Par Maurice Crainston, Op-Cit, p.73.

إن الأركيولوجية تبحث في كل ما يساهم في الكشف على هذا النمط الفكري العام. ومن هنا فليس هنالك في نظر فوكو مؤلفين كبار ومؤلفين صغار أو أعمال أساسية وأخرى ثانوية ، أو فرع علمي له السبق عن الفروع الأخرى، إن الأركيولوجية تبحث في أرشيف مرحلة تاريخية برمتها. إنها تشتغل على كل ما يشكل الآثار المكتوبة، أي على ما يشكل الخطاب(٦٣)

نستنتج من هذا أن الأركيولوجية، ليست فرعا معرفيا قائما بذاته، ولكنها مجال للبحث، قائم على أساس بحث الشروط القبلية التاريخية لظهور المعارف، مختلف المعارف، في حقب تاريخية، وذلك من خلال الأرشيف المكتوب لتلك المرحلة.هذا يعني أن الأركيولوجية، دراسة للأرشيف المعرفي، أو الخطاب المعرفي ومن هنا فإن ما يقوله فوكو في **أركيولوجيا المعرفة** من كون :(إن ما تحاول الأركيولوجية وصفه ليس العلم في بنيته النوعية بل ميدان مخالف هو المعرفة)(٦٤) هذا التعريف للأركيولوجيا يعتبر تحديدا أكثر لميدانها وليس تناقضا مع مهمتها الأولى، أعني وصف الأرشيف .ولذا فإن ما يهمنا في هذا المحور هو دراسة موضوع الأركيولوجيا باعتباره موضوعا معرفيا يهدف إلى الكشف عن البنية التحتية لظهور المعارف، أو النظام العام للمعارف، أو بتعبير فوكو الكشف عن إبستيمية مرحلة من المراحل التاريخية للمعرفة.وعليه فإن الأركيولوجية ترتبط أساسا بمفهوم المعرفة الذي يرتبط بدوره بمفهوم الإبستيمية، وهذا ما يتطلب بدوره التحليل والمقارنة.

ثانيا -بين الأركيولوجيا والمعرفة :

تتميز المعرفة "Savoir"عن نظرية المعرفة "Théorie de la connaissance" في كونها لا تهتم بما هو حقيقي أو خاطئ، أو بما هو مقارب أو محدد أو بما هو متناقض أو منسجم، وذلك لأنها :(مجموع العناصر المشكلة ابتداءا من وضعية واحدة أو أكثر في حقل تشكيلة خطابية موحدة)(٦٥)

كما تتميز المعرفة عن العلم "Science"من حيث أنها أشمل منه، وأنه ينبثق منها أو من أحد عناصرها:(ففي عنصر المعرفة تتحدد شروط ظهور علم من العلوم أو جملة من الخطابات التي تتميز بالعلمية)(٦٦)

(٦٣) Michel Foucault ،Entretien, p.13.

(٦٤) ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ص١٨٦ .

(٦٥) Michel Foucault ،Reponse Au Cercle d' Epéstimologie ،p.32.

(٦٦) Ibid ، p.33.

وهكذا نصل إلى فكرة أساسية، هي أن المعرفة أشمل من نظرية المعرفة والعلم وأنها ترتبط مباشرة بالممارسة الخطابية والتشكيلات الخطابية التي لا تعني الفروع العلمية، وإنما الحقل الخطابي . إن المعرفة كما يقول "دلوز" نظام عملي ومجموع آليات، إنها :(وحدة بناء تتوزع في مختلف العتبات، بل البناء ذاته لا يوجد إلا كتكدس لتلك العتبات، تكدس يتخذ إتجاهات متباينة، والعلم ليس سوى تكدس واحد من تلك التكدسات)(٦٧)

إن العناصر المشكلة للمعرفة في مرحلة تاريخية معينة، ليست تلك الفرديات التي نعرفها تحت اسم "ديكارت" أو "بيكون" أو "داروين" ولا تلك الفروع العلمية مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الاجتماع...إلخ.ولكنها جملة الخطابات المختلفة والتي تحدد في مرحلة معينة المفكر فيه والذي لم يتم التفكير فيه والمستحيل التفكير فيه. هذه الجملة من الخطابات يحكمها نظام معرفي يسميه فوكو بالإبستيمية)(٦٨) وعليه فإن المعرفة بهذا التعريف تتميز بجملة من الخصائص أهمها :

(أ) إنها الميدان المكون من مختلف الموضوعات التي قد تحصل أو لا تحصل في المستقبل على صفة العلمية. مثل ما هو الحال في الطب العقلي في القرن التاسع عشر.

(ب) إنها الفضاء الذي يمكن للذات أن تحتل فيه موقعا تتكلم منه عن موضوعات اهتمامها داخل خطاب معين، مثل ما هو الحال في الطب العيادي.

(جـ) هي كذلك حقل تناسق المنطوقات وتضايفها ، فيه تظهر المفاهيم ويتم تعريفها وتطبيقها وتحويلها.كمفاهيم التاريخ الطبيعي.

(د) تتحدد المعرفة أخيرا بإمكانيات الاستعمال والتملك التي يوفرها الخطاب، كما يظهر ذلك في الاقتصاد السياسي(٦٩) إن هذه الخصائص الأربعة هي نفسها الفروض التي اختبرها فوكو في دراسته وتعريفه لمفهوم التشكيلة الخطابية،والتي أشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا البحث.

(٦٧) جيل دلوز، **المعرفة والسلطة**،مرجع سبق ذكره، ص ٥٩ .

(٦٨) Michel Richard et Jean francois, **Penseurs Pour Aujourd'hui**. Op-cit. p.64.

(٦٩) ميشال فوكو، **حفريات المعرفة** ، ص١٧٥ . كما يمكن العودة إلى الفصل الثاني وإلى عنصر التشكيلة الخطابية بالتحديد.

(هـ) (لا وجود لمعرفة بدون ممارسة خطابية محددة، فكل ممارسة خطابية تتحدد بالمعرفة التي تكونها...وبدلا من أن تجوب الأركيولوجيا محور الوعي -المعرفة-العلم...ترتاد محور الممارسة الخطابية المعرفة-العلم)[٧٠] وبذلك يكون "لكور" على حق عندما يرى في **أركيولوجيا المعرفة**، تأسيس لمفهوم الممارسة وتخل عن مفهوم الإبستيمية. و- على أساس الممارسة الخطابية، تقصي الأركيولوجية مفهوم الذات من المعرفة، وتعتمد على تحليل التشكيلات الخطابية المجهولة الهوية "Anonyme» إنها تحلل المعرفة في ميدان يسقط الذات من حسابه، كما يبحث لها عن موقع لا تختاره هي، ودون أن يكون في وسعها يوما أن تدري أن لها أي حق فيه[٧١]

(ى) المعرفة ليست العلم لأن المعرفة كممارسة خطابية: (لا تطابق الانبناء العلمي الذي قد تفسح له مجال الظهور، كما أن المعرفة التي تكونها تلك الممارسة، لا تمثل تباشير أولية ولا شكلا عاميا لعلم مكتمل النشأة.إن العلوم...تظهر في عنصر تشكيلة خطابية وعلى تربة المعرفة)[٧٢]

المعرفة إذن أوسع من العلم ومهمة التحليل الأركيولوجي هي إبراز كيفية انخراط العلم في المعرفة وكيفية مزاولته لعمله فيها، وهو يتميز عن المعرفة من كونه حقق بعض الشروط الإبستيمولوجية التي يجسدها نموذج الرياضيات.

إن الرياضيات هي العلم الوحيد والممارسة الخطابية الوحيدة التي اجتازت دفعة واحدة عتبتة الوضعية وعتبة التنظير الإبستيمولوجي وعتبة العلمية وعتبة الصياغة الصورية. ولكن وكما يشير إلى ذلك "دريفوس" و"رابينوف" فإن فوكو لا يركز كثيرا على هذه العلوم الدقيقة أو السوية بتعبير " كوهن «Kuhn» بل يهتم أكثر بتلك العلوم المشكوك فيها، أي العلوم الإنسانية باعتبارها ممارسات خطابية، غير محددة

---

(٧٠) فوكو ميشال، **حفريات المعرفة**، ص ١٧٥ . كما يمكن العودة أيضا إلى مقال "لكور" بعنوان : **Sur l'archeologie du savoir**. in La pensée 1970 ،No152، والذي يحاول فيه أن يثبت أن مفهوم الممارسة كما استعمله فوكو يقترب من الماركسية،وبذلك يتخلى فوكو عن المنظور البنيوي،ويقترب من المنظور التاريخي والماركسي.إلا أن الأعمال اللاحقة للفيلسوف لا تؤكد تماما هذا التأويل بل تؤسس توجها فلسفيا خاصا به دون أن تنكر تأثره بالنقد الموجه له من طرف الماركسيين.

(٧١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٧٢) نفس المصدر، ص١٧٦ .

المعالم. لذلك فإن وظيفة الأركيولوجيا ليست وصف العلم في بنيته النوعية، بل وصف ميدان مخالف هو المعرفة(٧٣)

وعلى عكس "التوسير" الذي يرى أن مهمة الإبستيمولوجيا هو التمييز والفصل بين الخطاب العلمي والخطاب الإيديولوجي فإن فوكو لا يرى أهمية لهذا الفصل أو لهذه المهمة ذلك أن الإيديولوجية عنصر حاضر في المعرفة والعلم، ولا يمكن فصله عنهما، ويرى أن :

(كل محاولة للقيام بوصف دقيق أكثر للعلائق الموجودة بين البنية الإبستيمولوجية للاقتصاد ووظيفته الإيديولوجية لا بد لها من أن تمر عبر تحليل التشكيلة الخطابية التي أفسحت المجال لظهوره ولمجموع الموضوعات والمفاهيم والإختيارات النظرية التي كان عليه أن ينشأها ويضفي عليه سمة النسق والمنظومة، وأن تبين كيف أن الممارسة الخطابية التي أفسحت المجال هي وممارسات أخرى ذات طابع خطابي، لظهور وضعية من ذلك النوع هي بدورها ذات طابع سياسي واقتصادي)(٧٤)

إن هذا النص يؤكد على أن تحليل عنصر الإيديولوجية، يكون في إطار المفهوم العام للمعرفة، أي في إطار نظام الوضعيات، والتشكيلات الخطابية، والممارسات الخطابية التي سمحت له بالظهور، وعليه يقرر فوكو أن :

(أ) الإيديولوجية ليست حكرا على العلمية، كما يذهب إلى ذلك "التوسير" بل هي أوسع من ذلك، ويمكن أن تشمل مجموع الخطابات، وأن تكون حاضرة فيها، دون أن تصف تلك الخطابات بمعايير الخطأ والتناقض أو نقص في الموضوعية.

(ب) يعتبر فوكو بأن النقص النظري لعلم من العلوم قد يكون مؤشرا لحضور الإيديولوجية، إلا أن تحليل هذا الحضور يكون بالعودة إلى مستوى الوضعيات والتشكيلات الخطابية.

(جـ) إن الأساسي في نظر فوكو -وهو ما يتعارض كلية ومفهوم "التوسير" للإيديولوجية- هو : (أن الخطاب في تصحيحه لأغلاطه، واستدراكه لأخطائه، وإضفائه صفة الدقة على صياغاته الصورية، لا يقطع بالضرورة

(٧٣) نفس المصدر، ص١٨٦ .

(٧٤) نفس المصدر، ص ١٧٨

كل الأواصر التي تجمعه بالإيديولوجيا، فدور هذه الأخيرة لا يتناقض بتزايد الدقة وانكشاف الخطأ)(٧٥)

لماذا؟ لأن فوكو يرى أن طرح مسألة الإيديولوجية في علاقتها بالعلم، يجب أن يكون -كما أشرنا-في إطار نظام الوضعيات والتشكيلات الخطابية، وكذلك في إطار مسألة وحقل جديد ورؤية جديدة في التحليل تبدأ في الظهور مع **نظام الخطاب والمراقبة والمعاقبة** نعني بذلك، علاقة المعرفة بإرادة المعرفة، أو علاقة المعرفة بالسلطة، وهو ما سنشير إليه في المحور الثالث من هذا الفصل .

إن مفهوم المعرفة وخصائصها التي أتينا على تحليلها تفرض علينا مناقشة السؤال الذي سبق لنا وأن طرحناه في بداية هذا المحور، ونعني به : هل أن الأركيولوجية بمفهومها الخاص للمعرفة تشكل نظرية في المعرفة ؟ وهل أن اعتمادنا على الوضعيات والتشكيلات الخطابية والممارسة الخطابية وإقصاء الذات ومنه إقصاء العلاقة بين الذات والموضوع يعتبر دليلا على قيام نظرية جديدة من النوع الأركيولوجي؟ وكيف يمكن لنا مناقشة هذه العلاقة؟ من المعروف أن الفلاسفة -ومنذ القدم-قد ناقشوا مشكلة المعرفة ، وأن معظمهم قد اتخذها مدخلا لبناء نظامه الفلسفي، إلا أنه ومع "كانط" ستصبح المعرفة موضوعا مركزيا في الفلسفة، وهذا من خلال سؤاله الأساسي : ماذا يمكنني أن أعرف؟

إن هذا السؤال الذي تفرعت منه أسئلة جزئية هامة هي ما نوع العلاقة التي تقيمها الذات مع الموضوع؟ وما هي الأدوات التي تستخدمها الذات لمعرفة الموضوع؟ وهل يمكن للإنسان أن يصل إلى الحقيقة أو هل يمكن قيام الحقيقة؟

لقد تعددت إجابات الفلاسفة عن هذه الأسئلة بتعدد مذاهبهم وأنظمتهم الفلسفية، وما يهمنا من هذا، هو التساؤل عن كيفية تعامل فوكو مع هذا الميراث الفلسفي، وهل قصد إلى إنشاء نظرية في المعرفة أو بتعبير آخر، هل يمكن اعتبار **أركيولوجيا المعرفة** نظرية في المعرفة إذا اعتبرنا **الكلمات والأشياء** تطبيقات معرفية؟ وكيف تحدد علاقة النظرية بالممارسة عند فوكو هذه القضية المركزية في كل نظرية المعرفة؟

إننا لا ندعي امتلاك الأجوبة الشافية حول هذه الأسئلة المشروعة، ولكننا سنحاول اعتمادا على نصوص فوكو أولا ، وعلى مختلف الدراسات ثانيا، للإجابة عن هذه الأسئلة المعرفية . ومن دون شك فان النصوص التي عرضناها سابقا ' تشكل قاعدة

---

(٧٥) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

لمناقشة هذه الأسئلة، والتي تؤكد في مجملها الطرح المغاير لمسألة المعرفة عند فوكو، الطرح الذي يقصي الذات من المعرفة كما أقصى المؤلف من إنتاج الخطاب وأحاله إلى موقع داخل الخطاب، وبذلك يكون قد ألغى أحد أهم معايير نظرية المعرفة ألا وهو معيار الذات -الموضوع.

كما أن فوكو لا يتساءل عن الحقيقي والخاطئ، عن الصحيح أو القريب من الصحة، عن العلمي والإيديولوجي، عن المنسجم والمتناقض، بل يتساءل عن كيفية تشكل الخطابات، وعن أساسها القبلي التاريخي، أو بتعبير فوكو عن الوضعيات ونظامها وعن التشكيلات الخطابية ومنطوقاتها.

إن الموقف المعرفي لفوكو-في نظرنا-نجده في تحليل "ريشارد رورتي "R.Rorty الذي ناقش أطروحة "هايكنغ "Hayking» القائلة أن فوكو أسس نظرية في المعرفة والتي نجد مثالها في **الكلمات والأشياء**، حيث تظهر **الكلمات والأشياء** وكأنها: (جملة من العقد في نسيج من النصوص .إنها مختلف الممارسات التي تشكل الموضوعات التي نتحدث عنها)(٧٦)

يعني هذا أن فوكو أسس نظرية في المعرفة قائمة على النصوص، وتجيب على السؤال التالي: كيف تظهر بعض الممارسات الخطابية؟ إننا نرى -مع رورتي- أن هذا التوجه لا يتفق والموقف العام لفوكو، الذي يبحث في الانفصال والقطيعة وإرادة المعرفة.وما يهم فوكو أساسا هو سياسة الحقيقة، أو تلك الإرادة التي تجعل من الخطاب حدثا.صحيح أن فوكو يوحي بأنه يريد تأسيس شيء مواز لنظرية المعرفة والإبستيمولوجية تحت اسم الأركيولوجية، إلا أنه لا يقول ما هو بالضبط، وعليه نتفق مع جميع الدراسات التي تقول إن **أركيولوجيا المعرفة** من هذه الوجهة، هي أقل أعمال فوكو نجاحا)(٧٧)

إن المشروع المعرفي لفوكو، يقترب من "نيتشه" أكثر مما يقترب من "ديكارت" أو "كانط" أو "هيجل" . وذلك لتساؤله عن إرادة المعرفة أكثر من تساؤله عن المعرفة ذاتها، ذلك أن مشكلة فوكو سياسية تاريخية أو تاريخية سياسية، وليست منطقية أو معرفية صورية، من هنا يتخلى فوكو عن البحث فيما هو حقيقي وموضوعي ويرتبط

(٧٦) Richard Rorty ،Foucault et l'epistemologie,In,Michel Foucault ،Lectures Critiques ،traduit de l'anglais ،par ،Jacques colson ،ed. universitaires ، 1989 ، p.56 .

(٧٧) Ibide ،p.57.

أكثر بمختلف الممارسات الخطابية التاريخية. هذه الممارسات التي تبقى تطرح مشكلة-سبق لنا وأن عرضناها في الفصل الثاني عندما ناقشنا علاقة الممارسة الخطابية بالممارسات غير الخطابية- تتعلق بعلاقة النظرية بالممارسة أو المعرفة بمختلف الممارسات الخطابية.

إن مختلف المواقف التي تبناها فوكو في تحليله لهذه المسألة، تبينها أعماله الكبرى، وهي أعمال تاريخية ترسم تطور معارف مختلفة في حقب تاريخية طويلة أو قصيرة.هذه المعارف التي يتناولها هي معارف مشكوك فيها مثل الطب العقلي أو التحليلي النفسي، حيث يصعب اختبار علاقة المعرفة بالممارسة أو النظرية بالتطبيق. لذلك نجده لا يفصل بين المعرفة وموضوعها ولا يبحث في الحقيقة بشكل مطلق وإنما يبحث في مختلف أنظمة الحقيقة وأشكال المعرفة عبر التاريخ.

وتاريخ الجنون مثال على عدم ثبات العلاقة بين النظري والتجريب، فمفهوم الجنون ليس معطا ثابتا حتى تتمكن المعرفة أو العلم من الإحاطة به، بل مفهوم متغير ومتحول وملتبس، يتقاسمه خط التعارض بين العقل والجنون، لذلك يظهر **تاريخ الجنون**، وكأنه عمل إصطلاحي Conventionaliste[٧٨]

وفي كتابه **مولد العيادة** يدرس فوكو تحولات الطب التي بدأت بطب التصنيف مرورا بالطب العيادي وانتهاء بالطب التشريحي، من زاوية العلاقة بين الرؤية والمنطوق ، بين الحالة والخطاب، وهو بهذا تعميق للنزعة الاصطلاحية، لمفهوم المرض.

أما في كتاب **الكلمات والأشياء** فيدرس ثلاث تشكيلات خطابية متتالية وفي حقب تاريخية متعاقبة، هذه المعارف هي: التاريخ الطبيعي، وتحليل الثروات والنحو العام ، تتبعها أو تحتل مكانها البيولوجيا، وفقه اللغة والاقتصاد السياسي. وفي تحليله لمختلف هذه التشكيلات لا يعود كلية إلى الممارسة أو التطبيق.بل يكتفي بدراسة الخطاب في استقلال تام عن أي ممارسة مادية أو تجريبية.وفي هذه الفترة يظهر المفهوم المميز لتحليلات فوكو ونعني به مفهوم الإبستيمية.

وهكذا تتحد فكرة استقلال الخطاب بفكرة الإبستيمية كنظام يحرك مختلف الخطابات وبذلك يصبح المنظور الاصطلاحي مؤكدا ، ونظرية استقلالية الخطاب واضحة، مما دفع بفوكو كما يقول "فيليب ميلر Philip Miller" إلى نوع من الاصطلاحية

(٧٨) Philipe Miller ،**Présentation** ، in ، Alain sheridan ، **Discours, Sexualité, et Pouvoir,initiation** ،ed, Pierre Mardaga ، 1980 p.11.

المطلقة " Le conventionalisme Absolu" « والتي تبناها في أركيولوجيا المعرفة حيث يحلل المعارف دون الرجوع إلى مفهوم الجدية والحقيقة(٧٩)

هذا الموقف والتحليل يناصره كذلك "دريفوس" و"رابينوف" في كتابهما عن فوكو ويخلصان إلى أنه في مرحلته الأولى قد ناصر فكرة الخطاب المستقل وهو ما اصطلحا عليه باسم "وهم الخطاب المستقل"(٨٠) إلا أننا نرى أن في هذا التحليل تجزيء لعمل فوكو فإذا كان صحيحا أنه قد انحاز في بداية أعماله إلى التحليلات الخطابية والممارسات الخطابية، فإنه بعد **نظام الخطاب** سيهتم أكثر بالممارسات غير الخطابية، أو بالممارسات المادية، وهذا من خلال مفهوم إجرائي هو مفهوم إرادة المعرفة والتحليلات الجنيالوجية، التي بدأها في **نظام الخطاب**، وطبقها في أعماله اللاحقة حول السلطة والجنس والأخلاق.

ثالثا – بين الأركيولوجيا والإبستيمية : يحتل مفهوم الإبستيمية في **الكلمات والأشياء** مكانة مركزية، فبه تم تفسير المراحل الثلاثة الكبرى للتاريخ الغربي، ونعني بذلك إبستيمية التشابه في عصر النهضة، وإبستيمية التمثيل في العصر الكلاسيكي، وأخيرا إبستيمية الإنسان في العصر الحديث، فما هو مضمون وخصائص هذا المفهوم المركزي؟

يعرف فوكو الإبستيمية في مقدمة كتاب **الكلمات والأشياء** بقوله: (إن ما نريد تبيانه هو الحقل المعرفي، الإبستيمية « Epistemé » حيث المعارف منظورا إليها خارج أي معيار يستند إلى قيمتها العقلية أو إلى صورها الموضوعية)(٨١)

إن الإبستيمية مقرونة مباشرة بالمعرفة، ولذلك فهي تشكل حجر الزاوية في المفهوم المعرفي لفوكو، هذا المفهوم يعادل حقل المعرفة على أن له معايير غير تلك المعايير التي ألفها التاريخ الفلسفي من نوع القيمة العقلية أو الأشكال الموضوعية. إن مهمة الإبستيمية هو أن : (تظهرهكذا تاريخا ليس تاريخ كمالها المتزايد وإنما بالأحرى تاريخ شروط إمكانياتها، ففي هذا العرض ما يجب أن يظهر إنما هو في داخل مدى المعرفة، التشكلات التي ولدت الصور المختلفة للمعرفة التجريبية)(٨٢)

---

(٧٩) Ibid, p.14.

(٨٠) دريفوس ورابينوف، ميشيل فوكو، مرجع سبق ذكره، ينظر القسم الأول من الكتاب.

(٨١) ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، ص ٢٥ .

(٨٢) نفس المصدر، نفس الصفحة .

إن هذا التعريف يبين مهمة الإبستيمية وهي مهمة تاريخية بالدرجة الأولى، تسعى للكشف عن الإمكانيات والشروط التاريخية لظهور المعارف ودراستها في صورها التجريبية، كما هو الحال في دراسة التاريخ الطبيعي وتحليل الثروات والنحو العام في العصر الكلاسيكي، أو الاقتصاد السياسي والبيولوجيا وفقه اللغة في العصر الحديث. فهذه الميادين هي الصور التجريبية للمعرفة والمحكومة بإبستيميات التشابه والتصوير والإنسان.

هذا يعني أن الإبستيمية نوع من النظام "Ordre" الذي يتحكم في المعارف التجريبية، على ألا نفهم من التجربة المعنى المخبري، بل المقصود المعنى العام الذي يتفق والقول بالتجربة الإنسانية.هذه التجربة أو التجارب هي، فيما يخص موضوعنا تجارب تاريخية، لذلك لا يمكن أن نفصل الإبستيمية عن التاريخ أو عن تاريخ معين، يسميه فوكو بالتاريخ الأركيولوجي، أو كما يقول: (بدلا من تاريخ بالمعنى التقليدي للكلمة، فإن ما نعنيه هو أركيولوجيا)(٨٣)

وهكذا ترتسم صورة الإبستيمية وتتحدد معالمها وتظهر مميزاتها التي نستطيع إجمالها، في النقاط التالية:

(أ) (النقطة التي يفترق فيها تحليل الإبستيمية عن سائر فلسفات المعرفة، هو أنه لا يرجع ذلك الواقع إلى مرحلة دلالة ذاتية أصلية تبحث عن أساس حق الخطاب العلمي في أن يكون علما وواقع كونه علما، في ذات ترانسدنتالية، بل تطورات ممارسة تاريخية)(٨٤)

إن هذه الميزة تلتقي وتلك المميزات التي ناقشناها في مفهوم المعرفة، فالإبستيمية تختلف عن كل فلسفات المعرفة، من كونها لا تحيل المعرفة إلى ذات عارفة، كما فعل "ديكارت" مثلا، أو إلى ذات متعالية كما هو الحال عند " كانط" بل إن مهمتها هي دراسة مختلف الممارسات المعرفية باعتبارها ممارسات تاريخية .

(ب) على هذا الأساس فإن ما تدرسه الإبستيمية هو :(مجموع العلاقات التي بإمكانها أن توجد في فترة معينة بين الممارسات الخطابية التي تفسح المجال أمام أشكال إبستيمولوجية وعلوم...)(٨٥) وهكذا رأينا فوكو يحلل مثلا،

---

(٨٣) نفس المصدر، ص ٢٥ . فيما يخص التجارب ينظر الفصل السادس من هذا البحث وخاصة المحور الثالث ' خطاب الانطولوجيا التاريخية .

(٨٤) فوكو ميشال ، **حفريات المعرفة** ، ص ١٨٤ .

(٨٥) نفس المصدر ، ص ١٨٣ .

مختلف الممارسات الخطابية للحقبة الكلاسيكية مبينا مختلف العلاقات بين تلك الممارسات والتشكيلات الخطابية، ومبرزا لمختلف العلوم والمعارف، كالرياضيات والتصنيف والعلوم التجريبية كالتاريخ الطبيعي وتحليل الثروات والنحو العام.

إنها :(مجموع العلاقات التي يمكننا الوقوف عليها في فترة ما بين العلوم حينما نحلل مستوى انتظاماتها الخطابية)[٨٦] حسب هذا التعريف تكون الإبستيمية قريبة من البنية أو من بعض خصائص البنية، وهي دراسة العلاقات، ومن هنا ذلك النقد الذي وجه لفوكو على أساس أنه فيلسوف بنيوي ينطبق عليه ما ينطبق على كل البنيويين من إنكار للتاريخ ولدور الإنسان وإعلاء من شأن البنى والأنساق.

(جـ) تتميز الإبستيمية أيضا بكونها متغيرة وليست ساكنة، فكل مرحلة تاريخية تعرف إبستيمية خاصة بها، ولقد درس فوكو ثلاث إبستيميات لثلاثة حقب تاريخية، كل حقبة تتميز عن سابقتها بل تقطع مع سابقتها، وعليه ليست الإبستيمية:(شكلا ساكنا ظهر يوما من الأيام ليختفي فجأة، بل هي مجموعة من الانقسامات والتفاوتات والانزياحات والتطابقات المتحركة باستمرار والتي تنشأ ثم تنحل)[٨٧] كما أن كل حقبة تاريخية لا تتضمن إلا إبستيمية واحدة،(فداخل ثقافة ما وفي لحظة بعينها، ليس ثمة سوى الإبستيمية التي تحدد شروط إمكان أي معرفة)[٨٨]

(د) الإبستيمية وفقا لهذه الخصائص ، ليست المعرفة، بل الإطار أو المنطق، أو بتعبير فوكو هي النظام، أو المبدأ الذي يتحكم في معارف فترة تاريخية معينة، فهي إذن نظام تاريخي خاص. هذا النظام يعرفه بقوله: (إن النظام هو في آن واحد ما يتبدا في الأشياء بوصفها قانونها الداخلي والشبكة السرية التي ينظر من خلالها وهكذا ففي كل ثقافة، بين استخدام ما يمكننا تسميته بالقوانين الناظمة والتأملات في النظام، هنالك التجربة العارية للنظام وصيغ وجوده)[٨٩]

---

(٨٦) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٨٧) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٨٨) فوكو ميشال ، **الكلمات والأشياء** ، ص ١٥٣ .

(٨٩) نفس المصدر، ص ٢٣ .

إن هذا التعريف للنظام يوضح أن هنالك وفي كل تجربة ثقافية ما يمكن تسميته بالمبادئ أو بالمنطق أو بالقبلي التاريخي أو بالنظام، والتجربة ذاتها، وهكذا يعتبر كتاب **الكلمات والأشياء** تحقيق لهذه الفكرة، فكرة النظام أو الإبستيمية والتجربة الثقافية الغربية، وهذا ما صرح به قائلا : (الدراسة تجهد في العثور على المنطلق الذي كانت منه المعارف والنظريات ممكنة، وحسب أي مدى من النظام تكونت المعرفة، وعلى خلفية أية قبلية تاريخية، وفي عنصر أية وضعية تمكنت أفكار من الظهور، وعلوم من التكون وتجارب من الإنعكاس في الفلسفات، وعقلانيات من التشكل وربما كي تنفرط بعد ذلك وتتلاشى)[٩٠]

وإن (الإبستيمية ، من حيث هي مجموع الروابط القائمة بين العلوم والأشكال الإبستيمولوجية والوضعيات والممارسات الخطابية، تسمح بفهم الإلزامات والإكراهات التي تفرض نفسها على الخطاب في لحظة معينة...)[٩١]

إن الإكراهات والإلزامات التي تفرض نفسها على الخطاب، قد ناقشناها في الفصل الثاني عند حديثنا عن سلطة الخطاب وعلاقته بالسلطة وبينا المجموعات الكبرى التي تمارس الإكراه على الخطاب، وهي مجموع الإجراءات الخارجية والداخلية أو الاستخدام والتوظيف[٩٢]

هذا من حيث علاقة الخطاب بالإبستيمية، أما من حيث علاقة إرادة المعرفة بالإبستيمية، أو علاقة المعرفة بالسلطة فإننا نجد بدايتها في مفهوم الإبستيمية وعلاقته بالإلزام والإكراه، ولعل الأستاذ "مطاع صفدي" كان من بين الذين انتبهوا إلى هذه العلاقة وبينها في دراسته للمعرفة والسلطة عند فوكو ضمن كتابه "نقد العقل الغربي"، والذي يقول فيه:(بالرغم من أن لفظة إبستيمية وهي يونانية الأصل لا تعني شيئا غير معنى العلم، إلا أنها في استخدامها لدى فوكو ، كأحد المفاتيح الرئيسية لجهاز المفاهيم الخاص به، تتخطى دلالة العلم لتستوعب، ثمة قوة تجعلها تنشئ جسرا بين المعرفة والسلطة)[٩٣]

---

(٩٠) نفس المصدر، ص٩٨ .

(٩١) فوكو ميشال ، **حفريات المعرفة** ، ص ١٨٤ .

(٩٢) يراجع في هذا الصدد الفصل الثاني من هذا البحث والمحور الثالث على وجه الخصوص وفيه بسطنا علاقة الخطاب بالسلطة، وبينا المجموعات الإكراهية التي تمارس على الخطاب، كما يمكن العودة إلى نص نظام الخطاب .

(٩٣) مطاع صفدي، **نقد العقل الغربي،الحداثة ما بعد الحداثة** ، مركز الإنماء القومي-بيروت، ١٩٩٠ ، ص ٩٦ .

إن الإبستيمية ليست معرفة ولكنها المنطق الذي يحكم ويتحكم في المعرفة، وهي بذلك شاملة، لها آثار على مختلف معارف حقبة زمنية معينة، هذه الشمولية تمنحها سلطة (لتعكس من ذاتها ما يوحي بوجودها داخل هذا النص العلمي أو ذاك وفي الوقت نفسه هي خارج كل نص)[٩٤] ويعني هذا أن (الإبستيمية تعبير عن إرادة للقوة بقول معرفي)[٩٥]

رابعا - بين الإبستيمية والإبستيمولوجية: إن الخصائص التي أتينا على ذكرها تسمح لنا بالتساؤل عن علاقة الإبستيمية بالإبستيمولوجية، كما سبق وأن قارنا بين المعرفة ونظرية المعرفة، وهذا بهدف إبراز الخطاب المعرفي لفوكو .

الإبستيمولوجيا تعني :(حرفيا مقالة «Logos» في اللغة "episteméʺ» ويبدو رأسا أن الأمر يتعلق بكلمة مغرقة في القدم، أو أنها ، على الأقل مركبة من مادتين قديمتين جدا ، غير أن استعمالها حديث، لأننا لا نلقاها ، قبل القرن التاسع عشر بين المفردات المختصة في الفلسفة)[٩٦] وعليه نلاحظ أنه من حيث الاشتقاق فإن الكلمتين الإبستيمية والإبستيمولوجية قديمتان ولكن من حيث المضمون مختلفتان وهذا ما سنحاول إظهاره. وإذا كنا قد توقفنا على مضمون الإبستيمية في الصفحات السابقة، فإنه يتعين علينا تحديد مفهوم الإبستيمولوجيا ولو بشكل عام حتى يتسنى لنا المقارنة بين المفهومين.

يعرف "لالاند" الإبستيمولوجيا بقوله: (تعني هذه الكلمة، فلسفة العلوم ولكن بمعنى أكثر دقة.فهي ليست دراسة خاصة لمناهج العلوم، لأن هذه الدراسة موضوع للميتودولوجيا وهي جزء من المنطق، كما أنها ليست أيضا تركيبا أو توقعا حدسيا للقوانين العلمية(على الطريقة الوضعية) إنها بصفة جوهرية الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج العلمية، الدراسة الهادفة إلى بيان أصلها المنطقي لا النفسي وقيمتها الموضوعية)[٩٧]

---

(٩٤) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٩٥) نفس المرجع ، ص ٩٧ .

(٩٦) إتيان باليبار وبيارماشري ، **الإبستيمولوجيا** ، ترجمة، فريق الترجمة، في، مجلة **الفكرالعربي المعاصر،العددان** ٤ - ٥ .سنة ١٩٨٠ ، ص ٢٥ .

(٩٧) André Lalande **Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie** ,ed P.U.F, 1972 , voir,Epistemologie . وكذلك،محمد وقيدي، ماهي الإبستيمولوجيا ؟، دار الحداثة . ط ١ ، ١٩٨٣ ص ٨ .

إن هذه الميزة النقدية التي تتميز بها الإبستيمولوجيا تعكسها أعمال "باشلار" و"كونغليم" و"كفاييس" و"كويري" أو ما سمي بالمدرسة الفرنسية في فلسفة العلوم،وهذه الأعمال ترتكز أساسا على المنظور النقدي للمعرفة وعلى الدراسة التاريخية للعلوم، من هنا لا ينفصل العمل الإبستيمولوجي عن البحث في تاريخ العلوم.

وهكذا نجد على سبيل المثال "باشلار" يهتم بتاريخ الفيزياء والكيمياء، و"كونغليم" بتاريخ علوم الأحياء والفزيولوجيا...إلخ. إن هذا يعني أن الإبستيمولوجيا عمل تاريخي يعني بدراسة شروط معارف علمية، وعلى هذا التاريخ أن يقدم معرفة خاصة بموضوعه وهو يجد في إبستيمولوجيا دقيقة وسائل هذه المعرفة ، وكما يقول " كونغليم" فإن تاريخ العلوم هو: (تاريخ إنشاء المفاهيم العلمية وتحليلها وتصورها)[٩٨].

إن الإبستيمولوجيا تفكير يتميز بالنقد والتاريخية، أما الأركيولوجيا فإنها تهتم بالمعارف عامة كممارسات خطابية، وبعلوم لم تحقق بعدالشروط العلمية، ونعني بها العلوم الإنسانية خصوصا.

فإذا كانت الإبستيمولوجية دراسة نقدية للمعرفة العلمية، قصد تحديد العقلانية، فإن الأركيولوجيا تطالب باستقلالها تجاه مختلف العلوم وتريد أن تنتقد حتى فكرة العقلانية، أو على الأقل فإنها لا تعتمدها لا كهدف ولا كمعيار.

إن تاريخ العلوم من المنظور الإبستيمولوجي اختبار لمسألة الحقيقة في العلم، والتي يعتبرها عملية تاريخية تحدد وتطور العقلانية ذاتها ، أما التاريخ الأركيولوجي فلا يعطي الأولوية لمعيار الحقيقة ولا الأولوية لتطور المعرفة، هنالك إذن :(تحييد لمسألة العقلانية)[٩٩]

من هنا تحقق الأركيولوجيا تاريخا للمعارف، تغيب فيه مسألة تقدم العقل، وقدرتها وقوتها في تحليل العلوم الإنسانية كخطابات، من حيث شروط وجودها وكيفية ظهورها ، بعيدا عن مسألة العلمية وبالاعتماد على مفاهيم أساسية مثل مفهوم تجربة الجنون والنظرة الطبية والإبستيمية، وهكذا نجد فوكو يقدم في دراسته لتاريخ الجنون

---

(٩٨) عبد السلام بنعبد العال وسالم يفوت سالم، درس الإبستيمولوجيا ، دار توبقال للنشر.الدارلبيضاء، ط ٢ ، ١٩٨٨ ، ص٦٩ .

(٩٩) Roberto Machado, ScienceetSavoir, LaTrajectiondel' Archeologiede Michel Foucault, these de doctorat Unique ،Présenté à l'Université de Louvain ، 1987 p.05.

نموذجا لمثل هذا العمل الأركيولوجي، الذي لايتحدد بتاريخ علم من العلوم كالطب أو علم النفس مثلا، بل يتعدى ذلك ليناقش نصوصا فلسفية وأدبية وفنية ومعطيات تاريخية واقتصادية وقانونية. وهذا بواسطة مفهومي المعرفة والإدراك حيث الأركيولوجيا تبحث في شروط وإمكانية قيام معرفة حول الجنون، طارحة ومؤسسة لتاريخ يقوم على انفصالات "Discontinuités" كبيرة وعامة، مثل الحقبة الكلاسيكية والحقبة الحديثة.

ولقد كان الجهد الكبير لفوكو في هذا العمل هو البرهنة على وجود تجربة أصيلة للجنون أكبر وأعمق من أن تختصر في صورة تاريخية أو في ممارسة سياسية وعلمية، تتحول وتتغير عبر الزمن. *إن الجنون تجربة أصيلة وعميقة، وأعمق من الصور التاريخية* التي يحاول العقل أن يخفيها أو يظهرها بالإستناد إلى معارفه الوضعية. وهذه التجربة الأصيلة للجنون في نظر فوكو، هي التي مكنتنا من قول الحقيقة عن علم النفس والطب والتحليل النفسي، وهي العلوم أو المعارف التي أرجعت الجنون إلى الوهم أو إلى الخطأ أو إلى الهذيان أو إلى الاستيلاب، ولم تستطع إدراك حقيقته.

أما في عمله حول **مولد العيادة**، فإن طريقته تغيرت في دراسة تاريخ الطب، حيث نجده يعتمد على مستويين، مستوى الرؤية أو النظرة ومستوى اللغة أو الخطاب، من أجل دراسة تحولات مفهوم المرض من العصر الكلاسيكي إلى العصر الحديث ، وكيف حدث وأن تم التخلي عن مفهوم المرض واعتماد مفهوم الجسد المريض.وهكذا يرى فوكو أن القطيعة في المعرفة الطبية بين العصر الكلاسيكي والعصر الحديث، تعود إلى مختلف المعارف الطبية لكل حقبة من هذه الحقب، التي تعتقد أنها معارف حقيقية.ودراسة العلاقة بين النظرة واللغة، يبين ليس فقط تاريخية المعرفة الطبية، بل نسبيتها، وتغيرها، لذلك يرى فوكو أن المعرفة الطبية أبعد من أن تكون علمية، رغم استنادها على معطيات تجريبية.

وأخيرا يناقش فوكو في **الكلمات والأشياء** مجالا جديدا ، هو مجال العلوم الإنسانية، باعتبارها الموضوع المركزي للأركيولوجية، وهذا بالبحث في النظام المشكل لهذه المعارف ، والذي أطلق عليه فوكو اسم "الإبستيمية". من هنا-وكما قلنا سابقا-لا تعتبر الإبستيمية مرادفا للمعرفة، بل تعبير عن النظام أو عن المبدأ التاريخي الذي يتحكم في مختلف معارف حقبة تاريخية.فالإبستيمية هي النظام الخاص بالمعرفة، والذي يتميز بالعمومية والشمولية والعمق.

وهكذا نخلص إلى القول أن الأركيولوجيا تهتم بالمعرفة ' أما الإبستيمولوجيا فتهتم بالعلم، وإنه إذا كان معيار هذه المعرفة متغير بحسب الموضوعات، التجربة في ما يخص **تاريخ الجنون** ، والنظرة في ما يخص **مولد العيادة**، والإبستيمية في ما يخص **الكلمات والأشياء**، فإن الإبستيمولوجيا تعتمد على معايير مغايرة من مثل معيار الموضوعية والعقلانية والعلمية والحقيقة)(١٠٠)

وكما يقول "بسام حجار ":(إن الإبستيمولوجيا المطبقة على العلوم تبرهن عن كيفية قيام المعرفة بتصحيح أخطائها وهناتها وكيف تصبح، من خلال هذا التصحيح وبعده، معرفة صحيحة.أما منهج فوكو فيهدف إلى إقامة البرهان على أن الحقيقة لا تصدر عن "تطهير" المعارف بل على نسق المنطوقات المعرفية أي الإبستيمية)(١٠١)

وعليه فإن المشروع الأركيولوجي، وإن كان لا ينتقد صراحة الإبستيمولوجية، إلا أنه يحاول بطريقة غير مباشرة، تجاوزها وإظهار قصورها، رغم اعترافه بأهميتها، وبأنها تشكل قاعدة وخلفية لتحليلاته ودراساته، وهذا ما يبينه أو يظهره الاهتمام بتاريخ العلوم من الناحية الأركيولوجية والذي يعتمد على مفاهيم طورتها الإبستيمولوجية، مثل مفهوم العتبة والقطيعة والانفصال الذي أصبح مفهوما مركزيا في هذا الشكل الجديد من تاريخ العلوم والذي يتطلب منا تحليله ومقارنته بتاريخ العلوم حتى تكتمل صورة المقارنة التي بدأناها بين الإبستيمولوجيا والأركيولوجيا.

خامسا- بين الأركيولوجيا وتاريخ العلوم : في دراسته عن "كونغليم" يشيد فوكو بتاريخ العلوم، ويعتبره أحد المكونات الأساسية في تكوينه الفلسفي وأحد مميزات الفلسفة الفرنسية، مقارنة بالفلسفة الإنجليزية التي تهتم بالمنطق.

Roberto Machado, Archeologie et Epistemologie,In,Michel Foucault(١٠٠) Philosophe, P. 101 . Rencontre Internationale ،Paris, 9-10-11 Janvi-cr1988 ،des Traveaux ،ed. Seuil ،1989 ، p,p.20-21.

-هذا المقال هو إعادة مركزة لرسالة الباحث، ولقد اعتمدنا عليهما -الرسالة والمقالة-لمناقشة قضية العلاقة بين الإبستيمولوجيا والأركيولوجيا، وهذا في إطار سياق الأسئلة التي تهمنا الإجابة عليها، ولذلك كان اعتمادنا بتصرف كبير لهذا العمل الأكاديمي الجاد الذي يناقش موضوعا مختلفا عن موضوعنا.

(١٠١) بسام حجار، **ميشال فوكو: صورة جديدة للمثقف الغربي**، في، مجلة **الفكر العربي المعاصر**، العددان ٣٠ - ٣١ . صيف ١٩٨٤ ، ص١٣٢ .

وإذا كان تاريخ العلوم في فرنسا قد اهتم في بدايته بتاريخ العلوم الدقيقة، كما هو الحال عند "برنشفيك" و"كويري" و"كفاييس" و"باشلار"، فإن "كونغليم" عكس المسألة، فاهتم بالبيولوجيا والطب، بمعنى أنه أنزل تاريخ العلم نحو المناطق الأقل صورية واستنباطية، وهكذا فهو لم يوسع فقط من دائرة تاريخ العلوم بل طرح مجموعة من المسائل، أهمها، مفهوم الانفصال، ومفهوما لتاريخ العلوم لا يقوم على تاريخ للحقيقة وإنما على تاريخ للخطأ والحقيقة، وتاريخ لعلوم الأحياء -وهي العلوم التي اهتم بها فوكو كذلك- في علاقة مع الإبستيمولوجيا، وأخيرا أهمية المفاهيم في دراسة "كونغليم" كمفهوم الحياة أو المرض أو غيرهما، وعلاقة ذلك بـ"نيتشه"(١٠٢)

كل هذه النواحي سيهتم بها فوكو، ويعترف بقيمتها ودورها في تكوينه وأعماله، وهذا ما تؤكده شهادته واعترافه الذي نقرؤه في **نظام الخطاب** مشيدا بفضل "كونغليم" عليه قائلا :

(...إن الفكرة أتتني، بدون شك،مما كان أمام ناظري من أعمال مؤرخي العلوم، وخاصة السيد "كونغليم" فإليه يعود الفضل في فهمي لتاريخ العلوم -باعتباره- ليس خاضعا لضرورة الاختيار بين بديلين: التدوين التاريخي المتسلسل للمكتشفات، أو لأشكال وصف الأفكار والآراء التي تحيط بالعلم من حيث منشؤه غير المضبوط، أو من حيث استطالاته الخارجية، بل إننا نستطيع، وإنه يتعين علينا أن نؤرخ للعلم كما نؤرخ لمجموع متناسق وقابل للتحول في نفس الوقت، أي مجموع من النماذج النظرية ومن الأدوات المفهومية)(١٠٣)

إن هذا النص يبين التصورات التي كانت تسيطر على تاريخ العلوم، كالتصور التسلسلي للأحداث، أو الوصف الانتقائي للأفكار العلمية، وأهمية -"كونغليم"- في نظر فوكو تكمن في طرحه لفكرة العلم كنظام متحول وأهمية المفاهيم في هذا التحول . وعلى أساس هذه القاعدة العلمية، يقدم فوكو وجهة نظر جديدة لتاريخ العلوم، هي الوجهة الأركيولوجية، فماهي تفاصيل هذه النظرة؟

سيقتصر تحليلنا على تاريخ العلم ، مرجئين مسألة التاريخ في عموميتها إلى الفصل السادس من هذا العمل، ولذلك فإننا سنناقش المفاهيم ذات العلاقة بتاريخ العلوم، ومن بين هذه المفاهيم :

---

(١٠٢) Michel Foucault ،La vie :l'experience et la science ،In,Revue de Mé-taphisique et de Morale 90 année ،No01, janvier-Mars 1985 .

(١٠٣) ميشيل فوكو،**نظام الخطاب**،ترجمة، د.محمد سبيلا، ص،ص٤٥ - ٤٦ .

(أ) **مفهوم الانقطاع أو القطيعة** : Rupture أو Coupure :

يتساءل فوكو في **الكلمات والأشياء** عن مختلف الكيفيات التي تحدد المنقطع ويرى أن (المنقطع-واقعة أنه خلال سنوات أحيانا تكف ثقافة ما عن التفكير بشيء آخر وبطريقة مختلفة-يفتح ولا شك على تآكل من الخارج، على هذا المدى الذي هو، بالنسبة للفكر، من الجانب الآخر، لكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير منذ بدايته)[١٠٤]

إن هذا الانقطاع يطرح عدة أسئلة، يشير إليها فوكو ولا يجيب عليها، ويكتفي برسم قطيعتين كبيرتين، القطيعة التي فصلت العصر الكلاسيكي عن عصر النهضة والقطيعة التي فصلت العصر الحديث عن العصر الكلاسيكي، الأولى حصلت في بداية القرن السابع عشر مع اللحظة الديكارتية، والثانية مع بداية القرن التاسع عشر والتي عرفت ميلاد العلوم الإنسانية.

ولقد انتقد هذا المفهوم من طرف العديد من الباحثين والفلاسفة أمثال "ريمون أرون "R.Aron و"جون بول سارتر "J.P.Sartreورد عليهم فوكو بتوضيح أساسي مفاده أنه ربما :(بدا انقطاعيا من حيث الزمان. ولكنه على الأقل تواصلي من حيث المكان .وقال-موجها كلامه لريمون أرون-أرجو أن تغفر لي هذا التبجح، إذا ما قلت لك بأني أول واحد برهن على وجود ترابط إبستيمولوجي عميق بين مختلف أنواع المعارف والعلوم السائدة في فترة زمنية معطاة، وفي عصر معين)[١٠٥] وهوما يعبر عنه مفهوم الإبستيمية.

إن المنقطع واقع ومهمة الأركيولوجي هو اكتشافه ووصفه واعتماده ، لذلك فإن فوكو ، سينظر لهذا المفهوم في عمله اللاحق، **أركيولوجيا المعرفة** باسم الانفصال « Discontinuité » والذي سيصبح أحد المفاهيم المركزية في مفهومه للتاريخ.

يعرف فوكو الانفصال بقوله :(هو أداة البحث وموضوعه في نفس الوقت، يعين حدود الحقل الذي يتولد فيه، ويسمح بتعيين تفرد الميادين، التي لا يمكننا تحديده إلا بفضل المقارنة بينها، ولأنه في نهاية الأمر، ليس مجرد مفهوم قائم حاضر في خطاب المؤرخ،بل يفترضه هذا الأخير وينطلق ضمنيا من أنه قائم، وإلا فمن أي موقع يستطيع أن يتكلم إن لم يكن انطلاقا من ذلك الانفصال الذي يمده بالتاريخ كموضوع-وبتاريخه هو ؟)[١٠٦]

(١٠٤) ميشال فوكو، **الكلمات والأشياء**، ص ٦٤ .

(١٠٥) هاشم صالح، **فيلسوف القاعة الثامنة**، مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

(١٠٦) ميشال فوكو، **حفريات المعرفة**، ص ١٠ .

إن هذه الخصائص التي يتمتع بها الانفصال ، كأداة للبحث التاريخي عامة وتاريخ العلوم خاصة، وكموضوع للتاريخ، إذ أن التاريخ ليس تاريخ الاستمرار والتسلسل فقط، بل هو تاريخ الانقطاعات والانفصالات كذلك.تسمح له بتحليل المعارف ، كممارسات خطابية تتجسد في تشكيلات خطابية ، وتميزه عن باقي المقاربات التاريخية، وذلك بـ:

(أ) المقاربة الأركيولوجية لتاريخ العلوم، موضوعها المعرفة عامة، وليس العلوم.

(ب) تاريخ المعرفة لا يتأسس إلا في إطار علاقته بمختلف المعارف والعلوم أو بمختلف الممارسات الخطابية في حقبة زمنية معينة، لذلك فهو تاريخ يتأسس مع الأشكال المعاصرة له، أو بتعبير دقيق على وصف تزامني لمختلف الممارسات الخطابية.(١٠٧)

(جـ) المعرفة لا يؤرخ لها إلا انطلاقا مما يعاصرها ، وليس بالبحث في التأثر والتأثير ، بل بالبحث في شروط وقبليات تشكلت في الزمن.(١٠٨)

(د) ما يهم في تاريخ المعرفة ليس الآراء أو الأفكار أو النظريات، بل نظام الفكر أو إبستيمية معرفة.(١٠٩)

(هـ) (لا تفصل الأركيولوجيا بين التزامن والقطيعة(..) ولا تتخذ من الفترة وحدة قاعدية(..) وإذا حدث أحيانا أن تناولتها بالحديث، فيكون دائما بخصوص حديثها عن ممارسات خطابية معينة)(١١٠) وهو ما يقربه من النظرة البنيوية.وعلى هذا الأساس تكون القطيعة :(اسم يطلق على تحولات تهم النظام العام لتشكيلة أو عدة تشكيلات خطابية)(١١١) ولذلك فإن كل إبستيمية لكي تتشكل يجب أن تقطع مع سابقتها ، تؤسس نظامها الفكري الخاص بها.

(و) من هنا تكون مهمة التاريخ الأركيولوجي هي الممارسة الخطابية من (حيث أنها ممارسات تفسح المجال أمام المعرفة، ومن حيث أن هذه الأخيرة تحصل على صفة العلم، وتقوم بدوره)(١١٢)

---

(١٠٧) . Michel Foucault ، Les mots et les choses p.221

(١٠٨) ميشال فوكو، **الكلمات والاشياء** ، ص ١٨١ .

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ .

(١١٠) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ص١٦٨ .

(١١١) نفس المصدر ، ص ١٦٩ .

(١١٢) نفس المصدر، ص ١٨٢ .

إن تاريخ العلوم من منظور أركيولوجي يقوم انطلاقا من وصف الممارسات الخطابية، و(تحديد كيف استطاع أن يفسح المجال أمام تطورات التنظير الإبستيمولوجي، ويرقى إلى معيار العلمية، وربما وفق في بلوغ عتبة الصياغة الصورية، كيف ووفق أي انتظام، وبواسطة أية تحويرات)(١١٣) إن هذه الخصائص تسمح لنا بالقول إنه وإن كان فوكو قد اعتمد على بعض مفاهيم تاريخ العلوم كما طورتها الإبستيمولوجيا، على يدي "باشلار" و"كونغليم" مثل مفهوم العتبة والقطيعة وتحول المفاهيم، إلا أنه قد قام بصياغتها ضمن منظوره الفلسفي العام، ونظرته الأركيولوجية لتاريخ العلوم التي تعتمد على دراسة مختلف التشكيلات الخطابية دون تمييز، في إطار حقبة زمنية، مقيما ومحللا لمختلف علاقاتها المعرفية، وكاشفا عن نظامها الفكري الذي يعبر عنه مصطلح الإبستيمية.

لقد ناقشنا إلى حد الآن نقطتين سبق وأن تساءلنا عنهما، ونعني بذلك نقطة المفاهيم ومضامينها، ونقطة العلاقات فيما بينها، وإذا كانت الصفحات السابقة قد حاولت الإجابة عن هاتين النقطتين، فإن ما لم تتطرق إليه -وهو يشكل نقطة جوهرية في كل خطاب معرفي- هو مسألة الحقيقة، فكيف تصور ميشال فوكو الحقيقة بالإعتماد على مختلف الأفكار والمفاهيم المعرفية السابقة ؟

سادسا - بين الأركيولوجيا والحقيقة : تتحدد الفلسفة أساسا ببحثها عن الحقيقة، متخذة من المعرفة وسيلة لبلوغها، ولقد اختلف الفلاسفة في مفهوم الحقيقة، فمنهم من يرى أن الحقيقة هي الشيء الموجود والموضوع والذي يدل عليه الثابت والأساسي والضروري والواقعي، في مقابل المتغير والمتحول والفاسد، وتكون المعرفة في هذا هي البحث في العلل والأسباب والقوانين والمبادىء المشكلة لـــهذا الوجود الوجود الموضوعي الحقيقي.

وهنالك من الفلاسفة من يرى أن الحقيقة في تطابق القول مع الفعل، النظرية بالتجربة، الخطاب بالممارسة، والحقيقة هي الانسجام والاتساق، وتعتبر العلوم الصورية والتجريبية مثال لهذه الحقيقة من حيث اتساق مبادئها مع تطبيقاتها.

ومن الفلاسفة خاصة الاتجاه النقدي والكانطي من يرى أن الحقيقة هي توافق المعرفة مع موضوعاتها، وأخيرا هنالك من يرى أن الحقيقة نسبية، سواء تعلق الأمر بميدان العلوم وهو ما تمثله النظرية النسبية في الفيزياء التي أسسها "إينشتاين" والتي

(١١٣) نفس المصدر، ص ١٨٣ .

ترجع الحقيقة إلى نسبية الأنساق العلمية، أو نسبية فلسفية تجد جذورها عند السوفسطائيين والشكاك ، وعند "نيتشه" في العصر الحديث[114]

إن الحقيقة عند "نيتشه" نسبية ومتغيرة، وتتعارض كلية والمفهوم الثابت والمطلق الذي أسسه "أفلاطون" الذي يعتبره مفهوما وهميا وخاطئا كاذبا، مرتبط أكثر بحاجة الإنسان إلى البقاء والأمن منه إلى المعرفة الحقيقية كما يدعي الفلاسفة.

وحتى الحقيقة العلمية عند "نيتشه" ليست: (أكثر قيمة ولا أكثر موضوعية ولا أكثر تطابق مع الواقع من الحقيقة الفلسفية..لأن العلم في نظره يواصل العمل الذي قامت به الميتافيزيقا ويخضع إلى نفس المبادئ المثالية)[115]

ويظهر هذا في اعتقاد العلم بالقداسة المطلقة للحقيقة والإيمان بالعقل الإنساني وبأن الوجود معقول وخاضع للمعرفة، وأن المعرفة تضمن السعادة. إن هذا التصور في نظر "نيتشه" تصور ذرائعي نفعي، يلبي حاجة الإنسان إلى الأمن والإطمئنان.من هنا فإن العلم ليس إلا تأويلا من بين التأويلات المختلفة، وأنه من الخطأ إقامة حدود فاصلة بين الحقيقة والوهم أو بين الحقيقة والخطأ. ذلك أن هذه الفواصل والتصورات، تصدر كلها من صنم الفلاسفة الذي هو العقل، والذي منه تفرعت أوهام كثيرة، بدء بأوهام المنطق ومبادئه[116]

على هذا الأساس يرى "نيتشه" أن الحقيقة ليست أكثر من :(قطيع متحرك من الإستعارات)[117] إنه إذا كنا لا نستطيع فهم غريزة الحقيقة، فإننا نستطيع إدراك ما هو حقيقي والذي يفرضه المجتمع، بواسطة إرادة القوة، لذلك فإن الحقيقة ليست إلا كذبة من بين الأكاذيب الكبرى للوجود الإنساني والتي تحاول أن تلبي حاجة الإنسان إلى الأمن والطمأنينة والسعادة، غافلة أو متناسية أن الحقيقة الحقة، هي الألم وهي المأساة[118]

---

(١١٤) موسى وهبة،**الحقيقة** «في، الموسوعة **الفلسفية** العربية ، ص٣٧٩ .

(١١٥) رجاة العتيري، **الحقيقة عند اليونانيين القدامى وعند نيتشه** ،في المجلة التونسية للدراسات الفلسفية ' العدد ٧ سنة ١٩٨٨ ص٣٩ .

(١١٦) عبد الرحمن بدوي،**نيتشه**،الناشر وكالة المطبوعات. الكويت، ط ٥ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠٢ .

(١١٧) Fredrich Nietzsche ،**Sur Le mensonge et La Verité** ،**Au Sens Extra-Morale** ،In ، André Jacobe,**Points de Vue Sur le Langage**,ed. Klincksieck 1969, p.p. 95 - 96

(١١٨) بودنا أن نشير إلى أنه ليس هدفنا عرض مفهوم الحقيقة بشكل تفصيلي عند نيتشه، فهذا ليس موضوعنا ولا غرضنا، بل قصدنا فقط التنبيه إلى بعض نقاط التقاطع مع مفهوم الحقيقة عند فوكو وخاصة مسائل النسبية ورفض الحقيقة الموضوعية والوهم واللغة، وهي النقاط التي سنناقشها في المتن.

إن هذا المفهوم النيتشوي للحقيقة يشكل الخلفية النظرية لمفهوم فوكو، وهذا من عدة جوانب أهمها :

(أ) إنه إذا كانت المعرفة عند فوكو هي مجموع الممارسات الخطابية الخاصة، فإن الحقيقة هي: (مجموعة من الإجراءات المنظمة لإنتاج وتشريع وتوزيع وترويج، نشاط المنطوقات)(١١٩) إنها تعادل ما اصطلح عليه بالإبستيمية، التي تحدد نظام مختلف الممارسات الخطابية، في مخلف التشكيلات الخطابية، هذه القواعد متغيرة ومتبدلة أي أنها نسبية وليست ثابتة.

(ب) إن هذه الحقيقة الناظمة للمعارف تملك خاصية أخرى قريبة من الخاصية التي يسميها "نيتشه" بالخاصية الاجتماعية، ونعني بذلك ارتباطها بالسلطة، وكونها تملك السلطة في ذاتها، يقول فوكو :(لا أعني بالحقيقة، مجموعة الأشياء الصحيحة التي يجب اكتشافها أو جعلها مقبولة، بل مجموعة القواعد التي بها يفرق الصحيح عن الخطأ ويلحق بالصحيح آثار سلطوية نوعية)(١٢٠) فليس موضوع البحث هو فصل الحقيقة عن الخطأ بل إن الموضوع هو معرفة علاقة الحقيقة بالسلطة أو كما يقول إدراك الدور الاقتصادي والسياسي للحقيقة وتحليلها في إطار إرادة الحقيقة.

(جـ) على هذا الأساس يقرر فوكو أن موضوعه المركزي ليس الحقيقة، وإنما سياسة الحقيقة، أو كما يقول: (إن مشكلتي هي سياسة الحقيقي...فالمسألة لا تقتصرعلى الفصل داخل الخطاب بين ما هو علمي وحقيقي وبين ما هو غير ذلك، بل أن نلاحظ كيف يتم على مستوى التاريخ، إنتاج انعكاسات للحقيقة داخل الخطاب، لا تكون في حد ذاتها لا صحيحة ولا خاطئة)(١٢١)

ومرة أخرى، يختلف تحليل فوكو عن تحليلات "التوسير" التي تفصل بين العلمي والإيديولوجي، بين الصحيح الخاطئ، بين الحقيقي والباطل، لتهتم بسياسة الحقيقة،

---

(١١٩) ميشال فوكو، **الحقيقة والسلطة، مقابلة مع فونتانا، في، الفكر العربي المعاصر**، ترجمة، فريق المجلة، العدد ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٣٦ . وكذلك يمكن العودة إلى النص الأصلي: في، L'ARC,LA CRISE DANS LA TETE-,No.70، -

(١٢٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة.

(١٢١) Michel Foucault,L'Asile Illimité,In,Le Nouvel Observateur ،No646, 1977 ،p.67.

وكيف تنعكس في الخطاب. من هنا لا يمكن أن نفصل الحقيقة في نظره عن السلطة، ولا الخطاب عن الإستراتيجية، كما بينا ذلك في الفصل الثاني.

(د) إن هذا التصور للحقيقة، يظهر كذلك في دراسته لتاريخ العلوم، والذي يرى أنه ليس دراسة للعقل والعقلانية، بل دراسة لتاريخ الحقيقة، باعتبارها تاريخ الخطاب(١٢٢) وهذا ما يوضحه في دراسته عن "كويري "Koyré» قائلا: (إن موطن الحقيقة ومنذ العصر الحديث قد تبدل، فلم يعد يسكن صور العالم ولكنه أصبح يسكن في الأشكال الداخلية والمتقاطعة للغة)(١٢٣) وهو نفس الارتباط الذي يقيمه "نيتشه" بين الحقيقة واللغة، مع فارق هو أن فوكو يتحدث عن الخطاب وعن آلياته الإستراتيجية.

(هـ) إن ارتباط الحقيقة باللغة والخطاب، أدى بفوكو إلى ربط الحقيقة بجانب آخر هو جانب التخييل أو الوهم «Fiction» الذي يرى فيه جانب أساسي، بل أكثر من ذلك إنه يرى أن كل ما كتبه هو مجرد تخييل. وهذا لا يتعارض مع الحقيقة، بل إن الأمر يعني في نظره، إمكانية تشغيل وتوظيف التخييل في الحقيقة، أو إدخال عناصر حقيقية في خطاب تخييلي، وهكذا يتم تخييل التاريخ، بأحداث تجعله حقيقية، كما يتم تخييل سياسة انطلاقا من حقائق تاريخية)(١٢٤)

(و) إن التخييل كما قلنا، لا يتناقض والحقيقة ذلك أنه ومنذ فرويد ، أصبح للتخييل والوهم " Illusion" معقوليته، ولم يعد شيئا غريبا عن الحقيقة، بل إننا نجد فوكو يعتمد على مختلف أشكال التخييل في دراساته، وخاصة دراساته الأولى التي تعتمد أساسا على الأدب والرواية والفن بصورة عامة،من هنا ندرك أنه إذا كان "نيتشه" يربط ين اللغة والوهم، فإن فوكو يربط بين الخطاب والتخييل.هذا التخييل الذي يملك معقولية لا تختلف عن معقولية الحقيقة من حيث أنها جملة قواعد.ففي نظره :(إذا كانت الحكاية أو الرواية «Fable» » ما يتم قصه، فإن التخييل هو نظام القص

---

(١٢٢) Michel Foucault, **Entretien** ،In **(D.227)**, p.p.31-32.

(١٢٣) Michel Foucault, **Discours et vérité** ، **Alexandre Koyré, La Révolution Astronomique Copernic** ، **Borilli** ، **In,La nouvelle Revue Francaise** ، No108, p,p.11-24.

(١٢٤) Michel Foucault, **Politique de l'Habitat, In (D.309)**, p.06.

« Régime » أو مختلف الأنظمة التي يتم بها القص)[١٢٥]

وإذا كنا قد لاحظنا أن فوكو قد اعتمد على الأدب في دراساته الأولى، إنه اعتمد في دراساته الأخيرة على أرشيف تاريخي معين، هو الأرشيف المجهول، كتقارير الشرطة أو النصوص المجهولة أو التي لاتحمل توقيعا، مثل "ألف ليلة وليلة" في تراثنا. هذا الأرشيف هو ما يستخدمه كنظام للتخييل من أجل القيام بمختلف دراساته التاريخية حول العقاب أو الجنس.

ومن هنا نفهم أيضا تلك الكلمة التي يبدأ بها كتاب **الكلمات والأشياء**: (لهذا الكتاب مكان ولادة في نص "بورخس "Borges »، في الضحكة التي تهز لدى قراءته كل عادات الفكر-فكرنا، الفكر الذي له عمرنا وجغرافيتنا- مزعزعة كل السطوح المنظمة والخطط التي تعقل لنا التدفق الغزير للكائنات وتجعل ممارستنا القديمة -لـ الذات Même وللآخر -Autre، ترتعش وتقلق مدة طويلة)[١٢٦] ولقد سبق لنا وأن أشرنا إلى علاقة اللغة بالأدب وعلاقتها بالواقع عند فوكو في الفصل الأول من هذا البحث. إن المعرفة إذا كانت ممارسة خطابية، فإن الحقيقة أو التخييل هي النظام الذي يتحكم في تلك الممارسة، من هنا نفهم تصريح فوكو بأنه يهتم بالمفهوم[١٢٧] ونفهم كذلك تعليق "بللور" بأن ما يكتبه فوكو هو ألواح فنية[١٢٨] وهذا ما جعلنا أيضا لا نفصل موقفه من الحقيقة واللغة والخطاب، مادام يرى أن: (كل شيء تأويل)[١٢٩]

إن مجموع هذه الخصائص التي تشكل مفهوم الحقيقة لا يمكن لنا أن نفصلها عن حياته الشخصية وعن همومه ومشاكله، فأعماله هي كذلك انعكاس لحياته ومساره الفكري، وهو ما يؤكده هو ذاته بقوله: (إن أعمالي ليس أكثر من أجزاء من مسيرتي الذاتية)[١٣٠] وعلى هذا الأساس اتصف مفهوم الحقيقة عنده بالنسبية والتاريخية، وارتبط بالسياسة والسلطة وإرادة الحقيقة.

---

(١٢٥) Rymond Bellour,Vers La Fiction,In,Michel Foucault Philosophe,Op-Cit, p.174.

(١٢٦) ميشال فوكو، الكلمات والأشياء ، ص ٢٠ .

(١٢٧) Michel Foucault ، **Entretien** ، In, La **Quinzaine Litteraire**, 1966 p,p.14-15.

(١٢٨) Rymond Bellour, Vers La Fiction ، Op-cit ، p.179.

(١٢٩) ميشال فوكو، نيتشه، فرويد ، ماركس، ص ٤١ .

(١٣٠) Didier Eribon ، **Michel Foucault**, p.46.

وعليه نستطيع القول أن الخطاب المعرفي لفوكو، خطاب يتشكل من مفاهيم أساسية، مثل مفهوم الممارسة الخطابية والتشكيلة الخطابية والإبستيمية، ومفاهيم أخرى في المعرفة والإبستيمولوجيا وتاريخ العلوم وكلها تشكل خطابا معرفيا يخص الفيلسوف ويميزه عن الخطابات المعرفية الأخرى.هذا الخطاب المتميز كان موضوع ردود فعل وانتقادات أهمها :

(أ) يؤسس فوكو انفصالا عموديا بين إبستيمولوجية حقبة معينة وأخرى، والسؤال الذي يطرح هو العلاقة بين الطابع العمودي والأفقي، مادامت الإبستيمية، تدرس الجوانب الأفقية. وفي إطار تاريخ العلوم من الضروري التساؤل عن المراحل الانتقالية وأشكال الانتقال ومحرك الانتقالات، وكيف يمكن فهم الانفصال في التاريخ؟ فهنالك مشكلة التحقيب الإبستيمولوجي، الذي يتشكل من مجموعات تزامنية والتي تجمع بين عدة معارف، فما الذي يحدد إبستيمية معينة؟وكيف تحدد علاقة الأركيولوجيا بنظرية المعرفة؟

(ب) إن الإبستيمية ليست أكثر من بنية ونسق منسجم، وهي الفكرة المركزية في الألسنية البنيوية، وهي أيضا مفهوم متعالي غير اجتماعي[١٣١] ومفتاح كل إبستيمية هو اللغة، لذلك فإن ما يهم فوكو هو منطق المفاهيم، والتي منها تنبثق الإبستيميات[١٣٢]

(جـ) الأركيولوجيا في عمومها تشكل نزعة نسبية وتعددية ووضعية، مادامت تقتصر على وصف الخطابات ولا تحاول أن تؤسس علما أو نظرية، وهذا ما يوضحه فوكو بقوله:(إني وضعي سعيد...وإن الأركيولوجيا ليست علما، ولا تحاول أن تؤسس مبادئ أولية لعلم مستقبلي)[١٣٣] لذلك فإن

---

(١٣١) Pierre Burgeline, L'**Archeologie du savoir,In,Esprit**, No 360 1967 ،p, p. 844-845.

(١٣٢) Maurice Crainstan,Les **Pérides de Michel Foucault**, Op-Cit ،p.72.

وينظر كذلك إلى ما يقوله فوكو مع محاوره Paolo Caruso:،

Je ne suis en effet, attaché à comprendre par exemple, comment il était possible que dans un type de discours aussi limité ...que celui de l'Analyse grammaticale ou de l'analyse philologique, on puisse observer des phénomènes qui désignent toute une structure epistémologique que nous retrouvons dans l' conomie politique, l'histoire naturelle..in **(D.286)** ،p14.

(١٣٣) ميشال فوكو، **حفريات المعرفة** ، ص ١٧٣ .

الأركيولوجيا هي مجرد تعميم للوضعية المحدثة، متخذة من فلسفة المفهوم منطلقا وسلاحا(١٣٤)

(د) الإبستيمية بقدر ما أثارت إنتقادات، لقيت نجاحات وإشادات، أهمها دراسة "كونغليم" الذي أكد على أنها محاولة كانطية، والمفارقة في نظره، تكمن في أنه إذا كان العلم وتاريخ العلم يشكلان موضوع فلسفة العلم والإبستيمولوجيا، فإن الإبستيمية موضوع الأركيولوجيا، لذلك فإن **الكلمات والأشياء** يشبه "نقد العقل الخالص لكانط"(١٣٥)

(هـ) إن الموقف المعرفي لفوكو هو موقف الكثرة والتعدد والنسبية، موقف ينكر الذات العارفة، ويؤسس طريقة جديدة في دراسة التشكيلات الخطابية وتحليل المفاهيم، لذلك يتحدد العمل الفلسفي والمعرفي لفوكو، في نظرنا، بدراسة المفاهيم من حيث ظهورها وتحولها واختفائها، وعليه نجده لا يهتم بتأسيس نظريات بقدر ما يفتح آفاق ومجالات بحث مثل ما هو الحال في الأركيولوجيا التي هي حقل للبحث، موضوعها المعرفة ومنهجها وصف الممارسات الخطابية وتحليل أنظمتها الإبستيمية، وتختلف عن نظرية المعرفة وفلسفة العلوم والإبستيمولوجيا، وتؤسس منظورا نسبيا للمعرفة والحقيقة، وتربطهما بإرادة المعرفة والسلطة،هذا الربط أو العلاقة هو ما سنحاول مناقشته في المحور الموالي.

المحور الثالث-المعرفة والسلطة :

لا نهدف من خلال هذا المحور إلى الدراسة المعمقة لهذه العلاقة التي تحتل مكانة مركزية في فلسفة فوكو(١٣٦) والتي نالت اهتماما كبيرا لدى

(١٣٤) Mikeal Dufrenne,La philosophie du néo-positivisme. In, Esprit, No 360 ,1967 ,p.795.

(١٣٥) George Cangulhem, Mort de l'homme ou Epuisement du Cogito ،In ، Critique ،No 242 1976 p 609

(١٣٦) نقصد بذلك الأعمال التي كتبها بعد **نظام الخطاب**، وخاصة **المراقبة والمعاقبة** وإرادة المعرفة إضافة إلى مجموعة من الدراسات والمقالات التي جمعها ونشرها الناشر الأمريكي بعنوان :

Power knowledge(selected interviws and others writings.(1972-1977) ،ed. Colin Gorden

وكذلك دروسه التي ألقاها بالكوليج دو فرانس بين ١٩٧٠ - ١٩٨٢ والتي نشرت بمطابع julliard"1989. "

الدارسين[١٣٧] وإنما نهدف إلى إظهار أحد المميزات الأساسية للمعرفة، وعلاقة ذلك بالخطاب موضوع بحثنا.كما أننا لانعتمد في هذا المحور على الدراسات الأساسية التي قدمها فوكو حول هذا الموضوع ، بل إننا سنحلل بعض النماذج التي نشرها على هامش تلك الأعمال، والتي هي بنظرنا مثال حي ليس فقط لمناقشة مسألة المعرفة والسلطة، بل وتطبيقا كذلك لمنظور فوكو بذاته، الذي يهتم بالنصوص الهامشية.

وسوف نحلل في البداية ثلاثة نماذج نعتقد أنها ممثلة لدراسة هذه العلاقة، ثم نرصد أهم خصائص ونتائج هذه العلاقة.

أولا -الجنون والحضارة: Folie et Civilisation[١٣٨]:

يبدأ فوكو حديثه عن الجنون بتقرير مفاده أن هنالك حضارات لم تعرف الظاهرة المرضية للجنون، وإنما أعطته تأويلا دينيا أو سحريا ، فلقد تطلب الأمر انتظار زمن طويل للتعرف على الجنون كحالة مرضية.وغايته أن يبين مختلف الوظائف الاجتماعية للجنون داخل المجتمع الغربي، وذلك بتحليل تلك العلاقة المعقدة بين مشكلات المعرفة ومتطلبات السلطة.

يرى فوكو أن الحضارة الإغريقية والمسيحية والإسلامية، قد أعطت وظيفة اجتماعية ودلالة وإطارا أو كيانا طبيا للجنون.وأن ما عرف بالمرض العقلي مجرد حالة خاصة من الحالات التي عرفها الجنون، وذلك في سياق الوظائف الاجتماعية الكبرى التي قام بها الجنون.وعلى هذا الأساس تقدم فوكو بأطروحتين أساسيتين لمناقشة الموضوع.

---

(١٣٧) نقصد بالدراسات وهي كثيرة، دراسة رابينوف ودريفوس، **ميشيل فوكو، مسيرة فلسفية**، القسم الثاني، ودراسة جيل دلوز القسم الثاني كذلك، ودراسة :

jeanntte Colombele ،**Michel Foucault** ،**La clarté de la mort**, ed.odile jacob, 1994

أما الدراسات العربية فيمكن الإطلاع على كتاب: - محمد علي الكردي،نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، دار المعرفة الجامعية.بدون تاريخ، (وهي في الأصل رسالة دكتوراه دولة)

(١٣٨) Michel Foucault, **Folie et Civilisation**. **In**, **Les Cahiers De Tunisie**, **(Foucault en ..Tunisie**) Nso 149 - 150 1989 .

وهي عبارة عن محاضرة ألقاها بـ"مركز الطاهر حداد" في تونس بتاريخ ٢٤ أفريل **١٩٧١** .ونشرت في الكراسات التونسية العددين **١٤٩ - ١٥٠ ، ١٩٨٩** . وسنقوم بتلخيص اهم ماجاء فيها من افكار.

الأطروحة الأولى: للجنون وظيفة ثابتة في كل المجتمعات.

رفض فوكو من خلال هذه الأطروحة الفكرة التي انتشرت في القرن الثامن عشر والتي مفادها أن الجنون نتاج المجتمعات المعقدة، أما المجتمعات البسيطة فلا تعرف الجنون.ويرى أن في كل مجتمع يتم تهميش فئات من الناس لا على أساس أنها مجرمة أو مريضة أو مقدسة ، بل لأنها تلتقي في بعض صفاتها مع هذه الفئات وتختلف عنهم،في نفس الوقت، فكيف يمكن التعرف عليها ؟

يقدم فوكو مجموعة من الصفات لتعيين المجنون، منها أن المجنون ليس له مكانة في العمل الإنتاجي، فالمجتمع لايطالبه بإنجاز أعمال معينة، كما يطالب الآخرين. ولا يتمتع بنفس المنزلة التى يتمتع بها الآخرون في أشكال اللعب والاحتفال والفرح، و يعتبر شخصا منحرفا من وجهة نظر العائلة والممارسة الجنسية، وأخيرا يمتلك لغة خاصة، ليس لها نفس المعاني المتداولة ولا ينتمي إلى مؤسسة معينة تحدد إطاره القانوني.

إن هذه الصفات تحدد المجنون في مختلف الحضارات ، فهو يقترب من المريض في خاصية العمل، إذ المريض لا يعمل، ولكن يحتفظ على وضعه داخل العائلة ، ويقيم علاقات جنسية سوية، لكن المجنون يقترب من المجرم من حيث الانحراف والوضع العائلي، كما أن له قرابة بالشخص المقدس كالساحر أو المشعوذ أو رجل الدين.فالشخص المقدس يملك لغة رمزية تماثل لغة الجنون، ومن هنا نجد في تاريخ الأديان ذلك الصراع والتشبيه بين خطاب المجنون وخطاب النبي، إلا أن الشخص المقدس يحظى بالاعتراف الرسمي من قبل المؤسسات، كالمؤسسات الدينية مثلا، وهو ما لا يحظى به المجنون.

وإذا كانت هذه المميزات مشتركة ونجدها في مختلف الحضارات المتقدمة والبدائية، فإن ما يجب ملاحظته في نظر فوكو هو أن المجنون قد لقي اهتماما خاصا في الحضارة الغربية، وبدأ التعرف عليه منذ القرن السابع عشر أي منذ العصر الكلاسيكي، وخاصة، في عدم قدرته على العمل.

فالإدراك الإقتصادي في صورة البطالة ، هو الذي سمح بالتعرف على المجنون كما أن مكانه في مؤسسات اللعب سمحت هي أيضا بالتعرف عليه، ذلك أن المجنون موضوع لعب، فنحن نلعب بالمجنون ولانلعب بالمريض وتحتل شخصية المجنون مكانة بارزة في المسرح، حيث يظهر شخصا عارفا ومستكشفا لعالم الغيب ويحمل التنبؤ بالمستقبل أكثر من الأشخاص العاديين.

وفي هذا السياق فان أوربا عرفت ظاهرة خاصة هي ظاهرة حفلات المجانين، وهي الحفلات الوحيدة، في ما يذكر فوكو التي لم تكن دينية، حيث يتقنع الناس بأقنعة مختلفة، ويتحررون من كل القيود الاجتماعية والدينية، ويحتفلون بصورة جنونية، وتعاطي المخدرات في الغرب في الوقت الحاضر تعد في نظره صورة من صور الحنين إلى الجنون.

الأطروحة الثانية : أصبح الجنون في العصر الحديث يحمل طابعا مؤسساتيا.

إذا كانت الأطروحة الأولى معرفية، فإن الثانية تعكس أشكال السلطة التي خضع لها المجنون.فمنذ العصر الحديث عرف المجتمع انقساما حادا بين المجنون والعاقل، ليس فقط بواسطة المعارف ولكن كذلك بواسطة المؤسسات، مثل مؤسسات العزل أو الحجر، أو مؤسسات الطب، كالمستشفيات والمصحات.

ففي مدينة مثلا، كمدينة "باريس"، وجد أن في كل مستشفى هنالك أربعة عشر سريرا خاصا بالمجانين، كل سرير مجهز بسلاسل وبأقفاص مغلقة، يتم فيها سجن ما يسمى بالأشخاص "الخطيرين".والسؤال الأركيولوجي الذي يطرحه فوكو هو كيف حدثت هذه المأسسة ""Institutionalisation»؟ كيف حدث وأن شعر المجتمع بالحاجة إلى إيجاد وسيلة لتحديد المجنون؟

لعل السبب الأول يكمن في الظروف الاقتصادية ' إذ إن الأزمة الاقتصادية الحادة التي عرفتها أوروبا في بداية العصر الحديث، والتي كان من آثارها ظهور البطالة التي تكثفت مع نهاية الحروب الدينية، سمح لنزعة اقتصادية هي الماركنتيلية باقتراح فكرة بناء المعازل.

وهكذا تم حجر تلك الفئات التي لاتملك عملا أو وظيفة تحت اسم الجنون، والذي كان يضم فئات مختلفة من السكان منهم المجرم والعاهر والفقير والمريض والفاسق والمجنون، فالعصر الكلاسكي قام بحجر كل الفئات غير العاملة تحت اسم واحد هو الجنون.

ومع الثورة الفرنسية يبدأ التحرير الذي لايعود إلى المبادئ التي رفعتها الثورة، ولكن إلى الأزمة العميقة التي عرفتها المعازل، تلك الأزمة التي ترجع إلى عوامل اقتصادية. فالصناعة كانت في حاجة إلى يد عاملة رخيصة، وكانت وسيلتها هي فتح المعازل أواخر القرن الثامن عشر، ومنذ بداية القرن التاسع عشر، أصبح المجانين وحدهم ، ولأول مرة ، في المستشفيات وتم إقصاؤهم من العائلات.

إن هذا الإقصاء أعطى للجنون طابعا طبيا وللمعزل طابع المستشفى، وتم تقديم انطباع على أن المستشفى يعالج ويطبب، وهو في الحقيقة ليس أكثر من وسيلة للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم اجتماعيا وعائليا. وهكذا لم يصبح المستشفى في نظر فوكو مؤسسة طبية إلا في القرن العشرين، وذلك نتيجة حدثين هما : ظهور التحليل النفسي، وعلم النفس العلاجي والتطور العلمي الذي سمح بإدخال وسائل علاجية فعالة في الظاهرة المرضية للجنون.

إن هذا يعني أن هنالك : (سلسلة من الأحداث الاقتصادية والسياسية والمؤسساتية والقانونية التي جعلت من الجنون مرضا عقليا)(١٣٩)

ثانيا-حول تاريخ التطبيب أو الإستشفاء: Histoire de la medicalisation

يناقش ميشيل فوكو في البداية ' ما سماه بـ:

(أ) التاريخ الحيوي "Biohistoire» في مقابل السلطة الحيوية "Biopouvoir» ويعني بالتاريخ الحيوي الأثر الذي يحدثه التدخل الطبي على المستوى البيولوجي، ورد الفعل الذي يقوم به الكائن البشري وما أسفر عنه من نتائج، مثل انقراض الأمراض المعدية كالكوليرا والطاعون، واكتشاف المعالجة الكيماوية " Chimieothérapie"».

(ب) التطبيب الذي يعني أن جسم الإنسان أصبح يخضع أكثر فأكثر ومنذ القرن الثامن عشر لشبكة من التطبيب،وذلك بفعل البحث الطبي وتطور المؤسسات الطبية.

(جـ) اقتصاد الصحة أو إدماج تحسين الصحة وتحسين الخدمات والاستهلاك الصحي في التطورالاقتصادي، حيث يرى أن المجتمعات الرأسمالية تهتم بالسياسة الحيوية " Bio-Politique" قبل كل بيولوجيا جسمية أو جسدية " Somatique"، فالجسد في نظر الرأسمالية حقيقة سياسية حيوية، والطب إستراتيجية سياسية حيوية(١٤٠)

---

(١٣٩) michel Foucault, **Folie et Civilisation** ،p.59.

(١٤٠) Michel Foucault, Histoire de la medicalisation, 2 ème Conférence prononcée dans le cadre des cours de medecine sociale à l'Université d'état de Reo DI Janiro. 1974 ،p.15.

-كل الإحالات التي تخص هذا النموذج تعود إلى هذه المحاضرة التي ألقاها بجامعة "ريو دي جانيرو " بالبرازيل والتي نقوم بتلخيص أهم ما جاء فيها من أفكار.

لقد تم اعتراف بالجسد كحقيقة سياسية واجتماعية، وكقوة عمل، ابتداء من القرن التاسع عشر، أما قبل هذا التاريخ فإن الطب لم يهتم بالجسد وفقا لهذه الصفات، لذلك حاول فوكو متابعة كيفية تحول الجسد إلى قيمة سياسية وطبية وهذا من خلال ثلاث أشكال طبية هي :

الشكل الأول وهو طب الدولة "Medecine d'Etat»: تطور هذا الشكل في "ألمانيا" ابتداء من القرن الثامن عشر، ذلك أنه تشكل في القرن السابع عشر علم سمي بعلم الدولة «Science de l'Etat » الذي يعني من جهة معرفة موضوعها الدولة، ليس فقط من حيث الموارد الطبيعية، وظروف حياة الشعب، ولكن الاشتغال العام لآلة الدولة.

ومن جهة أخرى يعني المناهج التي تهتم بها الدولة لتنتج وتراكم المعارف التي تسمح لها بالقيام بوظائفها بشكل جيد. الدولة إذن موضوع معرفة ومجال لاكتساب المعارف، وفيها تطورت ممارسة طبية تهتم أساسا بتحسين الصحة العمومية.ولقد تم اقتراح برنامج خاص سمي بالشرطة الطبية للدولة " "Police Medicale d'Etat كانت مهمته :

(أ) إقامة نظام للملاحظة المرضية، وذلك بجمع المعلومات في المستشفيات وعند الأطباء، وفي مختلف المدن والرياف، وتسجيل مختلف الأمراض والأوبئة.

(ب) ضبط « Normalisation » الممارسة والمعرفة الطبية، سواء فيما يتعلق بالتكوين الطبي أو توزيع الشهادات وتحديد سلطتها داخل الجامعة أو عند الطباء.

(جـ) إقامة تنظيم إداري لمراقبة النشاط الطبي، وذلك بمراقبة البحوث الطبية، والتحقيقات الطبية والأدوية، وتسجيل مختلف ردود الفعل عند ظهور مرض جديد وإصدار أوامر حسب المعلومات المجمعة .

(د) تكوين موظفين طبيين، يعينون من طرف الحكومة ويتولون مسؤوليات الطب في الأقاليم، كما يتمتعون بسلطة قوية. وهكذا وجدنا كل طبيب يكلف بنسبة سكانية تقدر بين ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ساكن، في هذه الفترة، ظهر الطبيب الذي يشبه إداري الصحة.

يقول ميشال فوكو: (إن تنظيم المعرفة الطبية من طرف الدولة، وضبط الوظيفة الطبية، وإلحاق الأطباء بالإدارة العامة وإدماج مختلف الأطباء في التنظيم الطبي للدولة، نتج عنه سلسلة من الظواهر الجديدة ، التي تميز ما يمكن تسميته بطب

الدولة)(١٤١)

إن هذا الشكل من الطب لم يكن موضوعه تكوين قوة العمل من أجل الحاجات الصناعية، فليس جسد العمال هو الذي يهم طب الدولة، ولكن جسد الأفراد والذي باجتماعهم تقوم الدولة، فالأمر لا يتعلق بقوة العمل، وإنما بقوة الدولة في مواجهة أزماتها، ليس فقط الاقتصادية، وإنما أزماتها مع جيرانها.

الشكل الثاني من الطب الاجتماعي هو الطب الحضري أو المديني «Medecine Urbaine" الذي تطور في "فرنسا" والذي لا يقوم على الدولة وإنما على المدينة أو على الحضر، أو على حركة توسيع البنى الحضرية.وهنا يقدم فوكو لوحة تاريخية عن ظهور المدينة في "فرنسا"، مركزا بحثه على مدينة "باريس" .

إن للمدينة مشاكل كثيرة، صحية وتنظيمية، تتطلب خططا استعجالية تقوم على جملة من الإجراءات منها :

(أ) في حالة الأوبئة، يلزم السكان مساكنهم، كل عائلة في بيتها، وكل فرد في غرفته.

(ب) تقسم المدينة إلى أحياء يشرف عليها مسؤول خاص، عرف بالمفتش يقوم بمراقبة المدينة والسكان على السواء.

(جـ) على هؤلاء المراقبين تقديم تقارير مفصلة لرؤساء البلديات، مما يعني في نظر فوكو ممارسة نظام إعلامي مركزي.

(د) ضرورة تطهير المنازل من كل عضو مريض.

إن هذه المخططات تتنوع بتنوع الأوبئة والأمراض، ومهمة الطب الحضري وقائية واستشفائية. من هنا نجد تلك الدراسات حول الأماكن القذرة والتي تسبب الأمراض، وهذا بواسطة ما يسمى مراقبة المرور، ليس مرور الأشخاص، وإنما الأشياء والعناصر، وخاصة الماء والهواء.

وكانت المشكلة تتحدد في كيفية تحقيق هواء نقي في الشوارع والمنازل والتجمعات، وكان الحل يكمن في رسم وتخطيط الشوارع الكبرى، وتأسيس هندسة معمارية جديدة. ولقد شهدت "فرنسا" في هذه الفترة، تحطيم كلي للمنازل والأزقة التي لا تتوفر على شروط حركة مرور الماء والهواء.كما تم تنظيم قنوات صرف المياه.وتم تعاون بين الطب وفرع علمي أساسي هو الكيمياء.

---

(١٤١) Michel Foucault, Histoire De La Medicalisation, p.19.

إن الطب الحضري في نظر فوكو، ليس الطب الإنساني، وإنما هو طب الاشياء والهواء والماء، طب شروط الحياة في الوسط البيئي، ومن خلاله تطورت الدراسات البيولوجية، حول العضو والكائن والمحيط، على يد "كوفييه «Cuvier»

ومع الطب الحضري وقبل الثورة بقليل، ظهر مفهوم السلامة الصحية «Salubrité»، وبعد الثورة مباشرة، كان أول قرار اتخذه البرلمان هو تشكيل لجان السلامة الصحية في كل المقاطعات وذلك سنتي ١٧٩٠ - ١٧٩١. والسلامة الصحية تعني ضمان الشروط والوسائل الاجتماعية والمادية لضمان الصحة المناسبة للأفراد. كما ارتبط بهذا المفهوم مفهوم آخر هو الصحة العمومية، كتقنية لمراقبة الصحة :(إن السلامة الصحية أو انعدامها متعلقة بحالة الأشياء والمحيط وتأثيرهما على الصحة .والصحة العمومية هي المراقبة السياسية والعلمية معا)[١٤٢]

إن مفهوم الصحة العمومية، يرتبط بالقرن التاسع عشر، وهو الذي يشكل الطب الاجتماعي، وكانت أول مجلة تحمل اسم الصحة العمومية قد ظهرت سنة ١٨٢٠، وإن جزءا كبيرا من الطب الحضري سيظهر في طب العمل.

إن طب قوة العمل " Medecine de la Force Du Travail"هو الشكل الثالث الذي ظهر في "إنجلترا"، وهو يعتني بالفقراء والعمال، وهذا نتيجة للأسباب الآتية :

(أ) ظهور الفقراء والمحتاجين كقوة سياسية، تنذر بإحداث ثورات وانتفاضات.

(ب) المشاكل التي كانت تواجه الإصلاحات الاجتماعية في القرن التاسع عشر.

(جـ) بظهور الكوليرا بباريس سنة ١٨٣٢، استولى الخوف على كامل أوروبا، خوف من الفقراء ومن البروليتاريا وحثالة البروليتاريا. ومنذ هذا التاريخ، يبدأ تقسيم المكان الحضري إلى مناطق خاصة بالفقراء وأخرى خاصة بالأغنياء.معنى هذا أن الجمع وفي مكان واحد وداخل المدينة الواحدة بين الغني والفقير يعتبر خطرا على المدينة ذاتها، من هذا ظهرت الأحياء الراقية والأحياء الشعبية.وبدأت السلطة تتدخل في صالح حق السكن الشخصي.

إن "إنجلترا" وتحت تأثير الثورة الصناعية ستطور طب قوة العمل، وخاصة بعد صدور "قانون الفقراء" والذي تضمن حق المراقبة الصحية للمعوزين، مع حق المساعدة الضريبية.من هنا كان تدخل الأطباء لمساعدة الفقراء وإشفائهم أو معالجتهم.

---

(١٤٢) Michel Foucault, **Histoire de la Medicalisation**, p.25.

وهكذا تمكنت الطبقات الغنية، بواسطة حكوماتها من السيطرة ومراقبة صحة الفقراء، والحفاظ على صحة السكان المفضلين أوالمحظوظين، وذلك بتمكين الفقراء من الحصول على الأدوية مجانا، أو بأسعار معقولة، وبهذا يتحرر البورجوازي من خطر الوقوع ضحية الأوبئة الصادرة من الفئات الفقيرة.

إن قانون الفقراء يعبر عن مصلحة الطبقة البورجوازية في نظر فوكو، وسيكون علامة فاصلة في نظام طبي معقد، بدأ في التأسيس حوالي ١٨٧٥، بجملة من العمليات منها :

(أ) المراقبة بواسطة الحقن « Vaccination »

(ب) تسجيل الأمراض التي يمكن أن تتحول إلى أوبئة، وإجبارية التصريح بالأمراض الخطيرة.

(جـ) موضعة « Localisation » الأماكن غير الصحية، وإذا استدعى الأمر هدمها أو حرقها، وهو ما يحدث غالبا.ولذا نفهم في رأي فوكو حركات المقاومة والعصيان التي انتشرت في القرن التاسع عشر.

وبشكل عام، فإن طب قوة العمل قد عمل على المراقبة الصحية للفقراء، وعلى الإعتناء بأجسادهم من أجل أن تكون صالحة وقادرة على العمل، وأقل خطورة على الطبقات الغنية[١٤٣]

إن هذا الشكل الطبي سيكتب له فيما يرى فوكو البقاء أكثر من الشكلين السابقين، فهذا النظام الذي أسسه "سيمون « Simon » وأتباعه، مكن من تحقيق ثلاث أهداف هي :

(أ) المساعدة الطبية للفقراء.

(ب) مراقبة صحة قوة العمل.

(جـ) المراقبة العامة للصحة العمومية، محميا بذلك الطبقة الثرية من الأخطار التي تهددها.

كما سمح بظهور ثلاث أنظمة طبية، هي :

(أ) طب المساعدة موجه للمعوزين.

(ب) طب إداري يهتم بالمشاكل العامة، مثل التلقيح والأوبئة.

---

(١٤٣) Michel Foucault, **Histoire de la medicalisation**, p.27.

(جـ) طب خاص بالأثرياء .

وهكذا فإذا كان الطب الألماني بهيض الكلفة، وإذا كان الطب الحضري الفرنسي طب مراقبة عامة بلا سلطة معينة، فإن الطب الإنجليزي، طب قوة العمل، سمح بظهور طب يتمتع بسلطات مختلفة، وهو إلى اليوم الشكل الطبي المعتمد(١٤٤)

ثالثا-حول تطور مفهوم *"الفرد الخطير"* في علم النفس الشرعي:

ناقش فيها سؤال أساسي هو : كيف يمكن معرفة الأسباب المؤدية إلى الجريمة؟

إنه سؤال يتعلق بهوية المجرم.لقد كان القضاة لا يتوقفون عند الاعتراف الذي يدلي به المجرم، بل يبحثون في الدوافع التي تؤدي إلى الجريمة.وفي نظر فوكو، فإن القضاة لا يعملون فقط بالقوانين على أساس المخالف أو البرئ أو المسؤول، بل كان لابد لهم من شيء آخر هو خطاب المجرم ذاته،سواء باعترافه أو بالبوح بأسراره أو بذكرياته. لماذا ؟ لأن السؤال الذي كان يواجه المحاكم هو : هل يمكن الحكم بالإعدام على إنسان نجهله؟

من هذا السؤال دخل علم النفس في المجال القضائي، وذلك منذ القرن التاسع عشر، وبالضبط بين ١٨٠٠ - ١٨٣٥ . وفي هذا السياق يقدم فوكو أمثلة لجرائم مرعبة مثل، حادث "سلستا "Selstat» الذي وقع سنة ١٨١٧، وكنتيجة للجوع تقوم الأم التي تستغل غياب زوجها، بقتل ابنتها وقطع أوصالها وطبخها.وفي سنة ١٨٢٧، تطلب الخادمة "هنريت كورنييه « Henrite cornier» من جارتها رعاية ابنتها الصغيرة، وبعد وقت قصير تقوم الخادمة بقتل الطفلة، ورمي رأسها على النافذة، وهنالك أحداث مماثلة في إرلندا وبلجيكا وبلاد الغال وبريطانيا، وعلى مثلها يتساءل الطب النفسي ويلاحظ :

(أ) إن مثل هذه الأحداث تختلف عن أحداث القضاء الخاص بالجنون الإجرامي ويهتم بجرائم ليست متبوعة بأمراض تقليدية مثل الجنون، بل بالأمراض التي لا تحمل أي صفة من صفات الجنون.

(ب) هذه الجرائم المعترف بها ليست جرائم بسيطة، بل مرعبة، وهي التي أدخلت الطب النفسي في العدالة.

(جـ) هذه الجرائم عائلية، أي تحدث داخل العائلات وبين مختلف أفرادها.إنها جرائم ضد الطبيعة، لذا فإن الطب النفسي للجريمة، تعاون مع علم الأمراض

(١٤٤) Ibid, p.28

المرعبة «Pathologie du monstre».

(د) كل هذه الجرائم تشترك في صفة واحدة، كونها ليس لها سبب ولا مصلحة ولا باعث، وعلماء النفس متفقون على أن هذه الجرائم لا تملك معقولية[١٤٥]

ففي الوقت الذي تأسس فيه الطب العقلي الجديد، وطبقت في كامل أوروبا وأمريكا، مبادئ الإصلاح الجنائي، في هذا الوقت بالذات، ظهرت هذه الجرائم العنيفة والمرعبة والمناهضة للطبيعة والتي لا تملك سببا معقولا ومنها ظهر الجنون الإجرامي، والإجرام المرضي، وهو نوع من الاستيلاب الذي لا يظهر إلا في فعل الجريمة، ولا يملك من الأعراض إلا الجريمة، والذي يزول حالما يتم اقتراف الجريمة.

إن ما اكتشفه الطب النفسي في القرن التاسع عشر، هو الجريمة-الجنون،أو جريمة كلها جنون، أو جنون كله جريمة، أو ما يسميه الطب النفسي بـ"الهوس الأحادي القاتل "Monomanie Homocide».وما يهتم به فوكو، هي المكانة التي يحتلها الأطباء النفسانيون في الآلية العقابية، وتدخلهم في مختلف الجرائم التي يرونها عرضا من أعراض الجنون، والتي كان القضاة يتقبلون وصفها بالهوس المتوحش.

والسؤال الذي يناقشه هو : لماذا وإلى أي شيء تعود أهمية الهوس المتوحش والتي تعتبر مفتاحا لفهم الطب النفسي الإجرامي؟ في بداية القرن التاسع عشر، حاول الطب النفسي أن يحتل مكانته العلمية بين مختلف الممارسات الطبية، وأن يتشكل كتخصص طبي، وكانت الجريمة رهان أساسي للأطباء النفسانيين، ليس فقط من الناحية المعرفية، بل لأنها مجال للسلطة يجب ضمانه وتبريره[١٤٦]

إن أهمية الطب النفسي، لا تعود إلى درجته العلمية، ولا لتطبيقه للعقلانية، بل لكونه يقوم بوظيفة الصحة العمومية أو النظافة العمومية.ذلك أن التطورالديموغرافي الذي حصل في القرن الثامن عشر، والهياكل المدينية ومشاكل اليد العاملة الصناعية، طرحت المشكلة الطبية والبيولوجية للسكان، إضافة إلى ظروف المعيشة والتغذية والسكن والوفيات والولادات والحالات المرضية.وأن الجسم الاجتماعي لم يعد استعارة قانونية وسياسية بل أصبح واقعة بيولوجية، ومجال للتدخل الطبي، ومن هنا أصبح

---

(١٤٥) Michel Foucault ،L'évolution de la notion "individu dangereux" dans la psychiatrie Légale In, (D.425), p.407.

-وسيتم عرض أهم أفكار هذه الدراسة في متن البحث.

(١٤٦) Ibid ،p.409.

الطبيب يمثل تقني الجسم الاجتماعي، والطب صحة عمومية، وكان على الطب النفسي أن ياخذ مكانته في إطار دفع المخاطر عن الجسم الاجتماعي، وذلك بواسطة مفهوم *الهوس الاجتماعي*. إن هذ المفهوم يبين أن :

(أ) الجنون وفي كل الأحوال جريمة ليس إلا .

(ب) الجنون لا يؤدي فقط إلى فوضى السلوك، ولكن إلى الجريمة المطلقة، إنه يكسر ويخرب كل القوانين الطبيعية والاجتماعية.

(جـ) لهذا الجنون قوة خاصة لا تظهر إلا ساعة انفجارها.

وعلى هذا الأساس استعمله-المفهوم-المحامون للدفاع عن موكليهم، ورغم رفض القضاة له إلا أن *تكرار الجرائم المرعبة*، أدى دوما إلى تلك القرابة التي تجمع بين *الانحراف والجنون*، ومنذ ١٨٢٠، شعر القضاة بالحاجة إلى المعرفة الطبية، ومن هنا أعطت التشريعات الجديدة مكانة للتحقيق الطب-نفسي L'expertise psychia-trique، التي أعطت بدورها أهمية لعامل اللامسؤولية المرضية في العقاب. وأصبح العقاب (تقنية جديدة لمراقبة وتحويل الأفراد ومجموعة من الإجراءات لتعديل الأحداث)[١٤٧] .

إن العقاب أصبح يعتني بما يجعل المجرم مجرما وبما يدفعه إلى ارتكاب الجريمة، على عكس العقاب القديم القائم على تصحيح المعاقبة.ومن خلاله نفهم في نظر فوكو لماذا طرحت إشكالية الجرائم التي ليس لها دواع معقولة، وأصبحت مشكلة عويصة للقضاء، في حين أنه كان في السابق يكفي القبض على الجاني.وما حدث مع بداية القرن التاسع عشر هو طرح السؤال التالي:كيف يمكن معاقبة مجرم نجهل عنه كل شيء؟هذا المجرم الذي يبقى صامتا أمام القضاة ! وإذا كان سبب الجريمة هو ما يجب معاقبته، فكيف يمكن معاقبة جريمة بدون سبب ؟

لكي نعاقب نحتاج إلى معرفة الأسباب. ومن هذه الحاجة يتدخل الأطباء النفسانيون لإيجاد الأسباب لمثل هذه الجرائم، لقد كانوا يستدعون لمعاينة الحالات الجنونية المرعبة، أما الآن فأصبحوا يستدعون باعتبارهم "إخصائيو الباعث"، وكان

---

(١٤٧) Ibid ،p 411.

عليهم ليس فقط أن يعينوا السبب، ولكن أن يبينوا كذلك معقولية الفعل،أي : (مجموع العلاقات التي تربط الفعل بالمصالح والحسابات وعادات الفاعل)[١٤٨] وعلى أساس هذا التحليل، يقرر فوكو جملة من النتائج، أهمها:

(أ) إن تدخل الطب العقلي في المؤسسة العقابية، ليس نتيجة لتطور النظرية التقليدية الخاصة بلامسؤولية المجنون.

(ب) إذا كانت وظيفة الطب صحة عمومية، فإن العقاب أصبح تقنية لتحويل الأفراد.

(جـ) هاتين النتيجتين تتعاونان لتشكلا ميكانيزم السلطة التي تحاول مراقبة الجسد الاجتماعي.

(د) الجريمة المرعبة والمضادة للطبيعة والتي لا تتوفر على الأسباب، هي وسيلة الطب للبرهنة على أن الجنون في كل الأحوال خطر.

(هـ) من هنا ظهر في الطب النفسي، وفي المؤسسة القضائية مفهوم الإنسان الخطير ."L'homme dangereux»

إن هذا المفهوم هو الذي أدى إلى ظهور وميلاد أنتروبولوجيا الإنسان المجرم.

في المدرسة الإيطالية، ونظرية الدفاع الاجتماعي في المدرسة البلجيكية، وفي هـذا الإطار طرحت الأنتروبولوجيا الإجرامية، مجموعة من الأفكار أهمها:

(أ) ترك فكرة المسؤولية القانونية ودرجة حرية الفرد، وطرح مسألة الخطر الذي يشكله الإنسان الخطير على المجتمع.

(ب) المجانين والمرضى وغير الأسوياء هم الأفراد الخطيرون.

(جـ) العقاب ليس معاقبة، ولكنه وسيلة للدفاع عن المجتمع.

إن هذه الأطروحات تم التخلي عنها، لأنها اعتمدت على نظرة علماوية Scien-tisme وعلى سذاجة وضعية، حيث أن العلوم نفسها قد فرضت التخلي عنها واعتبارها نظرة تاريخية تطورية كذبتها الأحداث.

أما بالنسبة للدفاع الاجتماعي ، فيتعلق الأمر بتغيرات، على مستوى القانون المدني، ذلك التغير الذي وجد في مفهوم الخطر أو المجازفة مبتغاه، ولقد تم إدخاله من طرف "برانس "Prince » في دورة سبتمبر من سنة ١٩٠٥، في الاتحاد العالمي

---

(١٤٨) Ibid ،p 412

للقانون الجنائي.والنتيجة هي :

(أ) إن ما كان موضوع نقاش، ليس الجريمة بدون سبب، ولكن المشكل الحقيقي هو مفهوم الفرد الخطير، فهل هنالك أفراد جوهريا خطيرون؟ وكيف يتم التعرف عليهم؟

(ب) إن هذا التحول، حدث بالتعاون بين الطب العقلي، والمعرفة الطبية النفسية والمؤسسة القضائية.ولهذا أصبح الفرد الخطير، هو الموضوع الأساسي، للتحقيق النفسي.

تعكس هذه النماذج الثلاثة، -كل في مجالها-موضوع ومسألة العلاقة بين المعرفة والسلطة، فماهو التصور النظري الذي يقدمه فوكو لهذه العلاقة ؟ وما هي النتائج التي يمكن أن نستخلصها، من خلال هذه النماذج التاريخية والتطبيقية، لممارسة خطابية، موضوعها ليس المعرفة فقط بل المعرفة في علاقتها بالسلطة؟

للإجابة على هذا السؤال، سنحاول العودة إلى التصور النظري لفوكو وإلى تلك الممارسات الخطابية التي تعبر عن هذه المسألة وذلك بالوقوف على :

١- إن مفهوم المعرفة-السلطة، من المفاهيم المركزية والأساسية والخاصة بتحليلات فوكو، والمختلفة كلية عن الدراسات التي تناقش علاقة العلم بالسياسة أو علاقة العقل بالهيمنة.وذلك لما يتمتع به مفهوم المعرفة-السلطة من خصوصية وجدية، ذلك لأنه إذا كان -كما يقول فوكو-(الفلاسفة والمثقفين بشكل عام يبررون هويتهم وخصوصيتهم وحتى نخبويتهم عن طريق إقامة حاجز منيع يفصل بين عالم المعرفة الذي يعتقد بأنه عالم الحقيقة والحرية، وبين عالم السلطة وممارسة السلطة(...) وإن الشيء الذي أدهشني لدى دراستي للعلوم الإنسانية هو أنه لا يمكن أن نفصل إطلاقا بين نشأة كل هذه المعارف وبين ممارسة السلطة)[١٤٩]

يتحدد مفهوم المعرفة-السلطة بالجمع والربط بينهما، لا بالفصل والتمييز كما هو عند الفلاسفة والباحثين وخاصة في الإتجاه الماركسي أو في مدرسة "فرانكفورت"، وهذا الجمع والربط، قائم أساسا على موقف معرفي، وفلسفي عند فوكو، سبق وأن أشرنا إليه في تحديدنا لمفهوم الخطاب والممارسات الخطابية، في الفصل الثاني من كون فوكو ينكر قيام السببية أو العلية، وهذا موقف فلسفي عام، ينطبق على منظور الفيلسوف عموما.

---

(١٤٩) صالح هاشم ، فيلسوف القاعة الثامنة، مرجع سبق ذكره.

لذلك يرى بأن: (السلطة تنتج نوعا من المعرفة وتؤدي إلى تراكم المعلومات والمعارف، واستخدام كل ذلك من أجل المزيد من ممارسة السلطة، وبالمقابل فإن المعرفة هي بحد ذاتها، سلطة)(١٥٠) ولعل المثال الواضح والبسيط في هذا الشأن، هو الأستاذ الجامعي الذي يحمل معرفة وفي نفس الوقت يحمل سلطة النجاح والرسوب، سلطة الإجازة أو عدم إجازة الطالب.فـ(حيث توجد السلطة توجد المعرفة أو نوع محدد منها، وحيث توجد المعرفة يوجد حد معين من السلطة.إن مجرد ممارسة السلطة يؤدي إلى خلق المعرفة وتجميع المعلومات، وبالتالي استخدامها.وأيضا فإن ممارسة المعرفة تنتج بالضرورة نوعا من السلطة)(١٥١)

إن هذا الربط الذي يقوم بين المعرفة والسلطة، يشكل ميزة أساسية في مفهومه للمعرفة وخاصية أساسية في خطابه المعرفي، هذه الخاصية تعود إلى العلاقة التي يقيمها بين المعرفة وإرادة المعرفة، كما سبق وأن أقام العلاقة بين الخطاب وإرادة المعرفة في إطار مجموعة الإجراءات الخارجية التي :(تمارس نوعا من الضغط على كل الخطابات الأخرى حتى لكأنها سلطة إكراه)(١٥٢)

ترتبط المعرفة كذاك بإرادة المعرفة أي بالسلطة، وهذا ما بينه في دراسته لـ"نيتشه" ، والتي يقول فيها :(إن التحليل التاريخي لإرادة المعرفة التي عرفتها الإنسانية يبين في الوقت ذاته أنه ما من معرفة إلا وتقوم على الظلم والخطأ(...)كما يبين أن غريزة المعرفة غريزة شريرة)(١٥٣)

إن إرادة المعرفة والسلطة عنصر أساسي في تحديد مفهوم المعرفة أو الحقيقة، ذلك أن فوكو لا يميز بشكل نوعي بين المعرفة والحقيقة، وإنما يقدم-في الحقيقة-تمييزا في الدرجة بين معرفة هي الموضوعات المختلفة والحقيقة التي هي آليات تلك الموضوعات، ولكنهما لا تختلفان من حيث الجوهر، فهما تتغيران وتتحولان، لكونهما تخضعان للتاريخ، أي أنهما ذات طابع نسبي(١٥٤)

---

(١٥٠) نفس المرجع، ص ٤٣ . وكذلك مقابلة الفيلسوف، في، L'ARC: La Crise Dans- ،La Tête, No70

(١٥١) نفس المرجع ، ص٤٦ . p,p.24-25.

(١٥٢) ميشال فوكو ، **نظام الخطاب**، ص ١٠ .

(١٥٣) ميشال فوكو ، نيتشه، الجنيالوجيا والتاريخ، ص ٦٥ .

(١٥٤) Michel Foucault ،Résume des cours (1970-1982) ed.julliard, 1989، p,p.12-13.

٢-إن هذه المقاربة المعرفية لمفهومي المعرفة-السلطة، هي التي سمحت لفوكو بأن يقرر الأطروحة التالية :

(الحقيقة ليست خارج السلطة، ولا مجردة من السلطة(...) الحقيقة هي من هذا العالم، وتنتج فيه بفضل إلزامات عدة(...) لكل مجتمع نظام حقيقة خاص به، "سياسته العامة" للحقيقة: أعني، أنماط الخطاب التي تستقبلها وتوظفها بوصفها صحيحة: والآليات والحوافز التي تسمح بتمييز الإطلاقات الصحيحة من الخاطئة، والطريقة التي تتحقق بها من المحكمين، والتقنيات والإجراءات المعترف بها للحصول على الحقيقة، والوضع الشرعي للذين مهمتهم أن يقولوا ما يعمل عمل الحقيقة)[١٥٥]

إن هذا النص المكثف، يبين ما سبق وأن حللناه ونعني بذلك، علاقة المعرفة أو الحقيقة بالخطاب، والمنظور النسبي لمفهوم المعرفة والحقيقة، وارتباطها بالتاريخ والسلطة، وهو الذي يشكل الخطوط الأساسية لمفهوم فوكو لمسألة السلطة، في إطار التاريخ الغربي والذي سمح له بإقرار مجموعة من النتائج أهمها :

(أ) الحقيقة ترتكز على شكل الخطاب العلمي وعلى المؤسسات التي تنتجه.

(ب) إنها خاضعة لتحفيز اقتصادي وسياسي دائم.

(جـ) موضوع لعملية توزيع واستهلاك واسعين .

(د) تنتج ويتم تداولها تحت الإشراف، الطاغي، لبعض الأجهزة السياسية والاقتصادية الكبرى (الجامعة، الجيش، الكتابة).

(هـ) إنها مضمون رهان لكل مجال سياسي ولكل مواجهة اجتماعية.

٣ - لا يمكن لنا تعميق تحليل مفهوم المعرفة، دون مناقشة مفهوم السلطة، الذي يعتبر مرحلة جديدة في بحث فوكو،ذلك لأن المعرفة ستتخذ في هذه المرحلة مختلف أشكال التوضيع Objectivation » أو في مرحلة البحث في مفهوم الذات والتذويت "Subjectivation"» ، إن هذا التحليل سيكون موضوع الفصول القادمة، وهذا تماشيا والتحليل التاريخي الذي نحاول القيام به لدراسة فوكو.

---

(١٥٥) ميشال فوكو، **الحقيقة والسلطة** ، ص ١٣٦ .

وعليه نستطيع القول -إجمالا-أن تحليلنا لعلاقة الخطاب-المعرفة، يبين أن المعرفة هي ممارسة خطابية خاصة، تتحدد بجملة من الوضعيات، والتشكيلات الخطابية، وبذلك تؤسس خطابا معرفيا، هو الخطاب الأركيولوجي للمعرفة، الذي يتميز عن نظرية المعرفة أو الإبستيمولوجيا، ويقوم -أساسا-على مفهوم معين للإبستيمية والمعرفة والحقيقة والسلطة، هذا المفهوم الأخير -السلطة-هو الذي سيكون موضوع مناقشاتنا وتحليلاتنا في الفصل القادم .



الفصل الرابع

الخطاب والسلطة

مقدمة .

المحور الأول – السلطة بوصفها ممارسة غير خطابية .

المحور الثانى – خطاب السلطة .

المحور الثالث – المثقف والسلطة .



مقدمة :

فى دراستنا لمفهوم الخطاب فى الفصل الثانى ، أشرنا إلى علاقته بالممارسات غير الخطابية ، والتى عرفها بقوله : (حقل مؤسساتى ومجموعة أحداث وممارسات وقرارات سياسية وتسلسل سياقات اقتصادية ، حيث تظهر تغيرات ديموغرافية ، وتقنيات مساعدة واحتياجات إلى اليد العاملة ...)[١]

إن هذا التعريف الذى يحدد طبيعة الممارسات غير الخطابية ، ويؤكد على علاقة الخطاب بها ، هو الذى سيكون موضوع مناقشتنا فى هذا الفصل .

وإنه على عكس التقسيم الشائع الذى يرى فى الإنتاج الفكرى لفوكو ، بأنه ينقسم إلى مرحلة نظرية هى مرحلة اللغة والخطاب ، ومرحلة عملية هى مرحلة المؤسسات والسلطة ، فإننا نرى أنه إذا ما كان المقصود بالممارسات أى المؤسسات والأشكال غير الخطابية فإن مفهوم الخطاب ذاته يرفض هذا التقسيم كما بينا ذلك فى الفصل الثانى ، ولو على مستوى الشكل ، إذ أن فوكو لم يهمل الإشارة إلى علاقة الخطاب بالممارسات غير الخطابية، بالرغم من أنه لم يبين طبيعة العلاقة ، وهو ما سنعمل على إظهاره فى هذا الفصل .

كما أن إنتاج فوكو ، لا يسمح بمثل هذا التقسيم، ذلك أن مسائل السلطة والمؤسسات والحياة المادية ، قد تمت مناقشتها فى أعماله الأولى ، وخاصة فى **تاريخ الجنون ومولد العيادة** . وإذا ما عدنا إلى هذين العملين نلاحظ العلاقة التبادلية بين الخطاب ومختلف الممارسات غير الخطابية .

ففى تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى ، يصف مؤسسات من مثل المعزل والمستشفى ، كما يتحدث عن الحياة الاقتصادية والبطالة ، وغيرها من الظواهر غيرالخطابية ، ولعل ما يقوله عن المستشفى العام يكفى دليلا لما نذهب إليه .

يقول:(فى عام ١٦٥٦، وبناء على قرار ملكى تم فى باريس تأسيس المستشفى العام ، وخلال شهر واحد، قبض على أكثر من ١ ٪ من سكان باريس ، ووضعوا فيه واعتبروا جميعا مجانين ، إن هذا المستشفى ليس مؤسسة طبية ، بل مؤسسة نصف قضائية ، مؤسسة ملكية بورجوازية ، فتحت لعزل العناصر غير الاجتماعية.)[٢] وهى

(١) ميشيل فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ص.١٥١.

(٢) Michel Foucault **Histoire De La Folie A L'Age Classique**, p.60. ،

بذلك أصبحت مؤسسة تحتل مكانا وسطا بين العدالة والشرطة . وتقوم بأدوار سياسية أكثر من دورها فى العلاج والإستشفاء .

لذلك فإن فوكو لم يحاول أن يتوقف فقط عند المعارف المختلفة التى تشكلت حول المرض العقلى ، بل على مختلف مظاهر السلطة والعنف الممارس على المرضى والمجانين . (٣) وهذا التوجه، نلمحه كذلك فى **مولد العيادة** الذى يصف المستشفى والمؤسسات المرافقة لها ، بل إن هذا المنحى يتأكد حتى فى **الكلمات والأشياء** وهو الكتاب الذى عد مثالا للنزعة البنيوية والنظرة اللغوية واستقلال الخطاب بذاته،ذلك أن العمل يشير إلى سلطة الخطابات، وخاصة إلى سلطة المعرفة فى صيغة الإبستيمية . (٤)

صحيح أن ميشال فوكو لم يبين بوضوح العلاقة بين الخطاب والممارسات غيرالخطابية ، وصحيح كذلك أنه لم يتناول مسائل السلطة بشكل واضح ودقيق ، كما سيفعل فى أعماله اللاحقة ، ولكن هذا لا يعنى أنه لم ينتبه إلى مثل هذه العلاقة أو الموضوعات . وهذا ما يؤكده فى حواره حول **الحقيقة والسلطة** قائلا : (وعندما أفكر فيها الآن ، فإنى أسائل نفسى عما تحدثت فى **تاريخ الجنون** أو **مولد العيادة** ، اللهم إلا عن السلطة ؟ والحال أن لدى وعيا تاما بأننى لم أستخدم عمليا هذه الكلمة ، بأن هذا المجال من التحليلات لم يكن فى متناولى .)(٥)

لقد لامس وبطريقة غير مباشرة الممارسات غير الخطابية، أو السلطة ، وكان يواجه مشكل "النظام الخطابي" ومفعول السلطة الخاص بلعبة المنطوقات . لقد كان : (هنالك ، عند نقطة إلتقاء **تاريخ الجنون** و **الكلمات والأشياء** ومن خلال مظهرين مختلفين جدا ، هذا المشكل المركزى حول السلطة الذى لم أكن قد عزلته آنذاك عزلا جيدا .)(٦)

وعليه نقول مع "شيريدان" إن فوكو وبعد تحليلات بين خطابية "Interdiscursives" حققها فى **الكلمات والأشياء** و**أركيولوجيا المعرفة** يعود إلى دراساته السابقة التى تجمع بين الخطاب والمؤسسات ، أو بين الخطاب والسلطة، أو بين الخطاب والممارسات غير الخطابية .

---

(٣) Michel Foucault **Dits et Ecrits, (1954-1988)**, ed. Gallimard, Paris, 1974, Tome3, p.402.

(٤) Ibid même page.

(٥) ميشيل فوكو ، **الحقيقة والسلطة** ، ص. ٧١.

(٦) نفس المصدر، ص. ٦٩.

تلك الدراسات التى ناقشت علاقة المجنون والمريض بمؤسسة المستشفى وسلطتها . هذه الدراسات التى تابعها فى بحثه عن السجون والثكنات والمدارس ، وهى الموضوع المركزى لعمله الأساسى فى مرحلة السبعينيات ، ونعنى بذلك **المراقبة والمعاقبة : مولد السجن** .

المحور الأول - السلطة بوصفها ممارسة غير خطابية : Pratique non-discursive

يبدأ نص المراقبة والمعاقبة برسم المراحل الكبرى لأشكال العقاب، وهى :

أولا - التعذيب : Supplice

يستهل فوكو حديثه ، بالأمر الملكى الصادر سنة ١٦٧٠ ، والذى يضبط الممارسة العقابية ويرتب أشكال التعذيب ، وفق الطريقة الآتية : (الموت ، السؤال مع التحفظ على الأدلة ، الأشغال الشاقة المؤقتة ، الجلد ، الغرامة ، الإقرار بالذنب علنا مع الإعتذار(التوبة) ، النفى .)[٧]

إن هذه العقوبات جسدية فى أساسها ، ومتنوعة فى أشكالها ، فالموت مثلا يمكن أن يكون بالشنق أو التقطيع أو الخنق أو الحرق حيا أو بكسر الرأس . وهكذا فأن هذه الممارسات والتى يصفها فوكو ببراعة تغطى كل المرحلة الكلاسيكية .

ويقدم نسبا ذات دلالة تاريخية عن حجم الإعدامات ، فمثلا بين سنوات ١٧٧٥ - ١٧٨٥ تراوحت الأحكام بالإعدام بين ٩ إلى ١٠ ٪ منها أحكام بالدولاب والمشنقة والمحرقة . كما أصدر برلمان محكمة «الفلاندر» ٣٩ حكما بالإعدام ، من أصل ٢٦٠ قرارا أصدرها بين ١٧٢١ و ١٧٣٠ ، و ٢٦ إعداما من أصل ٥٠٠ بين ١٧٨١ و ١٧٩٠

إن هذه النسب تبين حجم الإعدامات وكذلك أصناف التعذيب التى طالت أجساد المعاقبين كالعرض مثلا والربط إلى عمود التشهير والغل والجلد . وبشكل عام ، فإن القاعدة المعمول بها هى أن : (كل عقوبة ذات نسبة من الجدية ، يجب أن تتضمن شيئا من التعذيب .)[٨] ولكن ماهو التعذيب ؟ يقول «جوكور» الذى يستشهد به فوكو : (إن التـــعذيب عقاب جسدى ، مؤلم يتفاقم إلى حد الفظاعة نوعا ما.)[٩] ويعلق

---

(٧) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة ، مولد السجن** ، ترجمة ، د.على مقلد ، مراجعة وتقديم ، مطاع صفدى ، مركز الإنماء القومى . بيروت ، ١٩٩٠ ، ص. ٧٠ . ينظر كذلك النص الاصلى :

Surveiller et Punir, Naissance de la prison ed Gallimard, 1975, p, 36 .

(٨) نفس المصدر، ص. ٧١ .

(٩) نفس المصدر ' نفس الصفحة .

فوكو على هذا القول قائلا : (إن التعذيب تقنية ... فهى يجب أولا أن تحدث كمية من الوجع التى إن لم يكن بالإمكان قياسها بدقة ، فإنه يمكن تقديرها ومقارنتها وترتيبها ... فالموت التعذيبى هو فن إمساك الحياة فى الوجع . وذلك بتقسيمه إلى (ألف موتة) مع الحصول قبل أن تتوقف الحياة على أشد حالات الفزع.)(١٠)

التعذيب عملية منظمة، تقارن فيه الإصابة الجسدية بكمية الألم وشكل الجريمة ، كما أنه مراسم وطقوس ، وعملية تدوين لجسد المعذب ، قصد الحصول على الاعتراف بالجريمة . لذا فإن الإعتراف هو القطعة الأساسية من عملية التعذيب ، وهو الوسيلة لإنتاج الحقيقة . ومن أجلها يمارس التنكيل والتعذيب بمختلف أشكاله ، ولأنه يؤمن اقتران البرهان المكتوب «ملف الجريمة وأوراق التحقيق» والبرهان الشفوى فى شكل اعتراف .

إن هذه العملية ، تحقق لفوكو نقطتين أساسيتين ، نقطة ربط المعرفة بالسلطة ، ونقطة ربط الخطاب بالآليات المادية ، وهذا ما يصرح به فى النص الموالى : (يتوجب إجمالا إنتاج الحقيقة بواسطة آلية ذات عنصرين ، عنصر الاستقصاء الذى يتم بصورة سرية من قبل السلطة القضائية وعنصر العمل المنجز بصورة طقوسية من قبل المتهم . إن جسد المتهم ، هو جسد ناطق .)(١١)

وهكذا يرتبط الملفوظ بالمرئى ، كما يرتبط الخطاب بالجسد ، والتعذيب بالحقيقة ، وكل هذه العمليات تتشابك وتتداخل مع عملية الاستنطاق ، بواسطة السؤال ، الذى اعتبره المرسوم الملكى الصادر سنة ١٦٧٠ ، شكل من أشكال التعذيب . أما الإجابة فيشترط أن تكون وفق برهان تدرجى ، يتدرج معه العقاب ، وذلك بجعل :

(أ) المجرم يعلن إدانته .

(ب) متابعة مشهد الاعتراف .

(جـ) ربط التعذيب بالجريمة ذاتها .

(د) بطء التعذيب وأحواله الطارئة .

---

(١٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١١) نفس المصدر ، ص. ٧٦ .

وفى كل الأحوال فإن العملية الممتدة من الاستجواب إلى التنفيذ ، تجعل من الجسد تعبير عن حقيقة الجريمة ، وإعادة إنتاجها .[١٢] لا يرتبط التعذيب بالمعرفة والسلطة ، أو بالخطاب والممارسات ، ولكنه يرتبط بالسلطة ذاتها ، لذلك فهو يمتلك وجها سياسيا أساسيا ، يجب أن يكون مختوما بخاتم العاهل ، أو على الأقل بخاتم سلطته .

إن التعذيب مسألة سياسية وليست مسألة توازن يجب إعادته إلى المجتمع ، أو بتعبير فوكو ، المسألة مسألة تفارق بين فرد فى الرعية والعاهل الكلى القوة . والتعذيب بالكيفيات المطبقة فى العصر الكلاسيكى وتحت السلطة الملكية هو : (سياسة الترهيب ، إشعار الجميع وفوق جسم المجرم ، بوجود العاهل غاضبا ، إن التعذيب لا يعيد العدالة إلى نصابها ، بل يقوى السلطة .)[١٣]

ولقد اتخذ التعذيب فى بعض مراحله شكل الفظاعة ، مثل ما هو الحال فى تعذيب «داميان» ومن هذه الفظاعة ومن أسباب أخرى يبدأ التحول فى عملية التعذيب ، فما هى الأسباب ، وما هو الوجه الجديد لهذه العملية ؟

ثانيا - العقاب Punition:

المعروف عندالمؤرخين أن التحول من التعذيب إلى العقاب حدث بسبب النزعة الإنسانية التى حملتها الأنوار ، وأدت إلى استبدال الفظاعة بعقوبات يقول عنها فوكو - ربما بتهكم - تدعى الشرف بأنها إنسانية .

أما هو فلا يقف عند هذه الأسباب الظاهرة والمغرية فى نفس الوقت ، وإنما سيعمد إلى الحفر الأركيولوجى ، وكما فعل فى تاريخ الجنون الذى عرف تحولا مماثلا فى العصر الكلاسيكى ، والذى أرجعه إلى أزمة المعازل ذاتها ، فكذلك الحال بالنسبة إلى التحول من التعذيب إلى العقوبات .

فهو يرى أن التحول حدث بسبب أزمة التعذيب، والمؤشر الأساسى لهذه الأزمة هو حضور الشعب ، كشاهد على مشهد الفظاعة ، إن هذا الحضور هو المشكلة ، ومشكلته أنه حضور ملتبس ، إذ كثيرا ما ينقلب مسرح التعذيب ، من العبرة إلى التعاطف ، ومن الانتقام إلى التسامح مع المجرم ، وخاصة عندما يعلم الشعب أن العقوبة جائرة ،

---

(١٢) نفس المصدر ، ص. ٨١ .

(١٣) نفس المصدر ، ص. ٨٢ .

وأن الحكم ظالم ، وهكذا يتحول المجرم إلى بطل ويبدأ التضامن معه كما حدث مثلا مع «بيار ديفار» سنة ١٧٧٥ .

صحيح ، ظاهريا على الأقل ، أن التعذيب قد تم إلغاؤه بدعوى عدم تناسبه والإنسانية ، وحل محله العقاب ، إلا أن الأسباب لا تعود فى نظر فوكو ، وكما قلنا إلى هذه الدعوى ، بقدر ما تعود إلى متطلبات سياسية وقضائية ، فالاستبداد يولد التمرد ، لذا على العدالة بدل أن تنتقم وتعذب ، عليها أن تعاقب .

والمؤرخون أنفسهم ، يتوقفون عند بعض المعطيات ذات الدلالة ، من مثل تدنى الجرائم الدموية ، وحلول محلها سرقات ضد الملكية ، وكثرة الاختلاسات بدلا من القتل والنهب ، كما كانت تفعل عصابات الصعاليك . وظهرت فى المقابل فئات جديدة تقوم بجرائم السرقة والتى ستعرف بفئة المهمشين .

إن هذا التحول يجمله فوكو فى قوله : (الواقع أن تحول الإجرام الدموى إلى إجرام إحتيالى ، هو جزء من أولية معقدة ، يدخل فيها نمو الإنتاج مع تزايد الثروات ، مع تقييم قضائى أكثر كثافة لعلاقات الملكية ، مع أساليب رقابية أكثر دقة ، ومع تقسيم رقابى عسكرى للسكان ، أكثر دقة وضيقا ، مع تقنيات أقوى للمتابعة ، وإلقاء القبض والاستعلام : وتزامن تحول الممارسات غير الشرعية مع توسع الإجراءات العقابية ورهافتها .)(١٤)

هذا إضافة إلى فوضى المؤسسات القضائية الملكية وتجاوزات السلطة ، ولذا فإن الهدف الأساسى للمصلحين لم يكن الإنسان ولا تلطيف العقوبات ، بقدر ما كان تحسينا لما يسميه فوكو بالاقتصاد السيىء للسلطة .

ومعنى هذا أن الإصلاح لم يأت من الخارج ، من خارج مؤسسات التعذيب ، بل من داخلها : (إن الإصلاح لم يهيأ خارج الجهاز القضائى ، وضد كل ممثليه ، لقد عد وفى جوهره ، من الداخل ، من قبل عدد كبير من القضاة ، وانطلاقا من أهداف كانت مشتركة فيما بينهم ، ومن نزعات على السلطة ...)(١٥)

إن ظروف التحول ليست وليدة حساسية جديدة بقدر ماهى ظروف سياسية جديدة تجاه الأعمال غير الشرعية ، فمع صعود الرأسمالية والحضور المكثف للملكية ، وضرورة إيجاد جهاز قضائى جديد للعقوبات يراعى فيه ما استجد من ظروف اقتصادية

---

(١٤) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ١٠٦ .

(١٥) نفس المصدر ، ص. ١٠٩ .

واجتماعية ، كان من الضرورى إيجاد وسيلة جديدة للعقاب ، غير التعذيب ، الذى كانت تمارسه السلطة .

وهكذا ، ومع حلول الثورة الفرنسية ، تم استبدال الخطر على العاهل ، بالخطر على المجتمع ، وتغيرت النظرة من فرد فى الرعية خطر على الملك ، إلى مواطن فى المجتمع محكوم بالعقد الاجتماعى .

وأصبح يعرف المجرم بالمخترق للعقد الاجتماعى ، وهو بجريمته يكون قد أخل بالعقد ويستحق أن يكون خارج نطاق العقد ويفقد بالتالى اعتباره كمواطن ، كما يفقد حقوقه الأخرى ، ويلتحق بالفئات الهامشية من مثل المجنون والمريض ، ويصبح موضوع معرفة علمية وجنائية . وهكذا ظهر مفهوم الإنسان الإجرامى ، مع خطاب جديد وتقنيات جديدة للعقاب ، ووضعت مجموعة من القواعد تتناسب والجريمة المقترفة ، ومنها :

(أ) البعد ما أمكن عن التعسف، واقتراح سلسلة من العقوبات، وضرورة البحث عن العلاقة بين طبيعة الجريمة ، وطبيعة العقوبة.

(ب) ضرورة وضع جدول زمنى للجرائم ، فلقد قضى مثلا قانون ١٧٧١ ، بالموت للخونة والقتلة ، أما بقية العقوبات فيجب أن يكون لها حد ، والحد الأقصى هو ٢٠ سنة سجنا .

(جـ) لا تستهدف العقوبة المجرم قط بل الآخرين كذلك ، وإذا كان التعذيب يعمل على ترويع جماعى وبضرورة حفر صور التعذيب فى ذاكرة المشاهدين ، فإن العقوبة تقوم على إعطاء العبرة ، والعبرة هى : (الدرس والخطاب ، والعلامة المقروؤة ، والإخراج المسرحى للأخلاقيات العامة .)[١٦] وبالتالى أصبح القانون خطابا للعقوبة.يقول فوكو : (يأتى العقاب معملا خطاب القانون ، ومبينا أن القانون الذى يربط بين الأفكار يربط أيضا بين الوقائع .)[١٧]

إن هذا النص يبين العلاقة بين الخطاب فى صيغة القانون والممارسات غير الخطابية فى صيغة العقوبات ، وفى هذه المرحلة التى تنوعت فيها العقوبات بشكل كبير ، فإنها حافظت على شكلين أساسيين للعقاب وهما الشكل المرئى والشكل المنطوقى .

---

(١٦) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ١٣٤ .

(١٧) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

واستخدم السجن كشكل عام للعقوبة ، لم يعرف أبدا فى هذه المشاريع المتعلقة بالعقوبات المرئية والناطقة .

إن السجن فى نظر فوكو لم يتأسس بعد كمؤسسة عقابية ، وحضوره كان كحضور جميع العقوبات . إنه عقوبة متخصصة فى بعض الجرائم ، التى تصيب حرية الأفراد ، ولكنه لا يغطى كل حقل العقوبات ، والمفارقة تكمن هنا ، وهى أنه فى ظرف قصير أصبح السجن الشكل الأساسى للعقاب ، وهذا طبقا لقانون ١٨١٠ ، حيث احتل السجن كل العقوبات الممكنة (إن السجن هو تجسيد مادى آخر ، وفيزياء مختلفة للسلطة ، وأسلوب آخر مختلف تماما لتوظيف الجسد البشرى .)(١٨)

وعلى أساس هذا التحول ، يصف فوكو بنيات السجون ونماذجها ، كما يحلل سرعة التحول ، ويربطه بمجموعة من الظواهر الاجتماعية كالبطالة مثلا، ففى دراسة أجرتها محكمة «ألست Alaste» سنة ١٧٩٤ ، على هذه الظاهرة ، سمح لها بإدخال العمل فى السجون ، هذا العمل الذى أضيف له العزل ، والذى نجد له جذورا فى المسيحية ، وبالضبط فى الرهبنة الكاثوليكية . وهكذا : (فبين الجريمة والعودة إلى الاستقامة وإلى الفضيلة ، يشكل السجن (فضاء بين عالمين) ومكان للتحولات الفردية التى ترد إلى الدولة الأفراد الذين خسرتهم .)(١٩)

وأصبح المسجون يخضع لبرنامج دقيق ومخصص ، يتناول كامل وقته فى الليل والنهار ، فى ملبسه وطعامه، فى نومه وقيامه ، فى عمله وراحته ، مع نفسه ومع الآخرين ، أصبح المجرم موضوع معرفة والسجن جهاز معرفة . إن هذا الامتداد للسجن كعقوبة أساسية هو الذى سمح بظهور المرحلة الثالثة من نظام العقوبات الذى عرفته المجتمعات الغربية ، وخاصة «فرنسا» ، وهو :

ثالثا: الانضباط Discipline:

الموضوع المركزى للانضباط هو الجسد . جسد الجندى ، جسد المريض ، جسد التلميذ، جسد العامل ، جسد المجرم . الجسد هدف التكييف والتدريب والتطويع والاستجابة والتكاثر . ولقد أضاف العصر الحديث للسجل التشريعي' السجل التقنى والسياسى ، الذى تألف من مجمل الأنظمة العسكرية والمدرسية والصناعية والاستشفائية . وإن مفهوم الإنسان – الآلة "L'Homme-Machine" الذى أقامه

---

(١٨) نفس المصدر ، ص. ١٣٨ .

(١٩) نفس المصدر ، ص. ١٣٤ .

«لامترى Lamatrie» ليحقق هدفين هما الخضوع و التشغيل ، وبهما يتحقق التطويع والطواعية . فالجسد فى كل حالاته يجب أن يكون طيعا . والجسد - الآلة ليس فقط أداة للتفسير بل دمية سياسية ، وهو ما يعبر عنه ، هوس الملك «فردريك الثاني» بالدمى الصغيرة التى تمثل الجيوش ، والتى يحركها ويضع لها الخطط الدقيقة .

إن الجديد فى نظام العقوبات هو ما تحمله الانضباطات من فنون فى تحكم الجسد، تختلف عن العبودية والخدمة المنزلية ، والتبعية السيادية ، فاللحظة التاريخية : (التى تحمل طابع الانضباط هى اللحظة التى نشأ فيها فن للجسد البشرى ، لا يهدف فقط إلى تنمية مهاراته ، ولا إلى زيادة تبعيته ، بل إلى تكوين علاقة من شأنها ضمن ذات الأوالية أن تجعله أكثر إطاعة بمقدار ما هو مفيد وبالعكس .)[٢٠]

ولبلوغ هذه الغاية وتحقيقها ، تطلب الأمر إيجاد تشريح سياسى للجسد "Anatomie Politique Du Corps" فالجسد البشرى أصبح موضوع تفكيك سياسى ، من أجل المنفعة والطاعة، وكذلك من أجل السيطرة ، وسمح الانضباط ، كتقنية شديدة التعقيد والتنوع ، بخلق أجساد طيعة . وهو ما عملت على تحقيقه المدارس الإعدادية والمستشفيات والثكنات والمشاغل والمعامل . إنها : (تقنيات دقيقة دائما، صغيرة غالبا ، ولكنها ذات أهمية : لأنها تحدد نموذجا من التوظيف السياسى والمفصل للجسد ، وتحدد «ميكروفيزياء» جديدة للسلطة .)[٢١]

ومن بين أهم قواعد الانضباط ما يأتى :

(أ) فن التقسيم - L'Art de Repartition : يبدأ الانضباط بتقسيم الفرد فى المكان ، المجرم فى المعزل ، الحجر بالنسبة للمشرد ، المدرسة بالنسبة للتلميذ ، الثكنة بالنسبة للجندى ، والمصنع بالنسبة للعامل ، والنموذج الغالب والسائد هو نموذج الأديرة ، وخاصة النظام الداخلى لمختلف الفئات .

(ب) التربيع - Quadrillage : لكل فرد مكانه وفى كل موقع فرد ، وبذلك ينقسم الفضاء الانضباطى إلى عدد عناصره الموزعة.

(جـ) قاعدة المواقع الوظيفية - Emplacements Fonctionnels : وهى تقنية تستعمل خاصة فى المؤسسات الانضباطية والمستشفيات والثكنات العسكرية .

---

(٢٠) نفس المصدر ، ص. ١٥٩ .

(٢١) نفس المصدر ، ص. ١٦٠ .

(د) **الرقابة على النشاط - Contôle de l'Activité** : هذه التقنية تتخذ أشكالا مختلفة ، كالجدول الزمني ، والذى يرجع إلى تقاليد الرهبنة ونظم الأديرة ، ويظهر أساسا فى تنظيم وقت العمل ووقت الراحة ، سواء عند السجين أو العامل أو الجندى أو التلميذ أو المريض .

(هـ) **الرقابة التراتبية - Surveillance Hiérarchique** : يعتبر المعسكر الرسم التخطيطى لسلطة تتصرف بفعل رؤية أو مشاهدة عامة . وهذا التنظيم الهرمى يعطى للرئيس السلطة الكافية للرقابة .

(و) **العقوبة الضابطة - Sanction Normalisatrice** : توجد فى كل نظام انضباطى فى المشغل كما فى المدرسة، فى الثكنة كما فى السجن ، وهى تشبه الواجب، واذا لم تكن ذات طابع انتقامي، فدورها التكرار والإلحاح ، أوبتعبير آخر ' إنها تحمل صفة مزدوجة، العقوبة والمكافأة.

(ز) **الفحص أو الامتحان - Examen** : يدمج الفحص فى مختلف التقنيات الانضباطية ، ويتميز بمراسم وطقوس مختلفة ، وهو يعكس نظام الرؤية فى ممارسة السلطة .

إن هذه التقنيات وغيرها ، تعتبر تحقيقا وتجسيدا للإشراف أو المشتمل "Panoptique" الذى وضعه «بنتام» والذى استوحى منه فوكو تصوره للسلطة . إنه :

(الصورة الهندسية البنائية لهذه التركيبة . ومبدؤه معروف : على الجوانب بناء من حلقات ، فى الوسط برج ، وفى داخل هذا البرج نوافذ واسعة تفتح على الوجه الداخلى للحلقة ، ويقسم البناء الجانبى إلى غرف معزولة ، كل واحدة منها هى بطول سماكة «عرض» البناء ، ولكل غرفة شباكان ، يطل على الخارج ، يتيح للنور أن يقطع الغرفة من جهة إلى جهة ، عندها يكفى وضع ناظر فى البرج المركزي، وفى كل غرفة يحبس مجنون أو مريض أو محكوم أو عامل أو تلميذ ، وبفعل النور المعاكس ، يمكن من البرج ، رؤية الضلال الصغيرة الأسيرة الموجودة فى غرف الأطراف ، تنعكس تماما على الضوء.)(٢٢)

إن هذا المشتمل تحقيق للمبدأ البنتامى ، والذى يعممه فوكو ، وهو أن السلطة يجب أن تكون منظورة وغير ملموسة ، والمشتمل بالصورة الموصوفة ، يكون مثل آلة

---

(٢٢) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٢١٠ .

رائعة ، تصنع مفاعيل متجانسة للسلطة ، وانطلاقا من رغبات مختلفة ، كما أنه متعدد الاستخدامات ، يستعمل لإصلاح السجناء والعناية بالمرضى ، وتعليم التلاميذ ، وحراسة المجانين ومراقبة العمال .

لا يمكن للانضباط " "La descipline" فى نظر فوكو ، أن يتطابق لا مع مؤسسة ولا مع جهاز ، بل هو نمط من أنماط السلطة ، وبهذا يكون الانضباط جملة من : (التقنيات تهدف إلى تأمين تناسق التعدديات البشرية ...] والعمل [على تنمية الطواعية والمنفعة فى كل عناصر النظام .)[٢٣]

إن شمولية الانضباط يستجيب لضرورات تاريخية واقتصادية ، منها على وجه الخصوص ، النمو الديموغرافى الذى عرف تزايدا كبيرا ابتداءا من القرن الثامن عشر ، وكان على تقنيات الانضباط العمل على تثبيت السكان وخاصة بعد تزايد التلاميذ والمرضى والجنود والجانحين . وكذلك النمو الكبير لجهاز الإنتاج الاقتصادى وتعقده وضرورة الرفع من مردوديته ، وعليه يذهب فوكو عكس التفسير الماركسى القائل بتراكم رأسمال إلى القول أنه إذا كان الإقلاع الاقتصادى للغرب قد بدأ مع الوسائل التى أتاحت تراكم رأس المال ، فإن طرق إدارة تراكم الناس قد أتاحت إقلاعا سياسيا بالنسبة إلى أشكال السلطة التقليدية ، من هذا التحليل سيختلف مفهوم السلطة عند فوكو ، عن المفهوم الماركسى كما سنعرض لذلك فى المحور الثانى من هذا الفصل .

ومن بين أشكال الانضباط المختلفة ، يفرد فوكو للسجن مكانة مركزية ، باعتباره مثال لتحكم السلطة ، أو بتعبيره ' أن السلطة تتعرى أوتظهر عارية فى السجن . صحيح أن السجن كان حاضرا طوال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، ولكن التحول الذى حدث فى نظام العقوبات ، أفرز نماذج من السجن ، كنموذج «غاند Gand» و«غلوسستر Glousester» و«ولنوت ستريت Walant Street» هذه النماذج وما رافقها من تقنيات الضبط والمراقبة ، جعلت منها (عقوبة المجتمعات المتحضرة .)[٢٤]

لقد ارتبط السجن بكل التحولات الاجتماعية ، وأصبح له دور أساسى هو تغيير الأفراد وهو : (لا يقوم عن طريق الحبس والتقويم والتطويع ، إلا باستخدام كل الأواليات الموجودة فى الجسم الاجتماعى تقريبا ، بعد أن يكون قد زاد فيها ، السجن

---

(٢٣) نفس المصدر ، ص. ٢٢٣ .

(٢٤) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٢٢٥ .

ثكنة صارمة قليلا، مدرسة بدون تساهل ، مشغل قائم ، ولكنه فى نهاية الأمر ، لا يختلف عنها بشيء من الناحية النوعية .)[٢٥]

يحدثنا فوكو عن أساسين للسجن ، أساس قانونى اقتصادى ، وأساس تقنى انضباطى ، وبالعودة إلى تشريعات وقوانين ١٨٠٨ - ١٨١٠ ، وكذلك إلى حركة إصلاح السجون ، وإدخال مبدئى العمل والعزل ، يكون السجن قد حقق شروط الانضباط ، ونموذج «بنتام» ، ويصبح المشتمل ، أو المستشرف حوالى سنوات ١٨٣٠ - ١٨٤٠ ، البرنامج الهندسى البنائى السائد فى معظم مشاريع سجون أوروبا .

إلا أن السجن ، ورغم كل التحسينات والإصلاحات والمناهج ، لم يستطع فى نظر فوكو ، وفى نظر العديد من الدارسين تحقيق غايته ، وهى إصلاح الفرد ، وخفض معدل الجريمة ، والإحصائيات التى يقدمها فوكو ذات دلالة ، بل إن مهمة السجن تحولت إلى صنع الجانحين .[٢٦]

فالسجن يساعد على تنظيم وسط الجانحين ، والظروف التى يجد المساجين أنفسهم بعد إطلاق سراحهم ، تحملهم على التكرار ، إن هذه الانتقادات وإن كانت أساسية ومتكررة فى كل عملية إصلاح إلا أنها غير مجدية ، ويتعجب عن كيفية الإعلان عن فشل السجن منذ ١٥٠ سنة ، قد اقترن دائما بالإبقاء عليه، فلما هذه المفارقة ؟

يرى فوكو أن السجن لا يقمع اللاشرعيات ، وإنما يفاضل فيما بينها ، من أجل تأمين فائدتها العامة ، ومهمته إنتاج اللاشرعيات التى تفرز بدورها الجنوح ، لذلك : (فإن السجن هو همزة وصل لهاتين الآليتين [اللاشرعيات - الجنوح] فهو يتيح لهما التلاقى بصورة دائمة ، وموضعة الجنوح وراء المخالفات ، وتثبيت الجنوح فى حركة اللاشرعيات .)[٢٧] ومن الناحية التاريخية ، فقد بلغت هذه الممارسات أوج إزدهارها فى فرنسا ، لحظة إندلاع ثورة ١٨٤٨ ، وعند استلام «لويس نابليون» للسلطة ، والذى أفرز ذلك التلاقى العجيب ، كما يقول فوكو ، بين الشرطة والسجن والجنوح .

وفى هذا السياق ، يعتبر المجرم «فيدوك» مثالا لهذه الإستراتيجية الجديدة ، إستراتيجية توظيف الجنوح من قبل السلطة ، وبظهور «الميتراي Muttray» تلك

---

(٢٥) نفس المصدر ، ص. ٢٣٦ .

(٢٦) نفس المصدر ، ص. ٢٦٥ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص. ٢٧٣ .

المؤسسة العجيبة التى تم افتتاحها سنة ١٨٤٠ ، تنتقل العقوبة إلى مرحلة نوعية ، هى مرحلة الإعتقالي "La Carceral" والتى : (تشكل الانضباطى (التأديبي) فى حالته الأكثر زخما ، والنموذج الذى تجتمع فيه كل التقنيات الضاغطة للسلوك .)[٢٨]

إن الاعتقالى هو الذى ينقل تقنيات المؤسسة الاعتقالية ، إلى الجسم الاجتماعى بأكمله ، محدثا آثارا مهمة منها :

(أ) إحداث جاهزية – "Dispositif" واسعة ، تقوم على تدرج بطيء ومستمر .

(ب) يتيح المعتقل ، ومعه تفريعاته ، تجنيد الجانحين الكبار .

(جـ) الأثر الأكثر أهمية فى النظام الاعتقالى وفى توسعه إلى ماوراء السجن ، وجعله لسلطة العقاب بديهية ومشروعة ، وتخفيض عتبة التسامح .

(د) (إن النسيج الاعتقالى فى المجتمع يؤمن بآن واحد ، إحاطة حقيقية بالجسم ، ووضعه بصورة دائمة تحت المراقبة ، وهو من حيث خصائصه الضمنية ، جهاز العقاب الأكثر إنسجاما مع سياسة السلطة الجديدة ، وهو الأداة من أجل تشكيل المعرفة التى تحتاجها هذه السياسة بالذات .)[٢٩]

وهكذا من التعذيب إلى السجن مرورا بالعقاب الإصلاحى ، وصل المجتمع الحديث ، فى نظر فوكو ، إلى المدينة الاعتقالية ، هذه المدينة التى تتكون من شبكة مُنتشرة ، ومن علاقات متعددة ، ومن مؤسسات وقواعد خطاب ، وفى : (هذه البشرية المركزية والممركزة فى الأثر والأداة لعلاقات سلطوية معقدة ، فى أجسام وقوى يتم إخضاعها بواسطة أجهزة اعتقالية متعددة ، مواضيع لخطابات هى بدورها عناصر هذه الإستراتيجية ، فى كل هذا يجب أن نسمع زمجرة المعركة .)[٣٠]

إن هذا النص ، ومعه تحليلات **المراقبة والمعاقبة** ، يقدم الخطوط العامة والأساسية لمفهوم السلطة عند فوكو ، ولعلاقته بالمعرفة والخطاب والذات مفهوم يختلف عما درجت عليه النظرية السياسية ، ويوضحه أكثر فى دراسته لتاريخ الجنسانية ، وخاصة فى جزئه الأول ، **إرادة المعرفة** الذى يناقش مختلف الشرائع والقوانين والمؤسسات ، خاصة المستشفى ، والتى تتحكم فى الجنس . حيث يرى ميشال فوكو ، أن الجنس كان محكوما ، حتى القرن الثامن عشر ، بثلاثة شرائع ، هى : (الحق الكنسى والدعوية المسيحية والقانون

---

(٢٨) نفس المصدر ، ص. ٢٩٠ .

(٢٩) نفس المصدر ، ص. ٢٩٩ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص. ٣٠١ .

المدنى . كانت هذه الشرائع تحدد ، كل على طريقتها ، التوزيع بين المحلل والمحرم ، المسموح والممنوع .)[٣١] وكان الموضوع المشترك ، لهذه الشرائع هو اللاشرعيات العامة ، أى كل ما هو ضد الطبيعة . فالمخنث مثلا ، يعتبر مجرما . ولكن ما يسجله فوكو ، هو أنه مع نهاية القرن الثامن عشر ، بدأت تتفكك هذه الحالة ، حالة الزواج الشرعى ، لصالح الفجور ، وهذا بالتناسب مع شخصية «دون جوان» . وعرف هذا القرن ، مضاعفة فى الانحراف ، وحمل المنحرفون تباعا ، سمة «الجنون الأخلاقي» و«العصاب التناسلي» و«شذوذ الحس الجنسي» و «انحطاط النوع» و«اختلال التوازن النفسي».

ولذلك نجد هذه الفئات تتردد على المجالس التأديبية والمؤسسات الإصلاحية ، وإصلاحيات الأحداث ، والمحاكم والمآوى ، والمستشفيات ، مع تكثيف لدور الطب والأطباء ، على حساب ، القضاء والقضاة . وعليه فإن فوكو لا يتساءل عن درجة القمع الممارس ، وإنما عن شكل السلطة .

والسلطة المقصودة ، فى هذه الحالة ، هى سلطة الطب والأطباء ، التى طالت كل أشكال الجنس الطرفية ، كجنس الطفل ، وأدت هذه الملاحقة إلى ظهور ما يسميه فوكو بالجنسانية الطرفية ، وبعلم الجنس ، مع «شاركو» ومؤسسة المستشفى فى وظائفها الجديدة .

كانت : (هذه المؤسسة جهازا كبيرا للمراقبة بفحوصه واستجواباته ، واختباراته ، لكنها كانت ، فى الوقت نفسه ، آلية حث وتحريض ، بعروضها العامة ، ومسرحها للنوبات الطقسية ، المحضرة بعناية بواسطة استخدام المنشطات الكيماوية ، ولعبة الحوارات واللمسات ووضع الأيدى ، وبوضعيات الأجسام التى يحدثها الأطباء أو يلغونها بإشارة أو كلمة متهم ، بتنظيم الجهاز البشرى ، الذى يراقب وينظم ويحصى ويدون ويروى ويجمع كدسة هائلة من الملاحظات والملفات .)[٣٢]

إن تأسيس علم للجنس ، قائم أساسا على آلية قديمة ، آلية دينية ، فى أساسها هى آلية الاعتراف ، وكان الحصول على الاعتراف يتم إما بشكل عفوى أو عنوة : (فمنذ القرون الوسطى ، يرافق التعذيب كضله ، ويسانده حين يتهرب : الاعتراف والتعذيب توأمان أسودان .)[٣٣]

---

(٣١) ميشيل فوكو «إرادة المعرفة» ص ، ٥٥ . ينظر كذلك النص الاصلى : La Volonté de Savoir ed Gallimard 1976 p 51 .

(٣٢) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص ، ص. ٧٠ - ٧١ .

(٣٣) نفس المصدر ، ص. ٧٣ .

وهكذا ، ومن خلال مؤسستين كبيرتين ، هما السجن والمستشفى ، و حالتين هما الـ... والجنس ، و دراسات مختلفة ، سنتناولها لاحقا ، أسس ميشال فوكو مفهوما جد... للسلطة ، فماهو هذا المفهوم ، وماهو الجهاز المفاهيمي لهذا المفهوم ؟ إن هذا السؤال المركزي هو موضوع بحثنا في المحور الموالي .

المحور الثاني - خطاب السلطة :

نعني بخطاب السلطة مجموع المفاهيم التي استخدمها ميشيل فوكو لتحليل ظاهرة السلطة.ومن دون شك فإن ما وصفناه في المحور الأول من هذا الفصل ، يدخل بطريقة أو بأخرى في مفهوم السلطة القائم على تاريخ الجسد ، المعذب والمعتقل والمنضبط ، إن هذا الجسد وفي مختلف حالاته : (غاطس ضمن حقل سياسي ، فعلاقات السلطة تعمل فيه عملا مباشرا ، فهي توظفه وتطبعه وتقومه وتعذبه وتجبره على أعمال وتضطره إلى احتفالات وتطالبه بدلالات .)(٣٤)

فما هو المقصود بالحقل السياسي وعلاقات السلطة والسلطة ؟ ولماذا السلطة وليس الحكومة أو الدولة ؟ وما هي مميزات هذه السلطة ؟

إننا نعلم أن هنالك تاريخيا ، النظرية الليبيرالية البورجوازية الموروثة عن عصر التنوير ، والتي تتحدث عن السلطة أو الدولة بالتدقيق ، من خلال مفاهيم ومصطلحات السيادة والقانون والدستور . وفي مقابل هذه النظرية ، هنالك النظرية الماركسية المعارضة والتي تصور السلطة من جهة العنف ، وأجهزة الدولة، التي تديرها الطبقة البورجوازية . إلا أن الإشكالية التي يطرحها فوكو عن السلطة تختلف عن هذين التوجهين ، وإن كانت تناقش أهم قضاياها ، فماهو تعريف فوكو للسلطة ؟

أولا - مفهوم السلطة :

يقول في نص طويل من كتابه **إرادة المعرفة** :

> (...كلمة «سلطة» هذه قد تسبب الكثير من سوء الفهم ، سوء فهم يتناول هوية السلطة وشكلها ووحدتها.بكلمة سلطة ، لا أعني «السلطة» أي مجموعة المؤسسات والأجهزة التي تضمن خضوع المواطنين في إطار دولة ما . كذلك لا أعني بكلمة سلطة نمطا من الإخضاع الذي ، هو على العكس من العنف إنما يتخذ شكل قاعدة . وأخيرا لا أعني بكلمة سلطة نظاما عاما من جهة الهيمنة ، يمارسه عنصر أو مجموعة على عنصر آخر ،

---

(٣٤)ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٦٤ .

أو مجموعة أخرى ، تخترق مفاعله الجسم الاجتماعى كله عبر انحرافات متتالية : فالتحليل ، من منظور السلطة لا ينفى أن نفترض أن سيادة الدولة أو شكل القانون أو الوحدة الكلية ، لهيمنة ما ، هى معطيات أولية. إنما هى بالأحرى أشكال السلطة النهائية . بكلمة سلطة ، يبدو لى أنه يجب أن يفهم قبل كل شيء تعدد موازين القوى المحايثة للمجال الذى تمارس فيه ، والمكونة لتنظيمها ، واللعبة التى تحول هذه الموازين أن تعززها ، وتقلبها عن طريق مجابهات ونزاعات متواصلة ، وكلمة سلطة تعنى أيضا الدعم الذى تلقاه موازين القوى هذه فى بعضها بعض ، بحيث تشكل سلسلة أو نظاما أو بالعكس ، التفاوتات أو التناقضات التى تعزل بعضها عن البعض الآخر ، أخيرا تعنى كلمة سلطة الإستراتيجيات التى بواسطتها تفعل موازين القوى فعلها ، والتى تتجسد خطتها العامة أو تبلورها المؤسسى فى أجهزة الدولة ، وصياغة القانون ، والهيمنات الاجتماعية .)(٣٥)

إن هذا النص الهام والأساسى فى مفهوم السلطة، عند فوكو يبين من بين ما يبين، جملة من الخصائص والمميزات التى سنحاول إبرازها معتمدين فى ذلك على نصوص الفيلسوف ، وتحليلات «دلوز» و «دريفوس» ، «رابينوف» ، وغيرهم ممن اهتموا بالسلطة عند هذا الفيلسوف .

وما تجدر الإشارة إليه من البداية هو أن مفهوم السلطة عند فوكو قد لقى عناية ودراسة وبحث من قبل الباحثين والدارسين ، على عكس المناحى الأخرى فى فلسفته ، لذا سنحاول أن نركز على النقاط التى لم يلتفت إليها الباحثون أو لم يتعمقوا فى دراستها ، وخاصة علاقة السلطة بالخطاب موضوع دراستنا . ولكن قبل هذا ما هى مميزات السلطة وخصائصها ، بحسب النص الذى ثبتناه أعلاه ؟

إن أول شيء يجب رصده هو أن كلمة سلطة "Pouvoir" كلمة ملتبسة كباقى الكلمات التى يستعملها الفيلسوف من مثل اللغة ، الخطاب ، المعرفة . وهذا اللبس نابع أساسا من أصل السلطة أو هويتها ، وأشكالها المختلفة ووحدتها .

وللحد من هذا اللبس ، يعمد فوكو إلى تعريف للسلطة بنفيه أن تكون مجموع المؤسسات والأجهزة ، أى ينفى أن تكون السلطة معادلة للدولة ، وإن كان

---

(٣٥) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص . ١٠١ .

لا ينفى أن تكون الدولة معطى أساسى فى مفهوم السلطة ، وهو ما سنبينه فى نهاية هذا التحليل .

كما ينفى أن تكون السلطة مساوية للعنف والإخضاع والهيمنة ، كقاعدة أساسية ، وذلك لأن فوكو لا يرى أن الدور الوحيد للدولة هو العنف، أى ما هو سلبى فقط ، بل يعطى للسلطة دورا إيجابيا ، دور الإنتاج ، دون إهمال للعنف كممارسة أو كحل تلجأ إليه السلطة فى بعض الأحيان .

ثم يعرف السلطة من جهة الإيجاب أو الإثبات ، وهى فى هذه الحالة ، مجموعة من علاقات القوى ، ضمن استراتيجيات محددة . هذه العلاقات ، تتميز أساسا ، بكونها محايثة ، منسجمة أو متناقضة ، وتدخل فى استراتيجيات ، تتجسد فى أجهزة الدولة ، وصياغة القانون ، والهيمنة الاجتماعية ، فماذا تعنى هذه الصفات ، أو المميزات ؟

إنها تعنى :

(أ) أن السلطة ليس لها مركز واحد وأساسى ، يجب البحث عنه ، فى مؤسسة من مؤسسات أو جهاز من أجهزة الدولة ، كالأجهزة القمعية ، الشرطة أو الجيش ، أو الأجهزة السياسية ، والعلمية ، مثل الحكومة والقضاء والتربية ... إلخ. أن : (شرط إمكان وجود السلطة يكمن فى هذا الأساس غير الثابت لموازين القوى التى تخلق باستمرار ، من خلال تفاوتها ، أو ضاعا سلطوية هى دائما محصورة وغير مستقرة .)(٣٦)

إن السلطة ، وبالأساس ، علاقة قوى ، مثلها مثل علاقات الحرب ، ولذلك فإن التحليل لا يجب أن يعتمد على المعطيات النفسية أو الاجتماعية ، ولكن على استراتيجية وفن الحرب .(٣٧) وأن الأفراد ، يدخلون فى علاقات فيما بينهم ، ويحكمون بعضهم البعض ضمن هذه العلاقة الاستراتيجية .(٣٨)

(ب) السلطة ، إذا لم تكن مؤسسة ، ولا جهازا ، وإذا لم تنحصر فى نقطة مركزية ، فهذا يعنى أنها منتشرة وموزعة على الجسد الاجتماعى كله ، أى أنها : (حاضرة فى كل مكان : ليس لأنها تمتاز بتجميع كل شيء ضمن وحدتها التى لا تقهر ،

---

(٣٦) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص . ١٠٢ .

(٣٧) Michel Foucault, **L'Illegalisme et L'art de Punir**, In, **Dits et Ecrits**, p.87.

(٣٨) Michel Foucault, **L'Intellectuel et Les Pouvoirs, (D. 176)** p. .343.

بل لأنها تنتج ذاتها فى كل لحظة .)[٣٩] السلطة منتشرة ، موزعة ، أو مبعثرة ، كالخطابات ، موجودة وحاضرة فى كل مكان ، ولكن ما طبيعة هذا الحضور ؟ هل يعود إلى قوة مركزية منها تمتد لتشمل كل شيء أم إلى قوة الأطراف ؟ لا هذا ولا ذاك .

إن حضور السلطة ، فى نظر فوكو ، يعود أساسا إلى ميزتها الأساسية ، هى كونها منتجة ، تنتج ذاتها فى كل مكان . ومن هنا حضورها الكلى ، فوق الجسد الاجتماعى ، فى علاقة الأب بالعائلة ، الأستاذ بالتلميذ ، الحاكم بالمحكوم ... إلخ.

(جـ) إذا كانت السلطة ، علاقة قوى ، وحاضرة بشكل منتج ، فهى إذا : (الإسم الذى يطلق على وضع استراتيجى ، معقد فى مجتمع معين .)[٤٠]

لا ينفصل مفهوم السلطة عن مفهوم الإستراتيجية ، فى نظر فوكو ، فماذا يقصد بالإستراتيجية ؟

إذا كان فوكو لا يفصل السلطة عن علاقات القوى التى هى علاقات حربية ، فإنه كذلك لا يفصلها عن الإستراتيجية والتكتيك ، نفس الربط الذى لاحظناه فى دراستنا لمفهوم الخطاب ، حيث ربطه بالإستراتيجية ، وهو الشيء الذى يؤكده فى **إرادة المعرفة** بقوله : (يجب ألا نتخيل عالما للخطاب ، مقسما بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض ، أو بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه ، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل فى استراتيجيات مختلفة .)[٤١]

ويحدد فوكو كلمة الإستراتيجية ، بثلاثة معان . المعنى الأول يخص الوسائل المستخدمة لبلوغ غاية معينة . والمعنى الثانى ، يتعلق بالطريقة التى يتصرف بها أحد أطراف العلاقة ، والتى يحاول من خلالها التأثير على الآخرين . والمعنى الثالث ، وهو : (الأساليب المستخدمة فى مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الإستسلام ، والمقصود حينئذ هو الوسائل المعدة لإحراز النصر .)[٤٢]

---

(٣٩) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٢ .

(٤٠) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٤١) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٢ .

(٤٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

ويعتقد فوكو أن المعنى الثالث هو الأساسى ، مادام يجمع بين علاقات السلطة وإستراتيجية المجابهة .

لماذا ؟ لأن فوكو لايصور السلطة خارج المقاومة ، وهو ما سنناقشه لاحقا .كما لا يتصور السلطة خارج إستراتيجية الحرب ، لذلك فهو يقلب مقولة «كلوزفيتز Clauswitz» القائلة : (إن الحرب هى استمرارية للسياسة بوسائل أخرى .)[٤٣] إلى مقولة أن : (السياسة هى الحرب التى نواصلها بوسائل أخرى .)[٤٤]

وإن تعدد موازين القوى الذى هو ميزة علاقات السلطة يمكن أن يرمز جزئيا لا كليا ، إما فى شكل حرب أو فى شكل سياسة ، لذلك فإن السياسة والحرب : (إستراتيجيتان مختلفتان (إنما سريعتا الوقوع الواحدة فى الأخرى) لدمج موازين القوى المذكورة غير المتوازنة ، المتنافرة ، المتقلبة والمتوترة .)[٤٥]

(د) يرى ميشال فوكو أنه حيثما توجد السلطة توجد المقاومة . ولكن طبيعة هذه المقاومة أنها ليست خارج السلطة . فنقاط المقاومة موجودة فى كل مكان من شبكة السلطة . ويعدد أشكالا مختلفة من المقومات ، منها : الممكنة ، المستبعدة ، العفوية ، المنعزلة ، العنيفة ، المتفق عليها ... إلخ .

ولكنه يركز على ثلاثة أشكال من المقاومات والنضالات ، وهى التى صرح بها إلى «دريفوس ورابينوف» بقوله إنها : (تلك التى تقاوم أشكال الهيمنة (الإثنية والاجتماعية والدينية) وتلك التى تدين أشكال الاستغلال التى تفصل الفرد عما ينتجه ، وتلك التى تحارب كل ما يربط الفرد بنفسه ويضمن بالتالى خضوعه للآخرين .)[٤٦]

ومن دون شك فإن هذا الطرح لمسألة المقاومة من طرف فوكو ، قد أثيرحوله العديد من الانتقادات والاعتراضات ، وخاصة معنى اللاجدوى من المقاومة الذى يمكن استنتاجه مادامت المقاومة ليست خارج السلطة .

---

(٤٣) Fethi Triki, Les **Philosophes et La guerre** ed. Biruni, 1985, p.131.

(٤٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٤٥) ميشيل فوكو ' **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٢ .

(٤٦) دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٩٠ .

ولكن التفكير فى طرح فوكو القائل أن نقاط المقاومة موجودة فى كل مكان من شبكة السلطة ، يعنى رفض لمفهوم السلطة القطبى القائم على حكم ومعارضة ، وتأسيس لمفهوم جديد للسلطة هو مفهوم «ميكروفيزيا السلطة Micro-Physique du Pouvoir» .

هذا المفهوم الذى يعنى أن ليس هنالك سلطة واحدة ، بل سلطات منتشرة فوق الجسد الاجتماعى ، وفى كل هذه السلط ، أو فى داخلها أشكال من المقاومة النضالات المحددة . فليس هنالك مكان واحد للرفض أو الثورة وإنما هنالك مقاومات .

(هـ) ينجم عن هذه الخاصية ، أن السلطة، ليست وليدة طبقة ، أوعامل اقتصادى أو اجتماعى معين ، بل وليدة سلطات مختلفة ، سلطات جزئية "Micro Pouvoir" : (إن السلطة تأتى من تحت : أى أنه لا يوجد فى أساس العلاقات السلطوية ، وكقاعدة عامة ، تناقض مثنوى وإجمالى بين الحاكمين والمحكومين .)[٤٧]

إن هذه الخاصية ، هى التى يعبر عنها «دلوز» بقوله ، ان السلطة موقع ولا موقع فى نفس الوقت : (هى ذات موقع لأنها ليست على الإطلاق شمولية ، لكنها غير ذات موقع ، لأنها ليست قابلة لأن تحصر فى مكان بعينه لأنها منتشرة .)[٤٨]

يترتب عن هذا ، أن السلطة ليست جوهرا ، أو ليس لها جوهر ، إنها إجرائية ، أو علاقة ، علاقة قوى ، تمارس عبر نشاط ، ومن خلال مجموعة علاقات غير متساوية ، ومتحركة ، إنها الطريقة التى تعمل بها التكنولوجيا السياسية - وتاريخ **المراقبة والمعاقبة** مثال نموذجى لهذه الطرائق - من خلال الجسد الاجتماعى . والمشتمل كذلك نموذج حى للتكنولوجيا التأديبية ، فهو لايمثل جوهر السلطة ، ولكنه مثال واضح على الطريقة التى تعمل بها السلطة .

علاقات السلطة ، والتى هى علاقات قوى ، ليست علاقات خارجية ، بالنسبة لأشكال من العلاقات الأخرى كالعلاقات الاقتصادية فى مقابل

(٤٧) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٣ .

(٤٨) جيل دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٣٣ .

العلاقات الإيديولوجية ، أو البنية التحتية فى مقابل البنية الفوقية ، العلاقات السلطوية ، علاقات محايثة و قصدية وغير ذاتية ، .(إن العلاقات السلطوية ، هى بآن معا قصدية وغير ذاتية .)[٤٩] وإذا كانت السلطة ، لا تمارس بدون مجموعة أهداف ومقاصد ، فإن هذا لا يعنى ، فى نظر فوكو ، أنها صادرة عن إختيار أو قرار معين .

(و) السلطة ، ممارسة ، وليست ملكية ، ولا امتياز طبقة عن طبقة .(إنها الأثر الإجمالى لمواقعها الإستراتيجية .)[٥٠] ليس للسلطة ذات مالكة ، كما أنه ليس للخطاب مؤلفين ، إنها ممارسة . وهذه الممارسة لا تتحدد فى علاقة الدولة بالمواطن ، أو بين الطبقات ، إنها تتحدد باعتبارها خاصة ، ومنتشرة فى نفس الوقت . يقول فوكو : (تفترض أن السلطة ، التى تمارس فيها يجب أن لا تؤخذ كملكية ، بل كاستراتيجية ، وأن مفاعيلها التسلطية لا تعزى إلى «تملك» ، بل إلى إستعدادات ، وإلى مناورات ، وإلى تكتيكات ، وإلى سير عمل ، وأن تكتشف فيها بالأحرى شبكة علاقات دائما ممتدة ، ودائما ناشطة بدلا من أن تكون امتيازا بالإمكان الإمساك به ، وأن ينظر إليها على أن نموذجها هو الصراع المستمر بدلا من أن تكون العقد ، الذى يتم بموجبه التخلى عن ممتلكات أو الإستيلاء عليها .)[٥١]

(ز) ليس دور السلطة ، القمع فقط ، بل الإنتاج كذلك . فالسلطة الحديثة ، والتى لا يرى فيها البعض إلا الوجه السالب ، الوجه القمعى ، يرى فوكو أنها تتميز أيضا بميزة الإيجاب والإنتاج . ولذلك حاول فى كتابه **إرادة المعرفة** مناقشة الفرضية القمعية ، التى اتخذت شكل البديهية وخاصة فى التحليلات الماركسية والفرويدية . وطرح عليها أسئلة ثلاثة ، قصد التشكيك فيها ، وإعادة تشكيل جديد لمفهوم السلطة . هذه الأسئلة هى : هل آلية السلطة ، خصوصا السلطة التى تمارس فى مجتمع كمجتمعنا ، هى فى جوهرها ذات طبيعة قمعية ؟ هل الحظر والرقابة والإنكار هى حقا الأشكال التى تمارس بها السلطة فى كل مجتمع بوجه عام ، وفى مجتمعنا

---

(٤٩) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٣ .

(٥٠) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٦٣ .

(٥١) نفس المصدر ، ص، ص. ٦٤ – ٦٥ .

بوجه خاص ؟ هل الخطاب النقدى الذى يوجه إلى القمع يجابه آلية سلطوية عملت حتى الآن دون اعتراض لتقطع عليه الطريق ، أم أن هذا الخطاب النقدى هو جزء من الشبكة التاريخية ذاتها ، التى يشجبها بتسميتها ... قمعا ؟ (٥٢)

لا تذهب هذه الأسئلة إلى القول إن السلطة ليست قمعية، وإنما إلى إظهار جانب آخر منها ، هو ما أكده فى دراسته حول وسائل وتقنيات الانضباط، قائلا : (يجب التوقف عن الاستمرار فى وصف مفاعيل السلطة بعبارات سلبية من مثل : إن السلطة تستبعد وتقمع وتكبت وتراقب وتجرد وتقنع وتخفى . فى الواقع إن السلطة تنتج ، تنتج الواقع الحقيقى ، إنها تنتج مجالات من الموضوعات (الأشياء) ومن طقوس الحقيقة . فالفرد والمعرفة التى يمكن أن نكونها عنه هما من فعل هذا الإنتاج .) (٥٣)

إن هذا النص يؤكد على ذلك الدور المهمل فى طبيعة السلطة ، دور الإنتاج والتشكيل ، فى مجال المعرفة والفرد والمجتمع . والسلطة الانضباطية مثال عينى عن هذا الدور ، فهى تنتج مختلف عمليات التفريد "Individualisation" للجسد الاجتماعى ، منها إنتاج الفرد والمعرفة حول الفرد ، وفى هذا الدور تجد العلوم الإنسانية ، بوجه خاص ، مبرر وجودها ومشروعية بقائها ، وذلك بإنتاج خطاب «علمي» حول الفرد والمجتمع .

إن السلطة كما يشرح ذلك «دلوز» : (تنتج الواقع قبل أن تقمع .كما تنتج الحقيقة قبل أن تجرد أو تموه .) (٥٤) إن هذا المفهوم بمميزاته التى عرضناها ، كان نتيجة للتطبيق والمزاوجة بين الطريقة الأركيولوجية والجنيالوجية ، وهو ما يؤكده «دلوز» و«صفدي» على عكس «أوالد» الذى يؤكد فقط على الجنيالوجيا. (٥٥)

---

(٥٢) ميشال فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص، ص. ٣٣ – ٣٤ .

(٥٣) ميشال فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٢٠٤ .

(٥٤) جيل دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٣٥ .

(٥٥) ينظر إلى (١) دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، ص.ص. ٣٨ – ٣٩ .

(٢) صفدى ، **مؤسسة الإنسان الإنضباطي** ، مقدمة لكتاب **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٣٣ .

(٣) Francois Ewald **Anatomie et Corps Politiques**, In **Critique** – No 343, Decembre-1973 p.1229

والحقيقة أن المتأمل فى نص **المراقبة والمعاقبة** أو نص **إرادة المعرفة** يتأكد من فكرة المزاوجة بين الطريقتين لأن فوكو فى هذين النصين يجمع بين الوصف الأركيولوجيا والحفر الأثرى الذى يتساءل على القبلى التاريخى للمؤسسات ، والتحليل الجنيالوجى التاريخى لظهور هذه المؤسسات .

كما أن فوكو ، فى دراسته لمختلف الخطابات ، لا نجده يعتمد على نصوص كبيرة ولا على مؤلفين كبار ، بل يدرس أرشيف مرحلة تاريخية بكاملها ، معتمدا على مختلف المنطوقات ذات الوظيفة التاريخية . إن هذا الجمع بين الأركيولوجية والجنيالوجية ، هو الذى سمح لفوكو ، بتكوين ما سماه ، بتحليلية السلطة "Analytique du pouvoir" ، أى الدراسة الميكروفيزيائية للسلطة الحديثة .(٥٦)

ويسمح لنا ، فى الوقت نفسه ، بالإجابة عن السؤال : لماذا جعل من السجن المركز الحاسم لممارسة السلطة ؟ وذلك بتحليل لكيفية ممارسة هذه المؤسسة ، دون الاقتصار بطبيعة الحال ، على هذه المؤسسة، إذ الهدف ، هو تحليل ممارسة مختلف علاقات السلطة ، باعتبارها علاقات قوى .

إن هذا الفهم لمسألة السلطة ، والطريقة المعتمدة ، لا يمكن أن نفصلهما – فى الحقيقة – عن خلفية تاريخية ، فكرية وسياسية ، كانت عاملا أساسيا ، فى تشكيل مفهوم جديد للسلطة . ونعنى بالخلفية التاريخية ، الأحداث السياسية الكبرى التى عرفتها أوروبا ، خاصة الحرب العالمية الثانية ، وظهور أنظمة شمولية كالستالينية والنازية والفاشية ، وأحداث ماى ١٩٦٨ ، بالنسبة لفرنسا خاصة ، وأوروبا وأمريكا عامة . وميشال فوكو ذاته ، يعترف بهذه العوامل فى أكثر من موقع ، وخاصة فى حواره مع «دلوز» حول **(المثقفون والسلطة)** .(٥٧)

وإذا كانت هذه عوامل تاريخية وسياسية ، فإن هنالك خلفية فكرية لاينكرها كذلك ، وتتعلق بمفكرين وفلاسفة أمثال : «ميكيافيللي» و«نيتشه» و«ماكس فيبر» .

---

(٥٦) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص.ص. ٩٣ .

(٥٧) Foucault- Deleuze, **Les Intellectuels Et Le Pouvoir**, In, L'Arc, no 49,

وكذلك : (١) Foucault, **Asile, Sexualité, Prison**, In, **(D. 361)**, p,p.01-02.

(٢) Foucault, **Politique De L'Habitat**, In, **(D. 309)**, p.04.

(٣) Foucault, **Dits Et Ecrits**, Tome 3, p.401

يقول عن «ميكيافيللي»: (وإذا كان صحيحا أن ميكيافيلى كان أحد القلائل الذين عالجوا موضوع سلطة الأمير من زاوية علاقات القوى - وكان ذلك بلا ريب سبب وقاحته - فقد يتعين علينا أن نخطو خطوة إضافية ونستغنى عن شخصية الأمير ، ونفسر آليات السلطة انطلاقا من استراتيجية محايثة لعلاقات القوى .)[٥٨]

إن هذا النص يبين أولا علاقة مفهوم السلطة ، كعلاقات القوى بـ «ميكيافيللي» ، ويبين ثانيا ، إضافة فوكو ، وهى الإستغناء عن شخصية الأمير ، أو الملك ، وذلك لأن السلطة عنده ليست ملكية ، لا تمتلك ، أنها آلية ، وكذلك إلى كونه ينكر الذات الفاعلة ، ولذلك يقترح تحليل السلطة إنطلاقا من مختلف إستراتيجياتها المحايثة .

كما يعترف بدور «نيتشه» فيلسوف القوة والإرادة ، بدوره فى تشكيل مفهومه للسلطة قائلا : (نيتشه هو الذى جعل من علاقة السلطة الهدف الأساسى للخطاب الفلسفى ، فى حين كان الهدف بالنسبة لماركس هو علاقات الإنتاج . نيتشه هو فيلسوف السلطة وهو الذى استطاع التفكير فى السلطة دون الانغلاق فى نظرية سياسية .)[٥٩]

إن علاقة فوكو بـ «نيتشه» لا تحتاج إلى بيان ، وهو الذى قال : إنى مجرد نيتشوى . ولكنه فى هذه النقطة ، كان شديد العلاقة بـ «نيتشه» مقارنة بـ «ماركس» . فبالاعتماد على «نيتشه» ، حلل السلطة كعلاقة ، وأقامها على أساس القوة ، ولم يطرح بديلا نظريا وفى نظر فوكو ، أنه استطاع ، أن يتقدم خطوة أساسية ، مقارنة بـ «ماركس» الذى انحصر عمله فى تحليل علاقات الإنتاج .

بل إننا نجد فوكو ، يعمم المسألة ، ويرى أن القرن التاسع عشر ، كان قرن الاستغلال والبؤس ، أما القرن العشرين فهو قرن السلطة والهيمنة ، وهذا ما عبر عنه زميله ، الفيلسوف «دلوز» يقول : (وعندما قرر فوكو سنة ١٩٧٥ ، أن ينشر آراء النظرية فى المسألة (مسألة السلطة) كان فى رأينا أول من ابتكر ذلك المفهوم الجديد للسلطة والذى كان ضالة الجميع .)[٦٠]

---

(٥٨) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٥ .

(٥٩) Par, **Michel Foucault, Les jeux du pouvoirin**, Politique De La Philosophie **Dominique Grisoni** ed. Bernard Grasset paris, 1976, p.178.

(٦٠) جيل دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٣٠ .

إن تحليل فوكو للسلطة لا يمكن فهمه على أنه مناهض للطرح الماركسى ، ولكنه وفى نفس الوقت ، لا يمكن اعتباره استمرارا له . وذلك لأن فوكو لا يهمل المعطيات المادية ، ولا مختلف الصراعات ، ولكنه يهتم أكثر بتلك التقنيات الخاصة بالجسد ، والتى يسميها بالانضباطات والتى لانجدها فى التحليل الماركسى ، بل نجدها عند أحد علماء الاجتماع وهو «ماكس فيبر» والذى لاينكر تأثيره فى فوكو ، وخاصة فى مسألتى الانضباطات وأصلها الدينى .[٦١] إن هذا المفهوم الجديد للسلطة هو الذى يسميه فوكو بـ «السلطة الحيوية Biopouvoir» أى السلطة التى أصبحت تدير حياة الناس ، وتملك قوة الحياة والموت ، وتعمل على محورين أساسيين :

محور الجسد الآلة : (بترويضه وزيادة قدراته وانتزاع قواه ، والنمو المتوازى لفائدته وطواعيته ، ودمجه فى أنظمة مراقبة فعالة واقتصادية ، كل ذلك أمْلَتْهُ إجراءات سلطوية تميز الأنظمة وقواعد الانضباط : إنها سياسة تشريحية للجسم البشرى Anatomie Politique)[٦٢]

محور الجنس البشرى والقائم على : (التكاثر ، الولادات والوفيات والمستوى الصحى ، معدل أجل الحياة، التعمير ، مع كل الشروط التى يمكن أن تغير هذه الظاهرات ، ويتم الإهتمام بها بواسطة مجموعة كبيرة من التدخلات والمراقبات الضابطة : إنها السياسة الحيوية للسكان "Biopolitique" .)[٦٣]

إن هذين المحورين هما نتيجة للتطور السريع الذى حصل فى مختلف النظم فى المدارس والمعاهد والثكنات والمعامل والمستشفيات ، وهى النظم الضرورية لتطور ونمو الرأسمالية، وذلك بالتدخل ومراقبة الجسد فى جهاز الإنتاج ، وتكييف السكان وفق الحاجات الاقتصادية ، وإن محورى السياسة التشريحية والبيوسياسية، المبتكرة منذ العصر الكلاسيكى كتقنيات سلطوية وتعميمها على الجسم الاجتماعى ، هى التى كانت وراء ظهور السلطة الحيوية ، التى يعرفها بقوله : (وأعنى بذلك الطريقة المستعملة منذ القرن الثامن عشر فى محاولة عقلنة المسائل المطروحة على الممارسة الحكومية ، والمتعلقة بالظواهر الخاصة لمجموعة من الأحياء ، الذين يؤلفون جملة

---

(٦١) دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره ، الفصل السابع ، **نسابية الفرد الحديث بما هو موضوع** ، وخاصة الصفحة رقم ١٤٩ .

(٦٢) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٤١ .

(٦٣) نفس المصدر ، ص. ١٤٢ .

السكان : الصحة ، نسبة المواليد ، طول العمر ، الأجناس ... ونعلم أى موقع احتلته هذه المسائل بشكل متنامى منذ القرن التاسع عشر ، وما مثلته باعتبارها مواضيع رهان سياسى واقتصادى إلى اليوم.)(٦٤)

السلطة الحيوية إذن موضوعها السكان ومنهجها مختلف التقنيات الانضباطية التى عرفتها أوروبا ابتداء من القرن الثامن عشر وغايتها ' الفعالية والوفرة والأمن . إلا أن هذا المفهوم للسلطة وكما يجمع الدارسون لفوكو ، قد طرأ عليه بعض التعديل ، الناجم أولا من ضعف علاقة فوكو باليسار عموما واليسار الجديد خصوصا ، وبالأخص انقطاعه عن الماوين ، وثانيا ظهور بعض نتائج أحداث مايو ١٩٦٨ ، إضافة إلى النقد والمعارضة التى لقيها مفهومة السلطة ، وخاصة بعد ظهور كتاب **إرادة المعرفة** ، ولعل كتاب «جون بودريار» مثال على هذا النقد الذى اعقبه صمت فوكو والذى بدأ فى عمل جديد نلمس بدايته مع بداية السبعينيات ، والمتمحور أساسا حول الذات وأشكال الحكم أو فنون الحكم .

فى هذه الفترة نقرأ لفوكو نصين أساسيين ، فى إطار تعديله لمفهوم السلطة ، الأول يتعلق بـ"الحكمانية أو الحكومية "Gouvernementalité" وهو موضوع درسه للسنة الجامعية ١٩٧٧ - ١٩٧٨ الذى كان بعنوان **الأمن والإقليم والسكان** . والثانى يخص أصل الدولة، وهو مجموعة من المحاضرات التى ألقاها مابين ١٠ - ١٦ أكتوبر ١٩٧٩ بجامعة «ستانفورد Stanford» بـ «الولايات المتحدة الأمريكية» بعنوان **نحو نقد للعقل السياسى** .

إن ما يحمله النصان من جديد ، يتعلق بمفهوم الحكم والدولة وعلاقتهما بالسلطة الحديثة . وبحسب التحليل السابق، للسلطة ، فإن فوكو، استبعد ، مسألة الدولة ومسألة الحكم ، وإن كان لم ينف علاقتها بمفهوم السلطة . يقول فى نص إرادة المعرفة : (تعنى كلمة السلطة الإستراتيجيات التى بواسطتها تفعل موازين القوى فعلها ، والتى تتجسد خطتها العامة أو تبلورها المؤسسى فى أجهزة الدولة .)(٦٥)

فالسلطة كاستراتيجية تتجدس فى أجهزة الدولة ، ولكننا نعلم أن فوكو لا يحصر السلطة فى الدولة ، ولا يرى فى الدولة مصدر السلطة، ولكن وفى نفس الوقت لا يقلل

---

(٦٤) ميشيل فوكو ' دروس ' ترجمة محمد ميلاد ' دار توبقال ' الدار البيضاء ' ط ٢ ' ١٩٩٤ ص. ٥٩ .
وينظر كذلك الاصل : Résumé des cours, 1970-1982, ed, Julliard, 1989. p. 109.

(٦٥)ميشيل فوكو ' **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠١ .

من أهمية وفعالية سلطة الدولة ، وإنما يرى أن التركيز فقط على سلطة الدولة ، كما تفعل النظرية الليبيرالية والماركسية ، يفقد التحليل السياسى بعض المعطيات الأساسية . ودليله فى ذلك أن الثورة البلشفية قد غيرت فعلا جهاز الدولة ، ولكن لم تغير مفاعيل السلط المختلفة ، التى بقيت تفعل فعلها ، والتى عكست نتائجها المعروفة .(٦٦) إن هذا الجانب من مفهوم السلطة ، أعنى جانب الدولة والحكم ، هو الذى سيكون مدار تفكيره فى مرحلته الفكرية الأخيرة أى مرحلة التفكير فى الذات ، وفى حكم الذات لنفسها وللآخرين ، والذى سنتطرق إليه فى الفصل الخامس . ولكن قبل هذا نريد أن نتساءل من جديد عن مفهوم السلطة عند فوكو ، بعد إدخاله لمفهومى الحكم والدولة ، وكمؤرخ للحاضر ، يعود الفيلسوف إلى التاريخ ، يستقرؤه ويستنطقه ، مبتدءا من تلك النصوص السياسية التى انتشرت فى عصر النهضة والمعروفة بالأدب السياسى المناهض لـ «ميكيافيللي» .

فى هذه النصوص ، يتابع فوكو مفهوم الحكم وفنون الحكم ، التى تعنى من بين ما تعنى : (طرائق قيادة سلوك الآخرين .)(٦٧) وبعد مناقشة لمختلف نصوص تلك المرحلة ، يستخرج فوكو مصطلحا جديدا هو الحكمانية أو الحكومية ، الذى يقصد من ورائه ، فنون الحكم المعتمدة ابتداء من القرن السابع عشر ، والمتمحورة حول ما كان يعرف فى ذلك الوقت بالمصلحة العليا للدولة "Raison d'Etat" والدولة ذاتها باعتبارها طبيعة لها معقوليتها "Intellegibilité" الخاصة ، رغم أنها تختلف عن الطبيعة المادية .

وفن الحكم الذى يعنى مجمل القواعد التى تكمن فى الواقع الخاص بالدولة المعنية . وعليه فإن الحكمانية تعنى : (مجموع المؤسسات والعمليات والتحليلات والحسابات التى تسمح بممارسة ذلك الشكل الخاص والمعقد من السلطة، والذى يتخذ هدفا أساسيا هو السكان .)(٦٨)

إن هذا النص التعريف ، يبين التعديل الأول لمفهوم السلطة ، والذى يتمثل فى إدخال فنون الحكم ومؤسسة الدولة فى التحليل، ويضيف فى موقع آخر من دراسته لمفهوم الحكمانية ، صفة أخرى هى التوجه العام ، أو خط القوة الذى يشمل كل أوروبا

---

(٦٦) Michel Foucault, Qu'appel t'on Punir, In, Punir, N s 01-03, 1984, p,p.80-81.

(٦٧) Michel Foucault, La gouvernementalité, In, Magazine Litteraire, N 269, 1989. p.97.

(٦٨) Michel Foucault, La Gouvernementalité, p.102.

والذى يمكن تسميته بحكم الآخرين ، والذى أدى إلى تطوير أجهزة الحكم والمعارف المرافقة له.وأخيرا ، وكنتيجة لتلك العملية التاريخية ، التى نقلت بواسطتها دولة العدل "L'Etat de Justice" فى العصور الوسطى إلى الدولة الإدارية "L'Etat Administrative" ، الحديثة ومنها إلى دولة الحكومة "L'Etat du Gouvernement" .

لا ينكر فوكو الأهمية المتزايدة ، لتلك الأبحاث حول أصل الدولة ، وتاريخ الدولة ، وسلطة الدولة ، ومختلف عمليات الدولنة "L'Etatisation" للمجتمع ، ولكن يرى أن المهم بالنسبة لعصر الحداثة ، أو كما يقول بالنسبة للحاضر ، هو حكمانية الدولة الحديثة "Le Gouvernementalisation de l'Etat" .(٦٩)

وعلى هذا الأساس يرى أن هنالك ثلاثة أشكال للدولة التى عرفها الغرب وهى :

(أ) دولة العدل أو العدالة وتقوم على المقاطعة أو الإقليم "Teritoire" ذات نمط إقطاعي "Feodal" تتناسب مع مجتمع يحكمه القانون (إما عادات أو أعراف أو قوانين مكتوبة) .

(ب) الدولة الإدارية ، تقوم على الحدود وتتناسب مع المجتمع الانضباطى .

(جـ) دولة الحكومة ، تحدد بالشعب أو بكتلة من الشعب "Masse de Population" من حيث الحجم "Volume" والكثافة "Densité" وبإقليم تمتد عليه . و تقوم هذه الحكومة على الشعب ، و تستعمل معرفة اقتصادية ، تتناسب والمجتمع المراقب ، بواسطة جاهزيات "Dispositifs" الأمن(٧٠) .

إن هذه الدولة ، تجد أصولها ، فى نظر فوكو ، فى الدولة الرعوية "Pastoral" والتى انبثقت من المؤسسات المسيحية ، والمعروفة بالسلطة الرعوية "Le pouvoir postorel" وتمتاز بكونها :

(أ) تهدف إلى تحقيق خلاص الأفراد فى العالم الدنيوى والأخروى .

(ب) سلطة لا تأمر فقط، بل تضحى بنفسها من أجل رعيتها ، وهى تختلف عن سلطة الملك ، الذى يطلب التضحية ، من الرعية ، لخلاص العرش .

(جـ) السلطة الرعوية لا تهتم بالمجتمع فى شكله الكلى فقط ، بل بكل فرد على حدة .

---

(٦٩) Ibidp,103 .

(٧٠) Michel Foucault **La Gouvernementalité**, p.103.

(د) لا يمكن ممارسة هذا الشكل من السلطة ، دون معرفة ما يجول فى رؤوس الناس ودون سبر لنفوسهم أو إرغامهم على كشف أسرارهم ، وذلك بواسطة تقنية معروفة فى المؤسسة الكنسية والتى استلهمتها الدولة الحديثة ، إنها تقنية الاعتراف .

ومن هنا فإن الدولة الحديثة ، وإن اختلفت عن الدولة الرعوية ، إلا أنها أبقت على الكثير من أهدافها وطرائقها ، وخاصة وسائل التفريد والمراقبة . أما إذا كان هدف السلطة الرعوية ، هو تحقيق الخلاص فى الآخرة ، فإن السلطة الحديثة تهدف إلى تحقيق الخلاص فى الدنيا بواسطة تقنيات الصحة والأمن والحماية والرفاهية .

وعلى هذا الأساس ، تعززت أجهزة أساسية فى الدولة الحديثة ، كجهاز الشرطة والأمن والصحة ، وتطورت المعارف حول الإنسان وتعددت ، وأصبح هدف سلطة الدولة الحكومة هو تحقيق أفضل وسائل الحكم . إن الحكم الذى هو ممارسة السلطة على ذوات حرة ، أصبح شرطه فى الدولة الحديثة هو ، الحرية .

هذه الحرية التى تظهر بحسب عبارة فوكو : (كما لو أنها لايسعها إلا أن تقاوم ممارسة السلطة التى تنزع فى النهاية إلى تحديد هذه الحرية كلية .)[(٧١)] فلا يمكن الفصل بين علاقات السلطة أو شكل الدولة الحكومة وتمرد الحرية فى الدولة الحديثة والتى هى حصيلة لمختلف ممارسات فنون الحكم . أو كما يقول إنها ممارسة حكمانية "Pratique de gouvernementalité" .[(٧٢)]

---

(٧١) Michel Foucault, **Omnes et Singulaitlm: Vers Une Critique De La Raison Politique** In Le **Debat**, No 41, 1986, p.p. 17-18.

وكذلك : دريفوس ورابينوف : **فوكو ميشيل ، مسيرة فلسفية** ، ص ص. ٩٦-٩٧ . كما يمكن الإطلاع على كتاب محمد عابد الجابرى ، **العقل السياسى العربى (محدداته وتجلياته)** ، مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت ، لبنان ، ط ١٠ . ١٩٩٠ ، المدخل العام ، ص، ص. ٣٩-٤٣ . حيث قدم عرضا لدراسة فوكو عن نقد العقل السياسى دون الرجوع بطبيعة الحال إلى أصول مفهوم السلطة عند فوكو .

(٧٢) Michel Foucault **La Phobie d'Etat** In, **Liberation**, 30 juin-1er juillet 1984, p. 21

إن هذا التحليل المختصر يبين انتقال فوكو من مفهوم السلطة القائم على علاقات القوى ، تجسدت فى أشكال تاريخية أهمها الشكل الحيوى ، إلى مفهوم واسع يتناول مختلف فنون الحكم وأشكال الدول . هذا الانتقال ، لا يمثل فى رأينا تحولا أو انقطاعا ، بل تعديلا وتوسيعا لمفهوم السلطة ، يتناسب والأبحاث التاريخية والفلسفية التى شرع فيها الفيلسوف .

ولا يمكن فى نظرنا ، أن نتوقف بشكل دقيق عند مفهوم السلطة ، دون مناقشة بعض العلاقات الأساسية التى يقيمها مع غيره من المفاهيم، ومن بينها :

ثانيا - *بين السلطة والخطاب* :

أشرنا فى المحور الثالث من الفصل الثانى ، إلى سلطة الخطاب ، وتوقفنا عند نقطتين ، الأولى متعلقة بالخطاب والالتزام السياسى ، والثانية بسلطة الخطاب ، كما أشرنا فى بداية هذا الفصل إلى الخطاب والممارسات غير الخطابية ، والآن ، وبعد تعريفنا للخطاب فى الفصل الثانى ، وتعريف السلطة فى هذا الفصل ، ماهى أوجه العلاقة بين السلطة والخطاب ، سواء على مستوى المفهوم أو على مستوى المنهج ؟

يورد فوكو العديد من النصوص فى المرحلة التى اهتم فيها بالسلطة أوالممارسات غير الخطابية والتى تقيم العلاقة بين الخطاب والسلطة ، على عكس ما ذهب إليه تحليل «دريفوس ورابينوف» ، أو غيرهما من الدارسين ، ومن بين هذه النصوص نذكر على سبيل المثال ما يأتى :

يقول فى **المراقبة والمعاقبة** : (إن جسد المتهم جسد ناطق .) و(الكل يختلط فيه فعل الاستنطاق بعنصر العقاب .) وكذلك (فالعقاب يجب أن يظهرها [الجريمة] للضوء ، عن طريق الاعتراف وعن طريق الخطابات والتدوينات التى تجعلها علنية) كما يؤكد على هذه العلاقة فى خاتمة كتابه بقوله : (فى هذه البشرية المركزة والممركزة ، فى الأثر والأداة لعلاقات سلطوية معقدة ، فى أجسام وقوى يتم إخضاعها بواسطة أجهزة اعتقالية متعددة ، مواضيع لخطابات هى بدورها عناصر فى هذه الإستراتيجية ، فى كل هذا يجب أن نسمع زمجرة المعركة .)(٧٣) كما يقول فى إرادة المعرفة عن علاقة الخطاب بالسلطة : (فالخطابات هى عناصر أو كتل تكتيكية فى حقل علاقات القوى ، قد تكون هنالك أشكال متباينة منها ، وحتى متناقضة ، داخل الإستراتيجية الواحدة

---

(٧٣) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص، ص. ٧٦ - ٧٧ - ٨١ - ٢٠١ .

نفسها ، وبالعكس يمكن أن تنتقل هذه الخطابات بين استراتيجيات متناقضة ، دون أن يتبدل شكلها .)[٧٤]

إذا كانت هذه النصوص تتحدث بشكل واضح عن علاقة الخطاب بالسلطة ، فماهى طبيعة هذه العلاقة ؟ لايمكن لنا إدراك هذه العلاقة دون مناقشة مستوى المنهج الذى يظهر كيفية معالجة الخطاب والسلطة ، ومستوى الخصائص التى يحملها الخطاب والسلطة .

(أ) فى طريقة المعالجة : كما سبق وأن بينا الخصائص العامة لطريقة تحليل الخطاب ، فى الفصل الثانى المحور الثانى ، نجد لهذه الخصائص انعكاسها فى تحليل السلطة ، فالفيلسوف ، لا يعود إلى نصوص أساسية ومركزية ، ولا إلى مؤلفين مشهورين ، مالكين لحقيقة الخطاب والمعرفة ، ولا إلى فرع علمى محدد ومعين ، بل يحقق القلب الذى نادى به فى نظام الخطاب وذلك بدراسة خطابات السلطة المختلفة ، باعتبارها أحداثا مادية ، وممارسات خطابية وغير خطابية ، دون إرجاعها إلى ذات المؤسسة ، أو تأويلها أو التعقيب عليها ، بل دراستها كمنطوقات ، ذات وظائف تاريخية ، يتجلى ذلك فى عدم إحالة السلطة إلى ملكية معينة ، بل إلى علاقات وقوى ، والنظر إليها من زاوية المقاصد لا من زاوية الذات ، وتحليلها باعتبارها أحداثا مادية ، تنعكس أساسا على جسد المعذب أو المعتقل ، أو المنضبط ، وذلك بالإجابة على سؤال واحد هو كيف تعمل السلطة ؟ كما سبق له أن طرح نفس السؤال على الخطاب وهو كيف تعمل الخطابات فى حقبة معينة أو ضمن تشكيلة خطابية محددة ؟

إن التحليلات التى يقوم بها فوكو لا تناقش الخطاب إنطلاقا من الذات أو المؤلف أو الفاعل ، ولكنها تختبر مختلف الأدوار أو الوظائف التى يقوم بها الخطاب ، داخل نظام إستراتيجى أو سلطوى . ينتج عن هذا أن السلطة ليست خارج الخطاب ، ولكن هذا لا يعنى أن السلطة مصدر أو أصل الخطاب . بل إن السلطة تعمل من خلال الخطاب ، مادام الخطاب ذاته يشكل أحد عناصر ، الجاهزية الإستراتيجية لعلاقات السلطة .[٧٥]

---

(٧٤) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٠٩ .

(٧٥) Michel Foucault **Dits Et Ecrits**, Tome, 4, p,p.465,466.

وليس معنى هذا أن الخطاب سلطة ، بل هو عنصر فى سلسلة تعمل ضمن آلية السلطة . ولكن يجب التأكيد على أن الخطاب المعنى هو ذاته سلسلة أحداث ، كالأحداث السياسية .

إن الخطاب بهذا المعنى كالسلطة ، يتشكلان من مجموعة أحداث ، إنهما مركبات ، والتحليل يقتضى وصف العلاقات والارتباطات بين العناصر ، وضرورة دراسة الوظائف الإستراتيجية لبعض الأحداث الخطابية الخاصة ، ضمن أو فى إطار سياسى أو سلطة معينة ، والكشف عن الإرادة الفاعلة فيها ، أو كما يقول : (لا أريد فقط أن استعرض الكلام حول هذه الخطابات فحسب ، بل أريد أن أتعرض إلى الإرادة التى تحملها ، وللنية الإستراتيجية التى تساندها .)[٧٦]

وهذا ما عبر عنه ، وسبق وأن أشرنا إليه فى الفصل الثانى ، والذى استشهدنا به فى بداية هذا العنصر ، والذى يجد تحقيقه فى دراسته للسجن ، حيث لم يتوقف على خطابات حول السجن ، وإنما درس الخطابات القادمة من السجن ومختلف القرارات والعناصر المشكلة للسجن ذاته ، ووظيفتها وطريقة عملها واستراتيجيتها داخل السلطة ، بكلمة دراسة الخطابات فى علاقاتها الإستراتيجية والتى هى علاقات سلطة لا علاقة خطابات فيما بينها .[٧٧]

(ب) فى الخصائص : إن هذه الطريقة تسمح لنا برصد أهم الخصائص المشتركة بين السلطة والخطاب ، والتى تظهر خاصة فى الحدث والمادية والممارسة والتبعثر والعلاقات والوظائف ، والإستراتيجيات.

فهل هذه الخصائص تنطبق على الخطاب ، كما تنطبق على السلطة ، وتسمح لنا بالقول بالعلاقة السببية أو التبادلية بين الخطاب والسلطة ، أو بتعبير آخر ، ماهو شكل العلاقة الذى يحكم السلطة - الخطاب ؟

إن تحليل «جيل دلوز» لهذه العلاقة يشكل إجابة أساسية لهذا السؤال ، ذلك أن الفيلسوف انتبه على عكس «دريفوس ورابينوف» وغيرهما من الدارسين إلى أهمية العلاقة القائمة بين الخطاب والممارسات غير الخطابية ، هذه الممارسات التى كان وضعها سلبيا فى **أركيولوجيا المعرفة** ، وأصبح إيجابيا فى **المراقبة والمعاقبة** ، كما أصبحت العلاقة قائمة بين نظامين ، نظام منطوقى خطابى ، هى جملة النصوص

---

(٧٦) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ٣٢ .

(٧٧) Michel Foucault **Les Jeux Du Pouvoir**, p. 158

والقوانين الناظمة للسجن ، ونظام بصرى يتجلى فى مؤسسة السجن ذاتها . وهما : (كشكلين ما ينفكان يتبادلان التأثير والتأثر ، ويتداخلان فى بعضهما بعضا ، ويتنازعان مناطقهما ... وبالرغم من هذا كله ، فإنهما لا يجتمعان فى شكل واحد مشترك ، ليس ثمة أى تطابق بينهما ولا أى توافق .)(٧٨)

ليست العلاقة القائمة بين الخطاب والسلطة علاقة سببية ، إنها علاقة تبادلية ، علاقة فى سلسلة العناصر داخل إستراتيجيات مختلفة ، تجسدها دراسة فوكو للسجن ولمختلف مراحله التاريخية ، وتفصح عن طريقته التى تجمع المنطوق بالمرئى ، الخطابى بغير الخطابى ، حيث يكون فيها القانون : (نظاما لغويا لسانيا يصنف ويترجم الجرائم ويحسب العقوبات مقابلها . إنه يؤلف بذلك عائلة من الملفوظات ، وكذلك عتبة للدخول إلى بناء السجن الذى ينتمى إلى نظام المرئيات ، المختلف عن نظام الملفوظات .)(٧٩)

ثالثا - بين السلطة والمعرفة :

تطرقنا فى الفصل الثالث ، المحور الثالث ، إلى علاقة المعرفة بالسلطة وخاصة إلى نظام الإبستيميية ، وبعض النماذج التى تعكس هذه العلاقة ، كالجنون والطب والجريمة ، وقلنا أن أهمية وصعوبة هذا الموضوع لا يسمح لنا بتحليله بشكل كاف دون مناقشة مفهوم السلطة .

والآن وبعد محاولتنا توضيح مفهوم السلطة ، سنعمد إلى إبراز بعض الجوانب من علاقة السلطة - المعرفة . وأول هذه الجوانب وأهمها ، هو التخلى عن ذلك التصور الذى يفصل المعرفة كمجال للحرية والقيمة الأخلاقية وبين السلطة كمجال للقهر والشر ، واعتماد تصور جديد يقوم أساسا على الجمع بين المعرفة والسلطة ، دون أن يساويهما .

فالمعرفة وإن كانت تملك السلطة ، فهى ليست سلطة ، والسلطة وإن كانت تنتج المعرفة إلا أنها ليست معرفة . (السلطة والمعرفة تقتضى إحداهما الأخرى ، وإنه لا توجد علاقة سلطة بدون تأسيس مناسب لحقل معرفة ، وأنه لا توجد معرفة لا تفترض ولا تقيم بذات الوقت علاقة سلطة .)(٨٠)

ويبرهن فوكو عن هذه العلاقة من خلال دراسته لثلاثة أشكال من المعارف تعكس هذه العلاقة ، وهى : القياس والتحقيق والامتحان .

---

(٧٨) جيل دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٣٩ .

(٧٩) مطاع صفدى ، **مؤسسة الإنسان الانضباطى** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٤٠ .

(٨٠) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٦٥ .

(أ) القياس : يرتبط بتشكل المدينة الإغريقية ، فمنه خرجت الرياضيات اليونانية .

(ب) الفحص أو التحقيق : منه خرجت العلوم التجريبية ، منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا .

(جـ) الامتحان : وهو الأساس الذى من خلاله ظهرت العلوم الإنسانية ، والتى تشكل القطعة الأساسية فى السلطة الانضباطية .

بالطبع هذا لا يعنى أن العلوم الإنسانية ولدت من السجن ، ولكن المقصود هو إظهار مختلف العلاقات السلطوية التى تجسدها هذه المعارف ، أو كما يقول : (ليس القصد أن نقول إن من السجن خرجت العلوم الإنسانية ، ولكنها إذا كانت قد استطاعت أن تتشكل وأن تحدث فى نظام المعرفة Epistémé ، كل آثار الانقلاب المعروف ، فذلك لأنها كانت محمولة بنمطية نوعية وجديدة للسلطة : نوع ما من سياسة الجسم ، وكيفية ما لجعل تراكم الناس طيعا ومفيدا ... فالشبكة الاعتقالية تشكل إحدى هيكليات هذه السلطة – المعرفة التى جعلت العلوم الإنسانية ممكنة من الناحية التاريخية .)[(٨١)]

ولقد ركز ميشال فوكو على علوم تجسد بشكل مباشر هذه العلاقة ، مثل : الطب النفسى والتحليل النفسى وعلم الإجرام ، ولعل دراسته عن «بيار ريفيار» نموذج لمثل هذا التوجه والدراسات التى تؤكد أنه من غير الممكن ممارسة السلطة دون معرفة ، وأنه من غير الممكن أن تكون هنالك معرفة لا تصدر عنها السلطة .[(٨٢)]

إن نص **بيار ريفيار** يمثل نموذجا حيا لعلاقة المعرفة – السلطة ، وخلاصته أنه فى يوم ٣ يونيو ١٩٣٥ وقعت جريمة ليست ككل الجرائم ، حيث قتل «ريفيار» أمه الحامل وأخته وأخاه ، تحت دعاوى عديدة ربما أهمها ، العلاقة السيئة التى تجمع الأب بالأم ، ولكى يثأر «ريفيار» لأبيه من معاملة أمه الجائرة ، عمد إلى هذه الجريمة البشعة .

ولقد حكم على «ريفيار» بالإعدام ثم بالسجن مدى الحياة . وفى فترة عشرة أيام أمضاها فى السجن قبل المحاكمة ، كتب اعترافاته بناء على طلب المحقيقين . وبعد أربع سنوات من صدور الحكم ، شنق «ريفيار» نفسه ، وغلق الملف .

وفى عام ١٩٧١ ، عثر فوكو على هذه الاعترافات ، ضمن الأرشيف العام للسجن ، وعمل فى إطار الحلقات الدراسية التى يديرها بـ «الكوليج دو فرانس» على نشر هذه

---

(٨١) ميشيل فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص. ٢٩٩ .

(٨٢) Michel Foucault, **Les Jeux Du Pouvoir,** p.72

الإعترافات فى كتاب مستقل ، قدمها هو بنفسه للقارئ ، كما تم تصويرها فى فيلم خرج سنة ١٩٧٥ .

لقد تم نشر الاعترافات دون إضافات ، إذ كان ينادى فى ذلك الوقت بضرورة إتاحة فرصة التعبير للمجرمين ونزلاء السجون ليتحدثوا عن أنفسهم وعن تجاربهم التى عاشوها ، ومن المعلوم أنه فى هذه الفترة ، أسس فريق لجمع المعلومات حول السجون ، وبطبيعة الحال فإن نص «ريفيار» يعد مادة أساسية للتفكير .

ومن بين تلك الجوانب التى أراد فوكو إثارتها بنشر الاعترافات ، هو الاحتجاج ضد علماء النفس ، وإظهارهم بمظهر المتورط فى شبكة علاقات السلطة ، بل وإحراجهم أمام الرأى العام ، وذلك بإبراز ذلك الاهتمام الذى أبداه علماء الطب النفسى فى «باريس» فى ذلك الوقت ، ليدللوا على جنون «ريفيار» ، ويستصدروا بذلك حكما جديدا فى تخفيف العقوبة .

وفوكو فى هذا ، يريد أن يؤكد أنه إذا كان الفعل ، فعل القتل ، جنونى ، فإن القاتل عاقل ، ونص الاعترافات خير دليل على ذلك ، ويثبت عكس ما ذهب إليه الأطباء ، من هنا فإن نشر الوثيقة فى نظره هى بمكان بيان تنديد بعلم النفس ، وبتورطه فى المؤسسات العقابية ، ودليل آخر عن طبيعة علاقات السلطة - المعرفة .(٨٣)

رابعا - بين السلطة والمجتمع :

فى نقده لمفهوم السلطة عند فوكو ، يرى «هابرماس» أن هذا المفهوم غير اجتماعى ، بل مقولة متعالية ، بمعنى أنه ليس مفهوما إجرائيا يساعد على تحليل الظاهرة السياسية .(٨٤)

إن هذا النقد يطرح فى نظرنا مسألة علاقة السلطة بالمجتمع ، ومن ثم الحكم عن الطابع الاجتماعى أو غير الاجتماعى لمفهوم السلطة عند فوكو .

---

(٨٣) Michel Foucault, **Moi, Pierre Riviere, Ayant Egorgé Ma Mère, Ma Soeur, et Mon Frère,** ed.Gallimard, 1973, La Preface

وكذلك حواره بمناسبة ظهور القصة فى فيلم ، فى ، "Cahiers du Cinéma, N 271,1976"

وأيضا ملخص عن الدراسة وعن الفيلم ، فى : د.أحمد أبوزيد ، **إعترافات بيير ريفيير ، الرجل الذى دخل التاريخ من باب الجريمة ، فى ، العربي** ، العدد ٢٨٨ ، ١٩٨٢ .

(٨٤) يورغن هابرماس ، **كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٢ .

استعمل فوكو وفى أكثر من موقع من تحليلاته للسطة ، صفة المجتمع الانضباطى ، والذى يعد بمثابة : (النتيجة التاريخية لتكنولوجيا سلطوية مركزة على الحياة .)[(٨٥)]

هذه التكنولوجيا تجسدها السلطة الحيوية ، باعتبارها سلطة تدير حياة السكان ، وتستخدم مختلف أشكال الانضباط ، ومن أهمها ، المراقبة وسلطة المعيار ، وتقنية الفحص والامتحان . لقد أصبحت الحياة فى السلطة الجديدة تشكل رهان النضالات السياسية ، والجنس من ضمن هذه الرهانات ، وذلك من جهة ارتباطه بالجسد من حيث الترويض وتعزيز القوة وتكييف الطاقة ، ومن جهة ارتباطه بالسكان وتنظيمه والآثار المترتبة عليه .[(٨٦)]

إن ما هو مهم فى المجتمع الانضباطى هو فكرة المجتمع ذاتها ، أى هذا المجتمع الذى تشكله الانضباطات ومختلف تقنياتها ، والتى تعتبر كلغة تواصلية بين مختلف المؤسسات ، أو التى تجد ترجمتها فى مختلف المؤسسات ، كالمدرسة والثكنة والمصنع والمستشفى والسجن ، كتحقيق عينى لها .[(٨٧)]

ويترتب عن هذا التصور ، أن الانضباط هو الذى يصنع الأفراد الذين يشكلون المجتمع الانضباطى ، والمجتمع الرأسمالى فى نظره هو مجتمع الانضباط والمراقبة والمعيار ، سواء من الناحية الاقتصادية حيث الحاجة إلى يد عاملة منضبطة ومنظمة أو من الناحية الاجتماعية ، حيث الحاجة إلى تنظيم النمو الديموغرافى .[(٨٨)] ولذلك فإن الرأسمالية فى نظر ميشال فوكو لاتنتج السلع فقط ، بل تنتج الأفراد كذلك ، أو بصورة أدق الإنسان الاجتماعى المنتج .[(٨٩)]

وعليه فإن المجتمع بالنسبة لفوكو ، ليس وحدة مقسمة إلى قطبين أو طبقتين ، بل وحدة مقسمة إلى عدة أجزاء موزعة على الجسد الاجتماعى ، تخترقها السلطة ، وكما أنه ليس للسلطة مركز محدد ، فكذلك المجتمع لا يتحدد بطبقة معينة ، بل بمجموع فئاته فى مختلف المؤسسات التى تحكمها مختلف علاقات السلطة .

---

(٨٥) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ١٤٦ .

(٨٦) نفس المصدر ، ص،ص. ١٤٦ - ١٤٧ .

(٨٧) Francois Ewald, **Michel Foucault Et La Norme**,In, **Lire L'Oeuvre**, Op-cit, p.205.

(٨٨) Michel Foucault **Reclusion et Capitalisme (Table Ronde)**, In, Esprit, N 413, 1972, p.688.

(٨٩) Francois Ewald **Anatomie et corps Politiques**, Op-cit, p.1241.

إن هذا المفهوم للمجتمع ، يسمح لنا بالقول إن ما يشكل موضوع نقد لمفهوم السلطة عند فوكو ، ليس عدم اجتماعيته أو ظابعه المفارق ، بل طابعه الوظيفى ، وموقف الفيلسوف منه .(٩٠) وهذا سنحاول مناقشته فى العنصر الموالى .

المحور الثالث - المثقف والسلطة :

إن موقف الفيلسوف من السلطة ، أمر أساسى لاختبار مفهومه عن السلطة ، وأن فوكو على عكس الكثير من الفلاسفة والكتاب ، لا يمكن للباحث فى فلسفته أن يفصلها عن مسار حياته ، لا لأن هذا شرط من شروط البحث ، بل لأن علاقة فوكو بعمله وفلسفته علاقة أساسية بل وشخصية .

لذلك نرى أن مناقشة الطابع الوظيفى للسلطة ، وكذلك الطابع النظرى لها ، لا بد وأن يمر عبر المحطات الكبرى لحياة الفيلسوف ، وخاصة تلك المتعلقة بالحدث السياسى أو ما يتعلق بالسلطة ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وإذا كنا لا نستطيع سرد كل المواقف والآراء فإن بعض الإشارات ضرورية للفهم وإجراء النقد على السواء .

أولا - *في السيرة الذاتية* : ولد ميشال فوكو «بواتييه Poitie» سنة ١٩٢٦ ، تعلم فيها وأكمل دراسته الجامعية فى «باريس» . وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، انضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى سنة ١٩٥٠ ، وانفصل عنه سنة ١٩٥٣ . رحل إلى «السويد» وبالضبط إلى مدينة «ايبسالا» حيث عين مديرا ومدرسا بالمعهد الفرنسى ، ضمن البعثة الديبلوماسية الفرنسية .

فى سنة ١٩٥٧ استقبل الأديب الفرنسى ، وصاحب جائزة نوبل للآداب «ألبرت كامى Albert Camut» الذى ألقى محاضرة بالمعهد ، ومن بين ما جاء فيها قوله : (إننى أندد دائما بالإرهاب ، وعلى أن أندد بالإرهاب الذى يمارس بشكل أعمى فى شوارع الجزائر ، والذى يمكن أن يصيب أمى أو عائلتى ، إنى أؤمن بالعدالة ، ولكن على أن أدافع عن أمى قبل العدالة .)(٩١)

لم يعلق ميشال فوكو على كلام الأديب ، وعندما سئل بعد وقت عن موقفه من الثورة الجزائرية ومختلف أحداثها تذرع بالغياب ، لقد كان غائبا إما فى «السويد» أو فى «بولونيا» أو فى «ألمانيا» ، وهى البلدان التى تقلد فيها منصب الملحق الثقافى للبعثة الديبلوماسية الفرنسية .

---

(٩٠) Michel Walzer, **La politique de Michel Foucault**, In, **Lecture Critique**, Op-Cit p.72.

(٩١) Didier Eribon, **Michel Foucault,** Op-Cit, p.103.

وحتى بالنسبة لأحداث ماي ١٩٦٨ التي عرفتها «فرنسا» قدم نفس العذر ، لقد كان غائبا هذه المرة بـ «تونس» ، وعلى العموم فإن مرحلة الخمسينيات والستينيات تشهد على تقرب الفيلسوف من النظام «الديغولي» وتقلده لعدة مناصب إدارية وتعليمية ربما كان آخرها رئاسة قسم الفلسفة ، بجامعة «فانسان» بعد الانتفاضة الطلابية مباشرة ، ويرجع المحللون هذا التعيين إلى علاقته بالنظام الديغولي ومشاركته في الإصلاح الجامعي الذي كان سببا من بين مختلف الأسباب التي كانت وراء الانتفاضة الطلابية ، وربما كذلك لكونه وجها من وجوه البنيوية ، الفلسفة الجديدة والمتجاوزة للوجودية والمناهضة للماركسية .

إلا أن المشاركة الأولى لفوكو في العمل السياسي أو بالتدقيق في النضال السياسي يعود إلى سنة ١٩٦٧ إثر الأحداث الطلابية التي عرفتها الجامعة التونسية ، إلا أن هذا النضال سيظهر أكثر بعد تعيينه بسنة في «الكوليج دو فرانس» وذلك بتأسيسه : «فريق الإستعلامات عن السجون» في ٨ فيفري ١٩٧١ .

لم تكن مهمة هذا الفريق حزبية ، بل كانت تعمل على التحقيق في أوضاع السجون في فرنسا ، وإعطاء المساجين حق الكلام المباشر ، كما لا تهدف إلى إصلاح السجن ، أو إيجاد سجن مثالي ، وإنما إلى نزع الغطاء عن هذه المؤسسة : (المعتمة والمرعبة التي هي السجن .)[٩٢]

لقد كان العمل يقتضي نشر تصريحات السجناء ، وتوحيد النضال داخل السجن وخارجه ضد نظام القمع ، ومن هنا كانت الدعوة إلى احترام حقوق الإنسان في العمل السياسي ، وخاصة بعد أن تم سجن العديد من اليساريين الذين شاركوا في أحداث ماي ١٩٦٨ ، وتعاطف ميشال فوكو مع هذه الجماعات اليسارية ، وخاصة «الماويين» ودفاعه عن اللاجئين السياسيين ، وتأسيسه رفقة «سارتر» للجنة الدفاع عن حقوق المهاجرين ، وذلك بعد مقتل الشاب الجزائري «جيلالي بن علي» والعامل «محمد ذياب» إلا أن مساندته لـ «إسرائيل» حالت دون استمراره في هذه اللجنة ، وذلك لأن المهاجرين كانوا ضد «إسرائيل» و مع القضية الفلسطينية .[٩٣]

وهكذا وعبر العديد من المواقف داخل فرنسا وخارجها ، أصبح ميشال فوكو في السبعينيات ، شخصية عامة بالموازاة مع شخصية «سارتر» ، ولعل أهم حدث شارك

(٩٢) هاشم صالح ، **فيلسوف القاعة الثامنة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٢٥ .
(٩٣) Didier Eribon, **Michel Foucault**, Op-Cit, p.256.

فيه في نهاية السبعينيات ، هو تغطيته لأحداث الثورة الإيرانية ، كمراسل للجريدة الإيطالية "Corriere della serra" .

وعن هذا الحدث نشر مجموعة من المقالات التي تنم عن إعجابه بالثورة الإيرانية ، وبخصوصياتها ، ولعل أهم ما يستوقفنا أكثر هو العمل الميداني والتغطية الصحفية ، وأكثر من هذا تأكيده على جملة من الآراء التي تخص الثورة والإسلام ، والتي نشير إليها باختصار ، لا لعدم أهميتها بل لأن مجالها أوسع مما سطرناه ، من هدف لهذا المحور ، ومن بين تلك الآراء :

(أ) تأكيده على القوة الروحية للقرآن والعلاقة الخاصة التي جمعت الإمام بالشعب .

(ب) في مختلف استجواباته ، لم يحدث أن تكلم أحد من الإيرانيين عن الثورة ، بل عن الحكومة الإسلامية ، التي تعني من بين ما تعني ، مثالا يجد نموذجه في التجربة الإسلامية الأولى ، وسلطة دينية تقوم على تثمين العمل واحترام الحريات والأقليات ، وأن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة مساواة وإنما علاقة اختلاف ، ما دام هنالك اختلاف في الطبيعة ، كما تؤخذ القرارات بالأغلبية ، وتتم مراقبة المسؤولين من طرف الشعب ، الذي من حقه أن يطالب بمحاسبة أي مسؤول .

ويرد فوكو على الذين يشككون في وضوح معالم الحكومة الإسلامية بالتأكيد على أن الوضوح قائم ، وإنما الضمانات التي يجب تثبيتها ، وما هو مهم أكثر في نظره هو البعد الروحي في الحياة السياسية ، وجعل العمل السياسي لا يشكل عقبة في وجه الحياة الروحية ، بل سندا لها . إن ما أثار فوكو أكثر من سواه هو ما يسميه بـ «الروحية السياسية "La Spirituealite Politique" .[(٩٤)] وكذلك الطابع الجماعي للنهوض الشعبي ، والشعور الرافض لكل تدخل أجنبي والوحدة في العمل والتصور ، إذ لم يلاحظ أثناء زيارته لـ «إيران» أي صراع بين الأجنحة والتيارات ، بل كل ما لاحظه هو الوحدة في الرفض ، رفض «الشاه» وطلب التغيير الشامل ، ليس تغيير النظام فقط ، بل تغيير الذات نفسها .

وفي هذه المسألة ، يرى أن للإسلام أهمية خاصة ، فهو يمثل بالنسبة للمتظاهرين ، الوعد والضمانة والوسيلة في التغيير ، ويستعمل في هذا لغة قريبة من الماركسيين ،

---

(٩٤) MichelFoucault, A quoi Rêvent Les Iraniens, In, Le Nouvel Observateur, N 727, 1978, p.94.

حيث يستشهد بـ «ماركس» الذى يرى أن أتباعه عادة ما يكررون قوله «الدين أفيون الشعب» متغافلين على أن الجملة التى تلى هذا الحكم هى أن الدين روح عالم بلا روح ، والإسلام فى نظره كان فى لحظة الانتفاضة الإيرانية سنة ١٩٧٨ ، روح هذا العالم الذى فقد روحه .

وهذا يؤدى فى نظره إلى تأكيد إحدى أطروحاته الفلسفية ، وهى أن للإيرانيين نظام حقيقة خاص بهم ، رغم أنه أصبح عالميا ، كما أن لليونانيين أو للمغاربة نظامهم فى الحقيقة ، فالإختلاف ، قائم وخاصة الإختلاف على النموذج الغربى ، القائم على مفهوم الثورة يتشكل أساسا من الطبقات المتصارعة ومن طليعة تقود الصراع .[٩٥]

إن هذه المساندة والإعجاب ، لقى معارضة كبيرة من طرف العديد من الكتاب ، سواء الأجانب أو الإيرانيين ذاتهم ، وخاصة بعد التحولات التى عرفتها الثورة ، من تصفيات دموية ، وحسابات سياسية ، كشف عنها مصير الثورة ذاته . وفى معرض رده على هذه الانتقادات ، وخاصة على نقد من طرف أحد الإيرانيات ، عبّر فوكو ، عن فكرة ، تحتاج فى نظرنا ، إلى التقدير والانتباه ، قال : (إن مشكلة الإسلام كقوة سياسية ، مشكلة أساسية ، بالنسبة للحاضر والمستقبل . وإن أول شرط لمناقشتها ، هو أن لا نبدأ بالكراهية .)[٩٦]

والحقيقة أن هذا الموقف ، يعبر عن مسلك عام ، لحياة الفيلسوف ، وتصوره لأصول المناقشة والحوار ، فبالرغم مما أثارته أعماله من حملات ، خاصة **الكلمات والأشياء أو المراقبة والعقاب أو إرادة المعرفة** ، إلا أنه لم يدخل فى سجالات أو خصومات ، بل إننا نجده يؤكد على ضرورة تخليص المناقشات من السجالات ، لأنها تشكل فى نظره عقبات فى البحث عن الحقيقة .[٩٧]

ثانيا - المثقف الخصوصى : إن هذه الملامح الكبرى للسيرة الذاتية وخاصة فى جانبها السياسى ، تفرض علينا طرح سؤال أساسى وهو : كيف فكر ميشال فوكو هذه الممارسة السياسية، وماهو تصوره ، لعلاقة النظرية بالممارسة ، أو بتعبير آخر، تصوره للسلطة وموقفه منها ؟ سنحاول فى البداية ، أن نبرز مختلف أفكاره حول المسألة ، ثم سنعمد

---

(٩٥) Michel Foucault, **L'Esprit D'Un Monde Sans Esprit**,In, **Iran: Révolution au nom De Dieu** ed. Le Seuil, 1973, p,p.231-234.

(٩٦) Michel Foucault **Reponse à Une Lectrice Iranienne,** In, **(D.94),** p.01.

(٩٧) Michel Foucault, **Dits Et Ecrits** Tome 3 Op-Cit p.592.

إلى تقييمها ، بحسب ما تقتضيه النظرة التاريخية والموضوعية ، التى نحاول القيام بها فى هذا البحث .

وبالطبع ، فإن القاعدة المنهجية التى تتحكم فى هذه المسألة ، هى النظر أولا إلى أعماله ، أى مجمل ما كتبه سواء من كتب أو دراسات أو مقالات أو حوارات ، وكذلك مختلف مواقفه السياسية ، عبر المراحل المختلفة ، وردود الفعل المختلفة حول تلك الأعمال والمواقف ، وأخيرا استخلاص النتائج المترتبة عن هذه الأعمال والمواقف ودورها فى الفلسفة والفكر عموما .

إن ما يميز الممارسة الفلسفية والسياسية ، لميشال فوكو، وما يشكل فرادته هومساءلته ومناقشته لموضوعات اعتبرت إلى ذلك الوقت ، موضوعات خارج الفلسفة وبديهية ، . ومساهمته تكمن فى هذه المساءلة ، مساءلة الجنون والمرض والجنوح والجنس ، مساءلة فلسفية بالرغم من انكار الفلسفة الجامعية ، وحتى الماركسية ، لمثل هذه الموضوعات ، واعتبارها موضوعات إما تافهة أو رديئة ، وفى أحسن الأحوال ، فهى موضوعات سياسية .(٩٨)

ولكن فوكو ، بطريقة خاصة ، حولها إلى موضوعات فلسفية ، وبالتدقيق إلى موضوعات للنقد الفلسفى ، على أن لا نفهم من النقد ، الهدم أو الرفض ، وإنما الامتحان Examen ، الذى يتطلب ، استبعاد منظومة القيم السائدة ، قدر الإمكان ، وممارسة الشك الفلسفى ، الذى يشكل عنصرا أساسيا لحياة المثقف .(٩٩)

وبهذه الممارسة النقدية ، يستطيع المثقف ، إنتاج خطاب نقدى ، جسدته مختلف أعماله ، وفى هذا السياق ، تندرج أعمال الفيلسوف ، ابتداء من **تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى** ، حيث نجده يكتب ، فى مقدمة الطبعة الجديدة ، لسنة ١٩٧١ ، موضحا الهدف من إعادة الطبعة ونشر الكتاب ، قائلا : (إنى لا أريد من الكتاب أن يشكل نصا بيداغوجيا (...) وإنما خطابا ، يشكل فى نفس الوقت معركة وسلاح ، إستراتيجية وصدام ...)(١٠٠)

إن هذه الوظيفة ، التى يقوم بها الكتاب ، هى التى جعلته ، يعتبر مجمل أعماله ، كـ «علب أدوات Boites à outils» للاستعمال والاستخدام ، وهو ما يعكس الطابع

---

(٩٨) MichelFoucault **Du Pouvoir** In D.145), p.59.

(٩٩) Michel Foucault **Des Questions Sur Le Pouvoir** p.68.

(١٠٠) Michel Foucault, **L'Histoire de La Folie à l'Age Classique** p.10.

الوظيفى لعمله ، ويربطه بمسائل الواقع والحاضر ، رغم الصبغة التاريخية لأعماله ، وهى نفس الميزة التى تجسدها وظيفته كأستاذ ومثقف ، فهو يرى ، أن وظيفة الأستاذ الجامعى ، هى تقديم معرفة وأسلوب من التحليل يسمح ، لا بتحويل فكر الآخرين وإنما فكره كذلك . وهذا العمل التحويلى لفكر الآخرين وفكره ، هو الذى يشكل مبرر وجود المثقف .(١٠١)

ولكن السؤال الذى يجب طرحه - قبل مواصلة التحليل- هو : عن أى مثقف يتحدث ميشال فوكو ؟

يميز فوكو بين المثقف الكوني "Universel" والمثقف المتخصص "Spécifique" ، ويرى أن عصر المثقف مالك الحقيقة والعدالة وضمير المجتمع وممثل الكل ، قد ولى ، وحل ، محله عصر العالم المتخصص فى ميدان محدد ، ومجال معين ، يقول :

(لقد مرت تلك الحقبة الكبرى من الفلسفة المعاصرة ، حقبة سارتر وميرلوبنتى ، حيث كان على نص فلسفى ، أو نص نظرى ما ، أن يعطيك فى نهاية المطاف معنى الحياة والموت ، ومعنى الحياة الجنسية ويقول لك هل الله موجود أم لا ؟ وما هى الحرية وما ينبغى عمله فى الحياة السياسية وكيف تتصرف مع الآخرين ، ... إلخ . لقد تكون لدينا انطباع بأنه لم يعد ممكنا ترويج مثل هذه الفلسفة ، وبأن الفلسفة قد تكون فى حالة تشتت إن لم تكن قد تبخرت ، وبأن ثمة عملا نظريا يغلب عليه بشكل أو بآخر طابع التعدد ، وهكذا فالنظرية والنشاط الفلسفى يظهران فى ميادين مختلفة تبدو وكأنها منفصلة عن بعضها بعضا...)(١٠٢)

إن هذا النص الطويل نسبيا ، يعكس مستويات أساسية ، منها ماهو تاريخى ومتعلق بالفلسفة وبتاريخها ، خاصة فى المرحلة المعاصرة وبظهور فلسفة جديدة أو نشاط فلسفى جديد ، فى مقابل ماهو سائد ، من وجودية «سارتر» أو فينومينولوجية «ميرلوبنتي» أو ماركسية ممزوجة بالوجودية أوالفينومينولوجية ، ومنها ماهو متعلق بالمضمون والرؤية ، إذ لم تعد الفلسفة والفيلسوف - وهو مثقف بالدرجة الأولى- تكمن مهمته فى تلك الموضوعات القديمة المتعلقة عموما بإعطاء المعنى للحياة أو للموت .

---

(١٠١) Ewald Farge, Perrot, **Michel Foucault Une Histoire de la Vérité**, ed.Syros, 1985, p.21.

(١٠٢) Foucault Michel, **Entretien** In **La Quizaine Litteraire** Op-Cit p.18.

بل إن مهمة النشاط الفلسفى ميدانية أكثر ، ومرتبطة بفروع علمية معينة . وإذا كان للمثقف الكونى تاريخ طويل ، جسدته الماركسية والوجودية ، فإن المثقف المتخصص وليد الحرب العالمية الثانية ، وكان لأحداث ١٩٦٨ الدور الأساسى فى إظهاره إلى العلن .

لقد كان المثقف الكونى صورة ممتازة للكاتب والكتابة ، وكانت الكتابة خصوصا تضفى على الكاتب طابعا مقدسا تجسدها صورة الكاتب الروائى «إميل زولا» ، أما المثقف المتخصص فهو مثال للعالم الذى تجسده صورة العالم الذرى «أوبنهاينر» الذى ناضل ضمن ميدانه العلمى ، وهو الفيزياء النووية ، خلال الحرب العالمية الثانية .

وعليه فإن المثقف المتخصص يتميز بصفات منها :

(أ) المثقف المتخصص هو الذى يشتغل فى قطاع محدد وحول موضوعات محددة، إما فى ظروف عمله أو ظروف حياته (السكن، المستشفى، الملجأ، المختبر، العائلة) وهو بهذه الصفةيتميز بالعينية ومباشرة الصراعات ويواجه مشاكل نوعية لا مشاكل عامة، كما هو حال المثقف الكونى .(١٠٣)

(ب) المثقف الجديد لا يعطى دروسا ولا يقوم بالتوجيه العام،وإنما يقدم أدوات للعمل ومناهج للتحليل .(١٠٤)

(جـ) المثقف الجديد هو الذى يوضح مسألة معينة، أو يبين وضعية جديدة أو يكشف عن حالة خاصة .(١٠٥)

(د) المثقف المتخصص ليس مرتبطا بجهاز الإنتاج، ولكنه مرتبط بجهاز المعلومات ، ولذلك لا يمكن أن يشكل بديلا لمعرفة العامل فى جهاز الإنتاج .(١٠٦)

(هـ) المثقف المتخصص ، هو الذى يقطع نهائيا ، مع دعوى الشمولية والكونية والكلية ، ويمارس يقظة سياسية ونظرية وأخلاقية ، فى ميدان عمله أو محيطه الاجتماعى .(١٠٧)

---

(١٠٣) ميشيل فوكو ، **الحقيقة والسلطة** ، ترجمة ، محمد سبيلا ، ص. ٧٤ .

(١٠٤) Michel Foucault **Pouvoir et Corps**, In, D.302), p.05.

(١٠٥) MichelFoucault **L'Itellectuel Et Les Pouvoirs** In D.176) p.338.

(١٠٦) MichelFoucault **L'Itellectuel Sert A Rassembler** Les Idées In, D.89) p.01.

(١٠٧) Francois Boullant & Frediric Ocquetau **Que Faire Du Colloque de La C.F.D.T?**, In Actes, N 54, 1986, p.64.

(و) المثقف الجديد هو المحلل والناقد لأنظمة الفكر ، التى أصبحت تشكل بديهيات ، والتى ترتبط بشكل عضوى مع مفاهيمنا ، ومواقفنا وسلوكنا .(١٠٨)

(ز) ليست مهمة المثقف الجديد ، سن القوانين واقتراح الحلول وتقديم النصح ، وإنما مهمته التحويل أو التغيير من خلال ميدانه ، وذلك بالمساهمة فى تشخيص الحاضر .(١٠٩)

ولا يتأسس التحليل والدراسة إنطلاقا من السياسة ، بل من الموضوعات المدروسة ، فلا يجب تحليل الموضوعات انطلاقا من منظور سياسى ، بل من مساءلة سياسة الموضوعات ذاتها .

وتتحدد وضعية المثقف لا بكونه منخرطا ولا عدوا ، ولكن مسائلا (١١٠) . وعليه فإنه إذا لم يكن المثقف خارج السلطة ، فهذا لا يعنى أنه مورط فى ألعابها ، وأهميته تكمن فى الكشف عن أشكال الهيمنة ، مادام الأمر لايتعلق بتخليص المعرفة من السلطة أو السلطة من المعرفة ، كما بينا ذلك .(١١١)

لقد كان المثقف التقليدى مثقف الوحدة والواحدية ، أما المثقف الجديد فهو مثقف التعدد والإختلاف . يقول : (خلال السنوات ١٩٤٥ - ١٩٦٥ [أفكر فى أوروبا] ، كانت هنالك طريقة مستقيمة معينة فى التفكير ، كان هنالك أسلوب معين فى الخطاب السياسى ، وأخلاقية معينة للمثقف .كان عليك أن تكون مع ماركس فى كل شيء ، وأن لا تترك أحلامك تتيه بعيدا عن فرويد ، وأن تعالج نسق العلامات - الدال - باحترام كبير ... وبعد ذلك جاءت خمسة سنوات من التهلل واللغز .)(١١٢)

ويقصد فوكو بطبيعة الحال السنوات التى أعقبت الانتفاضة الطلابية ، لذلك لا يمكن أن نفصل بين ظهور مفهوم جديد للمثقف والأحداث الطلابية التى عرفتها

---

(١٠٨) Michel Foucault **Qu'appel T'on Punir** p.37.

(١٠٩) Michel Foucault **La Politique Est La Continuation De La Guerre Par D'Autres Méthodes** in, D.359), p.01.

(١١٠) Michel Foucault **A Mon Retour de Vacances** In, D.249) p.06

(١١١) Michel Foucault **Pouvoir et Stratégie**, In, **Revoltes Logiques**, N 04, p.95.

(١١٢) Michel Foucault, **L'Anti-oedipe Une introduction A La Vie Non Fasciste**, in **Magazine Litteraire** N 257. 1988, p.42.

«فرنسا» ، هذه الأحداث التي يرى فيها «محمد الشيخ» أنها أدخلت : ((نقطة استهزاء) في الفكر الفرنسي وأحدثت فاصلة شك في مفهوم المثقف ، لقد خلقت وعيا حادا بمفاهيم كالإختلاف والمتخيل والجسد ...)[١١٣]

لم تعد علاقة النظرية بالممارسة ، علاقة السبب بالنتيجة ، وإنما ذات شكل جديد لا تعبر ولا تترجم ولا تطبق ، إنها في ذاتها تطبيق أو ممارسة ، ممارسة محلية "Locale" أو جهوية "Régionale" وليست كلية "Totale" . فالنظرية نسق محلي لصراع ما . ولعل المساجين مثال لهذه النظرة ، فعندما تحدثوا عن سجنهم كانوا يملكون نظرية عن السجن وعن العقاب وعن العدالة . ولكن هذا لايمنع من تعميم الصراع ، مادامت السلطة عامة ، ومادامت مهمة المثقف الجديد هي مساءلة مختلف الممارسات الناجمة عن تجارب كالجنون والمرض والجنوح والجنس .[١١٤]

وبناء على هذا التصور ، يرى فوكو أن مفتاح فهم الموقف السياسي للفيلسوف لا يرجع إلى أفكاره ، وإنما إلى فلسفته كحياة ، أو إلى حياته الفلسفية .[١١٥] ومن هنا تأكيده على أن أعماله جزء من ممارسته ومن تجربته ، وأن كتبه فصول من حياته أو سيرته الذاتية وهو ما يعكسه بالفعل مساره الفكري والسياسي .[١١٦]

(إن المشكل السياسي الأساسي بالنسبة للمثقف ، ليس هو أن ينتقد المضامين الإيديولوجية التي قد تكون مرتبطة بالعلم ، أو أن يعمل بحيث تكون ممارسته العلمية مصحوبة بإيديولوجية صائبة . بل هو أن يعرف ما إذا كان من الممكن إنشاء سياسة جديدة للحقيقة . إن المشكل ليس هو تغيير (وعي الناس) أو ما يوجد في ذهنه ، بل تغيير النظام السياسي والاقتصادي والمؤسسي لإنتاج الحقيقة .)[١١٧]

من الواضح أن الهدف ، يختلف عن ذلك الذي رسمته الماركسية عموما و«التوسير» على وجه الخصوص ، وأن الأمر يتعلق كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك :

---

(١١٣) الشيخ محمد ، **المثقف والسلطة ، دراسة في الفكر الفرنسي المعاصر** ، دار الطليعة . بيروت ، ط ٠١ . ١٩٩١ ص. ٩١ .

(١١٤) Foucault Deleuze, **Les Intellectuels et Le Pouvoir**, p,p 04-05 .

(١١٥) Michel Foucault **Dits Et Ecits**, p.586.

(١١٦) Ibid p,p.747-748.

(١١٧) ميشيل فوكو ، **الحقيقة والسلطة** ، ترجمة محمد سبيلا ، ص. ٨٣ .

(ليس تخليص الحقيقة من كل منظومة سلطة ، بل بإبعاد سلطة الحقيقة عن أشكال الهيمنة (الاجتماعية والاقتصادية والثقافية) التي تشتغل داخلها لحد الآن .)[(١١٨)]

إن مهمة المثقف هي صياغة تدخل مختلف ، في كل القطاعات التي يتواجد فيها : (في عمله ، في علاقته مع الآخر ، في كل المجالات التي يمكن أن تتاح له فيها فرصة تسجيل هذا الاختلاف المعاند لكل قرار يستهدف الاستحواذ والاحتواء ... مقاومة كل إرادة للقوة ترمي إلى الهيمنة .)[(١١٩)]

إن هذه الملامح الكبرى لصورة المثقف الجديد والتي حاولنا أن نرسمها بالاعتماد على نصوص الفيلسوف ذاته ، لقيت ردود فعل مختلفة وتأويلات متعددة وقراءات متناقضة ، منها الرافضة ومنها المؤيدة ومنها المنصفة ، وسنحاول الإشارة إلى هذه الآراء لاستكمال صورة المثقف الجديد التي دعا إليها فوكو ومارسها .

يرى «لاردرو» : (إن فوكو قد أوصل المثقف إلى موقع المثقف الانضباطي الذي يجب عليه أن يسترشد بالقاعدة الأخلاقية التالية : العمل والصمت . فالسلطة ليست - حسبه - مقامة على الإكراه والعنف بقدر ما هي قائمة على تكنولوجيا المراقبة من أجل الإنتاج وإنتاج المعرفة والحقيقة . كذلك الذات ليس لها من قيمة سوى التأكيد على استحالة التغيير إلى درجة العجز ، فكل التحولات في تاريخ البشر قامت بها السلطة أو افتكتها السلطة حتى الثورة وبريقها أصبحت ملك الدولة .)[(١٢٠)]

إن هذا الموقف يجد سنده ربما في فكرة شمولية السلطة ودورها الفعال والمنتج ، ومن كونها ليست قمعية ، ومن استبعاد لدور الذات الفاعلة أو المؤسسة ، ومن كون فوكو لا يقترح أي حل ، ولكن وفي نفس الوقت إذا ما نظرنا من الناحية التاريخية ، في طرحه لمسألة السلطة وإلى موقعها وأشكال المقاومة التي تكتنفها وإلى مختلف النضالات التي شارك فيها خاصة في فترة السبعينيات ، فإن القول بأن ما تبقى للمثقف هو العمل والصمت ، مجانب للصواب وخاصة عندما نقرأ قول فوكو في رده على مثل هذه التأويلات : (بعض الناس يعتقدون أن هدفي هو إظهار وجودنا وحريتنا ، مسجونة بالتقاليد والمؤسسات ذات الجذور العميقة ، ولكن في الحقيقة فإن محاولتي

---

(١١٨) نفس المصدر ، ص. ٨٣ .

(١١٩) أفاية محمد نورالدين ، **المثقف والسلطة ، جدل الإقصاء والاعتراف** ، في ، **الوحدة** ، العدد ١٠ . ١٩٨٥ ، ص. ٧٩ .

(١٢٠) عن ، محمد على الكبسي ، **ميشال فوكو** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٤٩ .

تستهدف العكس ، بمعنى أن أبين مادام كل شيء (الجنس، السجن ، الجريمة الجنون) تاريخية فإنه من الممكن تغييرها .)(١٢١)

ليست مهمة فوكو تقرير الأمر الواقع ، ولا العمل والصمت ، وإنما التغيير والتحويل لا على أساس الثورة كما يذهب إلى ذلك المثقف الكونى ، بل على أساس المقاومة المحلية ، لذلك فإن أعماله وخاصة المراقبة والمعاقبة تندرج فى هذا السياق ، سياق المقاومة المحلية ، وكان بمثابة علبة أدوات ومن هنا طابعه الوظيفى .(١٢٢)

إن أهمية فوكو فى مسألة السلطة هو فى انتباهه إلى موضوع الأطراف والهوامش ، وطرحه لتلك الموضوعات ، التى تصمت عنها الثقافة العالمة ، طرحا جديدا وفق إشكالية تاريخية جديدة .(١٢٣)

ومن هذا المنظور ، نقول مع «دلوز» أن فوكو لم يتعامل قط مع الكتابة على أنها هدف وغاية ، رغم أن بدايته كانت تلتمس فى اللغة خاصة وفى الأدب عامة ، مثل هذا الحل ، كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك فى الفصل الأول ، ولكن فى السبعينيات ، حيث بلور مفهومه للسلطة ، فإننا لا يمكن فصله عن مختلف الممارسات النضالية التى خاضها مع الفريق من أجل الاستعلامات حول السجون بين سنوات ١٩٧١-١٩٧٣ .(١٢٤)

إن المتأمل فى مفهوم المتأمل المتخصص من الناحية النظرية خاصة ، لا يمكن فصله عن المنظور البنيوى ، وخاصة فى تركيزه على التخصص والميدان والبحث ، خاصة وأننا نقرأ له نصا يقول فيه : (على البنيوية أن تقدم للعمل السياسى أدوات التحليل .)(١٢٥)

على أن لا نفهم من هذا ما حاولت الوجودية بزعامة «سارتر» والماركسية بمختلف ممثليها ، وخاصة «هنرى لوفيفر» و«روجيه جارودي» و«لوسيان ساف» من وصف هذا المثقف الجديد بالتكنوقراطى وبالعميل للسلطة الجديدة وبالمورط فى أجهزة السلطة ، وإنما كمحاولة نظرية للخروج من التنظيرات اليسارية لمختلف اتجاهاتها لمسألة المثقف ، وبذلك فإن فوكو ، فى نظرنا ، قد قدم مساهمة جديدة بمفهوم المثقف والسلطة .

---

(١٢١) Michel Foucault, **Entretien, In Time,** Du Novembre 1981, p.45.

(١٢٢) Michael Walzer, **La Poltique de Michel Foucault** Op-Cit p.70.

(١٢٣) Jeannette Collembel, **Michel Foucault La Clarté De La Mort** Op-Cit p.13.

(١٢٤) جيل دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص، ص. ٢٩ – ٣٠ .

(١٢٥) Didier Eribon, **Michel Foucault**, Op-Cit, p.295.

هذه المساهمة وغيرها من المساهمات ، فى ميدان اللغة والخطاب والمعرفة والسلطة والذات ، هى التى تشكل فلسفة فوكو ، بمميزاتها وخصائصها ، ولعل مفهوم السلطة ، بجميع جوانبه ، يشكل أحد أعمدة فلسفته .

هذا المفهوم كان نتيجة لعمل ميدانى ونضال سياسى وتفكير فلسفى ، لا يمكن فصله عن بقية المفاهيم وخاصة مفهوم الخطاب الذى حاولنا مناقشته بالمقارنة مع السلطة ، والإجابة عن إشكاليتنا المركزية والرد على التصور الذى يفصل فى الإنتاج الفكرى لفوكو ، بين النظرى والعملى .

ولقد اتضح لنا ، من خلال المناقشة والتحليل أنه لايمكن القول وبشكل نهائى بأن هنالك مرحلة نظرية ومرحلة تطبيقية ، مرحلة خطابية وأخرى غير خطابية ، بل العكس هو الأقرب إلى الصحة ، إذ أننا نجد أن مستوى النظر والعمل أو مستوى الخطاب والممارسة متداخلين ، ويتبادلان المواقع والتأثير والتأثر ، ابتداء من **تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى** .

يعتبر كتابى **المراقبة والمعاقبة وإرادة المعرفة** مثال لهذه العلاقة التبادلية بين الخطاب والممارسات غير الخطابية أو بين الخطاب والمؤسسات ، وهذا بدراسة أشكال التعذيب والعقاب والانضباط ، التى تجسدها مختلف مؤسسات الانضباط والتى نجد لها نموذجها فى السجن ابتداء من ١٨١٠ ، حيث سيحتل كل العقوبات والانضباطات التى ستطال الجسد البشرى .

وعلى أساس دراسات تاريخية وعمل نضالى ، أسس فوكو مفهوما جديدا للسلطة ، وشكل خطابا جديدا حول السلطة ، يقوم أساسا على مفهوم العلاقات وعلاقات القوى ، ضمن استراتيجيات مختلفة ، لا تتجسد فى مركز أو فى مؤسسة أو فى ذات ، بل فى ممارسات مبعثرة و منتشرة على الجسد الاجتماعى كله . إنها خصائص السلطة الحيوية ، التى تعمل على محورى التشريح السياسى للجسد والسياسة الحيوية للسكان ، والتى ستتدعم بمفهوم الحكم والحكمانية وبخصائص الدولة الرعوية .

ولمفهوم السلطة علاقات أهمها علاقته بالخطاب ، سواء فى طريقة المعالجة حيث يتناوب الوصف الأركيولوجى بالتحليل الجنيالوجى ، أو على مستوى الخصائص ، مثل الحدث والمادية والإستراتيجية والعلاقات والتبعثر والإنتاج والوضعية والموقعية والاختراق . أو علاقته بالمعرفة من خلال نماذج تاريخية ، كالقياس والتحقيق والامتحان ، أو علاقته بالمجتمع وبتصور معين للمجتمع ، قائم على الانضباط والمعيار والمراقبة يتناسب والطابع الوظيفى للسلطة .

إن هذا الطابع الوظيفي يتناسب أيضا ومهمات المثقف الجديد أو المتخصص أوالخصوصى أو الميدانى والمختلف والملتزم بالأطراف والهوامش والمناضل فى ميدان عمله أو فى محيطه الاجتماعى ، سواء بتقديم أبحاث تاريخية أو تحاليل ميدانية ، تعتبر علب أدوات صالحة للعمل والنضال ، أو بمحاولة تخليص إرادة الحقيقة من أشكال الهيمنة .

وربما هذا الدور الجديد والمحدد للمثقف المتخصص يشكل تعبيرا مباشرا أو غير مباشر عن مفهوم معين للذات الفاعلة وهو الذى جعل فوكو يهتم بمسألة الذات فى أعماله اللاحقة ، أى فى **استعمال اللذات والاهتمام بالذات** ، وهو ما سنحاول مناقشته فى الفصل القادم .



الفصل الخامس

الخطاب والذات

مقدمة .

المحور الأول – خطاب الجنس .

المحور الثانى – خطاب الأخلاق .

المحور الثالث – خطاب الجمال .



مقدمة :

فى دراساته السابقة ، عن تاريخ الجنسانية تعرض ميشال فوكو لمسألة الذات والإنسان ، فتحدث عن الجنون والمجنون وعن المرض والمريض وعن الإنسان العامل والمتكلم والناطق ، وعن المجرم ، وهكذا فتاريخ **الجنون** ، يتعلق أولا وأخيرا بالإنسان ، فالجنون لا يرتبط بالعالم ولا بأشكاله المخفية ، بقدر ارتباطه بالإنسان ، بضعفه وأوهامه وأحلامه ، إنه لايرتبط بالإنسان فقط ، بل بحقيقة الإنسان .[(١)]

ويرى فى **مولد العيادة** ، أن الطب ليس مدونة تقنية أو علاجية أو معرفية ، بقدر ماهو عملية لمعرفة الإنسان الصحى ، بمعنى أن الطب تجربة الإنسان غير المريض وتحديد للإنسان النموذج .[(٢)]

كما رصد فى **الكلمات والأشياء** ، الأشكال الثلاثة للإنسان العامل والإنسان الناطق والإنسان الحى . ولكننا نعرف فى ذات الوقت ، أن هذه الدراسة تنتهى بذلك الموقف النظرى الذى يقول بنهاية الإنسان وموته ، كما توج بتحليل مناهض للذات المؤسسة والفاعلة فى **أركيولوجيا المعرفة** ، حيث قال : (وبدلا من أن يعمل التحليل الذى نقترحه هنا ، على إحالة مختلف صيغ التعبير على التركيب ، أو الوظيفة الموحدة للذات ، فإنه يجعل تلك الصيغ نفسها تكشف عن تبعثر الذات ، كما يحيل الذات إلى مختلف الأوضاع والمواقف التى تشغلها عندما تتلفظ بخطابها .)[(٣)]

إن هذا التبعثر هو الذى جعله يقترح الموقع الغفل أو المجهول "Anonyme" للخطاب وأن يرد مختلف الصيغ المنطوقية والخطابية إلى الممارسات الخطابية أو غير الخطابية .[(٤)] وهو ما تعرضنا له فى فصلى الخطاب والمعرفة والسلطة ، أى إحالة الذات إلى التبعثر ، سواء على مستوى الخطاب أو اللغة ، أو على مستوى المعرفة والسلطة ، هذه الإحالة لا تعنى الإلغاء بقدر ما تعنى فهما مخالفا للذات ، فهما يتعارض وفلسفات الذات ، وتأسيس لموقف جديد من الذات . ولعل عدم التمييز بين النفى والإحالة ، هو الذى جعل العديد من الدارسين ينتقدون موقف فوكو من الذات ، ويلحقونه بالنزعة البنيوية ، المناهضة للذات والنزعة الإنسانية ، ولكن التساؤل فى

---

(١) Michel Foucault, **L'Histoire de La Folie à l'Age Classique**, p,p.35-36.

(٢) Michel Foucault, **Naissance de La Clinique** p.35.

(٣) ميشال فوكو، **أركيولوجيا المعرفة** ، ص. ٥٣ .

(٤) Bellour Rymond **Le Livre des Autres** Op-Cit, p.119.

نظرنا عن صيغة تبعثر الذات كما هي مطروحة في **أركيولوجيا المعرفة** وربطها بمفهوم الخطاب وبالأبحاث الجنسانية الأخيرة، يبين ليس إنكار الذات وإنما فهما جديدا للذات ودورها .

بهذا المعنى ، نفهم تصريح فوكو ، من أن أبحاثه كلها تدور حول الذات ، سواء الذات الخاضعة أو الذات المقاومة ، سواء الذات كما يرسمها في **المراقبة والمعاقبة** أو الذات كما يصفها في **تاريخ الجنسانية** . لقد كان السؤال المركزي الذي يحكم أبحاثه التاريخية والفلسفية ، هو كيف تشكلت وتكونت الذات الغربية ، عندما أصبحت موضوع معرفة ، وماهي شروط هذا التشكل ؟ كيف تشكلت الذات الغربية في صورة المجنون والمريض والناطق والعامل والحي والمجرم والراغب ؟ باختصار ، كيف تشكل في الغرب خطاب حقيقي حول الذات ؟

لا يتساءل فوكو عن ماهية الذات وإنما عن كيفية تشكلها عبر التاريخ الغربي ، هذا التساؤل هو الذي يسمح لنا بفهم ما صرح به لمحاوريه «دريفوس ورابينوف» بقوله : (أود أن أوضح أولا ماذا كانت غاية عملي طوال السنوات العشرين الماضية ، لم تكن تحليل الظاهرات السلطوية ولا إرساء قواعد هذا التحليل ، لقد سعيت بالأحرى إلى صنع تاريخ لمختلف طرائق تذويت الكائن البشري في ثقافتنا ... ليست السلطة بل الذات هي التي تشكل الموضوع العام لأبحاثي .)(٥)

كيف نفهم هذا التصريح ، الذي يعتبر للوهلة الأولى وكأنه مفارقة ، مقارنة باهتمامه بالمعرفة في المرحلة الأولى ، وبالسلطة في المرحلة الثانية ؟ من دون شك فإن الوقوف على التصريحات الفجائية لفوكو يجعل الباحث يقع في المفارقة أو المشايعة ولكن التعمق والتساؤل يبعد الكثير من الأفكار التي يحاول التصريح بها وذلك لأن القول بالقطيعة والتغير الجذري ، هو ما يروق لفوكو ، لكن الربط وإقامة العلاقة ومحاولة البحث عن مواقع الجدة ، هو ما يؤسس البحث التاريخي ، وهو ما نحاول القيام به .

لذلك نرى أنه إذا كان موضوع الذات يظهر كحلقة ثالثة في فلسفة فوكو ، فإن هذه الحلقة غير مقطوعة الصلة بباقي الحلقات ، وإذا تفردت فإن المرحلة تقتضي ذلك ، لذا وجب السؤال كما قلنا عن أسباب هذا التفرد ، والذي لا ينكره الفيلسوف ذاته .

---

(٥) ميشيل فوكو ، **بحثان حول الفرد والسلطة** ، في ، دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٨٦ .

ومن بين تلك الأسباب فى التحول والتفرد ، الفشل السياسى وأزمة الكتابة ، وخاصة بعد صدور **إرادة المعرفة** ، وتحوله نحو الصحافة لفترة من الوقت ، ثم اختلائه بأحد الأديرة بـ «اليابان» ومحاولته الإقامة فى «الولايات المتحدة الأمريكية» ، لذا نجد «دلوز» يتحدث عن زميله بكل ألم قائلا : (لقد مر بأزمة من كل الجهات ، سياسية حيوية وفلسفية ، إضافة إلى أن منطق الفكر فى حد ذاته ، يتشكل جملة الأزمات التى يتجاوزها .)(٦)

وإضافة إلى كل هذا ، فإن فترة السبعينيات ، وخاصة فى نهايتها ، عرفت توجهات فلسفية جديدة ، متجاوزة للبنيوية ، لذلك نقرأ عن تيار يحاول الدارسون رسم صورته بصعوبة ، ويسمونه بما بعد البنيوية "Post-Structuralisme" ، كما عرفت هذه الفترة مشكلات ذات علاقة مباشرة بالذات ، مثل الهوية ، والفردية ، والتى يشير إليها فوكو ويرى أنها ذات بعد سياسى كبير .(٧)

ومن هنا كان لزاما عليه أن يعمق تفكيره حول الذات ، والذى لم يتناوله بشكل كاف فى أعماله السابقة وأن يحاول رسم المسار التاريخى للذات الغربية . هذا التاريخ الذى أطلق عليه اسم **تاريخ الجنسانية** والذى ظهر جزءه الأول سنة ١٩٧٦ ، ولكن وكما قلنا فإن النقد والاعتراض الذى لقيه هذا العمل ، فرض على فوكو تعديل مشروعه ، وهو ما سنشير إليه فى حينه .

ولكن المؤكد هو أن تفكير فوكو حول الذات ، بدأ بهذا العمل المتمحور حول الجنس ، والعمل على إظهار كيف أن الذات لم تتوقف على طرح سؤال حقيقتها ، انطلاقا من الجنس ، وعليه ، نسأل لماذا يشكل الجنس موضوعا مركزيا لفهم الذات ؟ ولماذا هذا الاهتمام بالجنس ؟ هذا ما سنحاول مناقشته فى المحور الأول من هذا الفصل .

المحور الأول - خطاب الجنس :

أولا - فى مفهوم الجنس : نعنى بخطاب الجنس ، مفهوم الجنس وعلاقته بالذات والمعرفة والسلطة وكيفية تشكله فى خطاب .

إن اهتمام فوكو بالجنس ، يعود إلى **تاريخ الجنون** ، حيث تم وضع المجنون مع مختلف الفئات الاجتماعية وخاصة مع الشاذين جنسيا ، كما يكشف عن اهتمامه

---

(٦) Gille Deleuze **Dialogues** ed. Minuit 1970, p.116.

(٧) Michel Foucault, **Le Retour de La Morale,** In, **Les Nouvelles,** du 28 juin - 05 juillet 1984, p.41.

بالجنس ضمن مشاريعه المستقبلية فى إطار **أركيولوجيا المعرفة** ، قائلا : (غير أننى أتخيل بغبطة أركيولوجيات أخرى تسير فى اتجاهات مختلفة ، شريطة أن يمهد لذلك بعدد من التجارب والاختبارات وبمجالات كثيرة من حيث العدد ، لنوضح ذلك بمثال حول الوصف الأركيولوجي للجنس ، إنى على بينة منذ الآن كيف يمكننى توجيهه نحو الإبستيمية ، وذلك بإبراز الكيفية التى تكونت بها فى القرن التاسع عشر أشكال إبستيمولوجية كالبيولوجيا أو سيكولوجيا الجنس ، وبفضل أية قطيعة نشأ خطاب من طراز علمى مع فرويد .)(٨)

واضح أن الجنس كان أحد المشاريع الفكرية عند فوكو منذ الأركيولوجيا ، ولم يظهر فجأة فى منتصف السبعينيات ، كما يحاول بعض الدارسين إقناعنا بذلك ، وأكثر من هذا فإننا نجد الجنس حاضرا فى **نظام الخطاب** ، كموضوع للمنع ، ضمن الإجراءات الخارجية المتحكمة فى الخطاب ، يقول : (كنت آثرت من قبل دراسة ممكنة ، تلك التى تتعلق بضروب الحظر التى تضرب خطاب الجنس . ربما من العسير ومن باب التجريد ، أن نخوض غمار هذه الدراسة ، دون أن نحلل جملة الخطابات الأدبية والدينية والخلقية والبيولوجية والقانونية أيضا . أى كل مجال يبدو فيه الجنس مستقلا قائما سواء كان مسمى باسمه أو موضوعا أو خاضعا للتشبيه والاستعارة ، أو مشروعا أو محاكما .)(٩)

ويعتبر كتاب **إرادة المعرفة** من هذه الناحية تحقيق للمشروع أو للوعد ، ولكن وفى نفس الوقت ، تعديل للمنحى النظرى والعملى ، على السواء ، تحقيق من حيث مناقشة للجنس فى علاقته بالذات ، وتعديل من حيث ربطه بالسلطة والمعرفة والخطاب ، والمشكل الذى يجب مواجهته ليس كيف تشكلت المعرفة والسلطة والخطاب عن الجنس ، بل المهم هو كيف أصبح هذا الخطاب عن الجنس هو المكان الأساسى لمعرفة الذات ، وماهى مميزات أو خصائص هذا الخطاب ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ، تقتضى منا التعرض لبعض المناحى الأساسية فى **إرادة المعرفة** والنصوص التابعة لها .

يناقش فوكو ، فى البداية ، الفرضية القمعية ، ويشكك فى صدقها وفى جدواها ، كما سبق وأن تعرضنا لذلك ، فى خطاب السلطة ، ويقدم ثلاثة شكوك ، نظرية

(٨) ميشيل فوكو ، **أركيولوجيا المعرفة** ، ص. ١٨٤ .
(٩) ميشيل فوكو ، **نظام الخطاب** ، ص. ٢٨ .

وسياسية وتاريخية لتفنيدها ، كما يطرح بديلا لتجاوزها ضمن خطة نظرية مخالفة تطرح سؤالا مغايرا عن سؤال الفرضية القمعية .

هذا السؤال هو : (لماذا تكلم الناس عن الجنس ، وماذا قالوا عنه ؟ ماهى آثار السلطة المستقرأة فيما كان يقال عن الجنس ؟ ماهى الصفات التى كانت تربط هذه الخطابات بآثار السلطة ، وبالملذات التى كانت مستثمرة من قبل السلطة والخطابات ؟)[10]

معنى هذا ، التساؤل عن نظام السلطة - المعرفة - الرغبة ، وتشكلها فى خطاب . وهذا التساؤل يعكس ما ذهبنا إليه من عدم الفصل ، وخاصة الفصل بين النظرى والعملى ، وذلك لأنه إذا كان المقصود بالنظرى مفهوم الخطاب ، فإن هذا المفهوم ما فتئ يغتنى ويتطور ويتم إثراؤه وتعديله ، إما على مستوى المنهج مثلما هو الحال فى السلطة ، حيث تم تدعيمه بالجنيالوجيا ، أو على مستوى المميزات والخصائص ، حيث تم تعميق مفهوم الإستراتيجية ، وهو نفس الأمر الذى سنشير إليه فى مناقشتنا لعلاقة الذات بالخطاب والنواحى التى تمت إضافتها له .

فمفهوم الخطاب إذن ليس مفهوما ثابتا ولا قارا ، بل متحركا فى إطار شبكة المفاهيم ذات العلاقة الأساسية فى فلسفة فوكو ، وفى هذا السياق الذى نحاول رسم معالمه ، تطلب الأمر : (وضع الجنس فى خطاب .)[11]

والهدف لا يتمثل فى إظهار حقيقة الجنس ولا الكشف عن آثار القمع ، بل البحث فى مراتب الإنتاج الخطابى والسلطوى والمعرفى من الناحية التاريخية ، وعلى هذا الأساس فإن ما يسجله فوكو هو ، أن القرن السابع عشر عرف حظا وتكثيفا على الخطاب ، خطاب الجنس ، فكل شيء : (يحدث كما لو كان من الضرورى إنزاله إلى مستوى اللغة ، من أجل مراقبة التداول الحر به عبر الخطاب .)[12] فحول الجنس وعنه نجد (انفجار خطابى حقيقى .)[13] لقد رافق هذا التحريض الخطابى ، اهتمام السلطة بالجنس من خلال مؤسساتها ، هذا الاهتمام الذى يرجعه فوكو إلى اهتمام الكنيسة

---

(١٠) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ٣٤ .
(١١) نفس المصدر ، ص. ٣٤ .
(١٢) نفس المصدر ، ص. ٤٨ .
(١٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

بالجنس . يقول : (إن هذا المشروع فى تحويل الجنس إلى خطاب تكون منذ زمن بعيد ، فى إطار التقاليد النسكية والرهبانية .)[١٤]

وكانت الكنيسة تعمل على إدخال الجنس : (فى طاحونة الكلام التى لا حدود لها ، فمنع بعض كلمات والإلتزام بنظافة العبارات ، ممارسات رهبانية أساسا جعل منها القرن السابع عشر قاعدة مفروضة على الجميع .)[١٥]

وهذا ما جسده العصر الفيكتورى ، إذ لم يعد الجنس شأنا شخصيا ، بل أصبح من : (اختصاص السلطة العامة ، يستدعى إجراءات إدارية ، ويجب معالجته بخطابات تحليلية . فى القرن الثامن عشر أصبح شأنا من شؤون الشرطة .)[١٦]

ولكن هذا لايعنى الصرامة فى التحريم ، وإنما يعنى ضرورة تنظيم الجنس ، عبر خطابات مفيدة ، خاصة وأن هذا القرن عرف مشكلة السكان ، وضرورة تنظيمه من حيث الولادات والأمراض ومعدل الحياة ونسبة الوفيات والحالة الصحية ونوع التغذية والسكن ، فضمن هذا السياق الاقتصادى والسياسى للسكان ظهر الجنس .

وللمرة الأولى فى التاريخ الغربى ، كما يقول فوكو : (يؤكد مجتمع بشكل مستمر ، أن مستقبله وثروته مرتبطان ليس فقط بعدد مواطنيه وفضيلتهم ، ليس فقط بأنظمة زواجهم وتنظيم عائلتهم ، ولكن بالطريقة التى يمارس بها كل مواطن جنسه لأول مرة ، أى أخذ السلوك الجنسى للسكان كموضوع للتحليل وهدف للتدخل .)[١٧]

لقد أصبح الجنس مع نهاية القرن الثامن عشر ، موضوع رهان سياسى ، وظفته مختلف الخطابات والمعارف والسلط ، هذا ما حدث لجنس الطفل والشاب ، سواء داخل العائلة أو داخل مؤسسات التربية ، أو على مستوى البحث العلمى ، كظهور فروع علمية تهتم بالجنس ، مثل : أمراض الأعصاب ، الطب النفسى ، القضاء الجزائى .

هذه المعارف لم تتكاثر خارج السلطة ولا ضدها ، بل داخل السلطة رغم تكاثر وتنوع خطاباتها ، وهو ما أشرنا إليه فى خطاب السلطة . لقد حدث نوع من توضيع الجنس فى خطابات عقلانية معرفية أو سياسية سلطوية . لذا لا يمكن أن نتحدث فى نظر فوكو ، عن تطور خطاب أحادى حول الجنس ، هو الخطاب القمعى ، بل علينا أن

---

(١٤) نفس المصدر ، ص. ٤١ .

(١٥) نفس المصدر ، ص. ٤٢ .

(١٦) نفس المصدر ، ص. ٤٤ .

(١٧) نفس المصدر ، ص. ٤٥ .

نقرر أن هنالك : (تشتتا للمراكز التى تركن فيها هذه الخطابات ، وتنويعا لأشكالها ، وانتشارا معقدا للشبكة التى تربط فيما بينها .)(١٨)

ومن دون شك ، فإن هذه الفكرة تحقيق لمفهوم الخطاب ، القائم على التبعثر والتوزع ، أو على دراسة نظام تبعثره . على هذا الأساس النظرى والتاريخى ، يرفض فوكو المقاربة الفرويدية والماركسية والفرويدية الماركسية معا .

وفى سياق حديثه عن الجنس ، يميز بين فن شبقى "Erotique" ، خاص بالحضارة الشرقية وعلم للجنس "Sexologie" خاص بالحضارة الغربية . إن علم الجنس يقوم على مجمل الإجراءات السلطوية والمعرفية ، ويتعارض مع الفن الشبقى ، ويجد أصوله فى شكل الاعتراف الذى طورته المسيحية ، وذلك منذ إقرار سر التوبة سنة ١٢١٥ من قبل مجمع «لاتران Concile Du La train» .

إن للاعتراف ، تاريخ طويل فى الحضارة الغربية ، يبدأ مع اليونان ، وأسطورة «أوديب» مثال نموذجى ، لذا يقوم فوكو بتحليله وفق الطريقة الجنيالوجية والتأويلية للذات ، مستخرجا منه أشكال ممارسة الذات . ومن خلال الاعتراف والعودة إلى القانون اليونانى وأشكال فحص الضمير والتوبة والإقرار والاعتراف . ثم فى المرحلة المسيحية ؛ حيث تقوى مفعول الاعتراف وارتبط بالخطيئة وبممارسات الرهبنة والتوبة وبنوع من الفلسفة قائم على مفهوم معين للحقيقة هى حقيقة النفس .

كانت المسيحية قد طرحت هذا المفهوم للحقيقة ، والذى لا يمكن الوصول إليه إلا بمعرفة الذات ، وإماتة الجسد وطاعة القائد الروحى والاعتراف له ، والبوح له بكل شىء ، لذلك يقول فوكو أن معرفة الذات فى هذه المرحلة ، مقرونة بالكشف والبوح للآخر .(١٩)

وأصبح امتحان الضمير ، يتعلق أكثر فأكثر بالفكر منه بالسلوك ، وتوطدت صلته بالفلسفة أكثر من الدين ، وبفعل الكلام من أجل الوصول إلى الفكر أو إلى الوعى ، أو بما يسميه فوكو بالمكالمة أو المصارحة أو المجاهرة "Acte de verbalisation" وارتبط هذا بواجب قول الحقيقة عن النفس ، كوسيلة قتل شهوات الجسد والتعرف على النفس .

---

(١٨) نفس المصدر ، ص. ٥٢ .

(١٩) Michel Foucault, **Mal faire, Dire vrai Fonctions de l'Aveu en Justice**, In, **(D.201)**, p.173.

voir aussi - Jean Francois, **Aveu, Vérité, Justice et subjectivité, autour d'un enseignement de Michel Foucault, (D.202)**

وهكذا عملت المسيحية على إدخال مبدأ حقيقية الذات "Véridiction de soi" وشكلا من الذات ، سيكون موضوع استفهام دائم فى تاريخ الفكر الغربى .[٢٠]

ولدراسة تاريخ هذه الذات اقترح فوكو ما سماه بتأويلية الذات "Hermeneutique de soi" ذلك أن تاريخ الاعتراف يدخل فى إطار تاريخ الحقيقة وتاريخ الذات على السواء . وبهذا الطرح الإشكالى للذات ، يدخل الاعتراف كقطعة أساسية ، فى معرفة الذات وتاريخها سواء فى ميدان الدين أو الفلسفة أوالقضاء ، مثلما أشرنا إلى ذلك فى تحليلنا لمفهوم الفرد الخطير فى الفصل الثالث ، فالاعتراف ليس فقط بالجريمة ، وإنما الاعتراف بما هى حقيقة الذات ، هنالك حاجة لمحاكمة حقيقة المجرم ، أى حقيقة ذاته . يقول : (الاعتراف فى المحكمة ، ليس بالفعل وإنما الاعتراف بالفكر وبالتصور ، وبالصور والإرادة والرغبة معا .)[٢١]

ولكن الاعتراف كما هو معلوم كان مصحوبا بقطعة أخرى مكملة له ، ألا وهى التعذيب ، مثل ما هو الحال فى حالة «داميان» لذلك فالحقيقة ، حقيقة الذات ، مرتبطة ليس فقط بشكل الاعتراف ، وإنما كذلك بشكل السلطة الممارس عليها .

والاعتراف ليس فقط إقرار بل التزام ، من هنا فهو يشكل أحد «تكنولوجيات الذات» أى : (تلك التقنيات التى بواسطتها يستطيع الفرد بذاته أو بمساعدة غيره أن يغير ذاته وعلاقته مع الآخرين .)[٢٢] فالاعتراف بالحب مثلا ، هو بداية الحب بشكل جديد ، وإلا فالمسألة ليست أكثرمن مسألة إخبار أو إعلان ، والاعتراف بالجريمة هو الالتزام بالعقاب ، واعتراف المجنون بجنونه هو بداية العلاج ، لذا فإن الاعتراف أساسى لمعرفة الذات وتحديد العلاقة مع الآخر ، وهو فى حالة الجنس يقوم بنفس الوظيفة ، وظيفة المعرفة والتعرف على الذات ، سواء من طرف المصاب أو من طرف الطبيب ، كما هو الشأن فى التحليل النفسى .

على هذا الأساس من الفهم للاعتراف ، يخلص فوكو إلى القول : (ربما يكون وضع الجنس فى الخطاب الذى تحدثنا عنه أعلاه ، ونشر وتعزيز التنافر الجنسى (تنوع علاقاته وأشكاله) هما قطعتان من جاهزية واحدة . تتمفصلان فيها بفضل العامل

---

(٢٠) Michel Foucault, **Mal faire, Dire vrai Fonctions de l'Aveu en Justice,** p.174.

(٢١) Ibid, p.175.

(٢٢) Ibid p.181.

المركزى للاعتراف . يجبر المرء على التلفظ الكلامى بالمفردة الجنسية ، مهما ذهبت إلى أقصى مداها .)[٢٣]

إن الإعتراف بهذا المعنى ، يحقق جملة من العلاقات منها :

(أ) علاقة مع الذات ، حيث الإنسان المعترف هو موضوع الاعتراف .

(ب) علاقة مع الآخر ، حيث أن المعترف يعترف فى حضور الآخر .

(جـ) علاقة مع السلطة ، حيث أنها تطلب الاعتراف وتجبر على الاعتراف بواسطة التعذيب .

والمهم فى كل هذا هو أن : (الاعتراف كان ولا يزال حتى اليوم ، القالب العام الذى يحكم إنتاج الخطاب الصحيح حول الجنس .)[٢٤] سواء فى ممارسة التوبة أو فى التحليل النفسى ، وبواسطته تشكل أرشيف كبير للملذات الجنسية ، وذلك وفقا لإجراءات أهمها :

(أ) بواسطة الترميز العيادى لـ «انتزاع الكلام» . حيث دمج العلماء الاعتراف فى الفحص الطبى .

(ب) بواسطة مسلمة وجود سببية عامة ومنتشرة ، بحيث يجب قول كل شيء ، والسؤال عن كل شيء ، وذلك بسبب أن الجنس متمتع بقوة سببية متعددة الأشكال وثابتة فى نفس الوقت .

(جـ) بواسطة مبدأ الإستتار الباطنى للجنسانية ، وذلك لأن انتزاع حقيقة الجنس ، ليس فقط عملية صعبة ، ولكن لأن عمل الجنس غامض ولأن طاقته وكذلك آليته محتجبة .

(د) بواسطة طريقة التأويل ، وذلك لأن الاعتراف يحمل رموزا يجب فكها .

(هـ) بواسطة طبننة الاعتراف ، وذلك بصياغته فى عمليات علاجية .[٢٥]

إن هذه الإجراءات هى تكييف وتكثيف فى نفس الوقت للاعتراف من أجل إنتاج خطاب صحيح حول الجنس ، أو من أجل إقامة علم للجنس . مما سمح بظهور ما يسميه فوكو بالجنسانية ، أى الصياغة العلمية للجنس وما يكتنفها من جاهزيات المعرفة والسلطة .

---

(٢٣) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص. ٧٥ .

(٢٤) نفس المصد ر، ص. ٧٧ .

(٢٥) نفس المصدر ، ص ، ص. ٧٩ - ٨٠ .

بهذا الطرح يرفض فوكو فكرة الجنس المقموع ، أو العلاقة السلبية بين السلطة والرغبة ، ويعرض تصورا للعلاقة بين الرغبة والسلطة يتشكل من مجموعة من القواعد ، منها :

(أ) قاعدة المحايثة ، ومضمونها أنه إذا كانت الجنسانية قد تكونت كميدان مفتوح للمعرفة ، فذلك انطلاقا من علاقات سلطوية تأسست كموضوع ممكن .

(ب) قاعدة المتغيرات المتواصلة ، أى أن علاقات السلطة - المعرفة ، علاقات متحركة أو «قوالب تحولات» .

(جـ) قاعدة التحكم المطلق ، وتعنى أن أى مركز محلى يندرج ضمن إستراتيجية شاملة وعبر سلسلة ترابطات متتابعة .

(د) قاعدة التعدد التكتيكى للخطابات والتى سبق وأن أشرنا لها فى الفصل الثالث ، محور سلطة الخطاب . وتعنى هذه القاعدة ، كما يعرفها فوكو :

> (ففى الخطاب بالذات ، يحدث أن تتمفصل السلطة والمعرفة ... يجب أن لا نتخيل عالما للخطاب مقسما بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض ، أو بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه ، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل فى استراتيجيات مختلفة [وذلك] لأن الخطابات عناصر أو كتل تكتيكية فى حقل علاقات القوى . قد تكون هنالك أشكال متباينة منها وحتى متناقضة ، داخل الإستراتيجية الواحدة نفسها . وبالعكس يمكن أن تنتقل هذه الخطابات بين استراتيجيات متناقضة دون أن يتبدل شكلها .)[٢٦]

معنى هذا أن الخطاب ليس فقط موضوعا من الموضوعات ، كالمعرفة والسلطة والذات ، بل الحقل أو الميدان الذى منه تتمفصل المعارف والسلطات والذوات ، لذلك لايمكن أن نقول أن هنالك خطابات مقبولة وأخرى مرفوضة ، والسبب فى ذلك أن الخطابات تشكل عناصر تعمل فى استراتيجيات مختلفة ، تنقل المعارف والسلط والذات ، أو - فى سياق حديثنا هذا - معرفة حول الذات مجسدة فى خطاب الجنس ، أو مصاغة فى مفهوم الجنسانية ، والذى عرف أربع مجموعات استراتيجية كبرى ، هى :

(أ) هسترة جسد المرأة "Hesterisation du corp de la femme" .

(٢٦) ميشيل فوكو ، **إرادة المعرفة** ، ص ، ص. ١٠٦ - ١٠٨ .

(ب) تربنة جنس الطفل "Pedagogisation du sexe de l'enfant" .

(جـ) جمعنة التصرفات الإنجابية "Socialisation des conduites procréatrice" .

(د) الطبننة النفسية للذة المنحرفة "Psychiatrisation du plaisir pérvere" .[٢٧]

وبهذا تكون الجنسانية : (الاسم الذى يمكن أن نطلقه على جاهزية تاريخية : أنها ليست واقعا سفليا تمارس عليه تأثيرات صعبة ، بل شبكة سطحية كبيرة تترابط فيما بينها ، وفقا للإستراتيجيات المعرفية والسلطوية الكبرى ، العوامل التالية : تنشيط الأجسام ، تقوية الملذات ، الحث على الخطاب ، تكوين المعارف ، وتعزيز المراقبة والمقاومة .)[٢٨]

ثانيا - بين الجنس والجنسانية : لقد كانت الممارسات التاريخية من مثل التوبة وفحص الضمير والاعتراف ، النواة الأولى لمثل هذه الجاهزية . لذلك يقوم فوكو بعملية القلب للعلاقة بين الجنس والجنسانية ، ويرى أن الجنسانية هى التى أوجدت الجنس وليس العكس ، وهذا القلب ترتب عنه جملة من النتائج منها :

(أ) لا يمكن فصل الجنس عن مفهوم الذات وتشكلها وحقيقتها . والسبب فى ذلك أننا : (نطلب من الجنس أن يقول لنا حقيقتنا ، أو بالأحرى نطلب إليه أن يقول لنا حقيقة ذواتنا ، المخفية تماما والتى نعتقد أننا نمتلكها كشعور مباشر .)[٢٩] لماذا ؟ لأن الجنس هو الذى يشكل سر ذواتنا لا وعينا أو لاشعورنا ، والذى يشكل ماهيتنا .

(ب) هذه الفكرة يناقشها فوكو من الناحية التاريخية الجنيالوجية ، لذلك لا يسأل عن الجنس - الطبيعة ، أو الجنس - الفعل ، وإنما يتساءل عن : (الجنس - التاريخ ، أو الجنس - المعنى ، أو الجنس الخطاب .)[٣٠] أى أنه يتساءل عن كيفية تشكل الجنس فى خطاب ما ، وعبر أية آليات معرفية وسلطوية ؟

(جـ) لقد كان أول عنصر ضمن تلك الآلية المشكلة لخطاب الجنس هو الاعتراف ، بكل أشكاله وعبر مراحله التاريخية ، فبواسطته نتعرف على الذات ، ونشكل خطابا عن الذات ، ونقيم معرفة عن الذات ، وتتأسس علاقات سلطوية حول الذات .

---

(٢٧) Michel Foucault, **La volanté de Savoir,** p,p.37-138

(٢٨) نفس المصدر ، ص. ١١٣ .

(٢٩) نفس المصد ر، ص. ٨٢ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص. ٨٩ .

(د) إذا كان الاعتراف عنصرا أساسيا فى تشكل خطاب الجنس ، فإن هذا الخطاب الجنسى لا يمكن فهمه ، دون التمييز بين مفهومى الجنس والجنسانية .
لا يهتم فوكو بالجنس كطبيعة ولا كفعل ، وإنما بالجنسانية لماذا ؟ لأن الجنسانية كانت دائما موضوع معرفة فى الغرب ، سمحت بتشكيل خطاب عن الجنس قابل للتحليل والمراقبة والضبط .[(٣١)]

بمعنى أن فوكو لا يناقش السلوك الجنسى فى ذاته ، أو الطابع البيولوجى للجنس ، وإنما «الجنس والبحث عن الحقيقة» ، فعلم النفس مثلا أو التحليل النفسى أو الرأى العام كلها تؤكد أنه ومن خلال الجنس يمكن الكشف عن الحقيقة السرية والعميقة للفرد .

وبهذا المعنى قرأ فوكو وثيقة «إلكسين باربين Alescine Barbin» ، وثيقة تتحدث عن فتاة عاشت فى وسط أنثوى ، واعتبرت ولدا بعد أن تم تغيير جنسها وقانون حالتها المدنية ، إلا أنها لم تستطع التكيف مع هذه الوضعية الجنسية الجديدة ، فانتحرت . ثم أصبحت قضية من قضايا العدالة ، وهى حكاية من بين الحكايات الكثيرة التى اهتم بها فوكو والتى لها علاقة ودلالة وأثر من حيث التاريخ .

فالحدث يعود إلى سنوات ١٨٦٠ - ١٨٧٠ ، وهى السنوات التى تمت فيها مناقشة الهوية الجنسية بكثافة ، ووفقا لتصنيفات مختلفة ، وطبقا لألعاب الحقيقة المختلفة ، والتى فرضها الأطباء على تشريحية غير مؤكدة كما يقول فوكو .[(٣٢)]

هذا المثال ، لا يعكس فقط علاقات السلطة - المعرفة من خلال سلطة العائلة والأطباء ، ولكن يعكس الاهتمام بمعرفة الذات بالاعتماد على الجنس ، ليس الجنس - الطبيعة وإنما الجنس - المعرفة أو الجنس فى الخطاب .

وعلى هذا الأساس يرى فوكو أن الجنس لايشكل مرجعا بيولوجيا ولا جوهرا خفيا محددا ، بقدر ماهو عنصر تاريخى فى جاهزية كاملة هى الجنسانية ، التى تعتبر موضوع بحث علمى ورقابة إدارية واهتمام اجتماعى وعنصرا أساسيا لمعرفة صحة الفرد ومرضه وشخصيته ، وهى مرتبطة ارتباطا وثيقا ببروز استراتيجيات سلطوية ، وظفت الفرد والجماعة فى السلطة الحيوية ، وأفرزت أحد التكنولوجيات الأساسية للذات ، وهى الاعتراف ، سواء كمعرفة أو كوسيلة للانضباط عندما يرتبط بالتعذيب .

---

(٣١) Michel Foucault, **Dits et Ecrits,** Tome, 4, p.381.

(٣٢) Michel Foucault, Le **Vrai Sexe,** In **(D.118a),** p,p.620-621.

ومنذ القرن الثامن عشر ، أصبحت الحياة الجنسية موضوع خطاب مستثمر ومرتبط بخطابات السلطة وممارساتها ، وأصبح الجنس شأن من شؤون الشرطة وعلم الديموغرافيا وإدارة السكان .(٣٣)

ومع حلول القرن التاسع عشر ، تمت صياغة الجنس فى خطابات ومنطوقات طبية ونفسية . لذلك يقول فوكو لمحاوريه «دريفوس ورابينوف» : (إننا نعرف الجنسانية منذ القرن الثامن عشر ، والجنس منذ القرن التاسع عشر ، قبل ذلك عرفنا دون شك الشهوة .)(٣٤)

وعلى هذا الأساس التاريخى ، تكون الجنسانية بما هى جاهزية سلطوية ومعرفية ، سابقة عن الجنس ، والجنس قطعة أساسية فى معرفة الذات . ولا يمكن إقامة تعارض بين الجنس والجنسانية ، وذلك لأن مثل هذا التعارض سيحيل ، فى نظر فوكو، إلى تحليل للسلطة قائم على القانون والمنع ، وهو التحليل الذى لا يوافق عليه ، لذلك قام بعملية القلب ، التى سبق وأن أشرنا إليها .

هذه العملية تجعل من الجنس عنصرا من الجنسانية وتؤدى فى النهاية لا إلى فكرة الجنس المقموع ، كما هو الحال فى الفرويدية والفرويدية الماركسية ، ولكن إلى فكرة جديدة يسميها فوكو بالاقتصاد الوضعى للجسد والرغبة . أى إدخال الجنس ضمن سياقات تاريخية ومعرفية وسلطوية ، واستبعاد فكرة الجوهر والسر ، وهذا بواسطة مفهوم الجنسانية باعتبارها جاهزية تاريخية .(٣٥)

إن هذا المفهوم الجديد الذى يطبع التحليلات التاريخية للجنس ، ويجمع المعرفة فى صورة علم الجنس ، والسلطة فى صورة سلطة الجنس وإدارة السكان ، والخطاب فى صورة الاعتراف هو فى نظرنا ، تعبير عن مختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية .

فهل يمكن القول أن الذات ، حصيلة هذه الممارسات ؟ لنؤجل الإجابة عن هذا السؤال لخاتمة الفصل ، ونؤكد الآن على فكرة أساسية وهى أن مفهوم الجنسانية كمفهوم مركزى فى خطاب الجنس ، يعتبر حلقة أساسية فى تشكل الذات الغربية ، تتبعها حلقة أخرى ، متعلقة بأحد أبعاد الجنس ، وتدخل ضمن سياق مشروع الجنسانية بعد تعديله ، فماهو هذا البعد وماهى هذه الحلقة المشكلة للذات الغربية ؟

---

(٣٣) Michel Foucault, **Le désordre des familles**, ed. Gallimard, Paris, 1982 **(Présentation)**.

(٣٤) دريفوس ورابينوف، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٥١ .

(٣٥) Foucault Michel, **Politique de L'Habitat**, In, **(D.309)**, p.06.

المحور الثاني - خطاب الأخلاق :

أولا - في الأخلاق : إن التعديل الذى سبق وأن أشرنا إليه ، يتناول البعد الأخلاقى للجنس وكذلك المرحلة التاريخية المدروسة التى تمتد إلى الفترة اليونانية ، والتساؤل عن الكيفية التى صار بها النشاط الجنسى مسألة أخلاقية ، وذلك عبر تقنيات الذات التى تسمح بالسيطرة على اللذات والرغبات .(٣٦)

ومادة التساؤل هى جملة النصوص الفلسفية والطبية لـ «أفلاطون» و «أرسطو» و «سيناك» و «إبيكتات» ، وغيرهم ... وكان السؤال المركزى الذى يتحكم فى قراءة هذه النصوص هو : (لماذا السلوك الجنسى ، لماذا الفعاليات واللذات الناجمة عنه ، تكون موضوع اهتمام أخلاقى ؟ لماذا هذا الاهتمام الأخلاقى فى بعض المراحل على الأقل ، أو بعض المجتمعات أو بعض الجماعات ، يبدو أنه أكثر أهمية من الانتباه الأخلاقى الذى يحمل على مجالات أخلاقية ، بالرغم من كونها أساسية فى الحياة الفردية أوالجماعية ، من مثل التصرفات الغذائية أو إنجاز الواجبات المدنية .)(٣٧)

لا يمكن الجواب على هذا السؤال فى ظل نظام المنع والتحريم ، بل فى ما يسميه فوكو بنظام فنون العيش وتقنيات الذات ، التى تمارس بها اللذات ، والتى انتشرت فى المرحلة اليونانية وفى القرنين الأولين للميلاد .

والموضوعات الأساسية المشكلة لهذا الفكر الأخلاقى تنقسم إلى أربعة موضوعات ، تتعلق بالجسد والزواج والغلمان والحب أو الحكمة . يقول فوكو : (يجب أن ندرك بأنه قد تكون باكرا جدا ، فى التفكير الأخلاقى للعصور القديمة ، مبحث - (مبحث رباعي) - الأول خاص بالتزهد الجنسى حول الحياة الجسدية وبصددها ، والثانى حول مؤسسة الزواج ، والثالث حول العلاقة بين الرجال ، والرابع حول وجود الحكمة .)(٣٨)

فماهو إذن ، مضمون هذه الموضوعات الأخلاقية وماهى علاقتها بالجنس وتشكيل الذات وبماذا تتميز كخطاب أخلاقى ؟

---

(٣٦) ميشيل فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ترجمة ، جورج أبي صالح ، مراجعة ، مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومى .بيروت ، ١٩٩١ ، ص. ١٢ . ينظر كذلك النص الاصلى :

L'usage des L'usage des Plaisires, Tome 2, ed, Gallimard, 1984, p. 18.

(٣٧) نفس المصدر ، ص. ١١ .

(٣٨) نفس المصدر ، ص. ١٩ .

يشير فوكو منذ بداية التحليل ، إلى صعوبة إيجاد مفهوم مماثل للجنسانية عند اليونانيين واللاتينيين على السواء ، وإن كانوا يملكون كلمات متعددة للتدليل على مختلف التصرفات الجنسية.

ولعل المفردة التى تندرج ضمنها جميع هذه التصرفات هى مفردة «الأفروديزيات Aphrodisia» ، والتى نجد مقابلها فى الفرنسية بـ «لذات الحب Plaisirs de l'Amour» ونظرا للصعوبة المفهومية فى مطابقة كلمة الجنسانية لمختلف التصرفات الجنسية اليونانية و الرومانية ، استعمل فوكو كلمة الأفروديزات والتى تضمن الموضوعات الأخلاقية الأربعة المشار إليها سابقا مع إظهار السمات العامة لها .

فى نظر فوكو ، سواء تعلق الأمر بالتسهيل أو بالتشديد ، بالتحريم أو بالتسامح ، فى التصرفات الجنسية ، فإن المفكرين والفلاسفة والأطباء كانوا : (يقرون بوجود مشكلة أخلاقية فى كيفية ممارسة هذا النوع من اللذة .)[٣٩]

وكانت نصوص «زينون» و«أرسطو» و«مارك أورال» وغيرهم تؤكد ذلك ، إلا أن ما كان يهم فوكو من هذه النصوص ليس سياقها المذهبى ولا معناها التفاضلى ، ولكن : (حقل الطرح المسألي "Champ de problématisation" الذى كان مشتركا بينها والذى جعلها كلها ممكنة .)[٤٠]

إن مفهوم المسألية أو المشكلية "Problématisation" مفهوم مركزى فى التحليلات الأخيرة لميشال فوكو ، ويعادل فى أهميته مفهوم الإبستيمية أو مفهوم السلطة الحيوية أو مفهوم الجنسانية ، وسوف نتوقف عند أهم خصائصه وعلاقته بالخطاب بعد أن نستعرض الأفكار الأخلاقية التى يحللها فوكو بواسطة هذا المفهوم والذى يتحكم فى مختلف مواضيع الأفروديزات . فماذا تعنى هذه الأفروديزيات ؟

الأفروديزيات نسبة إلى «أفروديت» إله الحب والجمال ، وفى تحديده لهذه الكلمة يعود فوكو إلى مؤلف «سودا Sauda» وفيه لا نقف على قائمة الممنوعات والمسموحات كما هو الشأن فى المسيحية ، بقدر ما نقف على صياغة عامة للممارسة الجنسية ، تتناول العمر الذى يستحسن فيه الزواج وإنجاب الأولاد والوقت الذى يجب أن تمارس فيه العلاقة الجنسية . تتميز الأفروديزيات بكونها جملة أفعال وحركات

---

(٣٩) نفس المصدر ، ص. ٣٠ .

(٤٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة . أو .

- Michel Foucault, **L'Usage des plaisirs**, ed.Gallimard, Paris, 1984, p.44.

تسبب نوعا معينا من اللذة . وهذا من جهتين، جهة الكم ودرجة النشاط الذى يعبر عنها عدد الأفعال وتواترها ، وقوة الممارسة التى بها يتحدد الاعتدال والتطرف ، وجهة الدور الفاعل حيث تنقسم العلاقة الجنسية إلى فاعل هو الرجل ومنفعل هى المرأة أو الغلام .

إن النشاط الجنسى بالرغم من كونه موضوع مفاضلة وتقدير أخلاقى ، إلا أن هذا لا يعنى أنه شر أو يحمل علامة انحطاط ، بل يعتبر طبيعى لأنه يخص استمرار النوع البشرى بواسطة التناسل ، وإذا تم تقديره أخلاقيا فهذا يعود إلى نوع الممارسة وطريقة الاستعمال ، وإلى كونه لذة تميل إلى الإفراط .(٤١)

على هذا الأساس من الفهم للنشاط الجنسى فى اليونان ، كان تساؤلهم وتفكيرهم يدور حول الاستعمال ، أو كيف ينال المرء لذته بشكل لائق ؟ وبالطبع فإننا لانجد فى «أثينا» قانونا منظما للعلاقة الجنسية ، ولكننا نجد شروطا للاستعمال ، وهو ما يسمونه بـ «استعمال اللذات Chresis Aphrodision» أى وقت الاستعمال والعمر ، وليس تحديد الممنوع والمسموح ، بل تعيين شروط الاحتراس ومراعاة الحاجة وضرورتها والمناسبة وزمنها وظرفها ، ووضع الفرد نفسه .

من هذا التفكير حول الاستعمال يستنتج فوكو ثلاث إستراتيجيات ، هى :

(أ) إستراتيجية الحاجة وتعنى تجنب الشراهة وضرورة الاعتدال .

(ب) إستراتيجية تحديد الوقت المناسب ، فاللذة وأخلاقها يتطلبان فنا من فنون الوقت .

(جـ) إستراتيجية وضع الشخص المستعمل للذة .

يعنى هذا أن أخلاق الجنس ، جزء من نمط العيش قائم على مبدأ الاعتدال . والنتيجة المترتبة عن ذلك ، أن الفرد لا يتحدد كذات أخلاقية بتعميم قاعدة فعله ، وإنما : (على العكس بموقف وببحث يفردنان فعله ، ويعدلانه ، ويستطيعان حتى أن يضفيا عليه روعة فريدة من خلال البنية العقلانية والرزينة المنسوبة إليه .)(٤٢)

يضاف إلى قيمة الاعتدال ، قيمة أخرى هى قيمة ضبط النفس ، وهى قيمة قريبة من الاعتدال ، ولذا تستعملان غالبا بشكل تناوبى ، هذا ما نقرؤه مثلا عند «أفلاطون»

---

(٤١) ميشيل فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ص. ٣٨ .

(٤٢) نفس المصدر ، ص. ٤٥ .

فى «الجمهورية» ، حيث يقول : (الاعتدال هو نوع من الإمرة والسيطرة على بعض اللذات والرغبات .)[٤٣]

إلا أن هنالك فروقات بين اللفظين ، نجدها عند «أرسطو» مثلا ، ولكن إجمالا يمكن القول أن ضبط النفس شرط للاعتدال ، الذى يتميز بـ :

(أ) السيطرة على النفس تنطوى على علاقة صراعية ، تقتضى الكفاح ضد الرغبة واللذة ، وضرورة الانتصار عليهما بواسطة العقل .

(ب) العلاقة القتالية مع أعداء معينين ، وخاصة مع النفس التى هى جزء من الذات .

(جـ) يلزم عن هذا الموقف الانتصار على النفس ، بمعنى السيطرة عليها .

(د) يجب أن تخضع ملكة الاشتهاء لأوامر العقل .

(هـ) لا يتحقق هذا الهدف دون تدريب وتمرين . يقول «ديوجان» : (لا يسعنا أن نفعل شيئا فى الحياة بدون تدريب ، والتدريب يسمح للناس بالتغلب على شيء ... بإهمالنا الآلام التافهة التى نسببها لأنفسنا وبتدربنا وفقا للطبيعة ، يمكننا وينبغى علينا أن نعيش سعداء .)[٤٤]

ومن بين تلك التدريبات التى يدعو إليها الفلاسفة والأخلاقيون عموما ، ضرورة التأمل فى الأخطاء ، والسيطرة على النفس والتحكم فيها بقدر التحكم فى الآخرين . يتعين على المرء : (أن يحكم نفسه بنفسه مثلما يحكم بيته ومثلما يلعب دوره فى المدينة ، فإنه ينتج عن ذلك أن تكوين الفضائل الشخصية وضبط النفس بوجه خاص ، لا يختلف عن التدريب الذى يسمح له بالسيطرة على بقية المواطنين وقيادتهم .)[٤٥]

إن ضبط النفس يمنح الفضيلة والسلطة ويوجه النفس ويدير المنزل ويحكم المدينة ويحقق الحرية والفضيلة . لذا فإن : (الاعتدال أو الحالة التى ننزع إلى بلوغها بضبط النفس والتحفظ فى ممارسة اللذات ، موصوف كحرية .)[٤٦]

والحرية المقصودة هى بطبيعة الحال ، حرية المواطنين وحرية المواطن مع نفسه . وأن يكون الفرد حرا تجاه اللذات ، يعنى أن لا يكون عبدا لها أو فى خدمتها ، لذا فإن

(٤٣) نفس المصدر ، ص. ٤٦ .

(٤٤) ميشيل فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ص، ص. ٥١ – ٥٢ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص. ٥٤ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص. ٥٥ .

الحرية : (سلطة يمارسها المرء على نفسه ضمن السلطة التى يمارسها على الآخرين .)(٤٧) والطاغى بهذا المعنى ، هو العاجز عن كبح أهوائه ، أما القائد فهوالذى يمارس سيادته على نفسه وعلى غيره . يستنتج من هذا أن للاعتدال طابعا رجوليا ، (فكما أن الرجل هو الذى يأمر فى البيت ، وكما أنه من شأن الرجال والرجال وحدهم ، لا العبيد ولا الأولاد ولا النساء ، أن يمارسوا السلطة فى المدينة ، كذلك يتعين على كل امرئ أن يظهر لنفسه مزاياه الرجولية .)(٤٨)

وعلى أساس هذه الأخلاقية الرجولية تتأسس الذات الأخلاقية على قيمة الرجولة ، سواء فى علاقة الإنسان بذاته ، أو فى علاقته بغيره ، أى أن هنالك رجولة أخلاقية واجتماعية وجنسية . كما ترتبط هذه الحرية - السلطة بالحقيقة : (فكبح اللذات وإخضاعها للعقل "Logos" ليس سوى شيء واحد : فالمعتدل ، يقول أرسطو ، لا يرغب إلا بما يقضى به العقل السليم .)(٤٩)

فلا يمكن ممارسة الاعتدال أو ضبط النفس دون معرفة ، فالذات الأخلاقية مشروطة بالذات العارفة وعلاقة الأخلاق بالمعرفة لا تؤدى ، كما يشير إلى ذلك فوكو ، إلى تأويل للرغبة ، كما هو الأمر فى المسيحية ولكن إلى شيء مخالف يسميه بجمالية الوجود .

ويفهم من جماليات الوجود : (نمط عيش لا تتوقف قيمته الأخلاقية على تقيده بقانون سلوكى ، ولا على عمل تطهيرى ، إنما على بعض الأشكال ، أو بالأحرى بعض المبادئ الشكلية العامة فى استعمال اللذات ، فى التوزيع الحاصل لها ، فى المراعاة وفى الترتيب المحترم ، بواسطة العقل والعلاقة مع الحقيقة التى توجهه ، تندرج مثل هذه الحياة فى الحفاظ على نظام أنطولوجى معين أو إعادة إنتاجه وهى تستمد من جهة أخرى روعة جمال ظاهر لأعين الذين يستطيعون التأمل فيها أوالاحتفاظ بذكراها .)(٥٠)

جمالية الوجود ليست شريعة مرسومة ولا سنة ثابتة ، وإنما طريقة فى العيش وفى استعمال اللذات وتوزيعها وترتيبها ، بما يقتضيه العقل السليم حسب عبارة «أرسطو» . لذا فإن فن أو جمالية الوجود بقدر ما يرتبط بالأخلاق والجمال ، وهو ما سنوضحه فى المحور الثالث من هذا الفصل ، بقدر ما يرتبط بالحقيقة والمعرفة ، ليس فقط حقيقة

---

(٤٧) نفس المصدر ، ص. ٥٦ .

(٤٨) فوكو ميشال ، **استعمال اللذات** ، ص. ٥٧ .

(٤٩) نفس المصدر ، ص. ٥٩ .

(٥٠) نفس المصدر ، ص. ٦١ .

النفس ومعرفتها ، بل حقيقة العالم ومعرفته . وهذا يؤدى فى نظر فوكو إلى نتيجة أساسية فى الفكر الأخلاقى اليونانى ، وهى أنه فكر قائم على أسلبة أو تنميط "Stylisation" السلوك ، أو على فن فى التصرف أو على جمالية فى الوجود ، وليس على نوع من الفردانية كما هو شائع عن هذا الفكر ، أو على تأويل للذات كما تذهب إلى ذلك المسيحية . هذه الأسلبة أو التنميط التى يخلص إليها فوكو، تتجسد فى ممارسات أساسية هى :

ثانيا - نظام الحمية : La Déité التفكير الأخلاقى اليونانى فى نظر فوكو ، لم يحاول أن يبرر المحظورات أو الممنوعات ، بل كان مقصده تنميط الحرية التى يمارسها الرجل ، باعتباره مواطنا . ولعل من مفارقات هذا التفكير أنه أقر العلاقة بين الرجل والغلام ، ولكنه ابتكر وفى نفس الوقت ، أخلاقا للامتناع عن هذه الممارسة ، ونفس الشيء يقال عن الزواج ، إذ سمح للزوج أن يسعى وراء لذاته الجنسية خارج الزواج ، ولكنه أقر فى الوقت نفسه ، بعض أخطار هذه الممارسة ، لذلك نجد الفكر الطبى خصوصا ، يتساءل عن مخاطر الممارسة الجنسية ، وعلاقة الجنس بالصحة .

لقد ركز الطب اليونانى على مظاهر الصحة والمرض فى النشاط الجنسى ، وكان : (الهم الأكبر لهذا التفكير هو تحديد استعمال اللذات - شروطه الملائمة ، ممارسته المفيدة ، وتخفيفه الضرورى - تبعا لنوع من الاهتمام بالجسد .)[٥١] وطبيعة هذا الاهتمام طبيعة حميية ، وليست علاجية ، أى أن الجنس يدخل ضمن النظام العام لصحة الجسد والتغذية ، وهو ما نجده عند «أبو قراط» و«أفلاطون» من تأكيد على أن النظام الغذائى هو الذى يميز نمط عيشنا ويفصلنا عن الحيوانية ، وبواسطته تقل أوتكثر الوفيات .

ويرى بعضهم أن الطب ذاته نتيجة من نتائج الاهتمام بالنظام الغذائى ، وإن كان «أفلاطون» لايساير هذه الفكرة ، إذ أن الطب هو الذى يحدد النظام الغذائى الملائم ، والمؤكد هو أن الحمية : (مقولة أساسية يمكننا من خلالها التفكير فى السلوك الإنسانى ، فهى تميز نمط المعيشة التى نعيشها ، وتسمح بتحديد مجموعة قواعد السلوك ، إنها شكل من أشكال طرح مسألية السلوك ، يتم تبعا لطبيعة يقتضى الحفاظ عليها والخضوع لها . الحمية هى فن عيش بكامله .)[٥٢]

---

(٥١) نفس المصدر ، ص. ٧٣ .

(٥٢) نفس المصدر، ص. ٧٥ .

وتقوم الحمية أو النظام الغذائى والصحى عموما على مجموعة من القواعد ، تتناول التدريبات ، الأغذية ، المشروبات ، النوم ، العلاقات الجنسية ، وعلى معيار أساسى هو الاعتدال ، وعلى مبدأ جمالية الوجود ، حيث يكون التوازن الجسدى ، شرط أساسى له . وكذلك على جملة من التقنيات لا تشكل نموذجا عاما ، وإنما على الفرد أن يعتمد عليها ، من أجل أن يمارس الحمية ممارسة معتدلة وعاقلة لنفسه وجسده . ويعتبر النشاط الجنسى جزء أساسى من هذا النظام ، سواء فى توزيع الوقت أو فى طبيعة الغذاء ، إلا أن ما يلاحظه فوكو ، هو أن مجال الجنس فى نظام الحمية يعتبر مجالا ضيقا مقارنة بالغذاء ، وأن المجال المخصص للجنس يتعلق بالكم والظروف فقط .

أما العلاقات الجنسية فى ذاتها فليست موضوع تفكير أو إدانة ، والمسألة مسألة استعمال فقط ، وفقا لحالة الجسد والظروف الخارجية وإن كان هنالك قلق فى ما يتعلق بانعكاسات الاتصال الجنسى على جسد الفرد والاهتمام بالنسل والإنجاب ، ويتمثل خاصة فى : (شكل الفعل عينه، الكلفة التى يسببها والموت الذى يرتبط به .)(٥٣)

يرى «أبوقراط» على سبيل المثال ، أن الفعل الجنسى يحمل العنف فى ذاته ، كما يصحبه صرع فى تحقيقه ، وطاقة قادرة على فعل الحياة ، ولذا فهو يستهلك طاقة يحتاجها وجود الفرد كاملا ، من هنا تلك العلاقة التى يقيمها الفكر الطبى والفلسفى على السواء ، بين استهلاك الطاقة الجنسية والموت ، من خلال الاستهلاك المفرط ، أو بين الطاقة الجنسية والحياة من خلال التناسل والإنجاب ، وعليه ، فإنه ترتبط بالفعل الجنسى نتائج وجودية ويندرج فى : (الأفق الواسع للحياة والموت والزمن والصيرورة والخلود ، وقد بات [هذا النشاط] ضرورى لأن الفرد صائر إلى الموت، ولكى ينجو من هذا الموت بشكل من الأشكال .)(٥٤)

تتصل هذه النتيجة الوجودية بنتيجة أخلاقية ، مفادها أن الجنس وبالتدقيق الفعل الجنسى ، لا يعتبر شر فى ذاته وإنما يشكل تهديدا لعلاقة الفرد مع نفسه ، وتكونه كذات أخلاقية . وإذا لم يكن الفعل ممارس بشكل معتدل وموزع بطريقة سليمة فإن نتائجه سلبية على وجود الإنسان . ورغم هذا فإن الفكر الأخلاقى اليونانى لم يحاول تأطير الفعل الجنسى ، وإنما أرسى تقنية عيش ، تقنية تقوم على الاعتدال والسيادة وضبط النفس .

---

(٥٣) ميشيل فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ص. ٩٠ .

(٥٤) نفس المصدر ، ص. ٩٥ .

ثالثا - نظام الزواج : Le Mariage يتساءل فوكو عن الشكل الذى جعل من العلاقة الزوجية موضوع تساؤل أخلاقى فى الفكر اليونانى ، وعن سبب الاهتمام بهذه العلاقة ، وخاصة سلوك الزوج وضرورة اعتداله وجعل الاعتدال موضوع اهتمام أخلاقى فى المجتمع الأثينى المتميز بهيمنة الرجال الأحرار . ففى الظاهر ليس هنالك من سبب ، وخاصة إذا اعتمدنا الصيغة المشهورة : (لدينا المومسات للذة ، والخليلات للاهتمامات اليومية ، والزوجات ليكون لنا خلف شرعى وحارسات أمينات للأسرة .)[٥٥]

وواضح أن الصيغة تحصر الزواج فى الإنجاب وتبيح اللذة خارجه.ولذا فمن الطبيعى أن يكون التركيز الطبى والفلسفى ، محصورا حول الإنجاب والعقم ، وكيفية الحصول على أطفال أسوياء وعلى الأبناء وليس البنات ، وعن أفضل توافق بين الزوجين ، وكيف يكون الخلف الشرعى مواطنا فى المدينة .

ومن المفارقات أن النشاط الجنسى للزوجة يخضع طبقا للقانون اليونانى للزوج فقط ، وعليها أن تنجب الخلف الشرعى ، وفى حالة الزنا تتعرض للعقوبة ، أما الزوج فملزم فقط ببعض الواجبات ، ذلك أن زواجه لا يقيده من الناحية الجنسية ، لذا فإنه لا محل للحديث فى اليونان عن الإخلاص المتبادل ، الذى ستقره بعد ذلك المسيحية .

إلا أن فوكو كمؤرخ مخالف ، يحاول جاهدا أن يبين ان الأمور ليست تماما كما يرسمها المؤرخون والكتاب ، ولذا يسعى إلى الوقوف على مشاعر الغيرة عند المرأة ، وما ينتظره الناس والأقارب من تحول فى سلوك الرجل بعد الزواج ، والميل إلى الزهد فى الملذات ، ويستفيد فى هذا السياق من رأى «أرسطو» القائل بأن علاقة الزوج بامرأة أخرى عمل شائن ، وأنه من الضرورى أن يخضع سلوك الزوج للاعتدال .

رابعا - الشبقى : Erotique من حق اليونانى أن يكون له غلام أو فتى ، فحب الغلام وإن كان ليس مباحا قانونيا ، إلا أنه مقبول من طرف الرأى العام ، ولقى مساندة ، من طرف بعض المؤسسات ، كالمؤسسة العسكرية والتربوية ، كما لها بعض الضمانات الدينية ، إلا أن ما يتساءل عنه فوكو هو القلق المصاحب لهذه الممارسة ، رغم التسامح الذى يطبعها ، والمسألة الأخلاقية التى تطرحها . لذا فإنها تتطلب إستراتيجية دقيقة ، خاصة وأن المجتمع ، مجتمع رجالى ، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار

---

(٥٥) نفس المصدر ، ص. ١٠٥ .

حرية الآخر ، الغلام - إذ الغلام من الممكن أن يكون مواطنا - مع التسليم في قدرته على الرفض والقبول والتى تشكل أمرا ضروريا .(٥٦)

إن هذه العلاقة طرحت على الفكر الفلسفي اليوناني ، مسألة حقيقة الحب . فعلى عكس الزواج ، الذى تنحصر مهمته فى الإنجاب ، فإن الممارسة الجنسية مع الغلام ، تطرح مشكلة الحب المتبادل . كما تطرح مشكلة أخرى ، هى المكانة الاجتماعية للغلام ، أو ما اصطلح عليه ، بشرف الغلام ، وذلك لأن النشاط الجنسى يقوم أساسا على الفعل السيطرة والولوج ، وبالتالى على ممارسة التفوق ، وموقف الغلام - الغلام الكريم النسب - يكون صعبا ضمن منظومة قيم مماثلة .

هنالك ، ما يسميه فوكو، بـ «تناقض الغلام» فى الأخلاق اليونانية ، ويتمثل هذا خاصة فى : (العلاقة التى عليه أن يقيمها مع نفسه كى يصبح رجلا حرا، سيد نفسه وقادرا على التغلب على الآخرين ، لا يمكن أن تتوافق مع نوع من العلاقات يكون فيه موضوع لذة للغير .)(٥٧)

والمخرج الوحيد ، فى نظر فوكو ، لهذه المشكلية الأخلاقية ، هو : الصداقة ، والحب . يقول فوكو : (لا يمكن أن يكون حب الغلمان ، مشرفا أخلاقيا إلا إذا اشتمل (...) على العناصر التى تشكل أسس تحول هذا الحب إلى علاقة نهائية واجتماعية ، هى علاقة الصداقة .)(٥٨)

ومن الصداقة يبدأ التفكير السقراطى والأفلاطونى حول حقيقة الحب .

خامسا - الحب والحقيقة : وبعد التفكير فى الجسد والصحة والزواج والعلاقة مع المرأة ، والغلام وحريته ورجولته ، تأتى الموضوعة الرابعة من المسألية الأخلاقية اليونانية المتعلقة بالحب والحقيقة ، وذلك فى صيغة العلاقة بين استعمال اللذات والوصول إلى الحقيقة ، عن طريق التساؤل حول ما يجب أن يكون عليه الحب الحقيقى .

يرصد فوكو مجموعة من الانتقالات منها :

(أ) انتقال من مسألة السلوك العشقى إلى التساؤل حول كينونة الحب .

(ب) سؤال الحب ، أصبح سؤالا يتناول ماهيته وطبيعته أو أنطولوجيته .

---

(٥٦) ميشيل فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ص. ١٤٢ .

(٥٧) نفس المصدر ، ص. ١٥٩ .

(٥٨) نفس المصدر ، ص. ١٥٦ .

(جـ) الانتقال من التساؤل عن شرف الغلام إلى التساؤل عن الحب الحقيقى وعلاقة الروحى بالجسدي.
(د) الانتقال من مسألة لا تماثل الشركاء إلى تقارب المحبين .
(هـ) الانتقال من فضيلة الغلام المحبوب إلى حب المعلم وحكمته . حيث يظهر المعلم بشخصية المسيطر على نفسه ، والزاهد ، والمحبوب من طرف الجميع أو المجتمع ، والمثال فى هذا ، بدون شك ، هو «سقراط» معلم الحقيقة .

إن هذه الانتقالات ، لا تعنى ، فى نظر فوكو ، الحط من حب الغلام ، بل كان : (بالعكس طريقة لتنميطه أو أسلبته وتاليا لتقويمه، بإعطائه شكلا وصورة معينين .)[٥٩] ذلك أن بداية التحول الحقيقى سيحدث مع بداية القرن الأول والثانى المسيحيين ، حيث تبدأ موضوعة تأويلية الرغبة وتشكل أخلاقى للذات مغايرة نسبيا ، لأخلاق الذات اليونانية .

وعلى هذا الأساس يبدأ فوكو حديثه ، عن هذه الأخلاق ، بتحليل نص متعلق بالحياة اليومية ومشاغلها ، إنه نص «أرتيمدور» «مفتاح الأحلام» والمتعلق بتفسير الأحلام . وأهمية هذا النص ، تعود إلى كونه ، يطرح طريقة وجيزة صالحة للاستعمال فى الحياة اليومية ، كما يكتسب أهمية نظرية حول دقة وصحة الإجراءات التفسيرية .[٦٠]

ومن المعروف أن تحليل الأحلام ، يعتبر جزءا من تقنيات العيش ، ونص «أرتميدور» لا يخرج عن هذا السياق ، سياق الاهتمام بحياة الفرد العادى ومشاغله اليومية . إلا أن ميزة النص ، أنه يستند على توثيق كبير فى هذا المجال ، ولذا يعتبر فى نظر فوكو ، وثيقة أساسية ، وخاصة أنها متبوعة بمختلف تقنيات التأويل ، وبالتحديد ، تأويل الأحلام ، وذلك باعتماد «أرتيمدور» لطريقة التماثل والتشابه الرمزى والتمييز بين الأحلام والمنامات ، ومن هذا النوع الثانى ، يتطرق «أرتميدور» ، إلى تحليل المنامات الجنسية ، والتى يناقشها فوكو فى إطار علاقتها بالأخلاق .

وهكذا نجد أن التحليل ، تحليل الأحلام ، يقوم أساسا على الموازنة بين الفعل الجنسى الطبيعى والمطابق للقانون ، وما يناقضه ، كالزنى والزواج ، أو ارتكاب المحارم ...

---

(٥٩) نفس المصدر ، ص. ١٧٣ .

(٦٠) ميشيل فوكو ، الإنهمام بالذات ، ترجمة ، جورج أبي صالح ، مراجعة ، مطاع صفدي ، دار الإنماء القومي . بيروت ، ١٩٩٢ ، ص. ٠٧ . ينظر كذلك النص الاصلي :
Le Souci de Soi, ed, Gallimard, 1984, p. 17.

إلخ . والغرض من هذا ، هو أن تحليل الأحلام ، في نظر فوكو ، وكما صاغه « أرتيمدور » يعتبر الحلم مدخلا لموضوع مركزي ، و لموضوع الأخلاقيات الرومانية ، ألا وهو موضوع الاهتمام بالذات أوالعناية بالذات عبر الاهتمام بالنفس ، وتثمين الزواج وزوال التعلق بالغلمان .

(إننا نقع - يقول فوكو - في فكر فلاسفة وأطباء القرنين الأولين صرامة كبيرة تشهد عليها نصوص سورانوس ورفوس الإيفيزين وموزونيوس أو سينيك وبلوتارك ، وكذلك نصوص ابيكتيت أو مارك أوريل .)(٦١)

ولقد اقتبس المؤرخون المسيحيون عناصر كثيرة من هذه الأخلاق المذكورة ، التي تعبر عن قلق إزاء العلاقات الجنسية ، لذا تعتبر مدخلا أساسيا للأخلاق المسيحية ، وإن كان - بشكل عام - هذا التحول له أسبابه السياسية والاجتماعية ، إلا أن الأساسي عند فوكو هو أن : (زيادة قيمة التزهد الجنسي في التفكير الأخلاقي لا تأخذ شكل تطبيق القانون الذي يحدد الأفعال الممنوعة ، بل شكل وتقنية العلاقات مع الذات التي بواسطتها يتكون المرء كفاعل لأفعاله .)(٦٢)

على هذا الأساس نفهم تلك النزعة الفردية التي يتحدث عنها المؤرخون ، وعن ذلك الاهتمام المتزايد بالحياة الخاصة ، وإن كان هذا التزهد ، في نظر فوكو ، ليس ناتجا عن تدخل الدولة أو السلطة ، بقدر ماهو ناتج عن ضعف الإطار السياسي والاجتماعي ، وإلى كون المواطنين أصبحوا أقل اندماجا في الحياة المدينية ، ومن هنا ظهرت العناية بالذات أو مبدأ اهتمام الذات بالذات .

إن هذا الاهتمام بالذات ، يجد جذوره حتى في الثقافة اليونانية ، وخاصة في شخصية «سقراط» ومسلكه الفلسفي ، والذي أصبح بعد ذلك موضوعا مركزيا في الفكر الروماني . فـ (في التطور البطيء لفن الوجود تحت تأثير الانهمام بالذات ، يمكن اعتبار القرنين الأولين من العهد الإمبراطوري ، وكأنهما قمة المنحنى : نوع من العصر الذهبي في العناية بالذات ، مع العلم طبعا بأن هذه الظاهرة لا تتعلق بغير الفئات الاجتماعية ذات العدد المحدود جدا ، التي كانت صاحبة ثقافة معينة ، والتي كان يمكن أن يكون لفن الوجود عندها معنى وواقع .)(٦٣)

---

(٦١) نفس المصدر ، ص. ٢٩ .

(٦٢) نفس المصدر ، ص. ٣٠ .

(٦٣) نفس المصدر ، ص. ٣٢ .

ونقع فى موضوع الاهتمام بالذات على مجموعة من الخصائص ، أهمها :

(أ) أنه موضوع تناولته المذاهب الفلسفية ، مثل الأفلاطونية أو الأبيقورية ، أوفلاسفة مثل «سيناك» أو «إيبيكتيت» .

(ب) الانهمام بالذات ليس عملا بسيطا بل مجموعة كبيرة من المسائل والواجبات تجاه الأسرة والمريض أو الآلهة ، كل هذه الواجبات تتطلب وقتا وبرنامجا وتدريبات ونشاطات متنوعة ، تبدأ من الرياضة إلى غاية التأمل .

(جـ) كما أن الاهتمام بالذات : (استتبع نشاط شفهى وكتابى كبير ، بحيث يرتبط الاشتغال بالنفس بالاتصال مع الغير .)[٦٤] فالاهتمام بالذات لا يعنى التوحد والانعزال ، بقدر ما هو عادة اجتماعية ، مثل ما هو الحال فى المؤسسات التى أقامتها الفيثاغورية أو الجماعات الإغريقية والتراتب بين الأشخاص والتدريبات المشتركة والمهام المحددة لكل فرد ، مما يستدعى علاقات بين الأشخاص ، قائمة إما على أساس القرابة أو الصداقة .

(د) الاهتمام بالذات ، وهذا وفق تقليد قديم فى الثقافة اليونانية ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالفكر والممارسة الطبيين . والفلسفة والطب يهتمان بمسألة واحدة هى المرض.يقول «أبيكتيت» : (إن مدرسة الفيلسوف هى غرفة طبية وعندما يخرج المرء منها يجب أن لا يكون قد استمتع بل تألم .)[٦٥]

(هـ) الهدف المشترك لجميع الممارسات الخاصة بالذات ، هو التحول إلى الذات أو نحو الذات ، أو بتعبير فوكو تحويل النظر وتغيير النشاط نحو الذات ، هذا التحويل : (مسار بفضله ينتهى بنا الأمر إلى الالتقاء مع ذاتنا متحررين من كل التبعيات والعبوديات ، مثل ميناء بمأمن من العواصف ، أو قلعة تحميها أسوارها .) ويتم التعبير عن هذه الحالة بعبارات مثل : « نحن لا نتبع غير ذاتنا » أو «إننا نملك ذاتنا » .[٦٦] وفى إطار العناية بالذات ، كموضوعة عامة لأخلاق اللذة الرومانية ، يناقش فوكو نفس المسائل التى سبق مناقشتها فى المرحلة اليونانية ، وهى الجسد ، الزواج والعلاقة بالغلمان .

---

(٦٤) نفس المصدر ، ص. ٣٦ .

(٦٥) نفس المصدر ، ص. ٣٩ .

(٦٦) نفس المصدر ، ص. ٤٤ .

ولكن قبل هذا يتعرض إلى مسألتين ، ذات علاقة أساسية بالتحول والتغير الذى أصاب هذه الموضوعات . الأولى متعلقة بقواعد الزواج ، والثانية متعلقة بالممارسة السياسية . ويعتمد فى تحليله على هاتين المسألتين على أعمال المؤرخين ، دون إضافة كما يقر بذلك ، وخاصة أعمال «فالين» و«فاين» ، هذه الأعمال التى تتفق فيما يخص مسألة قواعد الزواج والزواج ذاته ، بأنه أصيب بتغير كبير ، خاصة تلك النقلة بين عقد خاص بين الزوج والأب كما هو الحال فى «اليونان» إلى عقد عام يربط الزواج بالمؤسسة الرسمية .

كما أن الزواج اتسع وانتشر بين الطبقات الشعبية ، على عكس ما كان عليه فى اليونان ، وعرف وضع المرأة قدرا من الاستقلالية مقارنة بالمرحلة اليونانية ، وعليه ، يخلص فوكو إلى أن الزواج ، بات أكثر شمولية كعادة وأكثر عمومية كمؤسسة ، وأكثر خصوصية كنمط عيش ، وأكثر قوة للربط بين الزوجين ، وبالتالى أكثر فعالية لعزل الزوج والزوجة فى فعل العلاقات الاجتماعية الأخرى .(٦٧)

أما فيما يتعلق بالممارسة السياسية ، فإن ما يقره المؤرخون ، هو الانحطاط الذى أصاب المدن/ الدول ، ككيانات مستقلة ، ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد ، ومعه انحدار الأرستقراطيات التقليدية ، والعزلة السياسية التى لحقت بها ، لذا فإن الاهتمام بالنفس أصبح الشغل الشاغل لهم وانعكس هذا على الممارسة السياسية التى اتصفت بمجموعة من المميزات ، منها :

(أ) إضفاء الصفة النسبية على العملية السياسية وكون السياسة خاضعة لمركز السلطة ، ومن لم يكن أميرا فإنه يكون دائما فى وضع الحاكم والمحكوم .

(ب) ارتبط العمل السياسى فى اليونان ، بالرجل الفاضل ، أما فى روما فحدث تعديل محدود يقضى بأن على الحاكم أن يسترشد بحكمته الشخصية ، وعند «مارك أوريل» على سبيل المثال ، تلتقى السياسة كمهنة مميزة وممارسة تتطلب يقظة الفضائل الشخصية ، إنها نوع من : (ارتجاع الفرد إلى ذاته ، أى العلاقة التى يقيمها مع نفسه من خلال اجتهاده الأخلاقى الذاتى فى العناية بالذات .)(٦٨)

---

(٦٧) نفس المصدر ، ص. ٥٥ .

(٦٨) ميشيل فوكو ، الإنهمام بالذات ، ص. ٦٤ .

وعلى أساس هذا التحول الذى طرأ على الزواج والسياسة ، ناقش فوكو .'ـ أخلاق اللذة ضمن إطارها العام القائم على الاهتمام بالذات ، وهى :

.ـ:ادسا - الجسد ، المرأة والغلام:

(أ) الجسد : يؤكد العديد من المؤرخين على أهمية الشأن الطبى وحضوره القوى فى عهد الإمبراطورية الرومانية ، والحقيقة أن الطب والخطابة والفلسفة علوم متقاربة طوال المرحلة اليونانية والرومانية . فالطب لم يكن تقنية علاجية ، بل كان : (عليه أن يحدد على شكل مدونة من المعارف والقواعد طريقة عيش معينة ونمطا من العلاقة الرزينة مع الذات والجسد ...)[٦٩]

وعلى المرء أن يتزود بخطاب كامل يكون قد تعلمه باكرا ويردده دائما ، ويتأمله بانتظام ، حتى يكون تحت تصرفه ساعة الحاجة ، والحياة العاقلة لا يمكن أن تقوم بدون ممارسة صحية وبيئية وغذائية ورياضية . وفى هذا السياق تأتى تحليلات «فاليان» المتعلقة بالموت والخلود والتناسل ، مع بعض الاختلافات فى المعطيات الفزيولوجية والتشريحية .

وفيما يتعلق بالنشاط الجنسى ، فإن الفكر الطبى فى المرحلة الرومانية ، أو بالتدقيق فى بداية المرحلة الرومانية ، حافظ على تلك الإزدواجية التى تؤكد على أهمية الطاقة الجنسية وعلى خطورة فقدها ، ولذا وجب أن تخضع الأفعال الجنسية لنظام احترازى صارم للغاية ، وذلك بتحديد الوقت المناسب للإنجاب والعمر والوقت المناسب للمجامعة إضافة إلى مزاج الفرد . وإذا كان نظام اللذات يركز على الجسد فإن للنفس دورها أيضا ، والذى يتمثل أساسا لا فى مقاومة الجسد ، وإنما : (أن تصحح ذاتها بذاتها ، حتى تتمكن من تسيير الجسد حسب قانون هو قانون الجسد عينه .)[٧٠]

وهذا بالاعتماد على ثلاثة عناصر هى : حركة الرغبة ، وجود الصور ، التعلق باللذة . وما يلاحظه فوكو على النظام الطبى هو :

١ - رغم تعقد النظام الطبى للذات ، ودقته وصرامته فلا يجب المبالغة فى أهميته النسبية .

٢ - حصول نوع من مرضنة الفعل الجنسي "Pathologisation"

---

(٦٩) نفس المصدر ، ص. ٧٠ .

(٧٠) نفس المصدر ، ص. ٩١ .

٣ - الحذر الشديد تجاه النشاط الجنسى .

٤ - حصول نوع من التماثل بين الوصايا الغذائية ، والوصايا المسيحية حول هذا الشأن فيما بعد .(٧١)

(ب) المرأة : يشير فوكو إلى مظاهر الجد فى الزواج ، وإلى الأدوار الجديدة التى يلعبها وإلى الأهمية التى يكتسبها ، فبالإضافة إلى إدارة الأسرة والعناية بالأطفال والإنجاب ، راح يعطى قيمة متزايدة لعنصر أساسى هو العلاقة الشخصية بين الزوجين . وأصبح اعتدال الزوج يندرج ضمن واجبات المبادلة أكثر من ضرورة السيطرة على الآخرين ، وإن السيادة الذاتية ، تتجلى فى ممارسة الواجبات تجاه الآخرين ، ومن هنا ضرورة احترام الزوجة والأمانة الجنسية وتخصيصها فى العلاقة الزوجية فقط .

وهكذا ارتبط الإنجاب الذى كان المهمة الأولى للزواج اليوناني، بقيم أخرى، كالحب والمودة والتفاهم والتعاطف...إلخ. هنالك إذن نموذج جديد للعلاقة الزوجية مقارنة باليونان . كما أن هنالك فن كامل للحياة الزوجية، حيث أصبحت نمط عيش معين وفن كامل للكينونة والوجود. وفيما يخص الفعل الجنسى ، فقد تم حصره فى العلاقة الزوجية أو بتعبير فوكو، حصل نوع من زوجنة العلاقة الجنسية .

(ج) الـغـلام : مع التحول الكبير الذى حدث فى نظام الزواج ، فقد الغلام مكانته وحضوره فى الممارسة الجنسية ، مقارنة بالمرحلة اليونانية ، ولم يعد يشكل مادة تفكير ، إلا أن هذا لا يعنى أنه فقد كل أهميته وأن هذه الممارسات قد زالت ، وإنما حدث نوع من إبطال مسألية الغلام .

فهنالك نصوص تتحدث عن هذه الممارسة ، مثل نصوص «بلوتارك» و«لوسيان» و«مكسيموس» ، ولكن المؤكد هو انحصار هذه الممارسة ، وتوسع العلاقات الزوجية ، وإن احتلت مكانة بارزة فى الشعر والأدب والفن ، وأما فى الخطاب الفلسفي فقد زالت . لذلك شهدت هذه الفترة بروز أدب شبقى يعتنى أكثر بعلاقة الرجل والمرأة ، وإن كان التوجه العام لأخلاقيات اللذة ، أصبح يميل نحو البتولة والحب والزواج .

---

(٧١) Michel Foucault, **Le Souci de Soi**, ed.Gallimard, Paris, 1984, p,p.165-166.

المؤكد ، أن هنالك نوع من التقشف الجنسي ، بدأ في الظهور والانتشار وهذا بواسطة الأطباء الذين يؤكدون على المخاطر التي يحملها الفعل الجنسي والفلاسفة الذين يحصرونه في العلاقة الزوجية . فهل هذا يعتبر مقدمة نحو الأخلاق المسيحية ؟ المؤرخون عموما ، يؤكدون على هذا التوجه ، أما فوكو فيرى أن موضوع التقشف نجده حتى في المرحلة اليونانية عند «أفلاطون» و«أرسطو» ولذا فإن : (التقشف الجنسي الذي نجده عند فلاسفة القرون الأولى من عصرنا يرسخ في هذا التقليد القديم ، أقله بقدر ما ينبئ بأخلاقية مستقبلية .)(٧٢)

معنى هذا أن فوكو يؤكد على الخلفية التاريخية لهذا التقشف عوض الانتقال إلى موضوع الأخلاقيات المسيحية ، التي كان من الممكن أن يخصص لها عملا مستقلا لو لم يعجل به الموت .

لقد حدثت تحولات أساسية ، في نظام الحمية والعلاقة الزوجية والغلمان ، وإن كانت هنالك بعض التماثلات مع الأخلاق اللاحقة ، ولكن باختلافات أساسية ، وهو سيكون موضوع اعترافات الجسد الذي لم يكتمل مع الأسف ، والخاص بالمرحلة المسيحية .

إن هذه اللمحة التاريخية للأخلاق اليونانية والرومانية تسمح لنا باستخلاص أهم نتائج الخطاب الأخلاقي عند فوكو ، ومنه :

(أ) يميز فوكو بين الأخلاق والسلوك ، أو ما يماثل السلوك على مستوى اللفظ ، فهو يستعمل كلمة «الأخلاق Ethique» في مقابل كلمة «القواعد الأخلاقية Morale» ، ويهتم بالأخلاق كسلوك شخصي ، لا كقواعد مقننة . ويقترح المترجم العربي الإبقاء على المصطلح الأجنبي «إيتيكا» للحديث عن الأخلاق عند فوكو .

ونرى من جهتنا أن التمييز على مستوى المضمون يكفي لاستعمال الكلمة العربية «الأخلاق» على أن لا نقصد بها منظومة القيم والأوامر والنواهي ، بل سلوك الفرد قبل أن تضاف إليه القواعد والأوامر والنواهي ، وتكون مهمة الأركيولوجي التوجه : (إلى سلوك الأفراد الفعلي تجاه ذواتهم أولا .)(٧٣) أو بتعبير فوكو : (الطريقة التي يجب أن نكون بها أنفسنا بأنفسنا كذات أخلاقية فاعلة .)(٧٤)

---

(٧٢) ميشيل فوكو ، **الإنهمام بالذات** ، ص. ١٦١ .

(٧٣) مطاع صفدي ، **اتيكا فن الوجود** ، مقدمة ، في ، **إرادة المعرفة** ، مصدر سبق ذكره ، ص. ٦٠ .

(٧٤) ميشيل فوكو ، **استعمال اللذات** ، ص. ٢١ .

(ب) إن هذه الأخلاق تاريخية وتخص مجتمعات بعينها ، وموضوعات متمحورة حول المسألية الجنسية وما يتفرع عنها من اهتمام بالجسد ومن نظام للرغبة ومن علاقة بالمعرفة أو الفلسفة أو الحقيقة.وبحكم تاريخيتها ، فهى تتغير وتتبدل ، بحسب الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية .

(جـ) تتميز هذه الأخلاق فى الفترة اليونانية والرومانية بطابعها الرجولى ، أى أنها : (أخلاق مفكر فيها ، مكتوبة ومعلمة من قبل الرجال ، وموجهة إلى مجال الأحرار طبعا . وهى بالتالى أخلاق ذكورية ، حيث لا تظهر النساء إلا كأشياء ، أو فى الأكثر كشريكات يقتضى تدريبهن وتربيتهن ومراقبتهن ...)[٧٥]

(د) الهدف من هذه الأخلاق هو معرفة الذات وتشكلها كذات أخلاقية ، وما يقوم به فوكو هو رصد أشكال التذويت فى الفكرين اليونانى والرومانى ، وذلك عبر مختلف الممارسات (الحمية ، الزواج ، الغلمان) والمتمحورة أساسا حول الممارسة الجنسية والنشاط الجنسى ، وعلاقة ذلك بالأخلاق وخاصة بمسألة الاعتدال .

(هـ) لم يتم النظر إلى السلوك الجنسى كرهان أخلاقى من حيث المحظورات والممنوعات أو المسموحات ولم يكن التفكير فى السلوك الجنسى كميدان أخلاقى ، طريقة لاستنباط المحظورات ، بل إمكانية لإعداد جمالية للحياة وأسلوب للعيش وفن للوجود .

(و) ترتبط الأخلاق اليونانية خاصة ، بمفهوم للسلطة هو الحكم والحرية ، وتخص القسم الأصغر من السكان المتكون من الراشدين الذكور والأحرار . فـ: (مسألية الأخلاق الجنسية طرحت فى الفكر كعلاقة بين ممارسة الرجل الحر لحريته وأشكال سلطته ووصوله إلى الحقيقة .)[٧٦] كما ارتبطت الأخلاق فى مرحلتها الرومانية ، بمؤسسات للتدريب والتشكيل والمران الذاتى .

(ز) الأخلاق عند فوكو ، ممارسات تخص الذات ، وتشمل موضوعات أساسية ، متعلقة بالصحة ، وبالعلاقة مع المرأة ومع الغلام ومع الحقيقة ، وكل هذه الموضوعات منظور لها كممارسات تخص الذات لذا تطلب الأمر دراستها كممارسات الذات "Pratique de soi" وتحديد مكانتها فى المجتمع .

---

(٧٥) نفس المصدر ، ص. ١٩ .

(٧٦) نفس المصدر ، ص. ١٧٩ .

من هنا يمكن القول أن فوكو يهتم بالحياة اليومية والعادية للناس ، وهو ما يقربه من الفيلسوف الإنجليزى «فيدجشتين».(٧٧)

الأخلاق ليست حصر الاهتمام بالذات ، ولكن الأخلاق فى القديم تم تفكيرها كممارسة واعية للذات الحرة ، طبقا لهذا الأساس والغاية فى نفس الوقت . ولا يمكن الاهتمام بالذات دون معرفة ، ومعرفة الذات ، والمحيط الذى تعيش فيه ، أى أن الذات لا يمكن أن تهتم بذاتها دون الاهتمام بحقائقها ، من هنا علاقتها بالحقيقة وبالسلطة فى نفس الوقت ، إذ الحكم يتطلب التحكم فى الذات وفى رغباتها ، وهذا الفهم الجديد للذات هو الذى أدى بفوكو إلى تعديل فهمه للسلطة ، كما بينا ذلك فى الفصل الرابع ، والاهتمام أكثر بأشكال السلطة .

لا يعنى الاهتمام بالذات أنانية لأنه اهتمام يقتضى الاعتدال والاتزان ، وأن أكثر ما شغل اليونانى والرومانى هو كيفية تكوين جمالية للحياة ، وأن :(يجعل من حياته مادة معرفية أو تقنية ، أى أثرا فنيا .)(٧٨) وهذا يعنى ارتباط الأخلاق ببعد آخر هو : بعد الجمال ، وهذا ما سنناقشه فى المحور الآتى .

المحور الثالث - خطاب الجمال :

أولا - مفهوم الجمال : إن القول بخطاب جمالى عند فوكو ، هو قول مجازىٌ أكثر منه قول فعلى ، والسبب فى ذلك يعود إلى قلة إنتاجه النظرى فى هذا المجال ، والذى لا يتعدى أربع دراسات هى :

(أ) **الوصيفات** ، فصل أول من كتاب **الكلمات والأشياء** ، يدرس فيه عمل «فيلاسكيز Velasquez» .

(ب) **هذا ليس بغليون "Ceci n'est pas une pipe"** ، مقال حول «رونيه ماجريت René Magritte» .

(جـ) **دراسة عن الصورة "La Photogénique"** ، لـ «فرومانجى Fromanger» .

(د) **التصوير عند «مان Manet»** ، محاضرة ألقاها فى «نادى الطاهر حداد» سنة ١٩٧١ .

---

(٧٧) John Rajchnam, Foucault, l'hetique et l'oeuvre, in, Michel Foucault Philosophe, Op-Cit, p.153.

(٧٨) دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٥٧ .

إضافة إلى انعدام مفاهيم أساسية تشكل مضمون هذا الخطاب ، مقارنة بخطاب المعرفة أو السلطة أو الأخلاق ، ومبرر استعمالنا لهذا التعبير هو من أجل تقديم نظرة شاملة ، أولا من جهة دراستنا للخطاب موضوع بحثنا ، وثانيا من جهة استكمال موضوع الذات ومناقشة الدراسات الجمالية وعلاقتها بالذات .

وما عدا الدراسات السالفة الذكر ، لم يخصص فوكو دراسة مستقلة عن الفن ، كما هو الحال فى اللغة ، وإن كان قد تناوله فى أكثر من موقع ، لذا فإننا سنحاول متابعة مختلف آرائه حول الفن والجمال ، من أجل تشكيل فكرة واضحة عن هذه المسالة وعلاقتها بالخطاب .

نستطيع الاقرار منذ البداية ، أن للفن والجمال حضور كبير فى كتابات فوكو ، وذلك من جهة الاستخدام والاستعمال والمادة الخبرية أو الأرشيف ، فالفن يشكل مادة تاريخية وخبرية فى أبحاثه الفلسفية ، سواء تعلق الأمر بالأدب والشعر أو بالرسم ، وذلك عبر مختلف الحقب التاريخية التى درسها .

وهذا فى حد ذاته يشكل نقطة أساسية فى المنهجية الأركيولوجية القائمة أساسا على دراسة أرشيف حقبة تاريخية معينة وعدم اعتماد فقط على مؤلفين معروفين ، أو فروع معرفية محددة ، وإنما على تشكيلات خطابية وميادين خطابية تضم مختلف المعارف والعلوم ، وهو ما يظهر فى دراساته خاصة **تاريخ الجنون والكلمات والأشياء والمراقبة والمعاقبة** .

فالجنون مثلا اتخذ تعبيرات مختلفة فى الأدب والفن والمعارف العلمية ، لكل حقبة من الحقب التى درسها . وأن هنالك فى كل حقبة علاقة بالأدب واللغة ، كما درس الجريمة من خلال الرواية البوليسية .

وإذا كان فوكو يستخدم الفن كمادة تاريخية ، فإنه يملك كذلك منظورا فنيا وجماليا ، يظهر خاصة فى مفهومه للأدب والموسيقى والرسم ، ولعلاقة الفن بالإنسان ، وهو ما يشكل فى نظرنا خطاب الجمال لهذا الفيلسوف . فماهى ملامح هذا الخطاب ؟

(أ) فى الأدب : لايمكن فصل الإنتاج الفلسفى لفوكو عن تاريخ الفلسفة الفرنسية وعلاقتها بالأدب ، منذ «برغسون» حتى «دلوز» الفيلسوف المعاصر مرورا بـ «سارتر» و«باشلار» ، وفوكو لا يخرج عن هذا التقليد سواء من حيث الكتابة أو الاهتمام أو الأسلوب .

ولعل تخصيصه لدراسة كاملة عن الأديب «روسال» وربطه الأدب بمختلف الحقب المعرفية والإبستيمية للفكر الغربي في الكلمات والأشياء دليل على ذلك . لأن الأدب كما سبق وأن شرنا إلى ذلك يشكل بالنسبة للفيلسوف ، أولا مادة خبرية ، وثانيا وسيلة للخروج من الفلسفة ، على حد تعبيره ، وإمكانية للاختراق كما هو الحال في اللغة ، عبر شخصيات أدبية ذات علاقة بتكوينه الأدبي والفلسفي .

يقول في هذا السياق : (كان هنالك في عنف بتاي ، في أنواع العذوبة المقاتلة والقلقة لبلانشو ، في لوالب كولوسفسكي ، شيء ما ينطلق في الوقت نفسه من الفلسفة يستخدمها ويضعها موضع التساؤل ثم يخرج ويعود ...)[٧٩]

أما طريقة دراسته للأدب فلا تخرج عن طريقة دراسته للخطاب من حيث أنها تبتعد عن تلك الدراسات التي تهتم بالمضامين والدلالات والبنيات الشكلية لتقتصر فقط على الوظائف ، وهذا ما تحاول الأركيولوجية كطريقة لتأسيسه وتطبيقه . فـ : (المعرفة ماهو الأدب ، لا أريد دراسة بنيته الداخلية ، بل أريد الإمساك بالحركة بالصيرورة الدقيقة التي يدخل عبرها نوع من الخطاب غير الأدبي والمهمل والمنسي حالما يصاغ في الحقل الأدبي ، ماذا يحدث هاهنا ؟ ما الذي يبدأ في الاشتغال ؟ كيف يقع تعديل جهوده عن طريق الاعتراف به كخطاب أدبي .)[٨٠]

ومهمة الأدب ووظيفته لا تخرج في الحقيقة عن مهمة ووظيفة اللغة ، المتمثلة في الاختراق والتدمير والتجاوز ، وهذا ما جعله في مرحلة الستينيات يتصل أكثر بالأدب السريالي وبجماعة "Tel quel" وبحركة الأدب الجديد أو النقد الجديد أو الرواية الجديدة . كما لايخرج عن تلك الوضعية التي خصها للأدب في كل حقبة من الحقب التي درسها ، سواء في عصر النهضة أو الحقبة الحديثة ، وتماثله مع اللغة ، من حيث الحضور والغياب معا .

يقول عن الأدب الحديث مثلا : (والحال أنه على امتداد القرن التاسع عشر وحتى أيامنا هذه أيضا - من هولدرلين إلى مالارميه إلى أنطونين أرتو - لم يوجد الأدب في استقلالية ، ولم يتخلص من كل لغة أخرى بانفصام عميق ، إلا بتأليفه نوعا من «الخطاب المضاد» وبصعوده على هذا النحو من الوظيفة التمثيلية أو الدالة للغة إلى هذه الكينونة الخام المنسية منذ القرن السادس عشر .)[٨١]

---

(٧٩) ميشيل فوكو ، حوار ، (**فوكو مخترق حدود الفلسفة**) ، ص. ١٥٧ .

(٨٠) نفس المصدر ، ص. ١٥٩ .

(٨١) ميشيل فوكو ، **الكلمات والأشياء** ، ص. ٥٩ .

فهنالك تماثل في الوظيفة بين الأدب واللغة ، ومرور بنفس المراحل التاريخية ، إلا أن الأدب يتميز بمهمة مغايرة عن اللغة ، وذات علاقة بها في نفس الوقت ، وهي أن الأدب هو الذي يسمح بظهور كينونة اللغة : (اعتبارا من القرن التاسع عشر ، أبان الأدب اللغة في كينونتها ...)[(٨٢)]

كما يتميز الأدب بخاصية أساسية هي خاصية المكان أو الفضاء وهو ما يسمح بظهور اللغة المعاندة والمخترقة والمتجاوزة .[(٨٣)]

إلا أن هذا الاهتمام بالأدب لم يكن إلا مرحلة كما بينا ذلك في الفصل الأول ليهتم أكثر باللوحة والرسم ، والذي أخذ حيزا كبيرا من تفكيره وكتابته بدء من لوحة **الوصيفات** لـ «فيلاسكاز» .

ويعتبر «دلوز» ، أول من وقف على هذا الاهتمام وكتب عنه وربطه بفلسفته وخاصة في نقطة العلاقة بين الرسم واللغة أو المنطوق والمرئي ، موضوع بحثنا ودراستنا ، ولذا فإننا نقر سلفا ، أن الأفكار الموالية مستلهمة أساسا من تحليلات «دلوز» وخاصة علاقة المرئي بالمنطوق .

يقول فوكو في معرض تحليله للوحة **الوصيفات** : (علاقة اللغة بالرسم علاقة لا متناهية . لا لأن الكلمة غير كاملة وتقع إزاء المرئي في عجز ، تجهد عبثا لتجاوزه ، وإنما لأنهما لا يمكن أن يختزل أحدهما الآخر ، فعبثا نقول ما نراه ، لأن ما نراه لا يسكن أبدا فيما نقول ، وعبثا عملنا على أن نجعل الآخرين يرون بالصور والاستعارات والمقارنات ما نقوله الآن ، فالمكان الذي تتلألأ فيه ليس هو المكان الذي تراه العيون ، وإنما هو المكان الذي يحدده تتابع التراكيب اللغوية .)[(٨٤)]

---

(٨٢) نفس المصدر ، ص. ٥٩ .

(٨٣) ينظر على سبيل المثال إلى :

- Michel Foucault : (1) **Le Langage à l'infini,** Op - Cit .

(2) **Langage et Litterature** (Conférence à l'Université Saint-louis). Bruxelles.1964.

(3) **L'obligation d'écrire,** In, **Arts,** N302980. 1964 .

(٨٤) ميشيل فوكو ، **الكلمات والأشياء** ، ص. ٣٤ .

لقد سبق لـ «هيدجر» و«ميرلوبنتي» أن اهتما بالنظرة والرؤية واللوحة ، في فلسفتهما ، ولكن فوكو كما يقول «دلوز» اختلف عنهما من زاويتين :

(أولهما أن المادية ضوء ، لا تنفصل في رأى فوكو عن هذا النمط أو ذاك ، إذ مع أنها قبلية ، إلا أنها تاريخية وإبستيمولوجية بدل أن تكون فينومولوجية ، ثانيهما أنها ليست مادية ، منفتحة على الكلام ولا على النظرة ، مادام الكلام ، من حيث هو منطوق ، يجد شرط انفتاح آخر مختلف ، في مادية اللغة وأنماطها التاريخية . وما نستطيع استخلاصه ، هو أن أي تشكيلة تاريخية ترى وترى كل ما بوسعها أن تراه وتريه ، تبعا لشروطها للرؤية ، كما أنها تقول كل ما بوسعها قوله ، تبعا لشروط تعبيرها .)(٨٥)

ينطبق هذا على المعزل والمستشفى والسجن والمدرسة والثكنة ومختلف أمكنة الرؤية ، فالجنس ، مثلا ، جنس يتكلم ويرى في ذات الوقت ، لغة وضوء ، ونص **إرادة المعرفة** يبين في أكثر من موضع تلازم النظرة والكلام ، هذا التلازم ، في نظر «دلوز» نجد خلفيته عند الأديب «بلانشو» .

وعلى أساس هذا التلازم ، كان للوحة تأثيرها القوى في فكر فوكو ، واستعملت بمعنى واسع يشمل حتى المنطوقات ، كما هو الحال ، في وصف لوحة «فيلاسكاز» ، غير أنه - كما يستدرك دائما دلوز - يمنح للمنطوقات قيمة وصفية عامة ، وتبقى العلاقة بين المرئي والمنطوق ، علاقة تبادل لا علاقة تعيين واندماج .(٨٦)

كما يبقى الرسم ، المكان المفضل للرؤية والوصف الأركيولوجي .(٨٧) ففي دراسته عن الرسام «فرومانجي» وعن الصورة والتصوير ، نجده يركز عن وضع الصورة وموقعها ، من حيث أنها مأخوذة ، كيفما اتفق ، وليس لها موضوع مفضل ، بل تشمل مختلف الموضوعات ، وليست مسندة إلى فاعل معين ، بل قائمة على حركة مجهولة ، شبيهة بحركة الخطاب .(٨٨)

---

(٨٥) جيل دلوز ، **ميشال فوكو ، المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٦٧ .

(٨٦) نفس المرجع ، ص. ٨٧ .

(٨٧) - Rachida Triki-Boubaker, **L'Exemplarité de la Peinture dans l'Oeuvre de Michel Foucault in Les Cahiers de Tunisie**, N° -150, 1989, p.156.

(٨٨) - Michel Foucault, **La peinture Photogenique**, in, **Fromanger, Le Désir est Partout Galerie Jeane Bucher**, 1975, p.06.

كما أن الرسام يزاوج بين الصورة والنظرة والحدث ، حيث تصبح الصورة حدث فريد ، كالمنطوق تماما ، وبواسطتها يحاول الفنان ، رسم اللوحة - الحدث ، أو الصورة - الحدث .(٨٩)

وهذه الملامح نجدها كذلك في دراسته عن «ماجريت» بعنوان **هذا ليس بغليون** حيث يناقش علاقة الصورة بالتصوير ، أو الشيء والتمثيل ، وعلاقة الخط "Colligraphie" بالصورة والكلمة .(٩٠) وحتى عبارة **هذا ليس بغليون** تشكل في نظر فوكو، منطوقا ، ويستغل في قراءته لهذه اللوحة، نصوص الفنان ذاته ، الذي يؤكد على علاقة اللغة بالصورة .(٩١)

ونفس الشيء يقوله عن الفنان «بنوفسكي Ponosofski» حول «شرح الرموز وذلك في الستينات ، حيث يؤكد أن ما شد انتباهه إلى عمل هذا الفنان هو تحليل العلاقة بين الخطاب والرؤية .(٩٢)

وأكثر من هذا ، أن عمل الفنان يشكل نموذجا للتحليل ، لا على أساس البنية الشكلية ، بل على أساس الوظيفة التبادلية للأنساق في واقع ثقافة البنية الشكلية ، وهو ما حاول تحقيقه في **الكلمات والأشياء** .(٩٣)

ولكن الاهتمام بالرسم ، لا ينحصر فقط في البحث والتحليل ، ولكن له علاقة خاصة بحياة الفيلسوف وحبه للرؤية ، كما سبق أن أحب الاستماع إلى الموسيقى ، لفترة وجيزة . وذلك عند لقائه بكل من «بولاز Boulez» و«براكي Barraqué» ، هذا اللقاء بالفنانين والموسيقى ، يعتبره أكثر أهمية من قراءته لـ «نيتشه» ، سواء على الصعيد الشخصي أو العلمي أو الفلسفي .(٩٤)

---

(٨٩) Ibid, p.09.

(٩٠) Michel Foucault, **Ceci n'est pas une pipe**, in, **Les Cahiers du Chemin**, Du 15 janvier, 1966, p.85.

(٩١) Ibid, p.97.

(٩٢) Michel Foucault, **Les Mots et Les Images**, In, **Le Nouvel Observateur**, N° 154, 1967 p.49.

(٩٣) Ibid, p.50.

(٩٤) Michel Foucault, **Entretien, Avec Paolo Caruso**, In, **Fiera Letteraria**, 28 Sep.1967 p. 17 .

إذ من المعروف ، أن فوكو تكون ضمن المدرسة الهيغلية والفينومينولوجية ، ودرس الفلسفة على يد «هيبوليت» كما استمع إلى دروس «ميرلوبنتي» ، وهذه الفلسفة ، تركز - كما هو معلوم - على المعنى والقصد والذات ... إلخ . ولكن لقاءه بـ «بولاز» سيمكنه على حد قوله ، بالإلتقاء بالقرن العشرين ، وعلاقة ذلك بالشكلانيين الروس .

لقد كان فوكو يعيش زمن الفينومينولوجيا القائم على أولوية المعنى والمعاش والتجربة الأصيلة والمضامين الذاتية والدلالات الاجتماعية ، وبمحض الصدفة ، كان لقاؤه بـ «بولاز» ، وهو فى عز المعركة حول الشكلانية والحركة الشكلية الروسية ، وإننا نعلم أن هذه الحركة ، شكلت أحد الروافد الأساسية للبنيوية ، والتى لا ينكر تأثيرها على فوكو ، وخاصة فى هذه الفترة .(٩٥)

ولكن الأهم من ذلك هو تقارب التحليل الموسيقى كما مارسه «بولاز» بالتحليل الخطابى عند فوكو ، وخاصة فى العلاقة بين التاريخ والوظيفة ، إلا أن هذا الاهتمام لم يدم طويلا كما يقر هو بذلك . وانتقل إلى اهتمامات أخرى ، وبعد آخر فى الفن والجمال ، تماشيا واهتماماته الفلسفية والعلمية .

لذا نجده كما بينا ذلك فى نهاية المحور الثانى ، من هذا الفصل ، يربط الجمال بالأخلاق ، وهو ما نستشفه من عبارة «جمالية الوجود » أو «فنون العيش» أو «جمالية الحياة» فماذا يقصد بهذه العبارة ؟

إن أول فكرة نتوقف عندها ، هو الهدف من الفن والجمال على العموم ، حيث نلاحظ أن الغاية عند الفيلسوف ، أصبحت غاية عملية، لذلك يلح على أن تكون مهمة الفن ، مهمة حياتية ، تتعلق بحياة الناس العادية واليومية ، وأن تكون الفنون فى متناول الناس كى يستعملونها ويستخدمونها بشكل حر، من أجل حاجاتهم ورغباتهم ولحل مشاكلهم الحياتية .(٩٦)

وأكثر من هذا ، فإن ما يثير استغرابه وتعجبه هو أن الفن فى العصر الحديث أصبح أكثر ارتباطا بالأشياء منه بالأشخاص أو بالحياة ، ويتساءل لماذا لا تكون الحياة ، حياة كل فرد ، تحفة فنية ؟

---

(٩٥) الزواوى بغورة ، **مفهوم البنية** ، في ، **المناظرة** ، العدد الخامس ، ١٩٩٢ ، ص. ٩٦-٩٧ .

(٩٦) Michel Foucault, **Dits et Ecrits,** Tome, 4, p.84.

ولعل اهتمامه بمختلف كتابات الذات "Ecriture de soi" تدخل فى هذه النظرة ، نظرة الفن والحياة ، حيث الكتابة ليست فقط جزء من اهتمام الذات بذاتها ، بل جزء من القيم الجمالية للذات الفردية ، وإذا لم يهتم « أفلاطون » و« أرسطو » بهذا الفن ، فإنه قد عرف اتساعا وأهمية أكثر بعدهما .

صحيح أن كتابة الذات ، كانت لها وظيفة أخلاقية ، ولكن لها بعد جمالى بما تضفيه على حياة كل فرد من أهمية جمالية ، ذلك أن الكتابة تعنى فيما تعنى ، الإظهار والإستكشاف ، إظهار الوجه الحقيقى للذات فى مقابل الآخر .(٩٧) كما أن الكتابة ، كتابة الذات ، لا تخرج عن مفهوم معين للأسلوب ، أسلوب الكتابة وأسلوب الحياة ، وذلك من خلال :

(أ) أسلبة أو تنميط العلاقة مع الذات .

(ب) أسلبة أو تنميط العلاقة مع الآخر .

لذا فإن ما يهم فوكو ليس مبادئ نظرية لعلم الجمال أو الفن ، بقدر ما تهمه جمالية الوجود ، أو كيف يمكن جعل الحياة عملا فنيا ؟ أو تحويل حياة الفرد إلى عمل فنى ؟ (٩٨)

الأسلوب ليس مسألة كتابية ، بل مسألة حياة أى أنها مسألة وجودية .(٩٩) لذلك ينتقد الفن المعاصر ، ويعود أكثر إلى فكرة الثراء كما طرحها «هيدجر» ، مع إضافة فن «العيش» أو «جمالية الحياة» .

يقول لمحاوريه «دريفوس ورابينوف» : (إن ما يدهشنى هو أنه لم تعد للفن فى مجتمعاتنا علاقة بالأفراد أوالحياة ، بل علاقة بالأشياء . وما يدهشنى كذلك هو أن يكون الفن ميدان متخصص ، ميدان الخبراء الذين هم الفنانين ، لكن ألا يمكن أن تكون حياة كل فرد تحفة فنية ، لماذا تكون لوحة ما أثرا فنيا ولا تكون حياتنا كذلك .)(١٠٠)

---

(٩٧) Michel Foucault, **L'Ecriture de Soi,** In, **Corps Ecrit,** N° 05, 1983, p,p. 03-23.

(٩٨) Paul Veyne, **Le dernier Foucault et sa morale,** In, **Critique,** Ns° 471 - 472, 1986, p. 939 .

(٩٩) John Rajchman, **Erotique de la vérité,** ed P.U.F, Paris, 1991, p. 13.

(١٠٠) ميشيل فوكو ، **حول نسابية الأخلاق : لمحة عن العمل الجارى** ، فى ، **ميشال فوكو ، مسيرة فلسفية** ، ص. ٢٠٢ .

إن هذا التساؤل وجد إجابته في اليونان ، ذلك أن ما كان يشغل اليوناني ومشكلته الكبرى ، هو كيف يجعل من حياته تحفة فنية . هذا الاهتمام الذي زال في العصور الوسطى ، ليظهر من جديد في عصر النهضة وفي العصر الحديث ، وإن بشكل وجيز : (نكاد ننسى في مجتمعاتنا تلك الفكرة التي مفادها أن أهم أثر فني يجب الاعتناء به ، وأهم موضع يجب أن نطبق فيه قيما جمالية هو أنفسنا وحياتنا الشخصية وكينونتنا . إننا نجد ذلك في عصر النهضة بشكل مختلف وكذلك في تأنق القرن التاسع عشر ، لكنها كانت حقبات وجيزة .)[١٠١]

إنها باختصار فكرة «فن الوجود» المركزة على حياة الفرد ذاته ، وإعطائها صبغة جمالية أو بعدا جماليا ، هذا البعد الذي لاينفصل عن الاهتمام بالذات كهم أخلاقي وجمالي في نفس الوقت ، وأن ننظر إلى حياة الإنسان كأسلوب وفن وطريقة جمالية ذات بعد وجودي ، والتأريخ لهذا الوجود كإمكانية من بين الإمكانيات الأخرى .

يقول : (يبدو لي أنه بالإمكان أيضا تأريخ الوجود كفن وكأسلوب . فالوجود هو المادة الأولية الأكثر هشاشة من مواد الفن الإنساني ، لكن أيضا معطيته الأكثر مباشرة .)[١٠٢]

وربما يندرج مشروع فوكو في هذا السياق وفي هذه القراءة ، التي تحاول أن تستلهم من اليونانيين فن وجودهم دون أن يكونوا النموذج وهو ما يستشف من قراءة «مطاع صفدي» الذي يقول : (والحق فإن المشروع الفوكوني للانهمام بالذات في الحياة الثقافية الراهنة إنما يعتمد نهج البناء والانبناء ، إذ أن الانهمام بالذات يتحقق في عملية الانبناء للذات بالذات المستمرة.خاصة وأن هذه العملية هي في جوهرها جمالية إستطيقية وكينونية ، أكثر منها أخلاقية أو أنانوية .)[١٠٣]

وهذا الاهتمام بالذات باعتبارها جمالية ، ينفتح على الخلق والإبداع ، من خلال مختلف الممارسات التي تقوم بها الذات والتقنيات التي تجعل من الذات مشروع إبداع لا ينفذ .[١٠٤] إن فن الوجود يتطلب من بين ما يتطلب التحكم في الذات والمقدرة على التحكم في الآخرين والقدرة على الحكم الصحيح وعلى الاعتدال والاتزان وإعطاء شكل

---

(١٠١) نفس المصدر ، ص. ٢٠٤ .

(١٠٢) نفس المصدر ، ص. ٢١٧ .

(١٠٣) مطاع صفدي ، **إيتيكا فن الوجود** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٩١ .

(١٠٤) نفس المرجع ، ص. ١٣ .

للحياة ، شكل مختلف يخرج عن أشكال اللامبالاة والتماثل والامتثال والتماهى ، شكل يؤسس للاختلاف والتمايز ، وهو ما يعد صلب فلسفة فوكو .

إن الخطاب الجمالى ، عند فوكو ، بشكل عام ، يندرج ضمن مجمل أعماله الفلسفية ويتضمن مراتب أساسية، منها :

(أ) إن الفن والجمال يعتبران أداة للعمل وأرشيف للدراسة .

(ب) يشكل الأدب أداة للعمل ومجال للنظر ومساحة لتفكير اللغة .

(جـ) الفن والرسم خاصة ارتبطا عند فوكو بالاهتمام بالخطاب ومسائله .

(د) يندرج الاهتمام بفنون الوجود بالاهتمام بتشكل الذات .

لقد انتقل فوكو ، من منظور جمالى بحث كماهو الحال فى تفكيره للغة والأدب والموسيقى فى الستينيات إلى الاهتمام بالفن وعلاقته بحاجة الإنسان وظروفه المعيشية واليومية ، وهو فى ذلك يقترب من اهتمامات «فيدجنشتاين» والمدرسة التحليلية عموما .

إن هذه الملامح العامة لخطاب الجمال عند فوكو وعلاقته بالذات والخطاب موضوع بحثنا، يفرض علينا أن نسجل أهم النتائج ذات العلاقة بالموضوع ، ومن أهمها :

(أ) كيف تشكلت الذات الغربية انطلاقا من الجنس ؟ ذاك هو السؤال - المنطلق ، وكانت الإجابة لا فى تحليل الجنس كعامل محدد ولا كجوهر خفى ولا كقوة غامضة ، ولكن برده إلى جملة العلاقات التاريخية التى تنسجها المعرفة - السلطة ، وتعكسها فى خطاب الجنس .

خطاب الجنس الذى يعنى تشكل الجنس ليس كموضوع للمعرفة والسلطة ، بل كخطاب . وبذلك أصبح المكان الأساسى لمعرفة الذات ، أى حدث نوع من توضيع الجنس ، وتم إدخاله فى صيرورات معرفية وسلطوية وخطابات علمية ، أهمها تشكل علم للجنس وقيام سلطة حيوية تجد أصولها فى تلك التقنية المسيحية القائمة على الاعتراف ، الاعتراف بحقيقة الذات وبضرورة تشكيلها فى خطاب ، هذه الخصائص تجملها كلمة «الجنسانية» باعتبارها جاهزية تاريخية وحلقة أساسية من تشكل الذات الغربية .

يعنى هذا أن الجنس مسألة تاريخية ، أو موضوع لسياقات تاريخية ، معرفية وسلطوية وخطابية ، أى ممارسة تاريخية كباقى مختلف الممارسات المشكلة للذات ، سواء تعلق الأمر بممارسات معرفية أو سلطوية أو خطابية .

بهذا المعنى يرفض فوكو كل تصور واحدى للجنس ويبحث فيه كل العلاقات المتغيرة بين الذات كفاعل جنسى وباقى مجالات الحياة .[١٠٥] وهو بذلك ينكر أن يكون الجنس حتمية أو ضرورة عمياء ، بل إمكانية لحياة مبدعة . الجنس إمكانية لإبداع أشكال جديدة للحياة وللعلاقات وخاصة الصداقة داخل المجتمع ، ولذلك لا يكون الهدف الدفاع عن مشروعية الجنس ، بل التأكيد على قوته الإبداعية .[١٠٦]

(ب) لا يشكل القدماء نموذجا أخلاقيا أو جماليا ، فالأخلاق القديمة أخلاق خاصة بفئة محددة من الناس ولا تنطبق على الجميع ، إنها متعلقة بفئات محدودة حتى بين المواطنين الأحرار ، وبالنسبة لفوكو فليس هنالك عصر ذهبى ولا نموذج أخلاقى نتبعه ، وإنما على كل فرد أن يبدع نموذجه الأخلاقى والجمالى .

لذا لم يترك مدونة أخلاقية ولا قواعد سلوكية ، وإنما قام بدراسة مختلف ممارسات الذات ، انطلاقا من موضوعاتها الأساسية وهى : الجسد ، الزواج ، الغلمان ، والنظر فى مختلف مواقفها من الجنس ، لذلك نقول مع «ريجسمان» : (لقد استكشف ممارسات خطابية جديدة ذات علاقة بمسألة الذات ، دون إهمال لمسألتى المعرفة والسلطة .)[١٠٧]

وكانت طريقته اسمية ، كما يحلو له أن يصفها ، أى تقوم على وصف دقيق وجزئى لمختلف سلوكات الذات سواء فى نظام الحمية أو نظام الزواج أو نظام اللذات ، أو بالتدقيق الوصف الدقيق لنظام الأفروديزيات ، وصف يزاوج بين دور الذات الفاعلة ومفاعيل السلطة - المعرفة ، ورصد لمختلف تقنيات الذات .[١٠٨]

ذلك أن الأخلاق فى اليونان والرومان طرحت مشكل تنظيم الوجود ، وجود الفرد والمجتمع والمدينة والدولة ، كما طرحت مسألة العلاقة ، علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقة الفرد بمجتمعه وبالآخرين وبالسلطة ، فالمشكلة الأساسية للأخلاق إذن هى مشكلة العلاقات ، ولقد بينا فى الفصول السابقة أن مفهوم العلاقة يحتل مكانة مركزية فى فلسفة فوكو سواء فى الخطاب أو فى المعرفة أو فى السلطة .

---

(١٠٥) Reiner Schurman, **Se Constituer Soi Même Comme Sujet Anarchique,** In, **Les Etudes Philosophiques,** N° 03, 1986, p.471.

(١٠٦) Michel Foucault, **Que Fabrique Donc Les Hommes Ensemble?** In, **The Advocat de Los Angles,** Du 07 août 1984, p.54.

(١٠٧) John Rajchman, **Erotique de la Vérité,** Op-Cit, p.12.

(١٠٨) Ian Hacking, **L'Amélioration de Soi,** in, **Michel Foucault, Lecture Critique,** Op-Cit, p.258.

ميزة الأخلاق القديمة أنها تتطلب الاعتدال والانضباط وسيطرة المرء على رغباته أى نوع من التحكم والقيادة ، من هنا كانت هذه الذات فاعلة بواسطة إدخال عنصر التحكم الذاتى أو القدرة على السيطرة على النفس وتحقيق الاعتدال .

هذا التحكم لا يتأتى خارج عنصر المعرفة ، فمعرفة النفس أساسية فى الأخلاق القديمة ، ولا يمكن معرفة النفس دون معارف وتقنيات وتدريبات وتجارب ، لذا فإن حصول المعرفة شرط أساسى آخر لتحقيق الاعتدال ، كقيمة أخلاقية عملية وليست نظرية ، فالأخلاق التى يهتم بها فوكو هى ممارسات تتجسد فى سلوكات يومية للرجل العادى ، لذلك يرى أن الأخلاق "Ethique" ممارسة والإيتوس "Ethos" طريقة أو كيفية وجود .(١٠٩)

الأخلاق كاهتمام يومى وطريقة للعيش وكفن للوجود ، لا يمكن فصلها عن الجمال ولا عن الممارسة الجنسية أو النشاط الجنسى ، ضمن النظام العام للأفروديزيات . ومن الناحية التاريخية ، فإن هذه الأخلاق ذات طابع رجولى يجسدها الفعل الجنسى فى صورة تقابل بين الفاعل والمنفعل وينعكس فى مختلف الاهتمامات التى يطرحها هذا النشاط وخاصة فى علاقته بالنظام الصحى والنظام الشبقى ، ومخاطره على الوجود الفردى ، لذا يعمل الرجل الحر العاقل على إعطاء سلوكه طابع الاعتدال والاتزان وذلك بالتحكم فى رغباته أو فى ذاته ، والذى يسمح له بالتحكم فى الآخرين سواء داخل عائلته أو مدينته .

هذه الأخلاق عرفت تحولا مع القرنين الأول والثانى الميلاديين ، واهتمت أكثر بالذات وذلك بالاعتماد على جملة من الممارسات ، الرياضية والعلمية قصد العناية بالذات أكثر ، وقصد جعلها تحفة فنية ، وذلك بتنميطها أو أسلبتها ، لذا لا يمكن ، كما قلنا ، فصل الممارسة الأخلاقية عند فوكو عن الممارسة الجمالية وخاصة فى أعماله الأخيرة .

(جـ) إن الجمال كما يتجلى فى أعماله الأخيرة ، هو فى معرفة الشكل الجميل الذى يجب أن تكون عليه الذات ، أو كيف يمكن للذات أن تصبح تحفة فنية ، وممارسات الذات بهذا المعنى ، تسمح بتشكيل فن للذات بعيد عن كل تقنين أخلاقى .(١١٠)

---

(١٠٩) Michel Foucault, **On Ethics and Politics**, In, **(D.250)**, p.06.

(١١٠) Michel Foucault, **Le Souci de la Vérité**, In, **Magazine Littéraire**, N° 207, 1984, p.20.

هذه العملية - عملية إعطاء شكل فنى للوجود أو فن الوجود الخاص بكل فرد - مهمته الأساسية والهامة ، هو تأسيس الاختلاف كقيمة أخلاقية وجمالية ، وضمان بعدم السقوط فى التماثل واللامبالاة .

لكن هذا الخطاب الجمالى ، قبل مرحلته الأخيرة ، عرف اهتماما باللغة والأدب والخطاب والرسم ، إما كأرشيف أو كوسيلة للخروج من الفلسفة . مما يفرض طرح سؤال مفهوم الفلسفة عند فوكو ، وهو ما سنحاول مناقشته فى الفصل القادم ، ولكن قبل هذا يجب التساؤل طبقا للخصائص المذكورة أعلاه ، والمتعلقة بالجنس والأخلاق والجمال ، عن مفهوم الذات وماذا يعنى بالضبط وماهى علاقته بالخطاب ؟

ثانيا - مفهوم *الذات* : لقد تمت صياغة الذات فى الأبحاث السابقة عن تاريخ الجنسانية ، فى صورة سلبية خاضعة لمختلف طرائق التوضيع ، أما فى أبحاثه عن تاريخ الجنسانية فأخذت صورة إيجابية وأصبحت لها دور فعال فى المعرفة والسلطة .

صرح فى بداية الثمانينيات إلى إحدى المجلات اللندنية قائلا : (فى أبحاثى عن المنفى والسجن ... قد أكون تحدثت على تقنية الإخضاع ، غير أنى أريد فى المستقبل أن أدرس علاقات السلطة بالإنطلاق من تقنية الذات .)(١١١) أى دراسة مختلف طرائق التذويت أو تقنيات الذات أو تكنولوجيا الذات ، سواء فى **استعمال اللذات أو الانهمام بالذات** ، وهذا ما أدى به إلى تغيير وتعديل مشروعه سواء من حيث الفترة الزمنية أو من حيث المفهوم ، خاصة فيما يتعلق بمفهوم السلطة والانتقال إلى مفهوم الحاكمية .

هذا يعنى أن الأعمال السابقة عن تاريخ الجنسانية ، وضمن المنهجية الأركيولوجية - الجنيالوجية لم تهمل الذات ، وإنما كانت المعارف والسلط هى التى تعين لها مكانتها : (لقد كانت متغير ضمن نسق خطابى ، ومفعول لاستراتيجيات السلطة .)(١١٢)

ولكن الجانب المهمل أو الغائب هو الذات الفاعلة أو الممارسة ، لقد كانت حاضرة مثلا فى الكلمات والأشياء فى صورة الإنسان ، (لكنها صورة سلبية مجرد وسواس القرن التاسع عشر ، مرتبطة بالمفهوم الخطى والمتواصل للتاريخ .)(١١٣)

---

(١١١) Michel Foucault, **Entretien,** In, **London Review Of Books,** 21 Mai-03 Juin 1981 .

(١١٢) Rriner Schurman, **Se Constituer Soi Même Comme Sujet Anarchique,** Op-Cit, p.451.

(١١٣) Ibid, p.452.

لذا حاول عادة تشكيلها فى مواقع الانفصال ، باعتبارها تجربة وممارسة ومسألة عملية ، فليس هنالك ذات مؤسسة وسيدة أو ذات كلية ، نجدها فى كل مكان . بل الذات تتشكل تنبنى تتكون ، عبر مختلف ممارسات التوضيع والتذويت ، تتشكل إما عبر ممارسات الإخضاع والسيطرة والتحكم والمراقبة ، أو عبر ممارسات التحرر والاستقلالية والإبداع .(١١٤)

وعليه فليس هنالك نظرية فى الذات ، كما أنه ليس هنالك نظرية فى الخطاب أو فى السلطة والمعرفة ، وإنما هنالك مفاهيم تتشكل عبر التاريخ .(١١٥)

الذات شكل وليست جوهرا ، شكل غير ثابت ، وقد تكون هنالك علاقات بين مختلف أشكال الذات لكن ليس هنالك حضورا للذات الواحدة ، عبر اشكالها المختلفة ، ففى كل حالة تقيم الذات مع نفسها ومع غيرها أشكالا مختلفة من العلاقات ، وهو ما يسمح بالقول بالتشكل التاريخى للذات ، عبر مختلف الممارسات والتجارب وعبر علاقات المعرفة - السلطة .(١١٦)

لذلك نقول أن الذات بهذا الوصف ، هى حصيلة مختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية ، وهى بذلك تخضع لمبدأ الكثرة والتعدد والاختلاف ، مما يقربها من مفهوم «فيدجنشتين» مع فارق أساسى هو كون الذات عند فوكو تاريخية وتخضع لعلاقات المعرفة والسلطة .(١١٧)

ومن هنا نرى أن النقد الموجه إلى فوكو والقائم على فرضية «موت الإنسان» و«نقد النزعة الإنسانية» ، نقد لم يستوف شروط الممارسة النقدية ، وإنما يستجيب للمتطلبات الظرفية . صحيح أن فوكو أنكر الذات كجوهر وكوعى مفارق أو ككجيتو، ولكنه أكد من جهة أخرى على أن الذات بناء ، على أن نفهم من عملية البناء هذه تداخل عمليتين هما التوضيع والتذويت .

---

(١١٤) Michel Foucault, **Faire de sa Vie une Oeuvre d'Art,** In, **Le Monde,** du 15 - 16 juillet1984, p.01.

(١١٥) Michel Foucault, **Le Retour de la Morale,** in, **Les Nouvelles,** du 28 juin - 05 juillet, 1984, p. 41 .

(١١٦) Michel Foucault, **L'Ethique de Souci de Soi Comme Pratique de Liberté,** in, **(D.48)**, p. 107 .

(١١٧) John Rajchman, **Erotique de la Vérité,** Op-Cit, p.129.

أى أن : (هنالك معنيان لكلمة الذات ، ذات خاضعة للغير بواسطة المراقبة والتبعية ، وذات متعلقة بهويتها الخاصة بواسطة الوعى أو معرفة النفس .)(١١٨)

والانتقال من مفهوم السلطة الحيوية إلى الحاكمية له ما يبرره إذا فكرنا فى الوضع الجديد للذات ، كما أن قوله بأن الذات هى الموضوع المركزى فى فلسفته له ما يبرره أيضا . لذا فإن ممارسة السلطة تقوم على :

> (قيادة السلوكات وتهيئة احتمالها ، فالسلطة هى فى الحقيقة أقرب إلى «الحكم» منها إلى المواجهة بين خصمين أو إلى التزام أحدهما أمام الآخر ، يجب أن نترك لهذه الكلمة المعنى الواسع جدا الذى كانت تحمله فى القرن السادس عشر . فهى لا ترجع إلى بنى سياسية ولا إلى إدارة الدول. لكنها تدل على كيفية توجيه سلوك أفراد وجماعات وحكم الأولاد والنفوس ... بناء عليه لا ينبغى البحث عن نمط العلاقة الخاصة بالسلطة فى اتجاه العنف ولا فى اتجاه العقد و الرباط الطوعى ، وإنما فى اتجاه طريقة التصرف الفريدة هذه - لا الحربية ولا القانونية - التى هى الحكم .)(١١٩)

السلطة وفق المفهوم الجديد فعل فى أفعال الآخرين ، لها علاقة مباشرة بالذات ، لذلك لا يمكن أن تمارس إلا على ذوات حرة فاعلة وعاقلة ، وبذلك تكون الذات كما يقول «دلوز» : (مجموع متفاعل مؤقت ، فان من الثنى والطى ، واختلاف المسالك والثنايا إنها شبكة علاقات وسيرورة تكون تلك العلاقات ، إنها لون من الرغبة والمتعة والمعرفة والسلطة وعلاقات القوى ، فى ارتباطها بعلاقة الذات بذاتها ، إنها فجوة وكيان عرضى يعاد تشكيله دوما فى فنائه وانزياحه وتعدد إمكان تحقيقه .)(١٢٠)

هذه الذات الشكل ، الشكل المتعدد والتى تقيم علاقات مختلفة مع المعرفة والسلطة ، أو مع الممارسات الخطابية وغير الخطابية ، ماهى علاقتها بالخطاب ؟

---

(١١٨) دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو ، مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٩٠ .

(١١٩) نفس المرجع ، ص. ١٩٧ .

(١٢٠) جيل دلوز، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ١٢٨ .

ثالثا - بين الذات والخطاب : فى جوابه عن مجلة "Esprit" قال : (إن الخطاب ليس ذاتا منضافة إلى اللغة ، وليس وعيا معبر عنه بلغة وإنما هو فضاء تنتظم فيه الذوات لتنشط وتتموقع .)(١٢١) وهو ما عبر عنه فى أركيولوجيا المعرفة بتبعثر الذات . هذه الذات ستصبح فى إرادة المعرفة موضوع خطاب يجد أساسه فى خطاب الاعتراف .

لذا فإن ما يقوله «الكبسى» يوافق هذا المسار ، حيث يرى أنه : (لو انتبهنا لتشابك الخطابات مع بقية الممارسات ، باعتباره صانع الصلة بين الشروط التقنية والسياسية والاجتماعية التى تعيد إنتاجه من جديد ، نفهم بكل يسر أن الذات ، والخطاب والسلطة مركب واحد ، فالذات لا تتكلم خطابا لأنها «خطاب» .)(١٢٢)

ولكن ما لا يتوقف عنده الكبسى هو الفروقات وإن كانت صغيرة فهى أساسية ، لتحديد الخطاب ذاته وتحديد علاقته بالذات ، صحيح أن الذات تتحدد كممارسة وهو ما يحدد الخطاب ، وصحيح أيضا أن الذات تدخل فى استراتيجيات سلطوية ومعرفية كالخطاب وأنها لاتشكل جوهرا بل شكلا ، أو أشكالا من البناء مثل الخطاب الذى لا يقوم على المعنى ، ولا على الدلالة وأن طريقة التحليل أركيولوجية - جنيالوجية ولكن بتكثيف لعملية التأويل .(١٢٣)

هذا التكثيف يظهر لنا فى الحضور القوى للنص بدل الخطاب ، وإن كان استعمل الخطاب فى أكثر من مرة ، ونظر إلى النص ذاته كوثيقة ، ولكن تفحص استعمال كلمة النص فى أكثر من موقع ، له ما يبرره فى نظرنا ، وهو ما يشكل تعديلا مهما فى طريقة فوكو ، هذا التعديل إذا كان لم يتناول الأساس فى مفهوم الخطاب ، فقد تناول جوانب أساسية ذات علاقة بالخطاب .

وربما وجب التساؤل عن الفارق بين النص والخطاب ، والقول أن النص خطاب مكتوب ، مما يعنى استبعاد جانب الملفوظ من الخطاب ، ولكن نعلم أن فوكو ركز كذلك - وهو ما لايجب إهماله - على فعل قول الحقيقة من خلال الاعتراف وأن الذات تحتاج دائما إلى خطاب مكتوب أو مقروء .

---

(١٢١) Michel Foucault, **Réponse à une Question,** p.857.

(١٢٢) محمد على لكبسي ، **ميشال فوكو** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٥٢ .

(١٢٣) Henri Joly, **Retour au Grec, in Le Débat,** N° 41,1986, p.100.

يتساءل في درسه حول تأويلية الذات قائلا : (لكن إلى أي شيء نحتاج كي يمكننا المحافظة على التحكم في النفس أمام الأحداث التي يمكن أن تقع ، نحتاج إلى خطابات باعتبارها خطابات صحيحة ومعقولة .)(١٢٤)

كل هذا في نظرنا لا يمكن أن يستبعد الحضور القوي للنص وللطريقة الجديدة في تناوله ، فهنالك تراجع كلي على مستوى المؤلف ، فإذا كانت الخطابات تبني للمجهول ، فإن النصوص التي اعتمدها في عمله الأخير تقوم على المعلوم ، إنها نصوص لفلاسفة وأطباء معروفين ، إنها نصوص أبو قراط ، أفلاطون ، أرسطو ، أبيكتيت ، سيناك. .. إلخ . وهذه النصوص ليست هامشية ، بل أساسية على عكس ما كان الحال في **الكلمات والأشياء** مثلا .

كما لم يعد البحث يتناول أشكال التبعثر أو نظام تبعثر المنطوقات ولا تحديد التشكيلات الخطابية ، وإنما تحليل النصوص من جهة ما يسميه بالمسألية ، التي سنحددها بعد قليل ، وذلك بعد أن نشير إلى بعض التقنيات التي مارسها في تحليل النصوص ، مثل : تحليل النص إلى عناصره الأساسية ، الوقوف على المفردة الأساسية ، التقديم والتأخير ، ضرب المثال ، الشرح ، التعليق ، التلخيص ، الربط بين النصوص ، التأويل والمقارنة ، الاستشهاد .

كما تغير أسلوب الكتابة بشكل واضح ، من أسلوب يقوم على التشكيل والتعقيد والغموض ، إلى أسلوب واضح وبسيط ومحدد ، إن هذا التعديل ربما له أسبابه ، أهمها : الفترة التاريخية الجديدة على الفيلسوف ، طبيعة الوثائق التي يعترف أنها مجهولة بالنسبة إليه ، لذلك يحدد وثائقه بالنصوص : (مهما اختلف شكلها (خطابات ، حوار ، مبحث ، مجموعة وصفات ، رسائل ... إلخ .) موضوعها الرئيسي اقتراح قواعد السلوك .)(١٢٥)

وطابع هذه النصوص عملية أي : (تكون هي ذاتها موضوعات للعمل [الممارسة] بمقدار ماهي مصنوعة لتكون مقروؤة،محفوظة ، ومتأملا فيها ، مستخدمة موضوعة تحت التجربة ...)(١٢٦) إن الطابع الخاص للنصوص المستعملة ، يعني أنها رغم كونها نصوص لمعروفين ، ورغم كونها نصوص أساسية إلا أنها ذات طبيعة خاصة ، يعني

---

(١٢٤) ميشيل فوكو ، **دروس** ، ص. ٨٣ .

(١٢٥) ميشيل فوكو ، **استعمال اللذات** ، ص. ١٣ .

(١٢٦) نفس المصدر ، ص. ١٣ .

طبيعة عملية يومية وعادية ، وهذا ما يقربها من مفهوم الخطاب كما صاغه في **أركيولوجيا المعرفة** .

ويؤكد هذه الطريقة ، أو منهج التحليل قوله : (سأحاول أن استعيد لا «السياق المذهبي» الذي يمكن أن يعطى كل نص معناه الخاص وقيمته التفاضلية ، بل «حقل الطرح المسألي» الذي كان مشتركا بينها والذي جعلها كلها ممكنة ...)[١٢٧]

والطرح المسألي يقوم على سؤال الكيف ورصد مختلف الممارسات دون الإنسياق في تحليل المضامين أو المحتويات أو الدلالات ، بل إبراز المشكلية أو المسألية ، فماذا يقصد فوكو بهذا المفهوم الذي يعادل في الاستعمال مفهوم الإبستيمية .

يعرف المشكلية بقوله : (هي مجموع الممارسات الخطابية وغير الخطابية التي تدخل عنصرا ما أو شيئا ما في لعبة الحقيقة والخطأ ، وتشكله كموضوع للفكر (سواء في شكل تفكير أخلاقي أو معرفي علمي أو تحليل سياسي .)[١٢٨]

ينتج عن هذا أن طريقة البحث والدراسة لا تختلف جذريا عن طريقة دراسة الخطاب ، مادام الطرح المسألي يهتم بالممارسات المختلفة ، الخطابية وغير الخطابية ، إلا أن جديد هذا الطرح هو اهتمامه بمسألة ما يسميه ألعاب الحقيقة ، على عكس الطرح الأركيولوجي الذي كان يهتم بالوصف فقط .

هذا الطرح الجديد ، يعود أساسا إلى تطبيق الجنيالوجيا والتأويل في فهم النصوص ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه في الفصل الثاني من هذا البحث ، وعليه تكون الذات بحسب التحليل سواء من خلال عرض موضوعاتها أو مفهومها ، أو في علاقتها بالخطاب ، حصيلة مختلف الممارسات .

على أن نأخذ بعين الاعتبار علاقة هذه الممارسات بألعاب الحقيقة والخطأ مقارنة بالممارسات المعرفية في صورتها الأركيولوجية ، أو الممارسات غير الخطابية في صورة جنيالوجيا السلطة . هذه العلاقة ، علاقة الذات بألعاب الحقيقة والخطأ ، هو ما يسميه بتأويلية الذات ، وهو ما يسمح أيضا بإنشاء تاريخ للحقيقة وهو التعديل الأساسي في مشروعه الفلسفي والذي تلخصه الأسئلة الآتية : (ما هي ألعاب الحقيقة تلك التي من خلالها يتاح للإنسان أن يفكر كينونته عندما يدرك ذاته كمجنون ، وعندما ينظر إلى ذاته كمريض ، وعندما يتفكر في نفسه باعتباره كائنا حيا ، ناطقا وعاملا ، وعندما

---

(١٢٧) نفس المصدر، ص. ٣٠ .

(١٢٨) Michel Foucault, **Le Souci de la Vérité**, p.18.

يقاضى ذاته ويعاقب نفسه تحت صفة مجرم ؟ وما هى ألعاب الحقيقة التى من خلالها يدرك الإنسان نفسه باعتباره إنسان الرغبة .)(١٢٩)

إن هذه الأسئلة التى حاول الإجابة عليها من خلال مختلف أعماله ، وخاصة عمله الأخير الخاص **باستعمال اللذات والإنهمام بالذات** ، تطرح علينا مشكلة أساسية ، فى سياق بحثنا فى مفهوم الخطاب ، ومختلف علاقاته ومكانته ووظيفته ، هذه المشكلة هى علاقة الخطاب كمفهوم بالتاريخ والفلسفة ، مادامت أعمال ميشال فوكو، التى ناقشت موضوعات المعرفة والسلطة والذات أعمالا تاريخية ، سواء من حيث الطرح أو من حيث الموضوعات ، وفلسفية من حيث طبيعة التحليل ، والأسئلة والمشكلات المطروحة وهو ما سنحاول مناقشته والإجابة عليه فى الفصل الموالى .

---

(١٢٩) ميشيل فوكو ، **استعمال اللذات** ، ص٥٩ .



الفصل السادس

الخطاب بين التاريخ والفلسفة

مقدمة .

المحور الأول – بين الخطاب والتاريخ .

المحور الثاني – بين الخطاب والفلسفة .

المحور الثالث – خطاب الأنطولوجية التاريخية .

مقدمة

تندرج أعمال فوكو ضمن الأبحاث التاريخية ، وكتبه صدرت كلها إما ضمن سلسلة مكتبة العلوم الإنسانية أو مكتبة التواريخ، وهذا يحمل في حد ذاته دلالة أساسية ، تبين مجال بحثه وارتباطه خاصة بالميدان التاريخي ، الذي يحظى بحضور قوي ، سواء من حيث الدراسة والبحث ، أو من حيث التفكير والتنظير.

إن **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ومولد العيادة والكلمات والأشياء والمراقبة والمعاقبة وتاريخ الجنسانية** ، كلها أعمال تاريخية وتدرس مسائل تاريخية، بدءا من اليونان حتى القرن العشرين مرورا بالعصر الحديث وخاصة المرحلة الكلاسيكية أو القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتواريخ معينة تتردد أكثر في أعماله، مثل سنة ١٦٥٦ تاريخ تأسيس المستشفى أو ١٦٧٠ تاريخ تنظيم الممارسة العقابية أو الفترة الممتدة بين ١٧٨٠ - ١٨٢٠ كتاريخ للطب العيادى أو الفترة القائمة بين ١٦٦٠ - ١٨١٠ وهى فترة المرحلة الكلاسيكية أو تاريخ ١٢١٥ كتاريخ لبداية الاعتراف وسر التوبة .

وينقسم عمله التاريخى بشكل عام ، إلى تاريخ للآخر وتاريخ للذات ، أو كما يقول فى **الكلمات والأشياء** : (إن تاريخ الجنون ، قد يكون تاريخ الآخر ، تاريخ ماهو بالنسبة لثقافة ما ، فى آن واحد، داخلي ودخيل، أي ما يتوجب استبعاده " لا لتجنب خطره الداخلى" ولكنه بسجنه " للحد من آخريته" ، أما تاريخ نظام الأشياء فسيكون تاريخ الذات - تاريخ ماهو بالنسبة لثقافة ما فى آن واحد مبعثر ومتقارب - أى ما يتوجب تمييزه بعلامات وتلقيه في هويات .[(١)]

إن تاريخ الآخر " L'Autre " يشمل المجنون فى **تاريخ الجنون** والمريض فى **مولد العيادة** والمجرم فى **المراقبة والمعاقبة** والجنس في **تاريخ الجنسانية** ، أما الذات أو ذات النفس "Le même " فكان موضوع **الكلمات والأشياء** ، ومن هذه الزاوية قد نوافق فوكو فى أن **الكلمات والأشياء** أقل الكتب قربا منه ، لأنه يتحدث عن تاريخ لا يتلاءم ومجمل التواريخ التى اهتم بها ، أى تواريخ الأطراف والهوامش ، تواريخ لا تهتم بالقمم ، وإنما بكل ما يشكل أسفل المجتمع .

(١) ميشال فوكو ، **الكلمات والأشياء** ، ص ، ص ، ٢٦. - ٢٧ .

ولكن فوكو وكما هو معلوم ، اهتم بالتاريخ كفرع معرفي ، في سياق حديثه عن العلوم الإنسانية ، وبمكانة التاريخ في العصر الحديث ، وبأهمية التاريخ مقارنة بمختلف المعارف.كتب في **الكلمات والأشياء** ما نصه : (نحن نعلم أن التاريخ بمعناه الكامل هـو المنطقة الأوفر معارف والأغزر علما ودراية ... والأكثر ازدحاما في ذاكرتنا ، لكنه في الوقت ذاته هو الأرضية التي تنشأ عليها كل الكائنات وتعرف فيها لمعتها العابرة ، وقد أمسى التاريخ بوصفه نمط وجود كل ما يمثل أمام تجربتنا ، شيئا يتعذر على تفكيرنا أن يحيط به ، ولعله لا يختلف من هـذا الجانب عن النظام الكلاسيكي .[٢]

التاريخ بالنسبة للقرن التاسع عشر معرفة ونمط وجود الاختبارية . وهذا يتماثل وإبستيمية العصر الحديث ، إلا أن فوكو يستعمل مفهوما جديدا للتاريخ يعلن عنه في مقدمة كتابه **المراقبة والمعاقبة** ، وهو ما سماه بتاريخ الحاضر .[٣] إن هذا التاريخ قد سبقته دراسة لمعناه وهو ما يشكل الجانب النظري من عمله ، والذي نجده في مقدمة كتابه **أركيولوجيا المعرفة** وفي دراسته حول **نيتشه : الجنيالوجيا والتاريخ** .

ولعل أول شيء تجب الإشارة إليه ، هو هذا الجمع أولا بين حديث عن التاريخ في كتاب خاص بالخطاب وآلياته وثانيا استكمال هذا التاريخ بدراسة عن جنيالوجيا "نيتشه". إن هاتين الدراستين تبينان في نظرنا المزاوجة بين البحث في الخطاب والتاريخ ، مادام الخطاب يدرس تاريخيا وعبر تحليل مختلف الممارسات الخطابية واستخدامه للطريقة الأركيولوجية الجنيالوجية ، وربما تعتبر هاتين الدراستين ، تحقيقا لذلك الوعد أو المشروع الذي صرح به لمجلة "Esprit" بكتابة دراسة عن التاريخ تحمل عنوانا : **الماضي والحاضر: أركيولوجيا أخرى للعلوم الإنسانية** .[٤]

إن مضمون هذا العمل ، سواء ما تعلق بالبحث التاريخي أو بالتنظير للتاريخ وعلاقة ذلك بالخطاب هو موضوع بحثنا في هذا الفصل مبتدئين بـ :

---

(٢) نفس المصدر، ص ١٩١.

(٣) ميشال فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص . ٦٨ .

(٤) Michel Foucault, **Réponse à une Question**, p.854.

المحور الأول- بين الخطاب والتاريخ :

لكى نستطيع دراسة العلاقة بين الخطاب والتاريخ ، يجب أن نبين فى البداية مفهوم التاريخ مادمنا قد تعرضنا لمفهوم الخطاب فى الفصل الثانى وفى باقى فصول البحث ، ثم نحاول أن نبين العلاقة بينهما كما سنحاول إظهار بعض النتائج ذات العلاقة بالموضوع .

أولا - مفهوم التاريخ : يميز فوكو بين التاريخ الشامل "Globale " والتاريخ العام "Générale " ، ويرى أن التاريخ الشامل، يتناسب وصورة المثقف الشمولى ، إنه ذلك التاريخ القائم على العلاقات المتجانسة والإرتباطات العلية ، وجمع الأحداث حول مركز واحد ، وتقسيم الزمن إلى وحدات كبرى والأحداث إلى مبدأ موحد، أو لدلالة معينة أو لروح العصر أو غيره ... إلخ .

أما التاريخ العام ، فهو تاريخ السلاسل والقطائع والحدود والمراتب والفوارق والخصوصيات ، لذا نجده يوازن بين الشكلين بقوله : (التاريخ الشامل يضم جميع الظواهر حول مركز وحيد، قد يكـون مبدأ أو دلالـة أو روح عصرأو رؤيـة للعالم ، أما التاريخ العام فإنه يرسم على العكس فضاء تبعثر.(٥))

فضاء التبعثر هذا، يتناسب ومهمة وصف الخطاب كما بينا ذلك فى الفصل الثانى، حيث وجدنا أن فوكو قد جرب مجموعة من الفرضيات لوصف الخطاب ثم عدل عنها، ليقيم الوصف على التبعثر والتوزع، هذا التبعثر أو التوزع هو مضمون أو حقيقة التاريخ العام .

من هنا فإن التاريخ العام يتميز بمجموعة من القضايا المنهجية، تتفق وتلك المبادئ المنهجية التى بسطناها فى منهج الخطاب من مثل، تكوين مجموعات منسقة ورصد مدونة لمجموع وثائق المرحلة التاريخية ووضع مبدأ للإختيار والانتقاء وتحديد مستوى التحليل والعناصر ذات الأهمية وتعيين المجموعات الكبرى والصغرى والعلاقات التى تسمح بتعيين مجموعة ما .

---

(٥) ميشال فوكو، **حفريات المعرفة** ، ص،ص.١١-٢١.

هذا المفهوم الجديد للتاريخ يسمح في نظر فوكو، بالتخلص من فلسفة التاريخ والإقتراب أكثر من العلوم الإنسانية ومناهجها وخاصة في صورتها البنيوية ، مما أدى إلى إقامة علاقة كبيرة بين البنيوية والمفهوم الجديد للتاريخ .

وترتبت عن هذا المفهوم الجديد للتاريخ، نتائج مباشرة على ميدان عمل الفيلسوف ونعني بذلك تاريخ الأفكار ، ذلك التاريخ القائم على مبدأ الاتصال والذات المؤسسة ، وتم تعويضه بمبدأ الانفصال "Discontinuité " كمفهوم مركزي في البحث التاريخي ، ولقد سبق وأن بينا بعض خصائصه في دراستنا لعلاقة الإبستيمولوجيا بتاريخ العلوم في الفصل الثاني، المحور الثاني . إن هذا المفهوم المركزي يدخل في الحقيقة ضمن الانقلاب الإبستيمولوجي الذي أصاب التاريخ ، وأصوله ترجع إلى " ماركس" كما قرأه "ألتوسير" وإلى اهتمام المؤرخين بالفترات الطويلة مثل ما هو الحال في مدرسة الحوليات الفرنسية عند " بلوخ " أو " بروودال " أو غيرهما بحيث تحول :

(الاهتمام عكس ما سبق ، من الوحدات المنسقة التي كانت توصف " كعصور" و" قرون " ، صوب ظواهر الانفصال ، فوراء الاتصالات الكبرى للفكر ، وراء التجليات العظمى والمتجانسة لروح أو لعقلية جمالية ، وخلف الصيرورة العنيدة لعلم متماسك بأن يوجد وأن يكتمل منذ بدايته ، وخلف إصرار جنس من الأجناس الأدبية، أو شكل من الأشكال أو فرع معرفي ما من فروع المعرفة أو نشاط ما من الأنشطة النظرية ، ينكب البحث حاليا على رصد الانقطاعات تلك الانقطاعات التي تتباين تباينا كبيرا فيما يخص طبيعتها وصفتها .[٦]

كما نجد خلفيته الإبستيمولوجية في أعمال "باشلار"، في مفهومي العتبة والقطيعة ، وفي أعمال " كونغليم " ومسألة تحول المفاهيم ، والفصل الذي أقامه "التوسير" بين العلمي والإيديولوجي ، لذلك يعمل التاريخ الجديد أو التاريخ العام على تقصي مظاهر الانفصال ، الذي يؤدي بالضرورة إلى وضع الوثيقة ، موضع السؤال

---

(٦) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة**، ص ٦ .

بحيث أصبحت المسألة ليست مسألة : (تأويل الوثيقة أو تعيين مدى صدقها وقيمتها التعبيرية، بل فحصها من الداخل وتدبرها . (٧)

هذا الفحص والتدبر ، يتم بواسطة تنظيمها وتجزئتها وترتيبها وتقسيمها إلى مستويات ، عبر إقامة السلاسل ورصد العناصر وتعيين الوحدات ووصف العلاقات . كما أن وضع ومكانة الوثيقة قد تغير مقارنة بالتاريخ الشامل ، فإذا كانت مجرد ذاكرة يتم استنطاقها عبر مختلف طرق التأويل ، فإنها في التاريخ الجديد تحولت إلى نصب أثرية ، تتطلب الوصف ، وهو ما يقوم به المنهج الأركيولوجي عبر مختلف خطواته ، مثل :

(أ) إبراز تعدد الانفصالات في تاريخ الأفكار والكشف عن الفترات الطويلة في التاريخ .

(ب) إقامة السلاسل وتحديد العناصر وتعيين الحدود .

(جـ) جعل مفهوم الانفصال مفهوما مركزيا للعمل التاريخي أو عملا مقصودا للمؤرخ ، لا يرجع إلى نقص أو مشكلة في المادة التاريخية ، إنه حاصل وصف يقوم به المؤرخ ، وبهذا يكون : (أداة البحث وموضوعه في نفس الوقت ، يعين حدود الحقل الذي يتولد فيه ، ويسمح بتعيين تفرد الميادين ، التي لا يمكننا تحديده إلا بفضل المقارنة بينها ، ولأنه في نهاية الأمر ، ليس مجرد مفهوم قائم وحاضر في خطاب المؤرخ ، بل يفترضه هذا الأخير وينطلق ضمنيا من أنه قائم ، وإلا فمن أي موقع يستطيع أن يتكلم إن لم يكن إنطلاقا من ذلك الانفصال الذي يمده بالتاريخ كموضوع - وبتاريخه هو ؟) (٨)

لم يعد الانفصال في نظر فوكو، يشكل عائقا أمام المؤرخ ، بل ميزة منهجية يتناسب وخصائص الخطاب القائمة على الندرة والحدث وممارسة تندرج في الخطاب التاريخي ، إنه ليس فقط مفهوما إجرائيا بل ميدانا للبحث التاريخي .

إن هذا التصور الجديد للتاريخ ، يتنافى وصورة التاريخ كما كانت تمارس خاصة عند مؤرخي الأفكار والفلاسفة على وجه التدقيق ، من هنا نفهم ذلك الرفض الذي

(٧) نفس المصدر ، ص ٨ .

(٨) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ص ١٠ .

قوبل به هذا التصور من طرف مؤرخي الأفكار والفلاسفة ، ووصفهم لفوكو بالفيلسوف المناهض للتاريخ وبالتالى المناهض للعقلانية .(٩)

والحقيقة أن فوكو ، لا ينكر التاريخ وإنما ينكر تاريخا معينا أو تصورا معينا للتاريخ ، ذلك التصور القائم على الاتصال وسيادة الوعى والذات ، لذلك يقول : (ليس اختفاء التاريخ ، بل إنقراض ذلك الشكل من التاريخ الذى كان يحيل ضمنيا إلى النشاط التركيبى للذات .(١٠)

وإنه من أجل التخلص من هذا التصور وجب بالضرورة ، التخلص من مجموع المفاهيم المشكلة له ، من مثل مفهوم التقليد والتأثر والتأثير والتطور والتقدم وإرجاع المتعدد إلى المبدأ الواحد ... إلخ . وإقامة بدلها مفاهيم ، الانفصال والقطيعة والفترة الطويلة والتحولات والتشكيلات الخطابية والممارسات الخطابية ... إلخ . وعندما يتخلص المؤرخ من مفاهيم التاريخ الشامل ، يجد نفسه كما يقول فوكو : (أمام ميدان رحب يمكننا فى تعريفه القول بأنه يتكون من المنطوقات الفعلية "منطوقة أو مكتوبة" فى تبعثرها كأحداث وفى اختلاف مستوياتها .(١١)

ويكون المطلوب من المؤرخ هو وصف تلك الأحداث الخطابية والإجابة عن سؤال أساسى هو : (ما الذى يجعل منطوقا ما ، يظهر دون أن يظهر منطوقا آخر بدلا عنه .)(١٢) يعنى هذا النظر إلى المنطوق كحدث ، وتحديد شروط وجوده أو قبله التاريخى ، وتعيين مختلف وظائفه ، من هنا وجب إلغاء الوحدات الكبرى والفروع المعرفية من أجل أن نعيد للمنطوق تميزه كحدث : (وأن نؤكد أن الانفصال ليس مجرد حدث من الحوادث الكبرى التى يشهدها التاريخ ... بل هو وقبل كل شىء حدث يصيب المنطوق الذى ينبجس بغتة فى التاريخ ويظهر كحدث لا أصل له .(١٣)

---

(٩) Olivier Revault D'Allones, **Michl Foucault: Les mots contre les choses,** In, **Structuralisme et Marxisme,** ed. 10 - 18 Paris,1970

هذه لدراسة مثال واضح للنقد القائل أن فوكو ينكر التاريخ والعقلانية، متخذا من المنظور الماركسى للتاريخ أساسا للنقد والتعليق.

(١٠) ميشال فوكو ، نفس المصدر ، ص. ١٥.

(١١) نفس المصدر ، ص. ٢٦.

(١٢) نفس المصدر، ص. ٢٧ .

(١٣) نفس المصدر ، ص. ٢٨ .

إن هذه الخصائص والميزات التى أتينا على ذكرها يلخصها فى **نظام الخطاب** بقوله : (إن المفاهيم الأساسية التى تفرض نفسها الآن ليست هى مفاهيم الوعى والاتصال ... ولا هى مفاهيم الرمز والبنية ، إنها مفاهيم الحادث والسلسلة ... وإن تحليلي للخطابات كما أفكر فيه يرتبط ارتباطا مفصليا بجملة هذه المفاهيم لا بطائفة الموضوعات المحورية التي دأب الفلاسفة على اعتبارها تمثل " التاريخ الحي"، **يرتبط تحليلي للخطابات ارتباطا مفصليا بالجهد الفعلى للمؤرخين** .) [١٤]

يبين هذا الارتباط من جهة علاقة الخطاب بالتاريخ فى صيغته الأركيولوجية ، كما يبين من جهة أخرى تميز التحليلات الخطابية عند فوكو مقارنة بالتحليلات التأويلية والمنطقية . ولكن هذا التميز لا يكتمل إلا بإضافة التحليل الجنيالوجى للخطاب ، وهو ما تطرق إليه في دراسته عن **نيتشه ، الجنيالوجيا والتاريخ** حيث أقر جملة من المبادئ والأفكار ذات العلاقة المباشرة بمفهوم التاريخ وتحليل الخطاب .

سبق وأن بينا هذه الإضافة ، فى سياق دراستنا لمنهج تحليل الخطاب فى الفصل الثانى ، وخاصة فيما يتعلق بالجانب المنهجي ، وعلينا الآن أن نبين ما يتعلق بالجانب التاريخى . إن أهمية المنظور الجنيالوجى للتاريخ ، تكمن في أن الجنيالوجيا ذات لون رمادى كما يقول "نيتشه" ومتصلة مباشرة بالوثائق والمخطوطات ، وتتميز بالحيطة والحذر ، لتعرف الأحداث المتفردة ، لذا تتطلب معارف كثيرة وهى بهذه الصورة ، لا تتعارض مع التاريخ ، إلا عندما يكون ميتافيزيقيا ومثاليا ومشبعا بالغايات والبحث فى الأصول .[١٥]

الجنيالوجيا ، ربما بمفارقة غريبة هى رفض للأصل فى صورته الميتافيزيقية ، لذلك فإن : (التاريخ الجنيالوجى يعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التى يحظى بها الأصل ، الأصل الأسمى عبارة عن فائض فى النمو الميتافيزيقى ، قائم على تصور مؤداه أن الأشياء فى بدئها تتوفر على ماهو نفيس جدا وجوهرى جدا .[١٦]

وعلى عكس الأصل ، تقترح الجنيالوجيا البدايات، البدايات التاريخية، فبدل البحث عن الأصل يجب :

---

(١٤) ميشال فوكو ، **نظام الخطاب،** ص. ٢٤ . " التشديد من عندنا ".
(١٥) ميشال فوكو، **نيتشه : الجنيالوجيا والتاريخ ،** ص ٨ .
(١٦) نفس المصدر، ص. ٥١ .

(الوقوف الطويل والمتأني عند البدايات ، البدايات بكل تفاصيلها واتفاقاتها والاهتمام الدقيق بقبحها وسخفها ...[17] وعلى هذا الأساس من التمييز بين الأصل والبداية، يحتاج الجنيالوجي للتاريخ ليتجنب وهم الأصل ، كما يحتاج الفيلسوف للطب ليتجنب أوهام الروح ، كما يقول ذلك "نيتشه" الذى يستشهد به فوكو ، لمناقشة مشكلة الأصل والبداية .

وما يجب القيام به لرصد البدايات بدل الأصول هو أن : (نتعلم كيف نتعرف على حوادث التاريخ وهزاته ومفاجآته والانتصارات الهشة والهزائم غير المستساغة والتشديد على الاهتمام بالبداية والمحتد والإرث الموروث وذلك على غرار ما يحدث فى تشخيص أمراض الجسد .[18]

إن هذه الجنيالوجيا يسميها "نيتشه" بالروح التاريخية أو بالحس التاريخى ، فى مقابل النظرة الميتافيزيقية للتاريخ ، التي يجب تجنبها لأنها قائمة على مبدأ المطلق ، وحينئذ لا تبقى إلا : (النظرة الحادة التي تميز وتوزع وتشتت وتدع الفوارق والهوامش تعمل عملها . إنها نظرة مفتتة قادرة على أن تفتت نفسها وتمحو وحدة هذا الكائن البشرى الذى يفترض أن بإمكانه أن ينقل تلك النظرة إلى ماضيها .)[19]

إن هذه الجنيالوجيا لا تختلف عن هدف الأركيولوجيا وطريقتهما واحدة من حيث دراسة التوزع والتبعثر والهوامش والأطراف ، فليس هنالك شيء ثابت فحتى الإنسان وحتى جسمه متغير .

وعليه يكون التاريخ بالمعنى الجنيالوجي، ليس استعادة للماضى أو لسيادة الذات وإنما يكون فعليا : (بقدر ما يقحم الانفصال فى وجودنا ذاته .[20] وهو نفس هدف الأركيولوجيا التى تجعل من الانفصال ، مفهوما للتحليل وميدانا للدراسة فى نفس الوقت ، كما بينا ذلك .

وإذا كانت الجنيالوجيا والأركيولوجيا تتأسسان على مبدأ الانفصال ، فإن هدفهما واحد ويتناسب وتحليل الخطاب ، هذا الهدف هو : (إبراز الحدث في تفرده ووحدته .)[21]

---

(١٧) نفس المصدر ، ص . ٥٢ .
(١٨) ميشال فوكو ، **نيتشه : الجنيالوجيا والتاريخ** ، ص. ٥٢ .
(١٩) نفس المصدر ، ص. ٤٨ .
(٢٠) نفس المصدر ، ص. ٥٩ .
(٢١) نفس المصدر، نفس الصفحة .

يسمح الانفصال والتفرد بتأسيس منظور للتاريخ، لا يقوم على استعادة الماضي في صورة اتصالية ، وإنما على دراسة الحاضر من خلال مختلف علاقات المعرفة - السلطة .

هذه الدراسة التى كانت موضوع بحث فى مختلف دراسات الفيلسوف ، وخاصة فى **المراقبة والمعاقبة** الذى أفصح فيه عن هدفه من كتابة تاريخ أشكال العقاب وهو كتابة تاريخ الحاضر ، هذا المفهوم الذي سنعود إليه بعد أن نتناول علاقة الخطاب بالتاريخ .

ثانيا - بين الخطاب والتاريخ : سبق وأن ناقشنا فى الفصل الثانى المحور الثانى ، مسائل منهج الخطاب وعلاقة هذا المنهج بالتاريخ ، من خلال مختلف القواعد والمبادئ مثل : كيفية ظهور المنطوقات والتساؤل على القبلى التاريخى ومختلف الوظائف التاريخية للخطابات وغيرها من الأفكار التي تقيم العلاقة بين التاريخ كميدان للتحليل والخطاب كموضوع للبحث ، وهو ما يشكل فى نظرنا جدة المشروع الفلسفى لفوكو .

يقوم هذا المشروع الأركيولوجى كما يقول "جاك ميلهو" فى تعليقه على كتاب **الكلمات والأشياء** ، على واقع المكتوب كحدث تاريخى .(٢٢) وهو ما يؤكد قول فوكو فى " كتاب الآخرين " إن الثابت في العلاقة بين الخطاب والتاريخ هو هذه الطريقة التى تسمح لنا ، بمعالجة التاريخ كمجموعة من المنطوقات الفعلية والمتمفصلة ، أو دراسة اللغة كموضوع للوصف وكجملة من العلاقات مما يجعل المنطوقات تترابط مع مختلف أنماط الخطاب .(٢٣)

إن هذا التمفصل بين التاريخ والخطاب يظهر أكثر إذا أردنا دراسة مؤسسة من المؤسسات كالمستشفى مثلا حيث يتطلب الأمر النظر فى أرشيف هذه المؤسسة فى حالة تكونه أو كخطاب فى حالة التشكل ، وجعله فى نفس حركة المستشفى وهذا ما يسمح بربط الخطاب بحركية التاريخ في شكل تاريخ المؤسسة .(٢٤)

---

(٢٢) Jacques Milhou **Les Mots et Les Choses**, Op-cit, p.59.
(٢٣) Rymond Bellour, **Le Livre des Autres** Op-Cit, p.110.
(٢٤) ١٥٨ Ibid .

إن هذه الفكرة التى تربط بشكل تمفصلى بين الخطاب والتاريخ ، تطرح مشكلة التحول وكيف يمكن تحقيقه ، هذه المشكلة التي سنبينها بعد أن نتعرض إلى فكرة أساسية تتعلق بتشكيل المدونات "Corpus" هذه الفكرة التي تميز طريقة فوكو فى تحليل الخطاب عن الطريقة التأويلية والتشكيلية ، وخلاصتها أننا فى موضوع كموضوع الجنون لا يمكن لنا حصر مدونة بناء على معيار من المعايير ، ذلك أنه من غير الممكن تحديد مجمل الخطابات التي قيلت عن الجنون فى مرحلة تاريخية معينة .[٢٥] لذلك وجب ربط الخطاب - وفى هذه الحالة خطاب الجنون - بمختلف الإستراتيجيات الخاصة به .[٢٦]

من هنا إصرار فوكو على دراسة الخطابات لا باعتبارها تحمل دلالات متعددة ، ولكن باعتبارها أحداث ذات وظائف معينة وأن المعنى إن وجب الحديث عن المعنى ، ليس فيما تحمله من مقاصد مستترة ، ولكن فيما تحمله من اختلاف يفصلها عن غيرها من المنطوقات الواقعية والمعاصرة لها ، وعلى هذا الأساس يظهر ما يمكن تسميته بالتاريخ النسقى للخطابات .[٢٧]

هذا التاريخ النسقي للخطابات يتم تحليله بالكشف عن المنطوق وعن : (نمط وجوده وكيفية تجليه ، وما ترتب عنه من آثار ، وباستمراره قابلا لأن يستعمل ثانية عند الاقتضاء ، ويطالب بالأسباب التى جعلته يظهر دون غيره .[٢٨]

يتم وصف المنطوق ، فى ندرته وانتظامه الخارجى وماديته وتبعثره أو توزعه كما يتم التخلى كلية عن معايير تاريخ الأفكار وطريقة دراسته للنصوص وإحلال محله تاريخ الأنساق الفكرية الذى يكون هدفه ، ليس البحث فى الآراء صحيحها وفاسدها بل فى الفوارق والإختلافات الموجودة بين صيغ الخطاب ووجوهه ورصد مختلف تحولاته .

هذا التحول كان أحد أوجه الاعتراض على مفهوم التاريخ عند فوكو، ذلك أن النقاد يرون فى القول بتاريخ نسقي للخطابات ، يعنى القول بالمنظور البنيوى الذى يقوم على أسبقية التزامن والتعاقب ، هؤلاء النقاد بمختلف مشاريهم لم ينتبهوا إلى

---

(٢٥) Ibid, même page.

(٢٦) Ibid, même page.

(٢٧) Michel Foucault, **Naissance de la clinique**, p.12.

(٢٨) فوكو ميشال ، **حفريات المعرفة** ، ص. ١٠٤ .

خصوصية مصطلح التحول الذى استعمله فوكو سواء فى **أركيولوجيا المعرفة** أو فى محاضرته بجامعة "طوكيو" حيث بين علاقة التاريخ بالبنيوية وعلاقة مفهومه للتاريخ بالبنيوية .

يقدم فى **أركيولوجيا المعرفة** جملة من الأفكار تبدو للوهلة الأولى متعارضة ، ولكن ما إن نقارنها بمحاضرته حتى يتضح المقصود الذى يريد الوصول إليه ، يقول مثلا : (ففى التحليل الحفرى [الأركيولوجى] ثمة تعليق للتعاقبات الزمنية ، أو لنقل بعبارة أدق تعليق الترتيب الزمنى للصيغ .) [٢٩] من الواضح أن فوكو في هذه الجملة ، يذهب مذهب الألسنية البنيوية، ولكننا، ما إن نتابع تحليله للمسألة ، حتى يستدرك الأمر، ويوضح ذلك ، بقوله : (لا تسعى الحفريات إلى اعتبار كل ما يمثل فى صورة تتالى أو تعاقب تآنيا ، لا تهدف إلى تجميد الزمن والاستعاضة عن إنسياب أحداثه وتدفقها باقترانات وتلازمات ترسم شكلا لا حراك فيه . إنما نضع علامة استفهام عليه هو الفكرة القائلة إن التتالى مطلق والتعاقب تسلسل أولى مباشر لا ينفصم يخضع له الخطاب بفعل قانون تناهيه ، وكذا الفكرة القائلة أن ليس للخطاب إلا شكل واحد ونظام تعاقب وحيد.[٣٠] يؤكد هذا النص أن الوصف الأركيولوجى ليس ضد التعاقب بشكل مطلق ، وإنما هو ضد تعاقب معين مما يصعب إلحاقه بالتحليل الألسنى البنيوى ، ولكن وفى نفس الوقت يصعب تعيين موقفه خاصة عندما نقرأ نصا ثالثا يؤكد فيه رفضه لنموذخ التعاقب ، فى صورة التعاقب الخطى للكلام ، أو فى صورة الشعور المتدفق ، وأن ما يقوم به الوصف الأركيولوجي هو دراسة الخطابات فى مستوى وضعيتها ، أى باعتبارها : (ممارسة لها أشكالها الخاصة فى التسلسل والتتالى . [٣١]

إن مختلف هذه الصعوبات والإلتباسات من مسألة التحولات فى التاريخ ، تناولها كما قلنا ، فى محاضرة حول علاقة البنيوية بالتاريخ ، تحت عنوان يحمل أكثر من دلالة وخاصة إذا ما استحضرنا حجم الاعتراضات التى كانت قائمة حوله وهذا العنوان هو **العودة إلى التاريخ** ! وسنحاول أن نناقش هذه الأفكار الواردة فى المحاضرة وأن نبين بعض الملامح الأساسية لمفهوم التاريخ وعلاقته بمسألة التحول .

---

(٢٩) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ص.١٦٠.
(٣٠) نفس المصدر ، ص .١٦١.
(٣١) نفس المصدر ، ص.١٦٢ .

يؤكد فوكو على أن البنيوية لا تتنافى مع التاريخ، بل هى منهج صارم فى البحث التاريخى ، ولم تنفصل أبدا عن التاريخ وخاصة فى بدايتها ، بل تحاول أن تقيم تاريخا نسقيا .[(٣٢)]

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها أبحاث العالم الأمريكى بواز "Boas" مؤسس المنهج البنيوى فى الأنتربولوجيا على غرار المنهج التطورى الذى أقامه "تايلور"، حيث أكد على ضرورة دراسة العلاقات الداخلية للمجتمعات المتقدمة والبدائية . و"تروبتسكوى" الذى درس الأصوات مؤكدا على نسقها الداخلى ، عكس ما كانت عليه الدراسات فى هذا المجال والتى تؤكد على التطور، وأخيرا فى الأدب وخاصة عند "رولان بارط" الذى تحدث عن مستوى الكتابة ، مقابل مستوى الأسلوب ، هذه الأبحاث وغيرها فى نظر فوكو ، تقدم أدوات أساسية للتحليل التاريخى .

ونقاد البنيوية من الوجوديين أو الفينومينولوجيين ، الذين يرون أن البنيوية تقول بأسبقية العلاقة التزامنية على العلاقة التعاقبية ، كما أن القول بالبنية يعنى فى نظرهم نفى لحرية الفرد وحرية المبادرة وهو قول يسايرهم فيه الماركسيون والذين هم على خلاف "ألتوسير" والقريبون إلى الهيغلية و الفينومينولوجية منهم إلى الماركسية ، كل هؤلاء فى نظر فوكو لم يستطيعوا أن يدركوا جديد البنيوية فى التاريخ ومفهومها خاصة للتحول موضوع الاعتراض والنقد عند الجميع .

وتحليلات فوكو تندرج فى هذا الإطار ، إطار الفهم البنيوى للتاريخ وخاصة لمسألة التحول متخذة من أعمال "دوميزيل" نموذجا ، هذا التحليل الذى يقوم على دراسة أنساق التحول وشروطها.[(٣٣)] والحدث التاريخى يكون ضمن سياق عام وهو ما يسميه بالسلاسل أو سلاسل السلاسل .

---

(٣٢) فكرة التاريخ النسقى أو التاريخ البنيوى نجدها كذلك عند "ليفى ستراوس" فى كتابه :
Race et Histoire ed.Plon, Paris, 1952, p. 125.،

(٣٣) Michel Foucault, **Revenir à l'histoire,** In, Représentation,No 02,1991, p.06.
من الواضح أننا قمنا بعرض كبرى الأفكار التى قدمها فوكو فى هذه المحاضرة، حتى نبين بشكل دقيق علاقته بالبنيوية ومفهومه للتاريخ ولمسألة التحول ، أما فيما يخص مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد فيمكن العودة إلى :

(1) Guy Bourde & Hervé Martin, **Les Ecoles de l'histoire**, ed.Seuil, **Chapitre**.10 p,p.263-288.

(2) Jacques Le Goff, Roger Chartier & Jacques Revel, **La Nouvelle Histoire,** ed.Cepl. Paris, **Chapitre**.02, p,p.210-227.

إن هذا التاريخ القائم على السلاسل يحدد موضوعه طبقا للوثائق المتوفرة ، ويكون المثل التاريخى ، انطلاقا من هذه الوثائق ، جملة من العلاقات . ولذلك فإن التاريخ بهذا المعنى لا يقوم بتأويل الوثائق وإنما بمعالجة سلسلة من الوثائق المتشابهة حول موضوع محدد فى فترة تاريخية محددة .

وميزة هذا التاريخ أنه لا يتأسس على موضوعات عامة ، وإنما يحدد موضوعه وفقا لمجموع الوثائق المتوفرة ، كما يسمح بانبثاق جملة من الأحداث ، هـذه الأحـداث لا تحلل على مستوى السببية وإنما على شكل طبقات وهو ما يسمح باكتشاف مدد مختلفة ، إذ ليس هنالك مدة واحدة ، بل هنالك مدات أو مدد .

والمؤرخون بهذا المعنى ، عندما يتناولون الوثائق فإنهم لا يبحثون في المعنى وإنما يحاولون تحليل نسق العلاقات الداخلية والخارجية ، وهو ما يفعله التحليل البنيوى ، لذلك فإن البنيوية ، تساهم فى تجديد البحث التاريخى فى نظر فوكو ، عندما تؤكد على دراسة العلاقات بدل المعنى ، وترفض التطور من أجل التحول .[٣٤]

وبعد هـذا العرض الذى يبين علاقة البنيوية بالتاريخ ، من خلال مسألة التطور أو التحول ، نستطيع القول أن فوكو لا ينكر التاريخ إذا أنكر فكرة التطور ، وأن هذا لا يعني كذلك إقامة منظور بنيوى للتاريخ ، وأن ما نراه فى محاولة فوكو هو جانب الأصالة الذى يكمن فى ذلك التركيب بين مختلف الميادين والاستفادة من مختلف الفروع المعرفية لإثراء البحث التاريخى ، سواء على مستوى المنهج أو الموضوعات التى درسها ، هذا التركيب والتوليف حقق جملة من النتائج أهمها فى نظرنا :

(أ) لا يمكن الحديث عن مفهوم للتاريخ عند فوكو دون الإشارة إلى التركيبة الجديدة التى قام بها بين مختلف الفروع العلمية والإتجاهات الفلسفية ، كالإبستيمولوجيا كما هى عند "باشلار" و" كونغليم " والماركسية من خلال مفاهيمها والتى يعترف أنه من غير الممكن كتابة التاريخ خارج بعض مفاهيمها.[٣٥] أو من خلال البنيوية والعلوم الإنسانية وأعمال " ليفى ستراوس"[٣٦] أو أعمال مدرسة التاريخ الفرنسية فى صورة الحوليات أو التاريخ الجديد .[٣٧]

---

(٣٤) Ibid, p . 08 .

(٣٥) Michel Foucault, **La vérité en procés**,- p.83.-et- Les **Jeux du pouvoir**

(٣٦) Rymond Bellour, **le livre des autres**, Op-Cit p. 124 .

(٣٧) Ibid, p.120.

إن هذه الخلفية مكنته من تحليل جديد للخطاب واقتراح طريقة تختلف عن الطرائق الخاصة بدراسة اللغة ، وسمحت له بأن يهتم بالجانب الوظيفي للخطاب دون مساءلة المعنى أو الدلالة أو الشكل أو البناء وإنما البحث عن دور المنطوقات في التاريخ ، كيف تظهر ، كيف تشتغل ، كيف تختفي ، ماهي العلاقات التي تنسجها بين المنطوقات المعاصرة لها أو السابقة عنها أو اللاحقة بها ، وهو بذلك في نظرنا يؤسس لاتجاه جديد في الدراسات اللغوية والفلسفية على السواء .

(ب) ومن النتائج المباشرة لهذه الطريقة ، دراسة مسائل المعرفة والسلطة والذات ، دراسة مغايرة وجديدة ومختلفة في نفس الوقت ، دراسة تقوم على تحليل مختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية ، كما سمحت له بالخروج من دائرة اللغة في ذاتها ، كما بينا ذلك في الفصل الأول والاهتمام بالخطاب كممارسة ذات علاقة بممارسات مختلفة في التاريخ ، لذلك يقول : (**أعتقد أن ما يجب الاستناد إليه ليس نموذج اللغة أو الدلالات بل الحرب ، والمعركة التاريخية التي تجرفنا وتحددنا ، هي تاريخية حربية لا كلامية ، علاقة سلطة ، لا علاقة معنى، ليس للتاريخ " معنى " مما لا يعني أن التاريخ لا مجد أو متنافر ، إنه على العكس من ذلك قابل للفهم ، ويجب أن يكون تحليله ممكنا، حتى في أدنى التفاصيل ، لكن حسب معقولية الصراعات والإستراتيجيات والتكتيكات** .)[٣٨] وإن الذي يحقق هذه الميزة، ليس بالتأكيد اللغة في صورتها اللاعقلانية ، وإنما الخطاب وسلطته كما بينا ذلك في المحور الثالث من الفصل الثاني .

(جـ) إن هذا المفهوم الجديد للتاريخ جعل بعض النقاد وخاصة في البداية ، فترة الستينيات ، يرون في عمل فوكو عملا مناهضا للتاريخ ، أو أنه مجرد تنويع على الطريقة البنيوية ، ولكن وفي نفس الوقت لقي عمله ترحيبا وتقديرا مثل ما هو الحال عند "بول فاين" الذي يرى أن فوكو أحدث : (ثورة كبرى في كتابة التاريخ ، تدشن أفقا جديدا ، وتضع مقومات

---

(٣٨) ميشال فوكو ، **الحقيقة والسلطة** ، ص. ١٣٢ . " التشديد من عندنا " .

تأسيسية لا سبيل لتجاهلها.[٣٩] كما يذهب إلى نفس الرأى "جيل دلوز" الذى يقيم إيجابيا مجهود فوكو فى دراسة التاريخ ويرى أن البحث التاريخى عند فوكو :

(لا يتمثل مشروعه فى التأريخ للعقليات والذهنيات، بل فى تحليل الشروط التى ضمنها ينبثق ويتجلى كل ما يتحلى بصفة الوجود العقلى ، كالمنطوقات ونظام اللغة . لا يهتم مشروعه بالتأريخ للسير وألوان السلوك، بل بالشروط التى ضمنها يظهر كل ما يتحلى بصفة الوجود المرئى ضمن نظام رؤية . لا يؤرخ للمؤسسة بل للشروط التى ضمنها تدمج تلك المؤسسات فى حقل اجتماعى علاقات تفاضلية للقوى . لا يقوم بالتأريخ للحياة الخاصة، بل للشروط التى داخلها تشكل علاقة الذات بذاتها حياة خاصة. لا يؤرخ للذوات، بل لعمليات تولد الذات داخل الانثناءات التى تنشأ داخل ذلك الحقل الذى بقدر ماهو حقل اجتماعى ، هو كذلك حقل أنطولوجى .) [٤٠]

إن هذا النص يبين بدون لبس علاقة التاريخ بالمشروع الفلسفى لفوكو، ويوضح مختلف علاقات الممارسات الخطابية بالتاريخ ، هذه العلاقة التى سمحت له بإقامة تاريخ للحاضر عرفه فى مقدمة كتاب **المراقبة والمعاقبة** بقوله : (عن هذا السجن ، مع كل التوظيفات السياسية التى يجمعها فى هندسته المغلقة ، أردت أن أكتب التاريخ : عبر مغالطة تاريخية خالصة؟ كلا ، إذا كان يفهم من ذلك أن أكتب تاريخ الماضى ، بعبارات الحاضر. نعم ، إذا كان يفهم من ذلك كتابة تاريخ الحاضر.) [٤١]

---

(٣٩) Paul Veyne, **Foucault Révolutionne l'Histoire** in, **Comment on écrit l'histoire**, ed.Seuil, Paris,1978 p.120.

(٤٠) جيل دلوز ، **المعرفة والسلطة** ، مرجع سبق ذكره ، ص . ١٢٦.

(٤١) ميشال فوكو ، **المراقبة والمعاقبة** ، ص.٦٨ .

يشير هذا النص إلى الغاية من كتابة التاريخ ، ويؤسس لدراسة الخطاب فى بعده التاريخى ، كما قال ذلك فى درسه للسنة الدراسية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ :

(ينمو هذا النوع من الخطاب كليا فى البعد التاريخى . فهو لايسعى إلى تقدير التاريخ والحكومات الظالمة والتجاوزات والتعسفات إزاء مبدأ مثالى خاص بحق أو قانون ، بل يسعى ، على العكس من ذلك ، إلى أن يوقظ ، فى شكل المؤسسات أو التشريعات ، الماضى المنسى للصراعات الواقعية والانتصارات أو الهزائم المقنعة والدم فى المدونات القانونية ... فى الجملة ، وبخلاف الخطاب الفلسفى - القانون الذى يتسق مع مسألة السيادة والقانون ، هذا الخطاب الذى يكشف دوام الحرب فى المجتمع ، هو خطاب تاريخى - سياسى أساسا ، خطاب تعمل فيه الحقيقة كسلاح من أجل انتصار منحاز ، خطاب نقدى بشكل مبهم وهو ، فى الوقت نفسه ، خرافى إلى حد كبير .) [٤٢]

إن ما يقوله فوكو في هذا النص يشكل موضوع تاريخ الحاضر ، موضوع علاقات السلطة - المعرفة ، كما بينا بعض خصائصها فى الفصول السابقة ، وبتحليلها ودراستها تتحدد معالم هذا التاريخ الذى لا يعنى ، إسقاط الحاضر على الماضى ولااتخاذ الماضى نموذجا ، بل الكشف عن آليات المعرفة والسلطة أو أشكال التوضيع والتذويت فى المجتمع الحديث .

إن هذا الشكل من التاريخ ، هو بالتأكيد رفض تام للتاريخ الشمولى ، ولرسالة المثقف الشمولي ولتاريخ الأفكار كما يمارسه الفلاسفة ، وتأسيس لتاريخ يقوم على الانفصال والتحول تكون مهمته نقد الحاضر، من خلال تحليل مختلف نظام الممارسات، باعتبارها المكان الذى تتقاطع فيه الخطابات والوقائع .[٤٣]

---

(٤٢) ميشال فوكو ، دروس ، ص.ص. ٥٠ - ٥١ . التشديد من عندنا .

(٤٣) Paul Veyne **Foucault Révolutionne l'Histoire**, Op-Cit, p.p.213-214

هذه الممارسات التى جهد فى النظر إليها كما هى ، وبوصفها وتحليلها يمكن كتابة تاريخ الحاضر. هذا التاريخ الذى تحاول أن تقيمه الأركيولوجيا والجنيالوجيا ، هل هو تاريخ أم فلسفة ، أم شكل مغاير لما نجده فى تصنيف العلوم ؟

إن هذا السؤال لا يمكن لنا مناقشته والإجابة عليه ، دون مناقشة مفهوم الفلسفة ومحدداتها ودون أن نقارن بينها وبين التاريخ ، لذا وجب التساؤل أولا عن مفهوم الفلسفة ومحدداتها ووظائفها وهذا موضوع محورنا الموالى .

المحور الثانى - بين الخطاب والفلسفة :

خلال الفصول السابقة ، أشرنا إلى الفلسفة بشكل مباشر أو غير مباشر، وأرجأنا الحديث عنها إلى هذا المحور ، لنبين مفهومها وعلاقتها بمختلف المسائل التى ناقشناها ، ومن دون شك فإن تحليل مكانة الفلسفة هو ما يجب أن يكون موضوع المناقشة ، خاصة وأن الموقف العام لفوكو من الفلسفة ، يثير اللبس ويطرح أكثر من سؤال حول طبيعة الفلسفة ونوع الفلسفة وجدوى الفلسفة .

وكما هو معلوم عند عدد كبير من الدارسين والنقاد، فإن أعمال فوكو لا تناقش النصوص الفلسفية خاصة الأعمال الأولى ، **فتاريخ الجنون أوالكلمات والأشياء أو المراقبة والمعاقبة** مثلا ، لا تعتمد على نصوص فلسفية أساسية فى تاريخ الفلسفة ، وإن استخدمتها فمن أجل النقد مثل ما هو الحال ، فى مناقشة نصوص "ديكارت" أو "هيجل" أو غيرهما.

إلا أن ما نجده فى **الكلمات والاشياء** من تحديد لمكانة الفلسفة ضمن النسق العام للمعارف، وخاصة فى الحقبة الحديثة ، يعتبر فى نظرنا ، اعتراف من قبل الفيلسوف بمكانة ودور الفلسفة ، سواء ضمن نظام المعارف ، إذ أنها تحتل الدرجة الثالثة مقارنة بالعلوم الصورية والعلوم التجريبية ، أو من خلال مختلف الموضوعات التى تميز إبستيمية العصر الحديث ، مثل التناهى والتعالى والكينونة وغيرها من الموضوعات ذات العلاقة بالإنسان .

ونحن نعلم أن هذه الإبستيمية مازلنا فى نظر فوكو نعيش ضمن نظامها، هذا النظام الذى افتتحه "كانط" والذى يشكل حداثتنا ، كما أن عودة الفيلسوف فى أعماله الأخيرة إلى نصوص الفلاسفة أمثال "أفلاطون" و"أرسطو" و"ايبيكتيت" وغيرهم يعتبر اعتراف آخر ، بالفلسفة وبدورها وبأهميتها ، ذلك أن بعض النقاد يسارعون إلى القول بنفى الفلسفة من طرف فوكو ، متخذين من بعض التصريحات الصحفية للفيلسوف دليلا على ذلك ، ونحن وإن كنا نقر مثل تلك التصريحات إلا أننا نرى ضرورة النظر إليها في إطار مختلف أعمال ونصوص الفيلسوف، حتى نستطيع تحديد المقصود من الفلسفة ومكانتها ومختلف أدوارها .

كما أنه من الصحيح تماما القول أن الفيلسوف مناهض لبعض أشكال الفلسفة ، وخاصة الفلسفات التقليدية والأكاديمية ولكنه ، وهو ما يقر به ، كما سنين ذلك يؤسس

فلسفة معينة أو شكلا معينا من التفلسف . وهو ما سنحاول مناقشته فى هذا المحور، وذلك بالتساؤل عن مفهوم الفلسفة وعلاقتها بالفكر والعقل وبدورها فى المجتمع والتاريخ .

أولا - فى مفهوم الفلسفة : هنالك كما قلنا العديد من الدارسين الذين يرون فى فوكو الفيلسوف المناهض للفلسفة والقائل بموت الفلسفة ، مثله مثل الماركسية أو الفرويدية أو البنيوية ، ومن دون شك فإن فوكو قد تأثر بهذه الإتجاهات وبمعطياتها ، ولكن هذا التأثر فى نظرنا ، لا يذهب إلى القول بنهاية الفلسفة وإنما بنوع من الفلسفة أو بشكل من الفلسفة ، هى التى يمكن تسميتها بالفلسفة التقليدية ممثلة فى الديكارتية أو البرغسونية أو الوجودية أو الفينومينولوجية، وفي نفس الوقت يؤسس لشكل جديد من الفلسفة ولطريقة جديدة فى التفلسف ، ذات علاقة بتلك الفلسفة المنتشرة اليوم فى البلدان الأنجلوساكسونية ، والتى تجعل من الفلسفة مجرد نشاط فكرى ، أو نشاط تحليلى لمختلف صور الفكر مثل ما يعبر عن ذلك بقوة "فيدجنتشتين". (٤٤)

يقول فوكو: (ماذا يعني اليوم القول بالفلسفة؟ إنه لايعني تأسيس خطاب حول الكلية "مثل هيجل"... ولكن ممارسة جملة من النشاطات "Activités". الفلسفة اليوم شكل من النشاط يمارس فى مختلف الميادين . (٤٥)

هنالك إذن شكل من الفلسفة فقط قد انتهى بالنسبة للفيلسوف ، أما الفلسفة كنشاط وكممارسة فكرية ضمن مختلف ميادين وحقول المعرفة والمجتمع والتاريخ ، فهى حاضرة ونجدها في مختلف الأنشطة الفكرية، كالإتنولوجيا والألسنية والتاريخ والرياضيات وغيرها ،إنها موجودة فى كل نشاط يسمح بظهور الجديد سواء فى المعرفة أو الممارسة . (٤٦)

إن هذا الوضع الجديد للفلسفة باعتبارها نشاط فكرى هو ما يميزها عن الفلسفة كما كانت تمارس فى القرن التاسع عشر ويجعل من فوكو الفيلسوف المؤسس لاتجاه جديد أو لتصور جديد فى العمل الفلسفى ، هذا التصور لقى لدى "ميشال أميو" مثلا،

---

(٤٤) عزمى اسلام ، **لدفيج فيدجنشتين** ، دار المعارف . مصر ، بدون تاريخ ، **الفصل الأول من الباب الثانى** .

(٤٥) Michel Foucault, **Entretien avec Paolo Caruso**, p.15.

(٤٦) Rymond Bellour, **Le livre des autres**, Op-Cit, p.122.

رغم نقده لفوكو تقديرا ، وخاصة فى قدرة الفيلسوف على جمع عدد كبير من التخصصات والتيارات الفلسفية المختلفة فى عمل جديد .(٤٧)

إن هذه القدرة هى التى يسميها "دلوز" بربط الفلسفة بكل ماهو ليس فلسفة، ويجعلها، باعتبارها نشاط، فى علاقة مباشرة مع اللافلسفة .(٤٨) هذه العلاقة مع اللافلسفة لا تظهر فقط على مستوى العلوم الإنسانية أو الطبيعية ولكن على مستوى الموضوعات والتى لم يألفها الفكر الفلسفى فى السابق ونعنى بذلك موضوعات الجنون والمرض والجريمة والجنس .

من هنا فإن ما يقوله"مطاع صفدى" يتناسب والوضع الجديد للفلسفة عند فوكو، ذلك أنها تستغنى : (عن كل تقاليدها ، وتبرح لغتها ومصطلحها ، وتهجر أدواتها ، وتنزل المستشفيات والسجون وتوثيق المحاكم والبلديات والقصور ، ومهجورات المكتبات العامة والخاصة .)(٤٩)

ويكون فوكو بذلك قد : (أنزل الفلسفة من علياء الكليات للبحث والخوض فى الجزئيات الحقيقية المؤسسة لكليات من نوع آخر لم يألفها الإبداع العقلى وإبداع التجريد من قبل . ههنا تبرهن الفلسفة أنها أقدر العلوم على تقديم المعرفة التى تتخطى مجرد وصف الوقائع إلى دمج العمليات التاريخية فى سياق من واقعية الفكر وفكر الواقعية، دونما احتواء إيديولوجى، ولا تأثير لفظى مشغول بتماسكه الخاص عن تماسك الموضوع وفرادته .)(٥٠)

إن هذه الطريقة الجديدة فى التفلسف لا تتحدد إلا فى إطار علاقتها بالتاريخ وبنوع معين من التاريخ ، هو تاريخ الحاضر ، وهو ما يميز عمل الفيلسوف وفرادته ، ويبين فى الوقت نفسه علاقته بـ"نيتشه" من خلال هذا الدمج بين سؤال الفلسفة والمناقشة التاريخية ، وهو ما يربط الفلسفة كما قلنا بكل ماهو غير فلسفى ويجعل منها نشاطا فكريا. هذه العلاقة بين الفلسفة والفكر تتطلب فى نظرنا المناقشة والتحليل حتى يتضح مفهوم الفلسفة عند فوكو .

---

(٤٧) Michel Amiot, **Le Relativisme Culturaliste de Michel Foucault**, in, **Les TempsModernes**, N° 248 , 1967 p.1289.

(٤٨) جيل دلوز ، **حوار**، مرجع سبق ذكره ، ص. ٢٠٩ .

(٤٩) مطاع صفدى ، **مؤسسة الإنسان الإنضباطى** ، مرجع سبق ذكره ، ص. ٤٢ .

(٥٠) نفس المرجع ، ص. ٣١ .

ثانيا – بين الفلسفة والفكر : إن الطريقة الأركيولوجية تتطلب تحليلا ووصفا لمختلف وثائق مرحلة معينة ، هذا المطلب المنهجي يقتضى التخلى عن مساءلة النص الفلسفى والذهاب فى التحليل إلى أبعد منه وهذه الخطوة لا تتم مالم يتم تغيير المنظور الفلسفى المنحصر فى تاريخ الفلسفة ، واستبداله بمنظور يتابع مختلف نشاطات الفكر البشرى عبر آثاره المكتوبة .

والفلسفة كنشاط فكرى ، تسمح بتحقيق هذه الخطوة وخاصة أننا نجد فى شخصية "نيتشه" الدليل الكافى على الفيلسوف الذى ضاعف من علاقاته بكل ما هو غير فلسفى، عبر اهتمامه بالأدب واللغة والتاريخ والسياسة ، وهو بذلك فى نظر فوكو ، ينفلت من فكر القرن التاسع عشر ويرتبط أكثر بمسائل الفلسفة فى القرن العشرين .[٥١]

وإن التصور الأركيولوجى للتاريخ وطريقة تحليله للآثار الفكرية والخلفية الفلسفية ممثلة بـ"نيتشه" خاصة، سمحت لفوكو بأن يعتمد أطروحة جديدة فى مجال الفلسفة وتاريخها ، هذه الأطروحة هى: إن هنالك فكر فى كل مكان .[٥٢]

هذه الأطروحة تتناسب ومشروعه الأركيولوجى – الجنيالوجى ، وتحقق فى الوقت ذاته فرادته فى الفلسفة والتاريخ على السواء . ذلك أنه لم يحاول كتابة تاريخ للفكر الفلسفى وإنما دراسة كل شيء يتضمن فكرا ، فى ثقافة معينة أو فى مرحلة معينة .

والفكر بهذا المعنى ليس حكرا على النص الفلسفى ، بل يوجد فى الرواية وفي الوثائق القضائية والأنظمة الإدارية وفى السجون والمعازل والمستشفيات .[٥٣] وهو في هذا لا يتساءل فقط عن علاقة المؤسسة بالفكر، بل على نمط الفكر الذى يسند مؤسسة من المؤسسات وعن مختلف التقنيات التى يستخدمها الفكر لتحليل الواقع أوتوجيهه أو ضبطه ومراقبته .[٥٤]

---

(٥١) Michel Focault, **Entretien Surl'édition des oeuvres de Nietzsche,** in **Le Figaro litteraire,**15 Spt.1966

(٥٢) Michel Foucault, **L'age d'or de la lettre de cachet,** in, **(D.13),** p.85.

(٥٣) Bellour Rymond, **Le Livre des autres,** Op-Cit, p.25.

(٥٤) Michel Foucault, **Qu'appele t'on punir ?** p.36.

بتعبير آخر، يتساءل فوكو عن نظام الفكر " Système de penser " أو شكل العقلانية في حقبة تاريخية معينة، وهو بذلك يشبه أستاذه في الفلسفة "جون هيبوليت "Jean Hyppolite " الذى يقول عنه فى درسه الافتتاحى بـ "الكوليج دى فرانس": (من هنا فيما أعتقد أجرى سلسلة من تغيير المواقف لا فى صلب الفلسفة الهيجلية بل عليها وعلى الفلسفة كما تصورها هيجل ، ومن هنا يكون هيبوليت قد قلب الموضوع رأسا على عقب : إن الفلسفة بدل أن نتصورها كليانية قادرة ، ضمن حركة المفهوم ، أن تدرك وتتدارك ذاتها جعل منها هيبوليت مهمة لا حد لها تشرف على عمق أفق بلا نهاية.)(٥٥)

إن هذا العمق والأفق يظهر فى علاقته بماهو لا فلسفى أى بكل ما يشكل الفكر، ولعل فى تسميته كرسيه الفلسفى ، بأنساق الفكر يعتبر مجاراة واختلاف فى الوقت ذاته مع كرسى أستاذه المسمى بتاريخ الفكر الفلسفى ، والذى كان يؤكد دائما على أن الفكر الفلسفى ممارسة مستمرة ، ممارسة توظف كل ما هو غير فلسفى ، مع أنها تبقى دائما فلسفية .(٥٦)

هذه الطريقة سمحت لـ "دلوز" أن يرى فى مفهوم الفكر عند فوكو مفهوما يتضمن الرؤية أو النظر والكلام أو اللغة، بشرط أن لا نفهم من اللغة الألفاظ أو الجمل ، بل المنطوقات أو الملفوظات كذلك ، مما يجعل الفكر أرشيفا. كما يتضمن الفكر سلطة ، بمعنى علاقات قوة ، على أن لا نفهم من علاقات القوة جانبها العنيف فقط ، وهذا ما يجعل من الفكر استراتيجية ، وأخيرا الفكر بمعنى عملية ذاتية .(٥٧)

إن هذه الأبعاد التى يرصدها "دلوز" فى تحليله لمفهوم الفكر ، تلخص المشروع الفلسفى لفوكو القائم على دراسة المعرفة والسلطة والذات ، بواسطة دراسة الخطاب كممارسة فى علاقة مع مختلف الممارسات الخطابية وبطريقة أركيولوجية – جنيالوجية ، وفى إطار تصور جديد للفلسفة ، يتحدد أساسا بعلاقته مع ماهو غير فلسفى ، أو فى

---

(٥٥) ميشال فوكو ، **نظام الخطاب** ، ص. ٣١.

(٥٦) Michel Foucault,**Hommage à Jean Hyppolite,in,Revue de métaphisique etde morale**,Tome14, No 02, 1969 p.136.

(٥٧) Gilles Deleuze, **Interview**, in, **Le nouvel observateur**, du 24 Aout1986, p.59.

علاقته بالفكر، لذلك لا يستعمل فوكو في مختلف دراساته مفهوم العقل وإن كان يتحدث عن أشكال العقلانية، ومن هنا نرى ضرورة مناقشتها في إطار محاولتنا تحديد مفهوم الفلسفة .

ثالثا - بين الفلسفة والعقل : إذا أردنا الحديث عن العقل عند فوكو فيجب الحديث عن العقل فى التاريخ أو كيف يظهر العقل فى التاريخ ، وإذا أردنا الدقة بعيدا عن اللغة الهيجلية ، قلنا يجب الحديث عن أشكال العقلانية في التاريخ ، ذلك أن فوكو لا يدرس العقل بشكل مطلق ولا يتساءل عن معنى العقل وإنما يدرس أشكالا قطاعية أو جهوية من العقل .

يقول : (منذ كانط ، كان دور الفلسفة هو منع العقل من أن يتجاوز حدود ما هو معطى في التجربة ، إنما منذ ذلك الحين أيضا -أي منذ تطور الدولة الحديثة والإدارة السياسية للمجتمع -كان للفلسفة وظيفة أخرى هي مراقبة السلطات المفرطة للعقلانية السياسية .)[٥٨]

إن هذه الوظيفة ، وظيفة دراسة مختلف أشكال العقلانية السياسية والمعرفية تجسدها أعمال ميشال فوكو ابتداء من **تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى** مرورا **بالمراقبة والمعاقبة** وانتهاء **بتاريخ الجنسانية** ، لذلك نقول أن وظيفة الفلسفة عند فوكو هى أن لا تتساءل عن العقل وإنما عن مختلف أشكال العقلانية ولذلك نجده يجيب عن سؤال : هل ينبغى محاكمة العقل؟ بقوله: (لا شيئ أعقم من ذلك . أولا لأن الميدان الواجب تغطيته لا علاقة له بالإدانة أو البراءة . ثم لأنه من المحال أن نرد إلى العقل ماهو شبيه بالكيان النقيض للاعقل . أخيرا لأن مثل هذه المحاكمة ستلزمنا بأن نلعب الدور الإعتباطى والمضجر للعقلانى أو اللاعقلانى .)[٥٩]

ومن دون شك فإن فوكو لا يحبذ مثل هذه الأدوار التى سيطرت على تاريخ الفلسفة، كما أنه لا يميل إلى مناقشة العقل ضمن إشكالية عصر الأنوار، مثل ما هو الحال فى مدرسة "فرانكفورت" رغم اعترافه بأهمية هذه المدرسة .

---

(٥٨) ميشال فوكو ، **بحثان حول الفرد والسلطة** ، فى ، دريفوس ورابينوف ، **ميشيل فوكو مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره، ص. ١٨٧ .

(٥٩) نفس المصدر، ص. ١٨٨ .

إن هدفه ومشروعه كما يقول : (اقتراح طريقة تحليل أخرى للعلاقات بين العقلنة والسلطة . لا شك فى أنه من الأفطن أن لا نتفحص إجماليا عقلنة المجتمع أو الثقافة ، بل أن نحلل السياق فى عدة ميادين ، يحيل كل منها إلى تجربة أساسية : الجنون ، المرض ، الموت ، الجريمة ، الجنسانية ... ما يجب فعله هو تحليل العقلانيات الخاصة بدلا من الاستشهاد دوما بتقدم العقلنة عموما .)[٦٠]

واضح إذن أن فوكو لا يحلل العقل فى كليته، ولا العقلانية فى عموميتها كما تفعل مدرسة "فرانكفورت" بل يتساءل عن أشكال العقلانية ضمن تجارب خاصة أوممارسات خاصة ، وهو لا يقترح نظرية بقدر ما يحاول تأسيس طريقة للتحليل .

إن الفلسفة بعد هذا العرض الموجز ، لبعض المسائل ذات العلاقة بالمفهوم ، تتحدد كممارسة فكرية أو كنشاط فكرى ، تدرس مختلف العقلانيات القطاعية أوالجهوية أو الطرفية أو الهامشية وتهدف إلى الكشف ، كما يقول صفدى عن : (كيف تشتغل جاهزيات العقلنة الغربية ، كيف تعبر من الذهن لتغدو حضارة هائلة تجعل كل ما يجاورها ويسبقها يقبع فى هامشية ما قبل التاريخ .)[٦١]

إن العقلانية المقصودة : (ليست أنظمة التجريد ولا أنساق اللفظى والملفوظى وحدها ، لكنها كذلك أنساق المرئى ، والتمفصل بينهما هو ما يتحدى الفهم ، والقبض على بعض ترميزاته هو سر الأركيولوجيا / الجنيالوجيا الفوكونية .)[٦٢]

هــذه العقلانية فى مختلف صورها وعلاقاتها هى موضوع الفلسفة وهو أحد جوانبها ، إلا أنه يجب التساؤل عن مهمة هذه الفلسفة التى تتحدد كنشاط فكرى ، أو كدراسة لمختلف أشكال العقلانيات فى التاريخ .

رابعا - فى مهمة الفلسفة : إن الفلسفة باعتبارها نشاط أوممارسة ، لها دور أساسى هو تشخيص الحاضر ، وهذا ما يجعلها فى علاقة عضوية مع التاريخ ، ذلك أن التاريخ الذى يصفه فوكو هو تاريخ الحاضر ، والتشخيص يتم عبر الكشف عن مختلف علاقات السلطة - المعرفة أو عبر تحليل مختلف آليات التوضيع والتذويت فى المجتمع الحديث ، ومهمتها فى هذه العملية هى التحويل والنقد عن طريق التفكير بشكل مختلف .

---

(٦٠) نفس المرجع ، ص. ١٨٨ .
(٦١) مطاع صفدى ، **مؤسسة الإنسان الإنضباطى** ، مرجع سبق ذكره ، ص.٤٢ .
(٦٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

هذا التفكير يتناول الحاضر كموضوع للمعاينة والتشخيص والتحليل ، والنقد الذى يساهم به الفيلسوف عبر كتاباته ومواقفه ونضالاته ، مثله مثل "سقراط" فى "اثينا" لذلك فإن الوظيفة النقدية للفيلسوف والفلسفة تشتق من النموذج السقراطى للفلسفة . ويكون ذلك عبر إرساء جملة من قواعد العمل والتفكير خاصة مثل ، عدم الدخول فى مساجلات ومجادلات غير مجدية ، رغم أن أعماله أو ممارسته تزعج الكثير ، كما لا يتحدث باسم حقيقة مطلقة أو باسم سلطة قائمة ولا يهاجم أى شخص بعينه ، رغم أن مهمته نقدية ، إنه حاضر فى كل مجال من مجالات الفكر والثقافة والمجتمع ويؤدى وظيفته الفلسفية كما يقول "دلوز" : (كما حددها نيتشه، مهاجمة البلاهة ، فالفكر لديه عبارة عن عملية غوص تخرج دائما شيئا ما إلى النور ، إنه فكر ينشئ الطيات ثم فجأة يمتد كاللولب .)(٦٣)

والجديد فى مهمة الفلسفة كما يرسمها فوكو هو دراسة الحاضر والآن ، الحاضر ليس ما نحن عليه فقط ولكن ما سنؤول إليه أو ما سنصبحه أو صيرورتنا الأخرى . من هنا فإن التفكير فى الحاضر لا يمكن أن يكون بدون إدخال بعد الحدث فى عملية التفكير والمساءلة الفلسفية، من أجل إقامة فلسفة نقدية أو تاريخ نقدى للفكر. (٦٤) وهذا يعنى أن الخطاب الفلسفى عند فوكو كما يرى ذلك "فتحى التريكى" هو ممارسة تظهر عبر ميادين سابقة عليه وتحدد هدفا معينا وتؤدى إلى نتيجة وهى تحديد مكانة الفلسفة ضمن مختلف الخطابات التى تميز حقبة زمنية فى مجتمع معين .(٦٥)

وإجمالا يمكن القول أن مهمة الفلسفة هى رصد مختلف ألعاب الحقيقة ، أو كتابة ما يسميه بالتاريخ السياسى للحقيقة أو الاقتصاد السياسى للحقيقة ، وبذلك تكون الفلسفة : (إستراتيجية تشخيصية ... تتفحص الحاضر وتكشف عن مسار تكوينه ...) (٦٦) وهو ما يتطلب طرح مسألة الحاضر، للمناقشة والتحليل ، فماذا يعنى فوكو بالحاضر ؟

---

(٦٣) جيل دلوز، **حوار** ، مرجع سبق ذكره ، ص.٢١٦ .

(٦٤) John Rajchman, **L'Ethique et l'oeuvre** Op-Cit, p.257.

(٦٥) Fethi Triki, **Foucault et la Philosophie ouverte** In, **Les Cahiers de Tunisie**, Ns°149-150, p.99.

(٦٦) السيد ولد اباه ، **التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو** ، دار المنتخب العربى . بيروت ، لبنان ، ط ١٠، ١٩٩٤ ، ص٨٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خامسا – الفلسفة كتشخيص للحاضر : بأى معنى تكون الفلسفة تشخيصا للحاضر ؟ وأى حاضر وكيف يكون ذلك مقارنة بالخطاب الصحفى أو الإعلامى أو السياسى ، وغيرها من الخطابات ذات العلاقة بالحاضر ؟

منذ الستينيات ، يردد فوكو فكرة أن الفلسفة نشاط تشخيصى للحاضر .(٦٧) هذه الفكرة نجد جذورها عند "نيتشه" و"كانط" ، هذا الأخير الذى كرس له فوكو دراسة أكاديمية مع ترجمة لنصه عن الأنتروبولوجيا وافتتح به العصر الحديث معتبرا إياه مقدمة للحداثة، ثم تناوله أخيرا فى أحد دروسه بـ "الكوليج دى فرانس" حول الأنوار والثورة . من هنا وجب التساؤل وطرح السؤال على الذين يصنفون فوكو فى خانة البنيوية أو اللاعقلانية ، لماذا لا يهتمون بعلاقته بـ "كانط" هذه الشخصية الفلسفية التى ختم بها فوكو حياته الفلسفية من خلال سؤال الأنوار ؟

صحيح أن نص "كانط" ، نص هامشى مقارنة بالنصوص الكبرى للفيلسوف مثل "نقد العقل الخالص" أو "نقد العقل العملى" أو "نقد ملكة الحكم" إلا أنه نص فلسفى ومن تأليف فيلسوف معترف بمكانته فى تاريخ الفلسفة . وفى نظر فوكو ، يعتبر نص "ماهى الأنوار؟ "Qu'est-ce que les lumières" هو أول نص فلسفى يطرح مسألة الحاضر، ويعتبر الحاضر جدير بالتفكير الفلسفى ، ويلتقى مع نص آخر هو نص "ماهى الثورة ؟ "Qu'est-ce que la révolution" وهذان النصان مع سؤالهما يفتتحان الحداثة الفلسفية فى الغرب .

لقد كان سؤال "كانط" يتضمن ، أسئلة فرعية مثل : ما الذى يحدث الآن ؟ ماهو هـذا الآن الذى نحيا فيه ؟ كيف يمكن أن نفهمه ونعطيه معنى ؟ ما الشىء الذى لا معنى له فى الحاضر وفى الأحداث الجارية ؟ وما الشىء الذى له معنى ويدل على التقدم ؟ (٦٨)

لقد وجد فوكو فى نص "كانط" وأسئلته كل المجال الفلسفى الذى عمل على تحليله ومناقشته ، نعنى بذلك نقد الحداثة الغربية التى تأسست بعد الثورة الفرنسية

---

(٦٧) Michel Foucault **Interview**, in **La Presse de Tunisie**, du 12 Avril 1967 p.03.

(٦٨) Michel Foucault Qu'est - ce que les lumiéres ? in, Magazine Littéraire, N^{O} 309, 1994, p, 63 .

وكذلك الترجمة العربية ، **ماهو عصر التنوير** ؟ ، ترجمة يوسف الصديق ، مجلة الكرمل ، ١٩٨٤ ، العدد ١٢ ، ص ٦١ .

والتى لا تزال مستمرة حتى اليوم وذلك بواسطة فلسفة تكون مهمتها تشخيص الحاضر . إلا أن مفهوم الحاضر هذا ، يطرح أكثر من إشكال ، فماذا يقصد بالحاضر وما الذى يميزه عن الآن وما تكون طبيعة هذه الفلسفة بما هو آن أو حاضر ، ألا تكون نوعا من الصحافة الجارية ؟ ما الذى يجعل الخطاب الفلسفى ، كخطاب حول الحاضر يتميز عن باقى الخطابات التى تهتم بالحاضر كالخطاب الإعلامى أو السياسى أو غيرها من الخطابات ؟

إنه وعلى الرغم من مشروعية هذه الأسئلة وضرورتها ، فإن الإجابة عنها ليست بالعملية السهلة ، بل وحتى غير ممكنة فى بعض النقاط ، وذلك لأن فوكو يصمت عن الكثير من هذه التساؤلات وسنحاول من جهتنا ، أن ننظر فى مختلف نصوص الفيلسوف ، علنا نصل إلى تشكيل فكرة واضحة لمجمل الأسئلة التى طرحناها .

فى تعليقه عن نص "كانط" ماهى الأنوار؟ يقوم فوكو أولا بربط النص بمختلف نصوص الفيلسوف حول الفلسفة والتاريخ ويحاول ثانيا تحديد المسألة المطروحة ويرى أن نص الأنوار لا يطرح سؤال الأصل والإنجاز ، وإنما يطرح سؤال الحاضر أى : (السؤال عن الآنية : ماذا يحدث اليوم ؟ ماذا يحدث الآن وماهو هذا "الآن" الذى نوجد نحن وغيرنا فيه ، ومن الذى يحدد اللحظة التى أكتب فيها ؟) (٦٩)

لقد كان الحاضر موضوع التفكير الفلسفى ، فـ "ديكارت" مثلا ، كتب سيرته وأسس فلسفته بناء على سؤال الحاضر ، ولكن سؤاله كان سؤالا عاما ، سؤالا يخص الجميع فى كل مكان وزمان ، أما سؤال "كانط" فيختلف من حيث أنه يتعلق بهوية الحاضر، الحاضر : (كحدث فلسفى ينتهى إليه الفيلسوف الذى يتحدث عنه .) (٧٠)

كما أن هذا الحاضر يشير إلى الـ"نحن" الذى نعيش فيه ، باعتبارنا مجموعة ثقافية تتميز بآنيتها : (كل هذا ، أى الفلسفة كممارسة تجعل من الآنية إشكالا ، وكتساؤل الفيلسوف عن هذه الآنية التى ينتهى إليها والتى لا بد أن يتخذ له منها موقفا ، سيمكن من تمييز الفلسفة كخطاب الحداثة ، وكخطاب عن الحداثة .) (٧١)

---

(٦٩) ميشال ميشيل ، **ماهو عصر التنوير ؟** ، ص. ٦٦ .
(٧٠) نفس المصدر ، ص. ٦٧ .
(٧١) نفس المصدر، ص. ٦٧.

إن طـرح الفلسـفة للآن كـمشكلية يسـمح لها بأن تكون خطاب الحداثة أو خطابا عن الحـداثة ، ذلك أن فى تاريخ الفلسـفـة يمكـن أن نميـز بين مـوقـفيـن فى نظـر فـوكـو ، موقف مناصر للتقليد ومـوقف مناصـر للحداثة ، أما مع "كـانط" فظهـرت صيـغـة جديدة نابعـة من آنيـة المسـائل : (على الخطاب ، بدء من الآن أن يضع فى الحسـاب آنيتـه حتى يحـدد فيـها مجال تواجده الخاص من جهـة ، ويتلفظ بمعناه من جهـة ثانية ، ثم وفى نهاية الأمر، كيف يميز الوظيفة التى يسـتطيع القيـام بها داخـل هذه الآنية .(٧٢)

إن الخطاب الفلسفى عندما يسائل الآنية فإنما يسائل فـى الحقيقة الحداثة ، لا فى صيـغة استـعادة لعـصر الأنوار ، وإنما بالإبقـاء على : (ذات السؤال الذى طرحه هذا الحدث وعلى معناه ... الذى لابد من الاحتفاظ به حاضرا والإبقاء عليه كالشىء الذى يجب أن يكون "مادة" الفكر .) (٧٣)

وبهـذه الصفـة تكون الفلسفة التى تعتنى بالحاضر كموضوع للمسـاءلة والتفكير، فلسفـة نقديـة ، تطـرح سؤال الآنيـة و : (المجال الحالى للتجارب الممكنة ، والأمر لا يتعلق بتحليلية الحقيقة بل بما يمكن أن نسميه بأنطولوجيا الحاضر ، أى بأنطولوجية نحن ذاتنا .) (٧٤)

إن هذه الأنطولوجيا الفلسفية ، ستكون موضوع حديثنا فى المحور الثالث من هذا الفصل حيث سنحاول أن نستخلص كبرى خصائص هذه الفلسفة، ولكن قبل هذا يجب أن نستمر فى تحليل موضوعنا حتى نتمكن من الإجابة عن تلـك الأسئلة التى بدأنا بها حديثنا .

إذا كنا قد بينا بعض ملامح الفلسفة كتشخيص الحاضر وأصل هذا الحاضر فى التـفكيـر الفلسـفى ومـسـاهـمـة "كـانط" فى هذه المسـألة وتعليق فـوكـو عـن ذلك ، هذا التعليق أو التأويل الذى جعل من فوكو يرى أن المسألة السياسية فى الفلسفة منذ نهاية القرن التاسع عشر هى مسألة الحاضر ومسألة من نكون نحن فى هذا الحاضر وماهو دورنا فيه ، هذه المسألة تجعل من الفلسفة سياسية بشكل كامل وتاريخية بشكل

---

(٧٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة.
(٧٣) نفس المصدر ، ص ٧١.
(٧٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

كامل كذلك أو بتعبير فوكو : (إنهـا السياسة المحايثة للتاريخ والتاريخ الضرورى للسياسة .) (٧٥)

إن هذا التلازم بين الفلسفة والتاريخ والسياسة هو الذى يشكل موضوع الفلسفة باعتبارها تشخيصا للحاضر، فماهو المقصود بالحاضر؟

يرى فوكو أن المقصود بالحاضر أو بالوضع الحاضر، ليس الآليات الاقتصادية والاجتماعية والتى يمكن للمختصين فى هذا المجال وصفها أحسن من الفيلسوف ، وإنما المقصود هو ذلك الترابط بين حساسية الناس واختياراتهم الأخلاقية وعلاقاتهم بأنفسهم وفيما بينهم والمؤسسات المحيطة بهم ، هنا فى هذه النقطة تظهر المشاكل وحتى الأزمات ، والتى يجب على مؤرخ الحاضر أو فيلسوف الحاضر وصفها ونقدها معا . (٧٦)

لذلك يتفق العديد من الدارسين ، على أن الحاضر فى فلسفة فوكو ، سواء بكتابته كتاريخ، أو كموضوع للتشخيص الفلسفى ، يكون بدراسة آليات المعرفة - السلطة فى المجتمع الحديث . (٧٧)

وهذا ما يجعل من خطاب الفلسفة ، خطابا نقديا للحداثة ، وإن كنا نرى من الصعوبة الحديث عن الحداثة عند فوكو، مقارنة بأعمال "هبرماس" أو "ليوتار "Lyotard" (٧٨) وإنما بنقد الحداثة ، ذلك أننا نجد حساسية كبيرة عند الفيلسوف فى استعمال الحداثة مقارنة باستعماله للعصر الكلاسيكى ، وإن كانت جل موضوعاته تناقش عصر الحداثة ، نعنى بذلك القرن التاسع عشر الذى يرى فيه أننا لم نخرج منه بعد .

---

(٧٥) Michel Foucault, **Non Aux Sexe Roi**,In,**Le Nouvel Observateur**, N°644,1977, p.124.

(٧٦) Michel Foucault, **Un Système Fini Face à Une Demande Infinie**, p.42.

(٧٧) François Ewald **Une Pensée Sans Aveu**,In, **Magazine Litteraire**, Ns° 127-128 , 1977 p.47.

(٧٨) Voir : (1) Jürgen Habermas, **Le Discours Philosophique De La Modernité** ed .Gallimard, Paris, 1988

(2) Jean - Francois Lyotard, **La Condition Postmoderne**, ed.Minuit,1979

يلعب مفهوم الحداثة فى المشروع الأركيولوجى - الجنيالوجى دورا ملتبسا ليس من السهل تحديده وإن كان قد استعمل فوكو الكلمة فى الفصل الأخير من **الكلمات والأشياء** وتحدث عن " كانط " باعتباره مفتتحا لعصر الحداثة ، كما استخدم الكلمة فى مقدمة **المراقبة والمعاقبة** . (٧٩)

ويمكن القول إجمالا أن استعمال الحداثة فى فلسفة فوكو إما مؤقت أو بصيغة سلبية ، ذلك أن الحداثة مرتبطة بمفهوم الإنسان ، والمجتمع الانضباطى والعقل الوضعى ، هذه المفاهيم التى انتقدها بقوة ، لذلك يمكننا القول أن فوكو وجد فى سؤال "كانط" عن الحاضر ، المخرج المناسب من أسئلة الحداثة أو ما بعد الحداثة . (٨٠)

الحاضر أو الآن ، هو موضوع الفلسفة والتاريخ معا ، ولكن بحسب مفهوم فوكو للتاريخ والفلسفة ، ذلك أن هذا الموضوع الحاضر يشكل كما قلنا ، نقطة تقاطع مع عدد من الفروع العلمية وهو ما يدعو إلى التساؤل والاستفهام . خاصة وأننا نجد أن فوكو لا يتردد فى إعلان انتمائه إلى العمل الصحفى وإلى الصحافة ، أكثر من اعترافه بنفسه كفيلسوف ، يقول : (اعتبر نفسى صحفيا ، مادمت أهتم بالحاضر وبما يحيط بنا .) (٨١)

ويرى أن هذا الاهتمام يعود إلى "نيتشه" الذى أدخل كذلك مفهوم الحاضر فى الفلسفة وبهذا تكون الفلسفة فى نظره نوعا : (من الصحافة الراديكالية أو الجذرية .) (٨٢) وهى بذلك تتميز عن الصحافة العادية كما تتميز فى الوقت ذاته عن الفلسفة التقليدية وذلك من جهة اهتمامها بالحاضر من الزاوية النقدية والجذرية ، ومن جهة انفصالها عن الميتافيزيقا ، فالاهتمام بالحاضر فى نظر فوكو هو طريقة أيضا للخروج من الميتافيزيقا . (٨٣)

---

(٧٩) Foucault Michel, **Surveiller Et Punir**, p.218.
Il dit : " Les Lumières qui ont découverts les libertés ont aussi inventés les disciplines".
(٨٠) Shiguiehko Hasumi, **Foucault Et Le19ème Siècle**, in, **Magasine Litteraire**, N° 325 1994, p,p. 28-.
29. Aussi : Habermas, **Le Pésent Pour Cible**, In, Michel Foucault Lectures Critiques Op cit, p, 122 .
(٨١) Foucault Michel, **Le Monde Est Un Grand Asile**, In, (D.358), p.05
(٨٢) Ibid, même page.
(٨٣) Foucault Michel, **Je Percois L'Intolérable**,In, (D.336), p.01.

ولكن هذا الخروج عن الميتافيزيقا أو ذلك التميز عن الصحافة الجارية لا يكون إلا بدراسة التمفصل الاجتماعى فى مختلف التجارب ، فالجنون مثلا ليس مسألة تاريخ فقط أو قضية فلسفية مقرونة بالعقل ، بل هى مسألة الحاضر كذلك ودراستها تتطلب دراسة الحقل الاجتماعى ومجمل المؤسسات والممارسات التاريخية التابعة لها ، بتعبير آخر كتابة تاريخ المشكليات "Problématisation" أى كتابة الكيفية التى تصبح فيها الموضوعات مشكلة . (٨٤)

كتابة تكون بعيدة عن كل عمومية أو إطلاقية ، بل تكون بدراسة مشاكل ملموسة وفى نفس الوقت تتمتع بدرجة من العمومية، مثل ماهو الحال فى دراسة الجنون أوالمرض أو الجريمة فى إطار علاقات المعرفة - السلطة . (٨٥)

هذه الدراسة إذن ذات طابع نقدى مما يعنى إقامة فلسفة نقدية ، والنقد يعنى التخلص من البديهيات والمتفق عليه والقناعات الإيديولوجية والسياسية وتشخيص الحاضر كما هو ، وبذلك تكون الفلسفة نوعا من الممارسة الخطابية النقدية التى ترصد مختلف ألعاب الحقيقة . (٨٦)

إن النقد فى نظر فوكو هو القيمة التى يجب استعادتها من عصر الأنوار ، هذا العصر الذى افتتح مسألة الحاضر والنقد معا ، ولذلك يرى أن مشروعه الفلسفى من هذه الوجهة يشكل استمرارية لعصر الأنوار ، بل الوريث لعصر الأنوار. (٨٧) ولكن ما هو المقصود بالنقد؟

سبق لنا وأن تحدثنا عن النقد أو عن بعض ملامح النقد عند فوكو في المحاور السابقة، إلا أن ما تجب الإشارة إليه هو أن فوكو قد خص النقد كمفهوم بدراسة تحت عنوان **ماهو النقد** ؟

---

(٨٤) Foucault Michel, **Entretien**, In, (D.200) p.12.

(٨٥) Foucault Michel, **Polimique,Politique Et Problématisation**,In,(D.250-01), p.05.

(٨٦) Jeannette Colombel, **Michel Foucault La Clarté De La Mort**, Op-Cit, p.61.

(٨٧) Michel Foucault, **A Propos De Nietzsche, Habermas, Arendh**, In, (D.520-08), p.32.

فى هذه الدراسة يرسم مجال النقد ويسنده إلى مشروع "كانط" وإلى العلاقة بالآخر فى الثقافة الغربية وإلى الحكم وكيف يكون، ذلك أن النقد يعنى من بين ما يعنى أن لا يكون المرء خاضعا للحكم . وعودة فوكو إلى "كانط" هو من أجل تأسيس النقد ضمن مشروع الأنوار ويرى أنه من غير الممكن الحديث عن النقد بعيدا عن عمليات الحكمانية ، التى عرفها المجتمع الغربى ." Processus de Gouvernementalisation " لذلك فإن النقد يرتبط فى نظره بالسلطة وبالحقيقة وبالشجاعة فى قول الحقيقة ، أو بتعبير آخر يتمفصل النقد مع خطاب الحقيقة وآليات الإخضاع ، لذلك قلنا أن الحاضر ، تاريخا وفلسفة، هو دراسة نقدية لآليات المعرفة السلطة .

ويكون ذلك بالتساؤل عن آثار السلطة في المعرفة ، خلال مرحلة تاريخية معينة أو بدراسة مختلف ألعاب الحقيقة فى التاريخ ، دراسة جنيالوجية تسمح بتحديد شروط ظهور ، فرادة حدث ضمن العناصر المتعددة ، مما يتطلب استخدام المنهجية الجنيالوجية الأركيولوجية . (٨٨)

على هذا الأساس من الفهم للفلسفة ولدورها ، يرى ميشال فوكو أن الهدف يكون كما صرح بذلك لـ"دريفوس ورابينوف" بقوله : (لا شك فى أن أكثر مشكلة فلسفية ثابتة هى مشكلة العصر الحاضر ، مشكلة من نحن فى هذه اللحظة الدقيقة ، ولاشك فى أن الهدف الرئيسى اليوم ليس أن نكتشف بل أن نرفض من نحن . يجب علينا أن نتخيل وننشئ ما يمكن أن تكون عليه حتى نتخلص من ذلك "الإكراه السياسى المزدوج" ، الذى يتمثل فى التفريد والتشميل المتزامنين لبنى السلطة الحديثة .) (٨٩)

إن تحليل الحاضر لا يكون بدراسة المعرفة السلطة فقط ، وإنما يهدف إلى تحرير الفرد ، هذه المسألة التي أهملها الباحثون في فلسفة فوكو ، لذلك نرى أنه من غير الممكن الحديث عن التاريخ أو الفلسفة أو الخطاب عند فوكو دون الحديث عن الإنسان والحقيقة والحرية وقول الحقيقة .

---

(٨٨) Michel Foucault Qu'est-ce Que La Critique, In, (D.212), p.p.05-16.

(٨٩) ميشال فوكو، بحثان حول الفرد والسلطة ، ص.١٩٢.

سادسا - بين الإنسان والخطاب والحقيقة والحرية وقول الحق :

أ - بين الإنســان والخطاب : تطرقنا فى الفصل الأول إلى عـلاقة اللغة بالإنسان وخلصنا إلى فكرة مفادها أن فوكو يقول بالأسبقيـة الوجودية للغة عن الإنسان وذلك بالإعتماد خاصة على أعمـال "نيتشه" يظهر هذا بوضوح فى **الكلمات والأشياء** ، حيث خص العصر الكلاسيكى بمفهوم الخطاب بدل الإنسان ، وما إن أشار إليه فى العصر الحديث حتى اختفى تحت قوة الظهور الجديد للغة .

ونفس الشيء يمكن قـوله بالنسبة للخطاب ، فـهذا المفـهوم كـما رأينا قد سـاد العصر الكلاسيكى ، رغم أن المؤرخين يرون فيه عصر الإنسان ، كما أن تحليل الخطاب لا يحتاج إلى مرجعـية الذات أو المؤلف بل ينفى كليـة مفـهوم الذات المؤلفة ، ليحيلها إلى مواقع داخل شبكة الخطابات المختلفة .

وهكذا يتضح أن مفـهوم الإنسـان قد اختفى من تحليلات فوكو ، ولكن وكما بينا ذلك فى الفصـل الخامس فإن هذا لا يعنى نهاية الفرد ، بل نهاية تصور ، تصـور الذات المختلفة من أجل تأسيس مفهوم جديد يرى فى الذات مجرد شكل من أشكال المـارسة الخطابية وغير الخطابية فى مرحلة تاريخية معينة ، هذه الذات تظهر فى مختلف سلوك الأفراد وفى مجتمع من المجتمعات .

ومن دون شك فـإن هنالك اختلاف كبيـر فى تعـيين الموقف النهائى لفوكو من هذه المسـألة ، إذ نجد من الدارسين من يرى أن الأمر لا يتـعلق بنهاية الإنسـان وإنما بمفـهوم الإنسـان الذى حلت محله العلوم الإنسـانية .[٩٠] وهنـالك من يـرى أن المسـألة ليست إلا مـسـألة فكرية وإن كـان قـد أكـد على الموقف السلبى من الإنسـان ومن النزعـة الإنسانية، وهذا منذ بداية أعماله .[٩١] أومن يرى أن المسالة كلها دليل على نقص فى التعـمق والأصالة مادام الأمر ليس أكثر من ترديد لمواقف "نيتشه".[٩٢] قد تكون هذه التحليلات والمواقف النقدية صحيحة ، خاصة فـيما يتعلق بـأعماله الأولى ، ولكن

Michel De Certau,Les Sciences Humaines Et La Mort De L'Homme, (٩٠) Op-Cit, p.358.
Jean Claude Margelin L'Homme De Michel Foucault,Op-Cit, p,p.498-503. (٩١)
Maurice Corvez, Le Structuralisme De Michel Foucault,In, Revue Thomiste, (٩٢) N° 49, 1968 p.111.

أعماله الأخيرة ، وخاصة الجزئين الأخيرين من **تاريخ الجنسانية** ، أى **استعمال اللذات والانهمام بالذات** يبينان فى نظرنا ، أهمية الإنسان فى فلسفة فوكو ، أهمية من خلال تجارب معينة ومحددة وخاصة ، لذلك نقول أن فوكو لا ينكر وجود الإنسان وحقيقته التاريخية ولكنه ينتقد الفكرة المجردة للإنسان والذات المتعالية والمؤسسة والنزعة الإنسانية باعتبارها إيديولوجية بورجوازية ، ويؤسس لمفهوم الإنسان الفرد فى التاريخ ، أو كما تظهره مختلف التجارب والممارسات ، لذا يمكن لنا الحديث عن الإنسان المجنون والمريض والعاقل والمجرم والفاسق والأخلاقى ، هذا الإنسان ينسج علاقات مختلفة يهمنا منها فى سياق هذا التحليل ثلاث علاقات ذات صلة بموضوعنا هى : الحرية والحقيقة وقول الحق .

ب - بين الإنسان والحرية : لا يتحدث فوكو عن الحرية ، وإنما عن ممارسات الحرية ، هذه الممارسات تقتضى درجة من التحرر أو التحرير ، ذلك أن المسألة كما بينا ذلك فى الفصل الرابع المحور الثالث ، لا تتعلق بالحرية والحقيقة وإنما بتحرير إرادة المعرفة أو الحقيقة من أشكال الهيمنة ، لذا يرى أن التحرر هو الشرط السياسى والتاريخى لأى ممارسة حرة .(٩٣)

هذه الممارسة الحرة تظهر فى مجال الأخلاق أو فى غيرها من المجالات مثلما بين ذلك فى دراسته للمجتمع اليونانى أو الرومانى حيث الأخلاق تشكل ممارسة حرة ، أو بتعبير دقيق ممارسة واعية بالحرية . وأن تحقيق الذات فى اليونان مشروطة بهذه الحرية التى تتطلب معرفة وسلطة فى نفس الوقت .(٩٤)

الحرية كممارسة مشروطة بالآخر أو فى علاقة مباشرة مع الآخر ، لذلك لا يمكن فصل أى ممارسة حرة عن أي شكل من أشكال الحكم أو فن من فنون الحكم ، وهو ما يؤدى إلى طرح مسألة الفردى والاجتماعى فى كل ممارسة حرة ، وإذا كنا قد بينا عند مناقشتنا للمسألة الأخلاقية أن فوكو يرفض الفصل بين الذاتى والاجتماعى خاصة فى اليونان والرومان وأن الطرفين يتكاملان ، فإنه يبقى على نفس الموقف بالنسبة للحرية ، فهو يرى أن المسألة لا تكمن فى غياب جماعة مثالية توفق بين الحرية الفردية

---

(٩٣) Michel Foucault, L'Ethique De Souci De Soi Comme Pratique De Liberté, p.101.

(٩٤) Ibid, p.102.

والجماعيـة ، وتكون مثالاً للخير الأسمى ، وإنما المسألة فى الأنماط الاجتماعية المختلفـة التى يمكـن تكوينها أو بناؤها ، ويرى فى هـذا السياق أن الجماعة النقـديـة "Communauté Critique" فـى مقـابل الجماعة المعطـاة "Communauté Donnée" تظـهر عنـدما يصبح نظـام التمـاثل أو التطابق " Système D'Identification " لا يطاق .(٩٥)

الجماعة المعطاة تتماثل ومهمة المثقف لا الشمولى أو الكونى ، فى حين أن الجماعة النقدية تتناسب ومهمات المثقف الجديد أو الخصوصى ، من حيث هو مثقف ، ناقد يسمح بظهور إمكانيات جديدة ، وفى هذا السياق يسمح بظهور ذاتية جديدة أوخاصة . وذلك ما فعلـه فوكو بطبيعة الحال عنـدما كـتب تاريخ الـذاتيات وهـو ما يتناسب والجماعة النقدية كجماعة حرية ، باعتبارها تشكل استمرارا للأخلاق القديمة أو لفنون الوجود القديمة .

إن الحرية بالنسبة لفوكو، ليست جوهرا وإنما ممارسة تتعلق بفردانية تاريخية لذا وجب تنمية أشكال جديدة من الفردانية تتنافى وأشكال التماثل أوالتقليد وتقيم أشكالا من الاختلاف والتعدد والتفتح.وإن الحرية كممارسة يجعلها تجربة ، لذلك يمكن الحديث عن تجارب حرة كما يمكن الحديث عن تجارب القهر والخضوع والإقصاء ، وبهذا المعنى لا يمكن القول أن الحرية حالة نهائية، ولكنها شرط للعمل المتضمن الفكر والفعل واكتشاف الذات ، وهى ليست نهاية السلطة ، بل حدها ، لكى تمارس مادامت تقوم بين ذوات فاعلة ، لذلك فإن شرط الحرية هو تحققها وهى ليست مضمونة أو لا شىء يضمنها ، فحرية الناس لم تكن أبدا مضمونة بواسطة القوانين أو المؤسسات الخاصة بحفظها ، إن الضمان الوحيد للحرية هو الحرية .(٩٦) إنها كذلك تقنية من تقنيات الذات، مادامت ممارسة وتجربة ، وإمكانية للتحرر وتحقيق الاختلاف ، لذا فهى تتنوع بتنوع مختلف التقنيات ، التى يبدعها الأفراد ، حسب تاريخهم، وحاجتهم للتحرر.

جـ - بين الإنسان والحقيقة : سبق وأن بينا بعض صفات الحقيقة فى الفصل الثالث ، المحور الثانى ، من هذا البحث ، وقلنا أن الحقيقة ترتبط في فلسفة فوكو بما يسميه

---

(٩٥) John Rajchman, **Erotique De La Vérité**, Op-Cit, p.131.
(٩٦) Ibid p.144.

بإرادة الحقيقة ، والسلطة وبتاريخ للحقيقة ، وأن الحقيقة شكل من أشكال السلطة .[٩٧] ولها علاقة مباشرة بالسلطة ، يقول في **إرادة المعرفة** : (الحقيقة لا علاقة لها بالسلطة ، إنما تربطها علاقة قرابة أصلية بالحرية ، هذه موضوعات تقليدية في الفلسفة، ينبغي أن يتفحصها "تاريخ سياسي للحقيقة" مثبتا أن الحقيقة ليست حرة بطبيعتها وأن الخطأ ليس عبدا ، لكن إنتاج الحقيقة مخترق بكامله بعلاقات سلطوية . والاعتراف مثال على ذلك .)[٩٨]

على هذا الأساس الفلسفي الجديد ، المخالف للطرح الفلسفي القديم أو التقليدي يرى فوكو ، أن المسألة الأساسية في الفلسفة ، هي سياسة الحقيقة .[٩٩] لذلك يقترح كتابة تاريخ الحقيقة ، أو التاريخ السياسي للحقيقة ، أو الاقتصاد السياسي للحقيقة ، أوتاريخ ألعاب الحقيقة .

ذلك أن الحقيقة ، في نظره ، لها علاقة خاصة ، في تاريخ الغرب ، بالسلطة ولا يمكن فصلها عنها ، لذا وجب كتابة مختلف ألعاب الحقيقة ، والمقصود بألعاب الحقيقة، هي : (مجموعة القواعد المنتجة للحقيقة ، أو مجموعة من الإجراءات التي تؤدي إلى مجموعة من النتائج ، والتي يمكن اعتبارها ، بالإعتماد على تلك القواعد والإجراءات ، بأنها مقبولة أو غير مقبولة ، رابحة أو خاسرة .)[١٠٠]

إن دراسة تاريخ هذه الألعاب ، تبين مختلف العلاقات التي تقيمها الحقيقة بالسلطة أو السلطة بالحقيقة ، لذلك يرى فوكو أنه من غير الممكن الحديث عن الحقيقة ، وإنما عن إرادة الحقيقة .[١٠١] وهي بهذا المعنى ، تكون مبدأ للقسمة بين مختلف المنطوقات ، كما يترتب عن هذا الفهم، أنه من غير الممكن الحديث عن حقيقة شاملة أو كلية ، وإنما عن أنساق فكرية خاصة ، لذلك، يمكن القول ، من هذه الناحية ، أن فلسفته نسبية وشكية .[١٠٢]

---

(٩٧) Michel Foucault, **Du Pouvoir**, Op-Cit, p.68.
(٩٨) ميشال فوكو، **إرادة المعرفة** ، ص. ٧٤ .
(٩٩) Michel Foucault, **Non Au Sexe Roi**, Op-Cit, p.95.
(١٠٠) Michel Foucault, **L'Ethique De Souci De Soi Comme Pratique De Liberté**, p.112.
(١٠١) Michel Foucault, **Philosophie Et Vérité**, In, (D.275) p.04
(١٠٢) François Ewald, **La Fin D'Un Monde**, In, Magazine Litteraire, N°207, 1984, p.33.

وعلى هذا الأساس من الفهم للحقيقة ، لا يمكن الحديث في نظر فوكو ، عن حقيقة الخطاب القائم على النسقية والانسجام أو التطابق ، بل أن حقيقة الخطاب، تعود إلى إمكانيات استعماله ، وقدرته على الظهور، أو بتعبير آخر ، حقيقته تعود إلى مختلف وظائفه .(١٠٣)

يرى ميشال فوكو ، أننا نعيش في مجتمع ، يذهب في جزئه الأكبر ، إلى الحقيقة بمعنى ينتج ويوزع خطابات لها وظيفة الحقيقة والسلطة ، وأن إقامة الخطاب الحقيقي ، والذي يتغير دائما ، هو من المشكلات الأساسية في الغرب ، لذا فإن كتابة تاريخ للحقيقة ، وللسلطة الخاصة بالخطاب المقبول على أنه حقيقي ، هو ما يجب إقامته .(١٠٤)

الحقيقة لا تنفصل فقط عن السلطة ، بل كذلك عن اللغة والخطاب ، يظهر هذا في فعل الحقيقة "La Veridiction" ، كما تبينه مختلف الممارسات الرهبانية ، وخاصة عندما اكتشف حقل الذاتية بواسطة الاعتراف .(١٠٥) والاعتراف هو شكل من أشكال قول الحقيقة الذي بينا بعض خصائصه ، اهتم فوكو ، بقول الحقيقة من خلال الاعتراف ، هذا الاهتمام الذي يرجع أساسا إلى ضرورة إعادة صفة الحدث إلى القول .(١٠٦)

د - بين الإنسان وقول الحق : إن الاهتمام بالقول كحدث، وخاصة بقول الحقيقة ، يشترط العلاقة بين الحرية والحقيقة ، وهو ما تبينه دراسته الأخيرة ، عن شخصية "سقراط" وتأويله لحادث الموت ، مقارنة بتأويل "نيتشه" و"دوميزيل" .

إن قول الحقيقة ، أو ممارسة قول الحقيقة "Parrhesia" ، تؤدي حتما إلى الاهتمام بالذات وإلى حقيقة الذات ، وهو ما يقيم العلاقة بين الفيلسوف والاهتمام بالحقيقة ، وهو ما يدل عليه موت "سقراط"، ومحاكمة "سقراط" قائمة أساسا على خطر حقيقي ، هو نسيان الذات . لذلك يرى فوكو ، أن الاهتمام بالذات أو نسيان الذات ، يحددان الخط الذي يقسم بين نمط الحقيقة في الفلسفة والسياسة والمحاكمة تبين أن هنالك قطيعة بين قول الحق في السياسة وفي الفلسفة .

---

(١٠٣) Michel Foucault **Du Pouvoir**, p.16.

(١٠٤) Michel Foucault, **Non Au Sexe Roi**, p.95.

(١٠٥) Michel Foucault, **Mal Faire, Dire Vrai**, Op-Cit, p.171.

(١٠٦) Katharina Von Bullow, **L'Art De Dire** Vrai,In,**Magazine** Litteraire, N°207,1984,p . 34 .

والفلسفة ، كرسالة إيجابية، تفرض إقامة علاقة حقيقة مع الذات ، أو نمط من فعل الحقيقة "Véridiction" يؤدى إلى اهتمام بالذات وإلى ممارسة قول الحق ، الذى يحمل خطر الموت . وإن موت "سقراط"، يبين علاقة الفيلسوف بقول الحق ، والمخاطر التى يحملها هـذا القول ، وخاصة خطر الموت ، من هنا ناقش عبارة "سقراط" : (لا تتهاونوا أو لا تهملوا !) عكس العبارة التى ناقشها "نيتشه" و"دوميزيل" وهى : (لا تنسوا !) . إن عبارة "لا تهملوا" لها علاقة بالاهتمام بالذات ، وإن ما يريد تذكيره "سقراط"، هو علاقتنا بالحقيقة ، وهو بموته يحقق إلى الحد النهائى ، الرسالة الفلسفية ، وذلك بقوله الحقيقة ، ورفضه الهروب ، وهذا يعنى أن الحقيقة مكلفة ، ذات ثمن ، وتحمل مخاطر .(١٠٧) وأن هنالك علاقة متعدية بين الخطاب الحر والخطاب النقدى ، وهو ما تعكسه دروسه عن "قول الحق" . ومن هنا يمكن الحديث عن إمكانية تأسيس لحرية الخطاب ، عند فوكو، وإن كان لا يقول لنا كيف يمكن ذلك ، لكن المؤكد هو أن الحقيقة والحرية وقول الحق، مسائل متلازمة فى فعل التفلسف ، وموضوعات مترابطة فى كل فلسفة نقدية ، تتخذ من الحاضر موضوعا للتشخيص ، وهو ما يجعلنا نقول مع "رايجسمان" بأن فوكو أسس لنوع من الخطاب الفلسفى النقدى والحر .(١٠٨)

إن هذا التأسيس ، هو الذى نلمحه فى عبارته التى حملتها تصريحاته الأخيرة ، وهو ما تلخصه عبارة الأنطولوجيا التاريخية ، فماذا تعنى هذه العبارة ، وماهو مضمونها ، ومختلف علاقاتها بأبحاث الفيلسوف ؟ ذلك ما سنحاول مناقشته فى المحور الموالى من هذا الفصل .

---

(١٠٧) Eliane Allo,**Les Derniers Paroles Du Philosophe,In, Actes De La Recherche En Sciences Sociales**, No 61,1986.

لقد قمنا بتلخيص أهم الأفكار الواردة فى هذا النص .

(١٠٨) John Rajchman, **Erotique De la Vérité**, Op-Cit, p.168.

المحور الثالث - خطاب الانطولوجيا التاريخية :

أولا - مفهوم الأنطولوجيا التاريخية : نعنى بخطاب الأنطولوجيا التاريخية، مختلف المفاهيم المشكلة لها ، والخصائص التى تميزها وسنقوم فى البداية بتحليل عبارة « الأنطولوجيا التاريخية » ثم أهم خصائصها ، وأخيرا دورها وأهميتها .

يروى صديقه المؤرخ " بول فاين " أن فوكو فى درسه الأخير لسنة ١٩٨٣، بـ"الكوليج دو فرانس" ميز بين الفلسفة التحليلية للحقيقة عامة وبين فلسفة نقدية تتخذ شكل أنطولوجية ذاتنا ، أو أنطولوجية الحاضر .(١٠٩) هذه الأنطولوجيا ، سبق لفوكو أن عبر عنها لمحاوريه "دريفوس ورابينوف" بقوله : (هنالك ثلاث ميادين ممكنة من النسابيات . أولا أنطولوجيا تاريخية لذواتنا فى علاقتنا مع الحقيقة ، تتيح لنا أن نكون أنفسنا كخالقى معرفة ، ثم أنطولوجيا تاريخية لذواتنا فى علاقتنا بميدان سلطوى حيث نكون أنفسنا كذوات تؤثر فى الآخرين ، وأخيرا ، أنطولوجيا تاريخية لعلاقتنا مع الأخلاق تتيح لنا أن نكون أنفسنا كذوات أخلاقية .)(١١٠)

من الواضح أن هذه الأنطولوجيا ، هى مجمل الموضوعات التى درسها الفيلسوف ، وإن كان ينسبها إلى الجنيالوجيا ، وهى الطريقة التى عدل بها ، بعض مناحى الأركيولوجيا . هذه الأنطولوجيا ، يعبر عنها كذلك فى كتابه **استعمال اللذات** بصيغة مغايرة ، هى صيغة تاريخ الحقيقة ، ويرى أنه بعد التساؤل عن أشكال الممارسات الخطابية التى تتمفصل عن المعرفة ، تساءل عن أشكال الممارسات غير الخطابية التى تتمفصل عن السلطة، وأخيرا تساءل عن : (أشكال وصيغ العلاقة بالذات التى ينشئها الفرد ويدرك نفسه عبرها كذات .)(١١١)

هذه الموضوعات تدخل فى إطار تاريخ الحقيقة ، أو بالتدقيق ، وحسب تعبيره ، تدخل فى إطار ألعاب الحقيقة ، يقول : (فبعد دراسة ألعاب الحقيقة بعضها بالنسبة لبعضها الآخر - حسب نموذج عدد من العلوم التجريبية فى القرنين السابع عشر

---

(١٠٩) Paul Veyne, Le Dernier Foucault Et Sa Morale, Op-Cit, p.934.

(١١٠) ميشال فوكو، **حول نسابية الأخلاق : لمحة عن العمل الجارى، فى، فوكو، مسيرة فلسفية** ، ص.٢٠٩.

(١١١) ميشال فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ص. ٢٠٩.

والثامن عشر - ومن ثم بعد دراسة ألعاب الحقيقة بالنسبة إلى علاقات السلطة ، حسب نموذج الممارسات العقابية ، كان يبدو وأن هناك عملا آخر يفرض نفسه وهو : دراسة ألعاب الحقيقة فى علاقة الذات بذاتها بناء ذات النفس باعتبارها ذاتا ، وذلك باعتماد ما يمكن تسميته بـ"تاريخ إنسان الرغبة" كحيز مرجعي وكحقل بحث .)(١١٢)

إن هذه التحديدات الأولية ، رغم التعابير المختلفة ، تجد فى عبارة الأنطولوجيا التاريخية - مع ما فيها من مفارقة - خلاصتها ، ذلك أن مختلف الموضوعات التى درسها ، سواء المعرفية منها أو السياسية أو الأخلاقية ، هى موضوعات وجودية أوأنطولوجية باعتبارها تجارب ، - كما سنبين ذلك - ولكونها مدروسة من الناحية التاريخية ، على أن نفهم من التاريخية ما سبق أن بيناه فى المحور الأول من هذا الفصل ، وبذلك تكون الفلسفة عند فوكو ، هى الأنطولوجيا التاريخية ، باعتبارها دراسة تاريخية لتجارب، ذات طابع أنطولوجى ، ولعل مفهوم المشكلية يعد مفهوما مناسبا ، إذ يبين هذين البعدين فى فلسفة فوكو وتلازمهما .

يعرف فوكو ميدان وطريقة بحثه ، فى هذا النص الهام من مقدمة استعمال اللذات بقوله : (فلا نقوم بتحليل السلوكيات ولا الأفكار ، ليس المجتمعات ولا "إيديولوجياتها"، ولكن بتحليل المشكليات التى تعطى الكينونة من خلالها ذاتها من حيث هى قادرة ، وينبغى عليها أن تكون مفكرا بها [ومن خلال] الممارسات التى تتشكل هى انطلاقا منها. إذ يسمح البعد الأركيولوجى للتحليل بتحليل الأشكال ذاتها للمشكلية ، [ويسمح] بعدها الجنيالوجى [بتحليل] تشكلها انطلاقا من الممارسات ومن تحولاتها .)(١١٣) إن هذا النص ، يبين بوضوح المشروع الفلسفى لفوكو ، سواء من ناحية الموضوعات أو من ناحية المنهج، كما يؤكد على الطابع التكاملى بين الطريقتين ، عكس ما صرح به لـ"دريفوس ورابينوف" . لذلك يمكن لنا القول - بالاعتماد على هذا النص وعلى النصوص التى أتينا على ذكرها - بأن الأنطولوجيا التاريخية تتميز بمجموعة من المميزات والخصائص ومنها:

---

(١١٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .
(١١٣) ميشال فوكو ، **استعمال اللذات** ، ص،ص.١٢ - ١٣ .

ثانيا - مميزات وخصائص الانطولوجيا التاريخية :

(أ) تتميز الأنطولوجيا التاريخية بموضوعاتها، وهى ، أولا المعرفة أوالممارسات الخطابية ، الذى يتشكل أساسا من جملة من المفاهيم ، مثل ، الأركيولوجيا ، المعرفة ، الإبستيمية ، القطيعة ، الوضعيات ، العلم، النظام ، الحقيقة ، وثانيا موضوع السلطة ، أو الممارسات غير الخطابية ، والذى يتشكل هو أيضا من المفاهيم ، مثل : السلطة ، السلطة الحيوية ، العلاقات ، علاقات القوى ، المقاومة ، الإستراتيجية ، الحكمانية ، الدولة الحكمانية ، وغيرها من المفاهيم التى حاولنا مناقشتها فى الفصل الرابع المحور الثانى ، وثالثا وأخيرا موضوع الذات ، من خلال مفهوم الجنس والجنسانية والاعتراف والأخلاق ومختلف تقنيات الوجود أو فنون الوجود ... إلخ .

(ب) تعتمد هذه الأنطولوجيا على طريقتين متكاملتين، هما الطريقة الأركيولوجية بمبادئها القائمة على الوصف ، ووصف أرشيف مرحلة تاريخية وذلك بالوقوف على التقرير والذاكرة والتنشيط والتملك ، أو على معايير مثل معيار التكوين والتحول والترابط ، أو مبادئ مثل الندرة والخارجية والتراكم ... والطريقة الجنيالوجية القائمة على التحليل والتأويل التاريخيين ، ودراسة التحول والتغير، والاهتمام بالسطح بدل العمق ، بالتكرار بدل التقدم وبالانقطاعات والفواصل بدل الاتصالات ...

(جـ) هذه الأنطولوجيا التاريخية التى تدرس مختلف موضوعاتها المعرفية والسياسية والأخلاقية ، بواسطة الطريقة الجنيالوجية ، تدرسها على أساس أنها خطابات ، أو آثار مكتوبة أو منطوقة، لذلك نقول أن الميدان الأساسى للأنطولوجية التاريخية ، هو الخطاب ، على أن لانفهم من الخطاب ما سبق لنا أن حللناه فى الفصل الثانى ، أى الخطاب كممارسة، تتشكل من منطوقات ، وتشكيلات خطابية وميادين خطابية فى التاريخ ، لذلك لا يمكن الحديث عن الأنطولوجيا كخطاب ، إلا فى إطار التاريخ وعليه نقول أنه إذا كان معظم الدارسين قد اهتموا ببعض موضوعات فوكو الفلسفية ، كالمعرفة أو السلطة أو الذات ، فإن مالم يهتموا به هو وضعية الخطاب إزاء هذه الموضوعات ، التى ليست مختلف الممارسات الخطابية أو غير الخطابية ، ومن هنا فرضيتنا القائلة بأن الخطاب يشكل فى فلسفة فوكو المفهوم المركزى ،

من خلاله يمكن أن نبين مختلف الموضوعات التي ناقشها فوكو ، كما يمكن لنا الحديث عن خطاب الأنطولوجيا التاريخية باعتباره فلسفة ، هذه الفلسفة التي تتميز عن غيرها من الفلسفات بكونها تركز على :

(أ) دراسة التجارب "Expériences" ، تجارب ثقافية إنسانية ، ولكن في بعدها الأنطولوجي ، وهكذا قدم لنا مجموعة من التجارب ، كتجربة الجنون والمرض واللغة والجريمة والجنس ، والمقصود بالتجربة هو ذلك : (الترابط في ثقافة ما بين ميادين المعرفة ونماذج المعيارية وأشكال الذاتية .)[114] لذلك فهي ، تتمتع بمكانة أساسية في الأنطولوجيا التاريخية ، إذ من الممكن دراسة ، كل الإنتاج الفكري لفوكو انطلاقا من هذا المفهوم ، الذي ميز عمل فوكو ، بدء من سنة ١٩٦١ تاريخ كتابه تجربة الجنون ، إلى غاية مختلف تجارب الجنس سنة ١٩٨٤ .[115]

(ب) هذه التجارب مدروسة على أساس أنها ممارسات تاريخية ، سواء كانت ممارسات خطابية أو غير خطابية ، لذلك يحتل مفهوم الممارسة في منهج فوكو ، مكانة مركزية ، رغم ما أثاره من جدل ونقاش .[116]

(جـ) من الناحية المنهجية، يتم التساؤل عن الممارسات ، من زاوية الوظائف التي تؤديها في التاريخ ، لذلك نقول إن طبيعة السؤال الفلسفي عند فوكو ، طبيعة كيفية ، وليس ماهوية ، طبيعة تقربه من الوضعية والبنيوية ، وخاصة أنها تقوم على رصد وتحليل مختلف العلاقات .

(د) إن العلاقات هي التي تجسدها جملة من المفاهيم المركزية في الأنطولوجيا التاريخية ، مثل مفهوم الإبستيمية والسلطة والمشكلية ، لذلك يمكن لنا

---

(١١٤) ميشال فوكو ، **إستعمال اللذات** ، ص. ٨ .

(١١٥) Pierre Machery, **Présentation, Foucault Roussel, Foucault**, in,Raymond Roussel, Op-Cit, p.08.

(١١٦) مفهوم الممارسة ، كان موضوع تأويل العديد من الدارسين منهم .

- Dominique Lecours, **Sur L'Archeologie et Le Savoir**, In, **La Pensée**, N°152, 1970
- Goël H, G.Rissaud, **L'Archeologie Des Indo-Européens,George Dumizil**, In, Esprit, N° 121 1986
- Colombel Janette, **Michel Foucault**,La clarté de La Mort Op-Cit, p.231 .

القول ، أن فوكو بالاعتماد على دراسة العلاقات ، اهتم أكثر بمسائل المكان على حساب الزمان ، وربما هذا يعود إلى علاقته بالبنيوية ، لذلك نقرأ له في دراسة عن المكان فكرة مفادها أن القرن التاسع عشر هو قرن الزمان والتاريخ ، أما القرن العشرين فهو قرن العلاقات والأمكنة ، كما يقوم بوصف لتاريخ المكان بدء من العصور الوسطى ، حيث يرى أن المكان فى العصر الوسيط نظام تراتبى وموضعى ، ومع "غاليلى" دخل مفهوم الامتداد كبعد جديد للمكان ، وكذلك مفهوم الترتيب القائم على العلاقات المجاورة، هذا التصور يتناسب ، فى نظره ، وطبيعة المكان في العصر الحديث والذى يتلاءم وطبيعة التقنية الحديثة، التى ترى فى المكان شكل علاقات الترتيب ، هذا من الناحية العلمية ، أما من الناحية الاجتماعية ، فيرى أن المكان لم يتخلص كلية من القداسة والتقديس، وهى صفة قديمة تعود إلى خصوصية بعض الأمكنة ، وهذا منذ العصر الوسيط ، لذلك تشهد تقسيمات مختلفة للأماكن كالمكان الخاص والعام ، والعائلى والاجتماعى ، والثقافى والعلمى ، والمكان الداخلى والخارجى ... (١١٧)

إن هذه الأهمية التي يتمتع بها المكان عند فوكو ، هو ما سبق وأن أشار إليها "دريفوس ورابينوف" وربطها بالبنيوية ، قائلين : (لا مناص من الإشارة إلى وجود تشابه شبه تام بين هذا الوصف للتنظيم المكانى ، وبين تحديد العناصر والتحولات والسلاسل التى أقرها البنيويون الفرنسيون كمبادئ عامة .)(١١٨)

وهذه الأهمية تتأكد عندما نطالع أهمية وصف الأمكنة في فلسفة فوكو، مثل وصف المحاجر والمعازل والمستشفيات والسجون والمدارس والثكنات ، وغيرها ، ومن دون شك فإن وصف المشتمل ، الذى ذكرناه فى الفصل الرابع دليل على هذه الأهمية والمكانة التى يحتلها المكان فى فلسفة فوكو .

---

(١١٧) Michel Foucault, **Des Espaces Autres, In, Architectures,Mouvement, Continuité**, N ^{O}5, 1984 p. 46.

(١١٨) دريفوس ورابينوف ، **فوكو ميشيل** ، **مسيرة فلسفية** ، مرجع سبق ذكره، ص.١٤٠.

(هـ) تتميز الأنطولوجيا التاريخية، بسؤالها عن القبلى التاريخى ، الذي يختلف من جهة عن السؤال الفلسفى المنطقى ، مثلما هو الحال عند "كانط" وعن السؤال التاريخى الوصفي من جهة أخرى، فالقبلى التاريخى هو ما يميز الطريقة الأركيولوجية - الجنيالوجية ، باعتبارها طريقة لا تبحث فى صحة الخطابات أودلالتها ، بل في شروط انبثاقها أو نمط وجودها ، والعلاقات التي تقيمها مع غيرها ، سواء الخطابات المعاصرة لها أو السابقة عنها أو اللاحقة بها .

والهدف من استعمال هذا اللفظ الهجين كما يقول فوكو ، هو : (أن القبلى ملزم بأن يصف المنطوقات فى تبعثرها ... وأن عليه باختصار، أن يدخل فى اعتباره أن الخطاب لا يكون له معنى أو حقيقة فقط ، بل هو أيضا ذو تاريخ ، وتاريخ نوعى ، يجعله لا يخضع لمعايير أو قوانين مصير غريب عنه.)[119]

إن إدخال البعد التاريخى ، فى تحليل الخطاب هو ما يميز طريقة فوكو مقارنة بالتأويل أو التحليل ، وهو ما يجعل من الأنطولوجيا التاريخية ، فلسفة تتكون من الموضوعات الفلسفية التى تشكل أى فلسفة من الفلسفات ، ونعنى بذلك أنها فلسفة لغوية ، مادامت اعتمدت على اللغة والخطاب ، لمناقشة مختلف موضوعاتها ، وفلسفة علوم ، مادامت قد ناقشت مشكلة المعرفة ، ومختلف الممارسات الخطابية ذات العلاقة بالمعرفة والعلم ، وفلسفة سياسية ، مادامت قد طرحت مفهوم السلطة ، كمفهوم بديل ، للتمثيل السياسى القائم على القانون أو الهياكل ، وهى أخيرا، فلسفة أخلاقية جمالية ، مادامت تحدد مختلف تجارب الذات، سواء من الناحية الأخلاقية أو الجمالية ، بواسطة مفاهيم جديدة كمفهوم المشكلية أو الجنسانية ، وتقنيات أو فنون العيش ، على هذا الأساس نستطيع القول أن الأنطولوجيا التاريخية بما تشكله من موضوعات وميادين ومناهج ، تعتبر توجها ثالثا فى الدراسات الفلسفية المعاصرة ، مقارنة بفلسفات التأويل ، أو فلسفات التحليل .

ولعل أهم شيء تنفرد به هذه الأنطولوجيا التاريخية هو استغلالها بمواد خارج الفلسفة ، وعلاقتها الخاصة بكل ما هو لا فلسفى ، سواء كان أدبا أو فنا أو علما أومؤسسات أو موضوعات ، كما أنها تنفرد بتلك المهمة التى تجمع فيها بين التاريخ

---

(١١٩) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ص. ١٢٢ .

ولكن ليس أى تاريخ ، وإنما بتاريخ الحاضر ، وبفلسفة، ولكن ليس أى فلسفة ، وإنما بالفلسفة كتشخيص للحاضر هذا الجمع يتجسد فى المهمة النقدية التى اضطلعت بها ، وفى تأكيدها على أهمية الاختلاف والتعدد ، وفى جعل الحاضر موضوعا للتفكير والنقد .

لذلك نقول أن الأنطولوجيا التاريخية خطاب لتحليل ونقد الحاضر ، لا برصده كما تفعل الصحافة الجارية ، ولكن دراسة مختلف علاقات المعرفة - السلطة ، أو أشكال التذويت والتوضيع ، لذا فإن الحاضر المقصود فى هذه الأنطولوجيا التاريخية يحمل ثلاثة أبعاد أساسية ، هى البعد الأركيولوجى الذى يجعل من المعرفة ومختلف الممارسات الخطابية والتشكيلات الخطابية ، حاضرة عبر الأرشيف ، وخصوصية الأرشيف ، هو الذى يمكن من التشخيص وتحقيق الإختلا ف.

وهنالك البعد الجنيالوجى، الحاضر فى مختلف علاقات السلطة أو الممارسات غير الخطابية ، عبر تحليل آليات المعرفة - السلطة، وأخيرا هنالك البعد - الذاتى من خلال تشخيص ممارسات الذات ، من موقع الاختلاف .(١٢٠)

وينجم من هذا ان الأنطولوجيا التاريخية ، فلسفة تاريخية ونسبية ، مادام مجالها هو التاريخ ، وأسئلتها فلسفية. يتضح هذا من خلال ما يمكن تسميته برسالتها، والتى عبر عنها فوكو بقوله : **(إن الفكر ليس ما يجعلنا نؤمن بما نفكر أو نرضى بما نفعل ، بل هو ما يجعلنا نطرح مشكلة ما نحن عليه بالذات . ليس عمل الفكر أن يدين الشر قد يسكن ماهو موجود ، بل أن يستشعر الخطر الذى يكمن فى كل ما هو مألوف ، وأن يجعل كل ماهو راسخ موضوع إشكال. "تفاؤل" الفكر ، إذا أردنا أن نستعمل هذه الكلمة هو أن يعترف أنه لا وجود للعصر الذهبى .)** (١٢١)

إن هذه الرسالة أو المهمة ، لا تتحقق دون إقرار مبدأ الاختلاف الذى يقره منهج دراسة الخطاب ، يقول فوكو : **(... يلجأ وصف الأرشيف إلى إبراز الآخر والخارج ، ولا يستند التشخيص من هذا القبيل فى البرهنة على إثبات هويتنا ، إلى ألاعيب التمييز والتفريق بل يبرهن أننا اختلاف وأن عقلنا هو اختلاف الخطابات ، وأن تاريخنا**

---

(١٢٠) André Scala, Notes Sur l'Actualite, Le Présent et l'Anthologie chez Foucault, in, Cahiers Philosophiques, N°13, 1991 . p.27.

(١٢١) ميشال فوكو ، **حول نسابية الأخلاق ، لمحة عن العمل الجارى** ، ص ٢٠٤. التشديد من عندنا.

هو اختلاف الأزمنة ، أنانا هو اختلاف الأقنعة . وأن الاختلاف ، هو أبعد ما يكون عن أصل منسي وخفي ، بل هو ذلك التبعثر الذي نحن عليه، أو الذي نقوم به .)(١٢٢)

إزاء هذا المبدأ الفلسفي ، والمنهجي على السواء ، كيف تكون علاقتنا نحن المختلفون تاريخا وثقافة ، عن هذه الفلسفة؟ وما هي الفائدة من وراء دراسة فلسفة لم تدعي يوما ، أنها درست ، موضوعا خارج الثقافة الغربية والتاريخ الغربي؟ وما جدوى البحث في فلسفة لا تعتبر نفسها لا نموذجا للتفكير ولا طريقة للتطبيق؟ قد لا تخلو دراسة عربية ، من هذه الأسئلة ، سواء بشكل صريح أو ضمني أو لنقل ، لا تخلو أي دراسة عربية للفكر الغربي من مثل هذه الأسئلة .

والأسباب كثيرة منها مشكلة التخلف ومشكلة التحديث ومشكلة العلاقة ذاتها ، والغاية ذاتها ... إلخ . ومن جهتنا ، فإننا لا ندعي القدرة - على الأقل في الوقت الحاضر - لتفكير كل هذه الأسئلة المشروعة ، ولا الإجابة عنها في هذه المحاولة ، ذلك أن هدفنا الذي سطرناه ، بسيط ومحدد ، في نفس الوقت ، إنه يحاول التقرب من فلسفة معاصرة معترف بدورها وأهميتها ، من أجل تعلم كيفية من كيفيات التفلسف .

ولعل فلسفة فوكو ، من هذه الناحية، تتميز بالغناء والثراء ، سواء من حيث طرائقها المختلفة وموضوعاتها المتعددة وأسئلتها المخالفة لنمط الأسئلة التقليدية ، أو للآفاق التي تفتحها ، أو للقيم التي تحاول تأكيدها ، وخاصة قيمة النقد والاختلاف .

وفي نظرنا ، فإن هذا يعد كافيا للبحث في هذه الفلسفة، لا بغرض الوصول إلى نتائج لم تسبق إليها الدراسات المختلفة ، وخاصة إذا علمنا أن فوكو أصبح موضوعا لكثير من الحلقات الدراسية والمراكز العلمية ، والملتقيات الفلسفية ، ولا اقتراح تأويل جديد لفلسفته . إن هدفنا كان مجرد اقتراح قراءة لمختلف نصوص الفيلسوف ، قراءة تتخذ من إشكالية فلسفية نقطة مركزية، لتحليل مختلف مناحي هذه الفلسفة ، وذلك بطريقة تاريخية وموضوعية، قدر المستطاع، دون الدخول في تصنيفات وتأويلات تجاوزها الزمن .

ولعله من هذه الزاوية ، تندرج العديد من البحوث والدراسات العربية ، وهو ما يطرح سؤالا آخر مشروعا ، وهو مكانة فوكو في الفكر العربي المعاصر . إن التساؤل ،

---

(١٢٢) ميشال فوكو ، **حفريات المعرفة** ، ص،ص، ١٢٥ - ١٢٦ ،التشديد من عندنا.

في نظرنا ، عن هذه المكانة، يعد خطوة نحو الإجابة عن تلك الأسئلة التى طرحناها سابقا ، ولعل أول مظهر من مظاهر الحضور الفكرى ، لفلسفة فوكو ، هو مختلف الترجمات التى تناولت إنتاجه الفكرى ، ومنها ترجمات "مركز الإنماء القومى " التى تأتى فى المرتبة الأولى من حيث الأهمية والفائدة ، إضافة إلى ترجمات فردية مستقلة لمختلف نصوص الفيلسوف . أما المظهر الثانى لهذا الحضور ، فهو الدراسات الأكاديمية والجامعية التى بحثت مناحى عديدة من فلسفته. والمظهر الثالث هى البحوث والمقالات والكتب التى تنشر هنا وهناك قصد التعريف بهذه الفلسفة .

والمظهر الرابع والأخير ، يتجلى فى محاولة استغلال وتوظيف مفاهيم هذه الفلسفة في دراسة التراث العربى أو الفكر العربى المعاصر، مثل محاولة "الجابرى" فى توظيف مفاهيم من مثل الإبستيمية والخطاب والسلطة الرعوية ، أو محاولة "أركون" فى استغلال مفهوم الإبستيمية ، ونظام الفكر، أو محاولة "إدوارد سعيد" لدراسة الإستشراق ، بالاعتماد على مفهوم الخطاب والممارسات الخطابية .

إن هذه المحاولات ، وكذلك الترجمات والدراسات الأكاديمية هى التى تعين مكانة فوكو ، فى الفكر العربى المعاصر، وتسمح فى نفس الوقت ، بالتساؤل عن مشروعية دراسة فوكو ، وإمكانية توظيف مفاهيم هذه الفلسفة، سواء فى دراسة التاريخ أو الحاضر ، من منظور نقدى مختلف ، هذه الإمكانية ، تبقى مشروعا للتفكير والمناقشة ، وربما للتحقيق والتطبيق ...



الخاتمة .

قائمة بالمصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .



الخاتمة:

تضمنت إشكاليتنا، التي حاولنا مناقشتها في هذا البحث، مجموعة من المستويات منها:

أولا: مستوى اللغة:

أ- لم يهتم الباحثون في فلسفة فوكو باللغة رغم أهميتها وعلاقتها بالخطاب، وهذا راجع في نظرنا إلى المكانة الهامشية التي احتلتها ضمن إنتاجه الفكري، وإلى بروز الخطاب في أعمال أساسية واحتلاله لمكانة الصدارة في أعماله.

ب- إن الخلفية التاريخية لتصور فوكو للغة هي مجموعة الشعراء والفنانين والفلاسفة من أمثال: "صاد" و"نرفال" و"هولدرلين" و"نيتشه"...إلخ، والذين لهم تصور خاص باللغة والأدب والفن.

جـ- الميزة الأساسية للغة عند فوكو هي الاختراق والتدمير، لذا فهي تشكل في نظره أداة للمقاومة.إن هذه الميزة لها علاقة بشخصية الفيلسوف وبتأويل معين للتاريخ الأدبي ولشخصيات أدبية خاصة، يعتبر "ريمون روسال" نموذجا لها .

د- للغة طابع وجودي سابق عن الإنسان من هنا خطرها وخطورة أن يفكِّرها الإنسان .

هـ- يعتبر كتاب **الكلمات والأشياء** خلاصة للنظرة الفلسفية والتتويج الفلسفي لها. يظهر هذا في علاقة اللغة بالتشابه في عصر النهضة وبالتصوير والخطاب في العصر الكلاسيكي وبالإنسان في العصر الحديث.

و- تعتبر شخصية "نيتشه" نموذجا لهذا التوجه الفلسفي الذي جمع بين اللغة والكينونة وذلك من خلال تفكيره الجذري للغة والإنسان، هذه المهمة التي يتخذها فوكو قاعدة ومنطلقا لتفكير اللغة.

ي- يعكس هذا التفكير في نظرنا مستويات ثلاثة هي: المستوى الذاتي والأدبي، والمستوى العلمي والتاريخي والمستوى الفلسفي، حيث ارتبطت اللغة بقضايا فلسفية، كالتناهي والكينونة والإنسان، وفي هذه النقطة ظهرت خصوصية ميشال فوكو مقارنة بـ"نيتشه" و"هيدجر" وبالتيارين التأويلي والتشكيلي، هذه الخصوصية قائمة على البحث الأركيولوجي في اللغة، وفي تجارب لغوية خاصة كتجربة الجنون والمرض.

إلا أن هذا التصور للغة لم يشكل إلا مرحلة فكرية من حياة الفيلسوف، ارتبط فيها بالأدب وبالنزعة البنيوية في بعض أطروحاتها، لينتقل إلى مستوى آخر من

التحليل هو مستوى الخطاب.

ثانيا - مستوى الخطاب:

حيث ناقشنا جملة من القضايا المتعلقة ببنية الخطاب وعناصره ومكانته ووظيفته وعلاقاته وأظهرنا جملة من الأفكار منها:

أ- حظي الخطاب بمكانة خاصة في الإنتاج الفكري لفوكو سواء من حيث الكم إذ خصه بمجموعة من الدراسات أهمها **أركيولوجيا المعرفة ونظام الخطاب**، أو من حيث التفكير إذ جعله،في نظرنا، مجالا للتحليل والدراسة الفلسفية.

ب- يتكون الخطاب من مجموعة من العناصر سماها ميشال فوكو بالمنطوقات أو الملفوظات، هذه المنطوقات هي أساس التشكيلات الخطابية في مقابل الفروع العلمية، والتي تشكل بدورها ميادين الخطاب وتكون محكومة بمنظومات التكوين والتحويل.

جـ- الخطاب والمنطوق والتشكيلة الخطابية يتنافى وما تعودنا على تسميته في إطار تاريخ الفكر بالنص والأثر والقضية والجملة والمجال العلمي، فهذه المفاهيم كلها، في نظر فوكو، لها علاقة بوهم الأفكار الإتصالية، وما يريد تأسيسه هو تاريخ القطائع والانفصالات، لذلك اعتمد على مفهوم الخطاب كحدث تاريخي فريد.

د- تحليل الخطاب لا علاقة له بالتحليل الألسني أو التحليل المنطقي، سواء من حيث المرجعية أو من حيث الهدف وميزته الأساسية أنه تحليل أركيولوجي جنيالوجي، يقوم على جملة من المبادئ والمعايير منها التقرير، الاحتفاظ، التملك، التكوين، التحويل، الترابط، الندرة، التراكم، الخارجية.

هـ- إن هذا التحليل وما يتميز به سمح بتأسيس مفهوم جديد للخطاب، يختلف ىن مفهوم القضية والجملة، وكشف عن بعد أساسي في الخطاب هو بعد السلطة أو لطة الخطاب، وفي نفس الوقت يبين الآليات التي تحكمه وتحد من سلطته، كآلية المنع رفض والقسمة وإرادة المعرفة وأشكال التملك والتمذهب...ولتحريره وجب اعتماد ض المبادئ كالخصوصية والقطيعة والخارجية...إلخ.

وبناء على هذه التحليلات نستطيع القول أن ميشال فوكو مع **أركيولوجيا المعرفة** **ام الخطاب** يكون قد أسس المبادئ الأولية لاتجاه جديد في الدراسات اللغوية ناريخية والفلسفية قائم على مفهوم معين للخطاب يتميز بالكلية والتمفصل، وهذا ، خلال شبكة العلاقات التي يقيمها مع موضوعات أساسية في الفلسفة والتاريخ على السواء، مثل المعرفة والسلطة والأخلاق.

ثالثا-مستوى العلاقات:

إن شمولية وتمفصل الخطاب تظهر في العلاقات التي يقيمها مع جملة من الموضوعات منها:

أ- علاقته بالمعرفة أو علاقته بالممارسات الخطابية الخاصة، حيث يهدف البحث الأركيولوجي في أساسه إلى الكشف عن الأرضية التي تقوم عليها المعارف في مختلف الحقب، أو بتعبير آخر الإبستيمية التي تحكم في حقبة زمنية معينة مجمل الخطابات المعرفية، وذلك بدراستها تزامنيا وفي إطار علاقاتها المختلفة، دون الإهتمام بتحولها وتطورها أو تقدمها، بل بالوقوف على لحظات الانفصال والقطيعة.

وعليه فإذا كانت القطيعة الأولى، قطيعة العصر الكلاسيكي مع عصر النهضة قد أقامت الخطاب، فإن القطيعة الثانية، قطيعة العصر الحديث مع العصر الكلاسيكي، قد أسست إمكانية ظهور الإنسان ولكن وفي نفس الوقت إمكانية اختفائه تحت ضغط العودة القوية والجديدة للغة. وعليه:

١- فإن الدراسة الأركيولوجية لمختلف الممارسات الخطابية قد سمحت بتأسيس خطاب معرفي يتشكل من مفاهيم أساسية كمفهوم الممارسة والتشكيلة الخطابية والإبستيمية، ويقيم جملة من العلاقات المتميزة مع المعرفة والإبستيمولوجيا وتاريخ العلوم، هذا التميز يبديه أو يظهره مفهوم الإبستيمية باعتباره نظاما فكريا.

٢- إن الموقف المعرفي لفوكو هو موقف الكثرة والتعدد والنسبية، موقف ينكر الذات العارفة، ويؤسس طريقة جديدة في دراسة التشكيلات الخطابية وتحليل المفاهيم، لذلك يتحدد العمل الفلسفي والمعرفي لفوكو، في نظرنا، بدراسة المفاهيم من حيث ظهورها وتحولها واختفائها، لذا فهو لا يؤسس نظريات بقدر ما يفتح آفاقا ومجالات بحث...وبذلك تكون الأركيولوجيا حقل بحث، موضوعها المعرفة ومنهجها وصف الممارسات الخطابية، وتحليل أنظمتها الإبستيمية، كما تؤسس منظورا نسبيا للمعرفة والحقيقة وتربطهما بإرادة المعرفة والسلطة.

٣- إن مفهوم المعرفة-السلطة من المفاهيم المركزية أو الأساسية الخاصة بتحليلات ميشال فوكو، والمختلفة عن الدراسات التي تناقش علاقة العلم بالسياسة أوعلاقة العقل بالهيمنة. يتحدد مفهوم المعرفة-السلطة بالجمع والربط بينهما لا بالفصل والتمييز كما هو عند الفلاسفة، وخاصة في المدرسة الماركسية أو في مدرسة فرانكفورت.

ب- علاقة الخطاب بالسلطة أو بالممارسات غير الخطابية وفيها بينّا جملة من المسائل منها:

١- يقوم مفهوم السلطة على علاقات القوى ضمن استراتيجيات مختلفة، لا تتجسد في مركز أو في مؤسسة أو في ذات، بل هي ممارسات مبعثرة ومنتشرة على الجسد الاجتماعي كله. إنها خصائص السلطة الحيوية التي تعمل على محوري التشريح السياسي للجسد والسياسة الحيوية للسكان، والتي تدعمت بمفهوم الحكم والحكمانية، وخصائص الدولة الرعوية.

٢ - علاقة بالخطاب، سواء في طريقة المعالجة، حيث يتناوب الوصف الأركيولوجي بالتحليل الجنيالوجي، أو على مستوى الخصائص مثل، الحدث والمادية والإستراتيجية والعلاقات والتبعثر والإنتاج والوضعية والموقعية والاختراق.

٣- علاقة بالمعرفة من خلال نماذج تاريخية كالقياس والتحقيق والامتحان.

٤- علاقة بالمجتمع أو بتصور معين للمجتمع قائم على الانضباط وسلطة المعيار والمراقبة.

٥- علاقة مع مهمات المثقف الجديد أو المتخصص أو الميداني والملتزم بالأطراف والهوامش والمناضل في ميدان عمله أو في محيطه الاجتماعي، سواء بتقديم أبحاث تاريخية أو تحاليل ميدانية، تعتبر أدوات صالحة للعمل والنضال.

جـ- علاقة الخطاب بالذات، من خلال خطاب الجنس والأخلاق والجمال، وفيها درسنا جملة من الأفكار، منها:

١- لا يمكن فصل الجنس عن مفهوم الذات وتشكلها وحقيقتها.

٢- ناقش ميشال فوكو هذه المسألة من الناحية التاريخية الجنيالوجية، وذلك بمساءلة كيفية تشكل الجنس في الخطاب وعبر مختلف الآليات المعرفية والسلطوية.

٣- لقد كان أهم عنصر ضمن تلك الآلية المشكلة لخطاب الجنس هو الاعتراف، فبواسطته نتعرف على الذات ونشكل خطابا عن الذات ونقيم معرفة عن الذات ونؤسس علاقات سلطوية حول الذات.

٤- إذا كان للسلوك الجنسي، علاقة بتشكل الذات، فإن له علاقة أخرى بأحد جوانب الذات، وهو الجانب الأخلاقي، وذلك بدراسة مختلف تقنيات الذات أومختلف فنون العيش في المرحلة اليونانية وبداية المرحلة الرومانية وعبر مواضيع الحمية والزواج والغلمان والحب والحكمة.

٥- إن هذا الطرح قائم على التمييز بين الأخلاق والسلوك، وما يهتم به فوكو هو الأخلاق كسلوك، أو الأخلاق التاريخية التي تخص مجتمعا معينا وموضوعات متمحورة حول المسألة الجنسية وما يتفرع عنها من اهتمام بالجسد ونظام الرغبة.

٦- كشف هذا التحليل على أخلاق يونانية ورومانية تتميز بالطابع الرجولي وتهدف إلى معرفة الذات وتشكلها كذات أخلاقية، والنتيجة التي يصل إليها التحليل هي أن السلوك الجنسي لم يتم النظر إليه من حيث المحظورات أوالمسموحات ، ولم يتم التفكير فيه كميدان أخلاقي وكطريقة لاستنباط المحظورات، بل إمكانية لإعداد جمالية للحياة وأسلوب للعيش أو فن للوجود.

٧- وعلى أساس تحليلات تاريخية وفلسفية، بلور ميشال فوكو مفهوما للذات اعتبرها شكلا غير ثابت، في كل حالة يقيم مع نفسه ومع غيره أشكالا مختلفة من العلاقات، وهذا ما يسمح بالقول بالتشكل التاريخي للذات عبر مختلف الممارسات والتجارب وعبر علاقات المعرفة والسلطة .

٨- إن مفهوم المشكلية أو المسألية هو المفهوم الذي يبين العلاقة بين الذات والخطاب ومختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية.

رابعا - مستوى المكانة: حيث بينا جملة من القضايا منها:

أ- المنطوق باعتباره ذرة الخطاب، يتماثل مع الجملة والقضية ويختلف عليهما، كما أن التحليل الخطابي يختلف عن التحليل اللغوي والمنطقي، فلا تعود مرجعية الخطاب إلى الذات أو إلى المؤسسة أو إلى الصدق التجريبي أو إلى قواعد البناء المنطقي أو البناء اللغوي وإنما إلى الممارسة والوظيفة، وإلى الممارسة الخطابية وغير الخطابية، على أن لانفهم العلاقة بين الممارسات على أساس السبب والنتيجة وإنما على أساس العلاقة التبادلية .

ب- ميدان الخطاب هو التاريخ على أن نفهم من التاريخ تصور فوكو القائم على الانفصال وعن كيفية ظهور المنطوقات وعن القبلي التاريخي للخطابات ومختلف الوظائف التاريخية للخطابات، وغيرها من الأفكار التي تقيم العلاقة بين التاريخ كميدان للتحليل والخطاب كموضوع للبحث، وهذا ما يشكل في نظرنا جدة المشروع الفلسفي لفوكو.

جـ- تظهر هذه الجدة في التمفصل القائم بين التاريخ والخطاب، وبين الأرشيف والمنهجية الأركيولوجية-الجنيالوجية التي لا تدرس الخطابات باعتبارها تحمل دلالات

متعددة، ولكن باعتبارها أحداثا ذات وظائف معينة، وإن المعنى إن وجب الحديث عن المعنى، ليس فيما تحمله من مقاصد مستترة، ولكن فيما تحمله من اختلاف يفصلها عن غيرها من المنطوقات الواقعية والمعاصرة لها.

د- إن خصوصية هذا التحليل، يكشف عن خصوصية الأسئلة الفلسفية المطروحة، سواء على مستوى الإنسان أو الحقيقة أو الحرية أو قول الحق وهو ما تلخصه عبارة الأنطولوجيا التاريخية.

هـ- تتضمن عبارة الأنطولوجيا التاريخية ممارسات خطابية ومعرفية، وممارسات غير خطابية أو سلطوية، وممارسات خطابية وغير خطابية تشكل الذات. كما تقوم هذه الأنطولوجيا على التحليل الأركيولوجي الجنيالوجي أو على الوصف والتحليل، أو بتعبير آخر، تقوم على وصف أرشيف مرحلة تاريخية وذلك بالوقوف على أشكال التقرير والذاكرة والتنشيط والتملك وعلى معايير مثل التكوين والتحول والترابط أو مبادئ مثل: *الندرة والخارجية والتراكم*...

و- هذه الأنطولوجيا التاريخية تتميز بدراستها لتجارب إنسانية خاصة باعتبارها ممارسات تاريخية لها جملة من الوظائف المعرفية والسياسية والأخلاقية.

ي- بناء على هذا التحليل نستطيع القول أن الموضوعات الأساسية التي تشكل فلسفة فوكو هي: المعرفة والسلطة والذات، ميدانها الخطاب ومنهجها التحليل الأركيولوجي-الجنيالوجي في بعده التاريخي والفلسفي.

وهكذا، يظهر لنا أن الموضوع المركزي في فلسفة فوكو ليس تلك التقسيمات بين الذات والآخر أو بين المعرفة والسلطة والأخلاق وإنما الخطاب في التاريخ.

الخطاب في التاريخ باعتباره طريقة لمعالجة جملة الموضوعات الفلسفية سواء اللغوية أو المعرفية أو السياسية، معالجة تاريخية . من هنا فإن مفهوم الخطاب يعد مدخلا ضروريا لقراءة فلسفة فوكو ومقاربة فلسفية صالحة لمناقشة وتحليل القضايا الفكرية والثقافية.

قائمة بالمصادر والمراجع

أولا : المصادر :

-القرآن الكريم.(برواية ورش عن الإمام نافع،موفم للنشر،الجزائر،١٩٩٤).

أ-كتب ميشيل فوكو بالعربية :

١- **الكلمات والأشياء** ، ترجمة مطاع صفدي، سالم يفوت ، بدرالدين عرودكي ، جورج أبي صالح ، كمال إسطفان ، مراجعة ، جورج زيناتي ، مطاع صفدى ، مركز الإنماء القومي. بيروت ١٩٩٠ .

٢- **حفريات المعرفة**،ترجمة، سالم يفوت، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦

٣- **نظام الخطاب**،ترجمة محمد سبيلا،دارالتنوير،بيروت،١٩٨٤ .

٤- **نظام الخطاب**، في، **جنيالوجيا المعرفة**،ترجمة أحمد السطاتي،عبدالسلام بنعبد العال، دار توبقال، الدارالبيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٨ .

٥- **المراقبة والمعاقبة**، ترجمة، علي مقلد، مراجعة وتقديم، مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي. بيروت، ١٩٩٠.

٦- **إرادة المعرفة**، ترجمة، جورج أبي صالح، مراجعة وتقديم،مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠ .

٧- **استعمال اللذات**، ترجمة، جورج أبي صالح،مراجعة، مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي. بيروت، ١٩٩١

٨- **الإنهمام بالذات**، ترجمة ، جورج ابي صالح ، مراجعة مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت،١٩٩٢ .

٩- **دروس**،ترجمة،محمد ميلاد، دار توبقال للنشر. الدار البيضاء ،المغرب، ط١. ١٩٩٤ .

ب- كتب ميشيل فوكو بالفرنسية :

1- **maladie mentale et personnalité,** ed. P.U.F, Paris, 1954

2- **Histoire de la folie a l'âge classique,** ed. Gallimard, Paris, 1972.

3- **Naissance de la clinique,** ed.Gallimard,Paris,1993.

4- **Raymond Roussel,** ed.Gallimard, Paris,1992.

5- **Les motsetles choses, une archéologie des sciences humaines,** ed. Gallimard, Paris, 1966.

6- **L'Archéologie du savoir,** ed, Gallimard, Paris, 1969.

7- **L'ordre du discours,** ed.Gallimard, Paris, 1971.

8- **Moi, Pierre Rivière, ayant égorgé, ma mère , ma soeur et mon frère,** ed. Gallimard-Julliard , Paris .1973.

9- **Surveiller et punir, Naissance de la prison,** ed. Gallimard, Paris,1975.

10- **La volonté du savoir, histoire de la sexualité,** tome 1, ed. Gallimard, Paris, 1976.

11- **Le désordre des familles, lettres de cachet des archives de la Bastille,** ed. Gallimard, Paris, 1982.

12- **L'usage des plaisirs, Histoire de la sexualité**, tome 2, ed. Gallimard , Paris, 1984.

13- **Le souci de soi,** Histoire de la sexualité, tome 3, ed. gallimard, Paris, 1984.

14- **Résumé des cours**, ed. Julliard, Paris,1989.

15- **Dits et Ecrits**, (1954-1988), 4 tomes, ed. Gallimard, Paris, 1994.

جـ - مقالات ميشيل فوكو بالعربية

١- **نيتشه ، الجنيالوجيا والتاريخ**، في ، **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة ، أحمد السطاتي، عبد السلام بنعبد العال، دار توبقال للنشر. الدار البيضاء، المغرب، ط١ ، ١٩٨٨ .

٢- **نيتشه، فرويد، ماركس**، في ، **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي، عبد السلام بنعبد العال، دار توبقال للنشر.الدار البيضاء، المغرب، ط ١. ١٩٨٨ .

٣- **نيتشه، فرويد، ماركس**، تعريب ،حاتم علامة، في، **دراسات عربية**، مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية، تصدر شهريا عن دار الطليعة. بيروت، لبنان، العدد ، ٤. السنة الخامسة والعشرون، شباط، فبراير،١٩٨٩ .

٤- **حفريات المعرفة**، في ، **جنيالوجيا المعرفة** ، ترجمة أحمد السطاتي، عبدالسلام بنعبد العال، دار توبقال للنشر.الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٨ .

٥- **مفهوم الأركيولوجيا**، ترجمة،الطاهر وعزيز ، في،**المناظرة** ، مجلة فصلية تعنى بالمفاهيم والمناهج ، العدد٤ ، السنة الثانية، ١٩٩١.

٦- **في السلطة**، في ، **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي، عبدالسلام بنعبد العال، دار توبقال للنشر.الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٨ .

٧- **الحقيقة والسلطة**، ترجمة،فريق المجلة،في، **الفكر العربي المعاصر**، مجلة فكرية مستقلة،تصدر عن، مركز الإنماء القومي. بيروت،باريس، العدد ١،١٩٨٠ .

٨- **الحقيقة والسلطة**، في ، **نظام الخطاب** ، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير.بيروت، ١٩٨٤ .

٩- **ما المؤلف ؟**، ترجمة،فريق المجلة،في، **الفكر العربي المعاصر**، مجلة فكرية مستقلة،تصدر عن، مركز الإنماء القومي. بيروت،باريس، العددان ٦ - ٧ ، ١٩٨٠ .

١٠- **حوار،فوكو مخترق حدود الفلسفة**،ترجمة، محمد ميلاد، في، **العرب والفكر العالمي**، مجلة تصدر عن مركز الإنماء القومي. بيروت،باريس، العدد ٩ ، ١٩٩٠ .

١١- **بحثان حول الفرد والسلطة**، في، **فوكو، مسيرة فلسفية**، تأليف، دريفوس ورابينوف، ترجمة، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، بدون تاريخ.

١٢- **حول نسابية الأخلاق، لمحة عن العمل الجاري** ، في ، **فوكو، مسيرة فلسفية**، تأليف، دريفوس ورابينوف، ترجمة، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي. بيروت، بدون تاريخ.

١٣- **ماهو عصر التنوير؟** ترجمة، يوسف الصديق، في ، **مجلة الكرمل**، العدد ١٢ . السنة ١٩٨٤ .

د-مقالات ومقدمات وحوارات ميشيل فوكو بالفرنسية والإنجليزية:

1- **Rousseau, juge de Jean-Jacques, in, Librairie Armand Colin**, Paris, 1962.

2-Le **"Non' du père-Hôlderline, in , Critique**, No 178, 1962

3- **Structuralisme et post-structuralisme** , in, **(D.61)** ,1983.

4- Entretien, in, La quinzaine littéraire, No 05 .1966.

5- Préface à la transgression, in, Critique, No195-196 .1963.

6- Débat sur le roman, in, Tel quel, No 17 , 1964.

7- La pensée du dehors , in, Critique, No 229, 1966.

8- La grammaire générale de Port Royal, in, Langage, No 07, 1967

9- Grammaire générale et linguistiques, in, Arnauld et Lancelot : Grammaire générale et raisonnée, ed. Republication,Poulet, 1969.

10- Linguistiques et Sciences Sociales, in, Revue Tunisienne des Sciences Sociales, No 19,1969.

11- Structuralisme et Analyse littéraire, in, Les cahiers de Tunisie, No 149-150,1989.

12- Entretien avec Paolo caruso, in, Mursia,Traduit par, Christian Lazzeri, 1969.

13- Entretien, in, (D.227)

14- Réponse à une question, in, Esprit, No 371, 1968.

15- Foucault explique son dernier livre, in, Magazine Littéraire, No 28,1969.

16- La philosophie structuraliste permet de diagnostiquer ce qui est aujourd'hui, in, La presse, (Tunis), 12 avril 1967.

17- La voix de son maître, in, (D.157),1975.

18- Mon corps, ce papier, ce feu, in, Paidiea, Septembre1971.

19- La vie: L'expérience et la science, in, Revue de Métaphysique et de Morale, No 01, 1988.

20- Vérité et pouvoir, in, l'ARC, No 70.

21- "L'Asile illimité", in, Le nouvel observateur, No 646, 1977.

22- Entretien, in, (D.227)

23- Discours et Vérité: Alexandre Koyré, La révolution astronomique, Copernic, Kepler, Borilli, in, La nouvelle revue française, No108 .1961.

24- Politique de l'habitat, in, (D309).

25- Folie et civilisation, in, Les Cahiers de Tunisie . Ns°149-150. 1989.

26- Histoire de la médicalisation, Conférence à Rio de Janeiro, 1974.

27- L'Evolution de la notion de "l'individu dangereux" dans la psychiatrie légale, in, (D25).

28- L'intellectuel et les pouvoirs, in, (D.176).

29- Les intellectuells et le pouvoir, in, l'ARC, No 49.

30- **Asile, sexualité, prisons'**, in, **(D.361)**

31- **Les jeux du pouvoir**, in, **Politique de la philosophie**, ed. Bernard Grasset, Paris,1976.

32- **Qu'appelle-t'on punir?**, in, **Punir**, No 01 à 03 , 1984.

33- **La gouvernementalité**, in, **Magazine littéraire**, No 269, 1989

34- **Omnes et Singulation: Vers une critique de la raison politique**, in, **Le débat**, No 41, 1986

35- **La phobie d'état**, in, **Libération**, du 30 juin au 1er juillet 1984

36- **Entretien**, in, **Cahiers du cinéma**, No 271, 1976.

37- **Réclusion et capitalisme (Table ronde)**, in, **Esprit**, No 413, 1972.

38- **A quoi rêvent les Iraniens?**, in, **Le nouvel observateur**, No 727, 1978

39- **L'esprit d'un monde sans esprit**, in, **Iran: Révolution au nom de dieu** ed. Seuil, Paris, 1979.

40- **Réponse à une lectrice iranienne**,in,**(D.94)**.

41- **Du pouvoir**, in, **(D.145)**

42- **Des questions sur le pouvoir**,in, **(D.200)**.

43- **Pouvoir et corps**, in, **(D.203)**.

44- **L'Intellectuel sert à rassembler les idées**, in, **(D.89)**.

45- **La politique, est la continuation de la guerre par d'autres moyens**, in, **(D.359)**.

46- **A Mon retour de vacances**, in, **(D.249)**

47- **Pouvoir et stratégie**, in, **Révoltes logiques**, No 04,1977

48- **L'anti-oedipe: une introduction à la vie fasciste**, in, Magazine Littéraire, No 257, 1989

49- **Entretien**, in, **Time**, du 04 Novembre1981.

50- **Le retour de la morale**, in, **Les nouvelles**, du 28 juin au 25 juillet 1984 .

51- **Mal faire, dire vrai, Fonctions de l'aveu en justice**, in, **(D.201)**

52- **Le vrai sexe**, in, **(D.181)**.

53- **Langage et littéraire**, Conférence a l'Université St-louis. Bruxelle

54- **L'obligation d'écrire**, in, **Arts**, No 980, 1964.

55- **La peinture photogénéque**, in, **Fromanger, Le désir est partout**, Jean-Bucher,1975

56- **Ce ci n'est pas une pipe**, in, **Les cahiers du chemin**, 15 janvier. 1966.

57- **Les mots et les images**, in, **Le nouvel observateur**, No154,1967 .

58- **Entretien, avec Paolo Caruso**, in, Fiera lietteraria, 26 septembre 1967

59- **L'écriture de soi**, in, **corps et écrit**, No 05, 1983.

60- **On ethics and politics**, in, **(D.250)**.

61- **Le souci de la vérité**, in, **Magazine littéraire**, No 207,1984.

62- **Entretien**, in, **London review of books**, 21 Mai au 30 juin 1981.

63- **L'ésthitique de l'existance, faire de sa vie uneoeuvre d'art**, in, **Le Monde**, du 15-16 juillet 1984.

64- **L'éthique du souci de soi comme pratique de la liberté**, in, **(D.48)**.

65- **Que fabrique donc les hommes ensemble**, in, **The advocat de Los Angeles**, 07 août 1984.

66- **Revenir à l'histoire**, in, **Représentation**, No 02,1991.

67- **Entretien sur l'édition des oeuvres de Nietzsche**, in, **Le Figaro Litteraire**, du 15 Sept.1966.

68- **L'age d'or de la lettre de cachet**, in, **(D.13)** .

69- **Hommage à Jean Hyppolite**, in, **Revue métaphysique et Morale**, No 02,1969.

70- **Interview**, in, **La presse de Tunisie**, du 12 Avril 1967

71- **Qu'est-ce que les lumières**, in, **Magazine Litteraire**, No 309, Avril 1984.

72- **Non au sexe roi**, in, **Le Nouvel Observateur**,No 644, 1977

73- **Le monde est grand asile**, in, **(D.358)**.

74- **Je percois l'intolérable**, in, **(D.336)**.

75- **Entretien**, in, **(D.200)** .

76- **Polémique, politique et problèmatisation**, in, **(D.250-01)**.

77- **A propos de Nietzsche, Habermas, Arendh**, in, **(D.250-08)**.

78- **Qu'est-ce que la critique?**, in, **(D.212)**.

79- **Philosophie et Vérité**, in, **(D.275)**

80- **Des espaces autres**, in, **Architectures, Mouvement, Continuité**, No 05, Octobre 1984.

81- **Theatrum philosophicum**, in, Critique, No 282, 1970 .

ثانيا-المراجع :

أ- كتب باللغة العربية :

١- الجابري محمد العابد ، **العقل السياسي العربي، (محدداته وتجلياته)**، مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٠ .

٢- التوسير لوي، **الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية**، ترجمة وتقديم، رضا الزواري، مطبعة النجاح

الجديد، الدار البيضاء، ١٩٨٩ .

٣- إسلام عزمي، **لودفيج فتجنشتين**، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.

٤- الكردي محمد علي، **نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو**، دار المعرفة الجامعية، بدون تاريخ.

٥- الكبسي محمد علي، **ميشيل فوكو، تكنولوجيا الخطاب، تكنولوجيا السلطة، تكنولوجيا السيطرة على الجسد**، دار سيراس للنشر، تونس، ١٩٩٢ .

٦- اركون محمد، **الفكر العربي**، ترجمة محمد العوا، ديوان المطبوعات الجزائرية، ١٩٨٢ .

٧- الشيخ محمد، **المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفرنسي المعاصر** ، دار الطليعة، بيروت، ط ١ . ١٩٩١.

٨- بارت رولان، **موت المؤلف**، في، **درس السيميولوجيا**، ترجمة، عبد السلام بنعبد العال، تقديم، عبد الفتاح كليطو، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط ٢ ، ١٩٨٦ .

٩- بدوي عبد الرحمن، **نيتشه**، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٥ ، ١٩٧٥ .

١٠- تشومسكي نعوم، **اللغة والعقل**، ترجمة، إبراهيم مذكور، و مصطفى خلال، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش،١٩٩٣ .

١١- جعفر عبد الوهاب، **البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو**، دار المعارف، ١٩٨٩ .

١٢- دريفوس أوبير، و ، رابينوف بول ، **ميشيل فوكو، مسيرة فلسفية**، ترجمة، جورج أبي صالح، مراجعة ، مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٣- دلوز جيل، **المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

١٤- دلوز جيل ، وغتاري فيليكس ، **ما هي الفلسفة** ، ترجمة ، جورج سعيد، دار عويدات، بيروت، باريس، ١٩٩٣ .

١٥- ديكارت رينيه، **التأملات في الفلسفة الأولى**، ترجمة عثمان امين، مكتبة الأنجلوالمصرية ١٩٥١ .

١٦- دي سوسير فردينان، **دروس في الألسنية العامة**، ترجمة ، محمد القرمادي، محمد الشاوش محمد عجينة، الدار العربية للكتاب ١٩٨٢ .

١٧- دياب محمد حافظ، **سيد قطب، الخطاب والإيديولوجية**، دار موفم للنشر، ١٩٩١.

١٨- سعيد إدوارد ، **الاستشراق ، (المعرفة، السلطة، الإنشاء)**، ترجمة ، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان،١٩٨٤ .

١٩- صلاح إسماعيل عبد الحق، **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد**، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣ .

٢٠- صفدي مطاع ، **نقد العقل الغربي ، الحداثة ما بعد الحداثة** ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ .

٢١- صفدي مطاع ، **مؤسسة الإنسان الانضباطي** ، مقدمة لكتاب ، **المراقبة والمعاقبة** ، تأليف ، ميشيل فوكو ، ترجمة ، على مقلد ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ .

٢٢- كيرزويل إديث ، **عصر البنيوية ، من ليفي شتراوس إلى فوكو** ، ترجمة ، جابرعصفور ، دار عيون ، ط ٢ ، ١٩٨٦ .

٢٣- لاكروا جان ، **دلالة الجنون في فكر ميشيل فوكو**، في، **نظام الخطاب**، ترجمة، محمد سبيلا، دار

التنوير. ١٩٨٤ .

٢٤- مجاهد عبد المنعم مجاهد ، **هيدجر راعي الوجود** ، دار الثقافة للنشر والتوزيع . القاهرة، ١٩٨٣ .

٢٥- مهران محمد ، **فلسفة برتراند راسل** ، دار المعارف . القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٩ .

٢٦- نيتشه فريدريك، **أصل الأخلاق وفصلها**، تعريب، حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان، ط ١ ، ١٩٨١ .

٢٧- هنري ليفي برنارد، **نسق فوكو**، في، **نظام الخطاب**، ترجمة، محمد سبيلا، دار التنوير ١٩٨٤ .

٢٨- وقيدى محمد ، **ماهي الإبستيمولوجيا** ؟ ، دار الحداثة . بيروت ، لبنانط ١ . ١٩٨٣ .

٢٩- ولد اباه السيد ، **التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو**، دار المنتخب العربي. بيروت، لبنان، ط ١ ، ١٩٩٤

٣٠- هيغل، **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر. بيروت، لبنان، ١٩٨٣ .

ب-كتب باللغة الفرنسية :

1- Bellour Raymond, **Le livre des autres**, ed.10-18, Paris ,1978

2-Bellour Raymond **Vers la fiction**, in, **Michel Foucault philosophe**, ed. Seuil, Paris ,1988.

3- Branckart, J, P, **Théories du langage, Une introduction critique**, ed. Pierre mardaga, Bruxelle,1977.

4- Colombel Jannette, **Michel Foucault, La clarté de la mort**, ed.Odile Jacob, Paris, 1984.

5- D'Allons Olivier Revault, **Michel Foucault, les mots contre les choses**, in, **Structuralisme et marxisme**,ed.10-18, Paris, 1970 .

6- Deleuze Gilles, **Foucault**, ed. Minuit, Paris ,1986.

7- Deleuze Gilles, **Dialogues**. Minuit, Paris, 1990.

8- Derrida Jacques, **L'écriture et la différence**, ed. Seuil, Paris, 1967.

9- Dosse Francois, **Histoire du structuralisme**, tomel, ed. La découverte, Paris, 1991.

10- Eribon Didier, **Michel Foucault 1926 -1982** , (ed.Flammation, Paris, 1991.

11- Ewald François, **Michel Foucault et la norme**, in, **Michel Foucault Philosophe**, ed. Seuil, Paris, 1988.

12- Ewald, Farge, Perrot, **Michel Foucault, une histoire de la vérité**, ed. Syros, Paris, 1985.

13-Frank Manfred, **Sur le concept du discours chez Foucault**, in, **Michel Foucault philosophe**, ed. Seuil, Paris, 1988.

14- Frank Manfred **Qu'est-ce que Le néo-structuralisme**, Traduit de l'Allemand, Par Christian Berner, ed. SERF, paris, 1990.

15- Ferry Luc & Renault Alain, **La pensée de 1968, essai sur L'anti Humanisme contemporain**, ed.Gallimard 1985 .

16- Giard Luc, **Michel Foucault, lire l'oeuvre**, ed. Jerôme millon et les auteurs, Grenoble,1992.

17- Glücksman André ,**Compte rendu des discusions,in, Michel Foucault Philosophe**, ed. Seuil, Paris, 1988.

18- Habermas Jürgen, **Leprésent pour cible**, in, **Michel Foucault, lécturecritique**, ed. Universitaires ,1989.

19- Hacking Jan, **L'amélioration de soi**, in, **Michel Foucault, lécture critique**, ed. Universitaires ,1989.

20- Jacob André, **Points de vue sur le langage**, ed. Klincksieck , Paris, 1969 .

21- La Croix Jean, **Panorama de la philosophie française contemporaine**, ed. P.U.F, Paris ,1968.

22- Levi-strauss Claude, **Triste Tropique**, ed. plon, Paris, 1955.

23- Levi - strauss Claude, **La pensée sauvage**, ed. Plon, Paris, 1962.

24- Levi - strauss Claude, **Race et histoire**, ed. Plon , Paris , 1953

25- Machery Pierre , **Présentation Foucault, Roussel, Foucault** , in , **Raymond Roussel** , Par Michel Foucault, ed Galimmard, Paris,1992.

26- Machado Roberto, **Archéologie et epistémologie**, In , **Michel Foucault Philosophe**, ed. Seuil , Paris , 1988.

27- Maingneneau Dominique, **Geneses du discours**, ed. Pierre Mardaga, Bruxelle, 1984.

28- Marietti k. Angèle, **Michel Foucault, Archéologie et généalogie**, ed. Librairie Générale Francaise, Paris,1985.

29- Miller Philipe , **Présentation**, in, **Discours, sexualité et pouvoir, initiation à Michel Foucault**, par Alain Cheridan , ed. Pierre Mardaga, Bruxelle , 1980.

30- Nietzsche Frederich, **Sur le monsenge et la vérité au sens extra morale**, in, **Points de vue sur le langage**, par, André Jacob, ed. Klincksieck , Paris, 1969

31- Pécheux Michel, **Analyse automatique du discours**, ed. Dunod, Paris, 1969

32- Poulain Jascques, **L'histoire de la Pragmatique et sa leçon philosophique** , ed .Peter Lang 1990.

33- Revel Judith, **Sur l'introduction à Binswinger** 1954, - in, **Michel Foucault,Lire l'Oeuvre**, ed. Jérôme millon et les auteurs, 1992.

34- Richard Michel & Jean François, **Penseurs pour aujourd'hui**, ed. Chronique , sociale, Lyon , 1985

35- Rajchman John, **L'éthique et l'oeuvre**, in, **Michel Foucault Philosophe**, ed. Seuil , Paris , 1989.

36- Rajchman john, **Erothique de la vérité**, ed .P.U.F , Paris, 1992.

37- Rorty Richard,**Foucault et l'épistémologie, In, Michel Foucault, Lecture Critique**, ed. Universitaires, Paris, 1989.

38- Sheridan Alain, **Discours, sexualite et pouvoir, Initiation à Michel Foucault**, ed. Pierre Mardaga, Bruxelle,1980.

39- Todorov Tzvetan , **Les genres de discours**, ed.Seuil, Paris , 1978.

40- Triki Fethi , **Les philosophes et la guerre**, ed. Bireni, 1985.

41- Viel Jean Parain, **Analyses Structurales et Idéologie structurale**, ed Priva, Paris, 1969.

42- Welzer **Micheal, La politique de Michel Foucault**, in, **Michel Foucault, léctures critiques**,ed. Universitaires, 1989.

43- Veyne Paul, **Foucault révolutionne l'histoire**, in, **Comment on écrit l'histoire**, ed. Seuil, Paris, 1978.

جـ - مقالات باللغة العربية :

١- أبو زيد أحمد ، **اعترافات بييروفيير ، الرجل الذي دخل التاريخ من باب الجريمة ، العربي** ، العدد ٢٨٨ ، ١٩٨٢ .

٢- الفجاري المختار ، **تأصيل الخطاب في الثقافة العربية ، الفكرالعربي المعاصر**، مركز الإنماء القومي ، العددان ١٠٠ - ١٠١ ، ١٩٩٣ .

٣- اقاية محمد نورالدين ، **المثقف والسلطة ، جدل الإقصاء والاعتراف ، الوحدة** ، العدد ١٠ ، ١٩٨٥ .

٤- التوسير لوى ، **الفلسفة سلاحا ثوريا** ، **دراسات عربية** ، العدد ٥ ، ١٩٧١ .

٥- العتيرى رجاء ، **الحقيقة عند اليونانيين القدامى وعند نيتشه ، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية**، العدد ٧ ، ١٩٨٨ .

٦- باليبار إتيان ، وماشري بيار، **الإبستيمولوجيا**، الفكر العربي المعاصر، ترجمة، فريق المجلة، العددان ٤ - ٥ - ١٩٨٠ .

٧- بغورة الزواوى ، **مفهوم البنية** ، **المناظرة** ، العدد ٥ - ١٩٩٢ .

٨ - حرب على ، **النقد الكانطي ، بحث في شروط الإمكان يتناسى شروط إمكانه، الفكر العربي المعاصر** ، مركز الإنماء القومى . العددان ١٠٠ -١٠١. ١٩٩٣ .

٩ - حجاز بسام ، **ميشيل فوكو ، صورة جديدة للمثقف العربي ، الفكر العربي المعاصر** العددان ٣٠ ، ٣١ ، ١٩٨٤ .

١٠- دلوز جيل ، **حوار (الفيلسوف المترحل ، علامات وأحداث)** ، ترجمة محمد ميلاد ، العرب والفكر العالمى . العددان ١٣ - ١٤ . ١٩٩١ .

١١- صالح هاشم ، **فيلسوف القاعة الثامنة** ، **الكرمل** ، العدد ١٢ ، ١٩٨٤ .

١٢- هابرماز يورغين ، **كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل** ، ترجمة ، جورج أبى صالح ، **العرب والفكر العالمى** ، مركز الإنماء القومى . العدد ١٧ - ١٨ ، ١٩٩٢ .

د - مقالات باللغة الفرنسية :

1- Allo Eliane, **Les dernières paroles du philosophe,** In, **Actes de la recherche en sciences sociales,** N°61, 1986.

2- Amiot Michel, **Le relativisme culturaliste de michel Foucault,** In, **Les temps modernes,** N°248, 1967.

3- Burgelini Pierre, **L'Archéologie du savoir,** In, **Esprit,** N°306, 1967.

4- Boullant Francois & Ocqueteau Frédéric, **Que faire du colloque de la C.F.D.T?,** In, **Actes,** N°54, 1986.

5- Cranstan Maurice, **Les périodes de Michel Foucault,** In, **Preuves,** Ns°209-210, 1968.

6- Cappalle & Gardin, **Discours du pouvoir et pouvoir (s) du discours,** in, **La Pensée,** N°209, 1980.

7- Cangulhem Georges, **Mort de l'homme ou épuisement du cogito,** In, **Critique,** N°242, 1967.

8- Corvez Maurice, **Le Structuralisme de Michel Foucault,** In, **Revue Thomiste,** N°49, 1968.

9- De Certeau Michel, **Les sciences humaines et la mort de l'homme,** In, **Etudes,** 1967.

10- Deleuze Gilles, **Interview,** In, **Le nouvel observateur,** N° du24 août 1986.

11- Dufrenne Mi, **La philosophie du néo-positivisme,** In, **Esprit,** N°360, 1967.

12- Ewald Francois, **Anatomie et corps politique,** In, **Critique,** N°343, 1975.

13- // // , **Foucault, Une pensée sans aveu,** In, **Magazine Litteraire,** Ns°127-128, Septembre 1977.

14- // // , **La fin d'un Monde,** In, **Magazine litteraire,** N°207, Mai 1984.

15- François Jean, **Aveu, vérité, justice et subjectivité autour d'un enseingement de Michel Foucault,** in, **(D.202).**

16- Gantier Dareley Michel, **Michel Foucault, La grammaire générale et nous (1),** In **Raison présente,** N°100, 1991.

17- Joly Henri, **Retour au grec,** In, **Le débat,** N°41, 1986, p, 100.

18- Geôl.h Grissaud, **L'archéologie des Indo-Européens, Georges Dumézil** in, **Esprit,** N°121, 1986.

19- Lecourt Dominique, **Sur l'archéologie du savoir,** In, **La pensée,** N°152, 1970.

20- Milhou Jacques, **Les mots et les choses,** In, **Cahiers du caummunisme,** N°02, 1968.

21- Machery Pierre, **Auxsourcesde "L'histoire de afolie", unerectification et ses limites,** In, **Critique,** Ns° 471-472, 1986.

22- Revel Judith, **Histoire d'une disparition,** In, **Débat,** N°79, 1974.

23- Schürman Runer, **Se constitue soi même comme sujet anarchique,** In, **Le études philosophiques,** N° 03, 1986.

24- Scala André, **Notes sur l'actualité,le présent et l'ontologie chez Foucault,** In, **Les cahiers de philosophie,** N° 13, 1991.

25- Shiguehiko Hasumi, **Foucault et Le 19ème Siecle,** in, **magazine Litteraire,** N°325, 1994.

26- Sluga Hans, **Foucault à Berkley, l'auteur et le discours, traduit par, Jean-François Robert,** In, **Critique,** Ns° 471-472. 1986.

27- Triki Boubaker Rachida, **L'exemplarité de la peinture dans l'oeuvre de Michel Foucault,** In, **Les Cahiers de Tunisie,** Ns° 149-150, 1989.

28- Triki Fethi, **Foucault et la philosophie ouverte,** in, **Les Cahiers de Tunisie,** Ns° 149-150, 1989.

29- Veyne paul, **Le dernier Foucault et sa Morale,** in, **Critique,** Ns° 471-472, 1986.

30- Von Bellou Katharine, **L'art de dire vrai,** in, **Magazine litteraire,** N° 207, 1984.

ثالثا – القواميس والموسوعات والأطروحات :

أ – القواميس والموسوعات باللغة العربية :

١- ابن منظور ، **لسان العرب** ، حققه عبد الله على الكبير ، محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلى ، دار المعارف . بدون تاريخ .

٢- حرب على ، **مادة مقال** ، **الموسوعة الفلسفية العربية** ، المجلد الأول ، معهد الإنماء العربى ، **ط ٠١** ، ١٩٨٦ .

٣- روزنتال م ، ويودين ب ، **الموسوعة الفلسفية** ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، **ط٠٣** ، ١٩٨١ .

٤ – صليبا جميل ، **المعجم الفلسفى** ، **بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية** ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ودار الكتاب المصرى ، القاهرة ، الجزء الأول . ١٩٧٨ .

٥ – طرابيشى جورج ، **معجم الفلاسفة** ، دار الطليعة . بيروت ، لبنان ، ط ٠١ . ١٩٧٨ .

٦ – غسان يعقوب ، مادة جنون ، **الموسوعة الفلسفية العربية** ، المجلج الأول ، معهد الإنماء القومى ، ط ٠١ ، ١٩٨٦ .

٧ – وهبة موسى ، **مادة الحقيقة والمفهوم** ، فى ، **الموسوعة الفلسفية العربية** ، المجلد الأول ، معهد الإنماء العربى ، ط ٠١ ، ١٩٨٦ .

ب - القواميس والموسوعات باللغة الفرنسية :

1- Dubois Jean et les autres, **Dictionnaire de Linguistique**, ed. Librairie larousse, Paris, 1973.

2- Galissam. R & Caste .D, **Dictionnaire de didactique des Langues Librairie,** ed. Hachette, Paris, 1976.

3- Jacob Andreé, **Encyclopédie Philosophique universelle, Les notions Philosophiques**, Tome 1, ed. P.U.F, Paris, 1990.

4- Huisman Denis, **Dictionnaire des Philosophes,** Tomes 1 et 2, ed. P.U.F, Paris, 1984.

5- Lalande andré, **Vocabulaire technique et critique de la philosophie,** ed. P.U.F, Paris, 1972.

- Todorov Tzvetan & Ducrot Oswald, **Dictionnaire encyclopédique des sciences dulangage,** ed. Seuil, Paris, 1972.

جـ - الأطروحات باللغة العربية :

١ - العيادى عبد العزيز ، **المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو** ، من خلال كتابه **إرادة المعرفة** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة فى البحث ، إشراف الدكتور فتحى التريكى ، جامعة تونس الأولى ، السنة الجامعية ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ .

٢ - بغورة الزواوى ، **المنهج البنيوى عند "ليفى ستروس" ، غودولييه ، صيباغ** ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، من إشراف ، الدكتور أحمد فؤاد كامل جاد ، جمعة قسنطينة ، السنة الجامعية ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ .

د - الأطروحات باللغة الفرنسية :

1- Laarissa Mohamed Mostefa, **Epistémé,** discours, pouvoir **chez Michel Foucault,** sous la direction de Jean Toussaint Desanti, Université de Paris, 1985-1986.

2- Machado Reberto, **Science et savoir, la trajection de l'archéologie de Michel Foucault,** sous la direction de jean Ladrière, Université de Louvain, 1987.

3- Revel Judith, Littérature **et philosophie dans l'oeuvre de Michel Foucault,** Mémoire de D.E.A, sous la direction de Marcel Gauchet, Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris, 1971.

4- Yqizh, **Discours chez Michel Foucault,** Mémoire de D.E.A, sous la direction de, Paule Monique vernus, Université de Provence, Aix-Marseille, 1988-89.

المحتويات



طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٨٩١ / ١٩٩٩

الترفيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 112 - 9)





المجلس الأعلى للثقافة

هذا الكتاب محاولة شاملة وجريئة لفهم ميشيل فوكو بشكل غير متجزئ، وهو مالم تتسم به الدراسات السابقة، على قلتها، حيث حاولت أن تفهم فوكو من خلال كتاب واحد له، فتركز على أحد الجوانب على حساب الآخر، أوتجمد فوكو فى مرحلة زمنية محددة، فتفقد أعماله الحيوية والتطور اللذين ميزاها، خاصة عندما ننظر إليها بشكل متكامل، وهو ما شوه عمله الأصلى.

ولعل هذا هو السبب عينه الذى جعلنا نرى تطبيقات عديدة ومتناقضة فى واقعنا العربى الثقافى من محيطه إلى خليجه، تدّعى كل منها الإحالة على فوكو، ولا يظهر فيها وقد تم تعريبه وتأميمه، بل وإقصاء حيوية وجدية أطروحاته فيصبح جامداً، بارداً، بل وتستخدم مقولاته فى تبرير وإثبات ما كان يعن للمفكر ذاته - قبل البحث - تماشياً مع أيديولوچيته السياسية أو الدينية.

